

أحمد بن حنبل

والمحنة

تأليف
ولتر.م ياتون

مراجعة:
محمود محمود

ترجمة:
عبد العزيز عبد الحق

دار الهدى

ولتر ملفيل باتون

أحمد بن حنبل والمحنة

ترجمه و تالیف علی
دعوتی نقوریه و نقلاهی
عبدالعزیز عبدالحق

ایم جی السجیة
محمود محمود

دارالسلام

هذا ترجمة كتاب

AHMED IBN HANBAL & THE MIHNA

A biography of the Imâm Including

An Account of the Mohammedan

Inquisition of the Mihna

218 — 234 A.H.

By

Walter Melville Patton

E. J. Brill

Leide — 1897

مقدمة

ان كتاب « أحمد بن حنبل والمحنة » بقلم المستشرق الأمريكى ولتر ملقيل پاتون من المؤلفات القديمة للمستشرقين الفرنجة التى تنتمى للقرن الماضى ، مضى على ظهوره أكثر من ستين عاماً ، وهو عبارة عن أطروحة افتتاحية تقدم بها صاحبها لنيل درجة العالمية (الدكتوراه) من كلية الفلسفة بجامعة هيدلبرج بألمانيا ، ونشرتها مطبعة ا . ج . بريل ، بليدن سنة ١٨٩٧ م ، وكان قد جذبنى لكتاب پاتون وحدثه الموضوعية التى تتناول بالدراسة التفصيلية حقبة قصيرة شائقة من التاريخ الاسلامى تجمع بين تطور المذاهب الاعتقادية والوقائع التاريخية . فأقدمت على ترجمته الى اللغة العربية منذ زمن ، بغية تقديمه للطبع ، حتى يتيسر للمشتغلين بالدراسات الاسلامية أن ينتفعوا به . بيد أنى لم أوفق فى طبعه ، وظل حبيساً فى أوراقى مدة طويلة ، وأخيراً قُدر له أن يرى النور ، بعد أن وافق قسم الترجمة بالادارة العامة للثقافة على أن يكون من بين المؤلفات التى يعنى بترجمتها ونشرها لتشجيع الحركة الفكرية والثقافية فى الشرق العربى

ولم يكن علمى بكتاب پاتون منذ زمن طويل يتجاوز عنوانه ، والسنة التى ظهر فيها ، والبلدة التى طُبِع بها ، وكنت أستقى هذه البيانات من أثبات المراجع التى يذيل بها المستشرقون الفرنجة دراساتهم الخاصة بتاريخ علم الكلام والفرق الاسلامية . كما كان يشير اليه بعض المُحدثين من أبناء العروبة فى مؤلفاتهم التى تتناول هذه الموضوعات ، مما كان يوحى لى بأن الكتاب لا يزال محتفظاً بقيمته العلمية . وحدث أثناء قيامى بترجمة كتاب العقيدة والشرعة فى الاسلام للمستشرق المجرى جولدسيهر أنى وجدت هذا المستشرق يَطْرُق كتاب « أحمد بن حنبل والمحنة »

ويثنى كثيراً على مؤلفه ، فشوقنى هذا الثناء والتقدير للاطلاع عليه ونظراً لأن طبعة هذا الكتاب كانت قد نفذت منذ زمن طويل ، فقد أخذت فى البحث عنه فى دور الكتب العامة . بيد أنى لم أجد فى دار الكتب المصرية بالقاهرة سوى مقدمته . وأخيراً عثرت على نسخة كاملة له فى مكتبة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، تفضلت باعارتى إياها ، وبعد قراءتها واستيعاب فصولها ، وجدت من الاعتبارات ما حملنى على القيام بترجمتها الى اللغة العربية ، على الرغم من أنه كان قد مضى عليها ، عندما اعتزمت ترجمتها ، ما يقرب من نصف قرن ، جئدت فى خلاله أبحاث كثيرة تمس الحنبلية من قريب أو بعيد . كما نشرت مخطوطات عديدة تزيد تاريخ الامام أحمد ومذهبه وضوحاً وجلاء

لم أعد احياء كتاب ياتون فى ثوب عربى جهداً ضائعاً ، اذ لايزال حائزاً لكثير من المزايا ، ومحتفظاً بقدر كبير من قيمته العلمية ، فاسمه لم يُغفل بعد ، كما ذكرت ، فى أثبات مراجع المستشرقين أو الباحثين من أبناء البلاد العربية والاسلامية . فقد ذكره المستشرق البلجيكي الأب لامنس فى مراجع كتابه : « الاسلام عقائده ونظمه » (طبع بالفرنسية فى بيروت سنة ١٩٢٦ م وأعيد طبعه مزيدياً ومنقحاً فى سنة ١٩٤١ م) ، وذكره المستشرق الهولندى فنسك فى كتابه : « العقيدة الاسلامية » (لندن سنة ١٩٣٢ م) ، واعتمد عليه المستشرق الاسكتلندى موتجومرى وات فى كتابه : « حرية الارادة والجبر فى الاسلام القديم » (لندن سنة ١٩٤٨ م) ، وأشار اليه المرحوم أحمد أمين فى الجزء الثالث من كتابه ضحى الاسلام (الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٩٣٦ م فى ص ١٧١ ، ١٨٠) . وأخيراً كان من المراجع التى رجع اليها شاب عربى هو زهدى حسن جار الله فى رسالة له عن المعتزلة تقدم بها لنيل درجة علمية من الجامعة الأمريكية ببيروت ونشرت بالقاهرة سنة ١٩٤٧ م

وقد اطلعت على مقال للمستشرق جولدتسيهر نشره فى المجلد الثانى

والخمسین من مجلة المستشرقین الألمانية (ص ١٥٥ : ١٦٠) سنة ١٨٩٨ م وكان خاصاً بنقد کتاب پاتون . وقد قال فيه . بأن هذا الكتاب ذو وحدة موضوعية مستفیضة حوت مراجعه من المخطوطات ما لم يتيسر لأحد من الباحثین أن ینتفع بها حتى ذلك الوقت . وقال فی موضع آخر بأن المؤلف أفلح بجهده ونفاذ بحثه العلمی فی أن یرج لنا صورة رائعة ملیئة بالحركة زاخرة بالقوة لحياة أحمد بن حنبل ومواقفه الكلامية تفوق فی روعتها ما كان فی متناول یدنا حتى الآن . ولكنه أخذ علیه بأن ما أورده من النصوص العربية التي انتخلها لیدل علی أن هذا المؤرخ المدقق لم یر حرجاً فی أن یضمن کتابه قصصاً دينياً . ثم ذکر جولدسيهر عدة ملاحظات وأخطاء تدارکنا ما یتصل منها بالترجمة العربية

وقد اعتمد پاتون فی اعداد بحثه هذا علی عدة مصادر عربية كانت لا تزال مخطوطة الى وقت ظهور رسالته . وأهمها حلیة الأولیاء لأبى نعیم الأصبهانی ، وطبقات الشافعية الكبرى للتاج السبکی ، وتاریخ بغداد للخطیب البغدادی ، وطبقات الحفاظ للذهبی ، وترجمة أحمد فی کتاب المقفی للمقریزی . كما رجع أيضاً لكتب أخرى مثل تهذیب الأسماء واللغات للنووی، والنجوم الزاهرة لابن تغری بردی، والمختصر فی أخبار البشر لأبى الفداء ، وتاریخ الخلفاء للسيوطی . وقد بذل جهداً مشكوراً فی الانتفاع بهذه المصادر واعطائنا صورة دقيقة ، الى حد ما ، لسيرة الامام أحمد ، تتخللها الأدوار التي مرت بها سياسة المحنة التي سار علیها الخلفاء العباسيون الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق ، الى أن رفعها المتوكل بعد عامین من صدر خلافته

أقول جهداً مشكوراً ، لأن المؤلف غریب عن الثقافة العربية ، وذلك علی الرغم من علمه باللغة العربية ، ومقدرته علی فهم المصادر المخطوطة التي رجع إليها وتعمقه فی موضوعه ، فضلاً عن أنه لم یکن لیتقمه الاعجاب بسيرة الامام أحمد وثباته علی مبدئه . ولكنی لا أعده من طبقة

شيوخ المستشرقين من أمثال نولدكه ودى خوى وجولدسيهر وكيتانى وهيرجرونيه وهوتسما وغيرهم ، ولا أظن أن جامعات الغرب فى النصف الثانى من القرن العشرين تنجب أندادا لهم . ومع ذلك فانا اذا قسنا مجهود الأستاذ پاتون فى هذا البحث بمجهود مماثل يقوم به أحد الباحثين العرب الحائزين على درجة علمية فى الثقافة العربية فى دراسة موضوع غريب عن الثقافة العربية ، أصوله ومصادره مكتوبة بلغات أعجمية يقتضى حذقها جهداً ومشقة كالدراسات المسيحية والبوذية والكونفوشية ، لحكمنا بأن الأستاذ پاتون جدير بأن يهنا على ما أصاب فى بحثه من نجاح وتوفيق

وقد حاولت أن أظفر بترجمة الأستاذ پاتون ، فلم يتيسر لى أن أعلم عنه الا أنه نال بعد درجة العالمية (الدكتوراه) فى الفلسفة التى أحرزها ببحثه هذا ، فى سيرة الامام أحمد وتاريخ المحنة ، درجة العالمية فى الالهيات ودرجة أستاذ فى الآداب ، ثم انه اشتغل أستاذاً لآداب العهد القديم والعهد الجديد وتاريخ الأديان . واشتغل مديراً لمكتبة كلية كارلتون بمدينة نورثفيلد بولاية منيسوتا بالولايات المتحدة الأمريكية . وقد كتب عدة مواد فى دائرة معارف الدين والأخلاق التى أشرف عليها هيستنجز ، وصدرت فى ادبره فى ١٣ مجلداً من سنة ١٩٠٨ م الى سنة ١٩٢٦ م . والمواد التى كتبها هى : مادة پير (أى عالم) فى المجلد العاشر من هذه الموسوعة المطبوع سنة ١٩١٨ م . كما كتب مادتى : الأولياء والشهداء فى الاسلام ، والشيعه فى المجلد الحادى عشر ، سنة ١٩٢٠ م ، ومادة السنة ، والانتحار فى الاسلام فى المجلد الثانى عشر سنة ١٩٢١ م . وقد اطلعت على هذه المواد ، فلم ألاحظ أن المؤلف قد اتسعت خبرته بالدراسات الاسلامية بعد انقضاء مدة تزيد على العشرين عاما من ظهور رسالته عن الامام أحمد والمحنة . كما عنيت بمادة السنة التى كتبها فى المجلد الأخير فى الموسوعة السابقة الذكر ، فوجدت أنه لم يأت بجديد فى موضوع المحنة أو سيرة الامام أحمد

ولنبداً بذكر ما نراه من المآخذ على رسالة الدكتور پاتون ، فنلاحظ أولاً أنه لم يستفد فائدة كاملة من المصادر العربية التي رجع إليها . ففى طبقات الحفاظ فى أعلام الطبقة الثامنة ، وأعلام الطبقة السابقة لها ، والتالية لها ، ممن ترجم لهم الذهبى ، أخبار وفيرة عن المحنة ، كان يستطيع المؤلف أن ينتفع بها فى بحثه . كما أنه اقتصر فى رجوعه الى كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادى على ترجمة الخطيب لأحمد بن حنبل ، مع أن هذا الكتاب يزخر بتراجم معاصرى أحمد من خلفاء وقضاة وعمال وقهلاء ومتصوفة ومتكلمين ، واستخلاص ما يتعلق بالمحنة فى تراجم معاصرى أحمد ، كان مما يوسع دائرة بحثه ويزوده بتفصيلات كثيرة تجعله أقدر على دراسة موضوعه

ويصدق هذا القول أيضاً على كتاب طبقات الشافعية الكبرى للتاج السبكى ، وعلى كتاب النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى . ففى الكتاب الأخير ذكر المؤلف من الوقائع ما يبين أن رفع المحنة لم يتم دفعة واحدة فى سنة ٢٣٤ هـ ، بل أن بعض المحبوسين لم يطلق سراحهم الا بعد هذا التاريخ بثلاث سنوات ، كما أن جثة أحمد بن نصر الخزاعى المصلوبة منذ أيام الوائق ، لم تدفع لذويه لدفنها الا فى سنة ٢٣٧ هـ ، ولم يحقق پاتون هذه الوقائع فى بحثه

واذا انتقلنا بعد ذلك الى المصادر العربية الأخرى التى لم يعتن پاتون بالرجوع إليها ودراستها ، نجد فى مقدمتها ذلك المؤلف الضخم للإمام أحمد وهو مسنده الذى توافر على اعداده طيلة حياته وعاونته فى ذلك ولده عبد الله . وقد اكتفى پاتون فى دراسته للمسند بالبحث القيم الذى قام به جولدتسيهر عن المسند ونشره فى المجلد الخمسين من مجلة المستشرقين الألمانية سنة ١٨٩٦ م (ص ٤٦٥ الى ص ٥٠٦) فكان فى اشاراته للمسند يشير لبحث جولدتسيهر ولا يشير الى المسند نفسه ، مما يدل على أنه لم يكلف نفسه غناء الرجوع اليه

ولعله قد بهره هذا البحث فظن أنه ليس في مقدوره أن يزيد عليه ،
مع أن جولدتسيهر على كثرة اشتغاله بالحديث الاسلامى لم يوضح لنا
توضيحاً كافياً في مقاله هذا ، لماذا لم ينعقد الاجماع على توثيق المسند
أسوة بالكتب الستة التى اعتمدها المسلمون من أهل السنة ، وهى
صحيح البخارى ومسلم والترمذى وسنن أبى داود وابن ماجة والنسائى .
وقد لاحظت أن المحدثين ممن يكتبون عن أحمد بن حنبل لا يكلفون
أنفسهم عناء دراسة مسنده ، ففى أسانيد الأحاديث التى اعتمدها أحمد
ما يبين منهجه فى الحديث ، ويحدد منزلته بين المشتغلين بالحديث ، اذا ما قورن
مسنده بكتب الحديث الأخرى

وقد نوه پاتون بقيمة كتب الطبقات كمصدر من المصادر التاريخية ، نظرا
لما تشتمل عليه من مادة تاريخية زاهرة ، قد لا نجد نظيرا لها فى الكتب
الخاصة بالتاريخ الاسلامى العام . وقد اعتمد فى بحثه فعلا على هذه
المؤلفات مثل تاريخ بغداد وطبقات الشافعية ، دون أن يحدد لنا مدى
توثيقه لها . ويلاحظ أن كتب الطبقات تذكر أحيانا من الوقائع التاريخية
ما لا نجد له أثرا فى كتب التاريخ العام ، كما أن مؤلفيها كثيرا
ما يتحمسون للأعلام الذين يترجمون لهم فلا يتحرون الدقة فيما يكتبونه ،
كما أن پاتون كان أولى به أن يرجع أولا الى الكتب المؤلفة فى طبقات
الحنابلة ، كتلك التى كتبها أبو يعنى الفراء وابن مفلح وابن رجب
والعيسى

ولم يحقق پاتون الرسائل الصغيرة المنسوبة للإمام أحمد والتى ذكر
ابن النديم عدداً منها فى كتاب الفهرست . وقد نشر بعضها بعد ظهور
كتاب پاتون ، وهى كتاب الصلاة ، وكتاب الرد على الجهمية والزنادقة ،
وكتاب السنة ، وكتاب الورع (نشر بالقاهرة سنة ١٣٤٠ هـ) ، ولعلها
لم تصل الى علمه أو لم تكن هناك مخطوطات من هذه الرسائل فى
مكتبات أوربا عندما كان يقوم باعداد بحثه . وينقص هذه الرسائل

تحقيق نسبتها للامام أحمد بمراجعة أصولها الخطية ، وما عليها من سماعات والنظر في مدى اتفاق أسلوبها مع أساليب القرن الثالث الهجرى مما يقضى به النقد الداخلى للمتن . فقد ظهر من الكتب المنحولة التى نسبت لأعلام هذا القرن ، كتاب الحيدة لعبد العزيز بن يحيى الكنانى المتوفى سنة ٢٤٠ هـ (وقد طبع فى مكة سنة ١٣٣٩ هـ) وكذلك كتاب الدين والدولة لعلى بن ربن الطبرى الذى قيل بأن الخليفة المتوكل اشترك مع المؤلف فى تأليفه (وقد نشره المستشرق الانجليزى منغانة بطبعة المقتطف فى القاهرة سنة ١٩٢٣ م)



يبد أن هذه المراجع كلها تمثل وجهة النظر السنية ، ولم يفكر باتون فى البحث عن مصدر يمثل وجهة نظر المعتزلة . ولم يكن قد عثر بعد على كتاب الانتصار للخياط المعتزلى، الذى نشره نيبرج فى القاهرة سنة ١٩٢٥ م. كما أن كتاب المنية والأمل لابن المرتضى المتوفى سنة ٨٤٠ هـ والمشتمل على تراجم أعلام الاعتزال ، نشر جانب منه فى حيدر أباد سنة ١٩٠٢ م . وكتاب العلم الشامخ للمقبلى المتوفى سنة ١١٠٨ هـ نشر بالقاهرة سنة ١٩١٢ م . وهناك آراء كثيرة للمعتزلة رد عليها الامام فخر الدين الرازى فى تفسيره المسمى مفاتيح الغيب الذى طبع بالقاهرة سنة ١٢٨٩ هـ . ولعل أهم مصدر اعتزالى يتعلق بالمحنة رسالة صغيرة للجاحظ يُظن أنها بقية من كتاب له يسمى : فضيلة المعتزلة. وهذه الرسالة جزء من الفصول المختارة التى جمعها عبيد الله بن حسان ونشرت على هامش طبعة قديمة لكتاب الكامل للمبرد ظهرت فى القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ . وهى تمثل وجهة نظر المعتزلة فى موضوع المحنة تمثيلا صادقا . فهى تنسب للامام أحمد ابن حنبل اقتطاعه عندما ناقشه أحمد بن أبى دواد قاضى القضاة . وتدافع عن الخليفة المعتصم فى امتحانه له ، وتؤيد مذهب المعتزلة فى القرآن . وهذه القطعة تعتبر وثيقة معاصرة نجت مما أتلفه أهل السنة من مؤلفات المعتزلة . ولم ينزلها الباحثون بعد منزلتها من الاعتبار مع أنها أوثق من

الرواية التي ذكرها اليعقوبى المتوفى سنة ٢٧٨ في تاريخه عن المحنة
والتي زعم فيها بأن الامام أحمد أجاب بأن القرآن مخلوق ، لأنها متأخرة
نسبياً عن رسالة الجاحظ الذي كان معاصراً لحوادث المحنة
وقد جاء في رسالة الجاحظ :

وبعد فنحن لم تكفّر الا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن الا أهل
التهمة . وليس كشف المتهم من التجسس ولا امتحان الظنين من هتك
الأستار . ولو كان كل كشف هتكاً وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضى
أهتك الناس لستر ، وأشد الناس كشفاً لعورة . والذين خالفوا فى العرش ،
انما أرادوا نفى التشبيه ، فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان ، انما
كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظاً . فان كانوا قد أصابوا ،
فلا سبيل عليهم ، وان كانوا قد أخطأوا ، فان خطأهم لا يتجاوز بهم الى
الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فبين
المذهبين أبين الفرق

وقد قال صاحبكم (أى الامام أحمد بن حنبل) للخليفة المعتصم ،
يوم جمع الفقهاء والمتكلمين ، والقضاة والمخلصين اعداراً وانذاراً :
امتحنتنى ، وأنت تعرف ما فى المحنة ، وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتنى
من بين جميع هذه الأمة . قال المعتصم : أخطأت بل كذبت ، وجدت
الخليفة قبلى قد حبسك وقيدك . ولو لم يكن حبسك على تهمة ، لأمضى
الحكم فيك ، ولو لم يَخَفْكَ على الاسلام ، ما عرض لك . فسؤالى
اياك عن نفسك ، ليس من المحنة ، ولا من طريق الاعتساف ، ولا من
طريق كشف العورة ، اذ كانت حالتك هذه الحال ، وسبيلك هذه
السبيل ، وقيل للمعتصم فى ذلك المجلس : ألا تبعث الى أصحابه حتى
يشهدوا اقراره ، ويعاينوا انقطاعه ، فينقض ذلك استبصارهم ، فلا
يمكنه جحد ما أقر به عندهم؟ فأبى أن يقبل ذلك ، وأنكره عليهم ، وقال :
لا أريد أن أوتى بقوم ، ان اتهمتهم مثرت فيهم بسيرتى فيهم ، وان بان
لى أمرهم ، أنفذت حكم الله فيهم ، وهم ، ما لم أوت بهم ، كسائر

الرعية ، وكغيرهم من عوام الأمة ، وما شئ أحب الئى من الستر ، ولا شئ أولى بى من الأناة والرفق



وما زال به رفيقا وعليه رقيقا ، ويقول : لأن أستحييك بحق ، أحب الى من أن أقتلك بحق . حتى رآه يعاند الحجة ويكذب صراحة عند الجواب ، وكان آخر ما عاند فيه ، وأنكر الحق وهو يراه ، أن أحمد ابن أبى دواد ، قال له : أليس لاشئ الا قديم أو حديث ؟ قال : نعم ، قال : أو ليس القرآن شيئا ؟ قال : نعم . قال : أو ليس لا قديم الا الله ؟ قال : نعم . قال : فالقرآن اذا حديث ؟ قال : ليس أنا متكلم . وكذلك كان يصنع فى جميع مسائله ، حتى كان يجيبه فى كل ما سأل عنه ، حتى اذا بلغ المنتخك ، والموضع الذى ان قال فيه كلمة واحدة ، برىء منه أصحابه ، قال : ليس أنا متكلم . فلا هو قال فى أول الأمر : لا علم لى بالكلام ، ولا هو حين تكلم ، فبلغ موضع ظهور الحجة ، خضع للحق ، فمقتته الخليفة ، وقال عند ذلك : أف لهذا الجاهل مرة ، والمعاند مرة

وأما الموضع الذى فيه واجه الخليفة بالكذب ، والجماعة بالقحة ، وقلة الاكتراث ، وشدة التصميم ، فهو حين قال له أحمد بن أبى دواد : أتزعم أن الله تعالى رب القرآن ؟ قال : لو سمعت أحدا يقول ذلك ، لتلت . قال : أفما سمعت ذلك قط من خالف ولا سائل ، ولا من قاص ، ولا فى شعر ، ولا فى حديث ؟ ... قال : فعرف الخليفة كذبه عند المسألة ، كما عرف عناده عند الحجة . وأحمد بن أبى دواد ، حفظك الله تعالى ، أعلم بهذا الكلام وبغيره من أجناس العلم ، من أن يجعل هذا الاستفهام مسألة ، ويعتمد عليها فى مثل تلك الجماعة . ولكنه أراد أن يكشف لهم جرأته على الكذب ، كما كشف لهم جرأته فى المعاندة ، فعند ذلك ضربه الخليفة

« وأية حجة لكم في امتحاننا إياكم ، وفي اكفارنا لكم ؟. وزعم (أى الامام أحمد بن حنبل) يومئذ أن حكم كلام الله تعالى كحكم علمه ، فكما لا يجوز أن يكون علمه محدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً ومحدثاً . فقال (أى أحمد بن أبى دواد) له : أليس قد كان الله يقدر أن يبدل آية مكان آية ، وينسخ آية بآية ، وأن يذهب بهذا القرآن ويأتى بغيره ، وكل ذلك فى الكتاب مسطور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا فى العلم ، وهل كان جائزاً أن يبدل الله علمه ويذهب به ويأتى بغيره ؟. قال : لا

وقال (أى أحمد بن أبى دواد) له : رويناه فى تثبيت ما نقول الآثار ، وتلوننا عليك الآية من الكتاب ، وأريناك الشاهد من العقول التى بها لزم الناس الفرائض ، وبها يفصلون بين الحق والباطل ، فعارضنا أنت الآن بواحدة من الثلاث . فلم يكن ذلك عنده ، ولا استخزى من الكذب فى هذا المجلس ، لأن عدة من حضره ، أكثر من أن يطمع أحد أن يكون الكذب يجوز عليه

« وقد كان صاحبكم هذا (أى الامام أحمد) يقول : لا تقية الا فى دار الشرك ، فلو كان ما أقر به من خلق القرآن ، كان منه على وجه التقية ، فقد أعملها فى دار الاسلام . وقد أكذب نفسه ، وان كان ما أقر به على الصحة والحقيقة ، فليست منه ، وليس منكم . على أنه لم ير سيفاً مشهوراً ، ولا ضرب ضرباً كثيراً ، ولا ضرب الا بثلاثين سوطاً ، مقطوعة الثمار ، مشعبة الأطراف ، حتى أفصح بالاقرار مراراً ، ولا كان فى مجلس ضيق ، ولا كانت حاله حال مؤيسة ، ولا كان مثقلاً بالحديد ، ولا خلع قلبه بشدة الوعيد . ولقد كان ينازع بالئين الكلام ، ويجب بأغلظ الجواب ، ويرزون ويخف ، ويحلمون ويطيش » (هامش الكامل ج ٢ من ص ١٣١ الى ص ١٣٩)

هذه الرواية الاعتزالية عن المحنة ، هى رواية معاصرة توضح وجهة نظر المعتزلة فى مسألة المحنة ، كتبها الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ ، الذى

كان رأساً من رءوس الاعتزال ، بل تفرد فيه بمذهب خاص ، أطلق عليه اسم الجاحظية ، وقد دافع فيها عن المعتصم ، وأبان فيها ما كان يتميز به أحمد بن أبي دواد من قوة العارضة ورسوخ القدم فيما يتصل بمسائل الفقه والكلام ، وذلك من وجهة النظر الاعتزالية التي كانت المذهب الرسمي للدولة آنذاك . غير أن رواية الجاحظ تشتمل على أمرين متناقضين ، فهو في أكثر من موضع يؤكد استمسك الإمام أحمد برأيه في أن القرآن غير مخلوق ، وهو استمسك وصفه بالعناد وقلة الاكتراث وشدة التصميم ، ولكنه ناقض نفسه لما عرض لموضوع النقية ، فنسب للإمام أحمد ، اقراره بخلق القرآن . ولم أجد لذلك تفسيراً ..



ولعل الجاحظ أخذ انقطاع أحمد فيما دار من نقاش وجدال ، على أنه اقرار منه بأن القرآن مخلوق . أو لعله قصد بزعمه هذا ، أن يؤيد الحكومة في سياستها ازاء المحنة ، ويستر ما أصابها من خذلان ، فيأخذ الناس قسراً على الايمان بعقائد الاعتزال . كما أن دعوى الجاحظ التي ذهب فيها الى أن أحمد أفصح بالاقرار مراراً ، منقوضة من أساسها ، اذ لو صح ما زعمه الجاحظ ، لكان الخليفة قد كف عن الإمام أحمد ، منذ المرة الأولى التي أقر فيها بما أريد به أن يقول . فقد كان أقصى ما تبتغيه الدولة ممن تمتحنهم أن يقرؤا بعقيدتها ، فاذا ما أقرؤا بها ، أوقفت ما كانت تعدده لمخالفها من صنوف الأذى والاضطهاد

وان دعوى اقرار أحمد قد ردها فيما بعد المؤرخ الشيعة ، اليعقوبى ، وذلك في الجزء الثالث من تاريخه (ص ١٩٨ من طبعة النجف سنة ١٣٥٨ هـ) . ولكن المصادر العربية الأخرى ، نراها كلها مجمعة على أن أحمد ، لم يجب في المحنة . ويتفق هذا الاجماع مع ما استفاد من أخبار ورعه وتقواه ، وزهده وتقلله ، واستمسكه بالسنن والآثار ، يدل على ذلك مسنده الكبير ، الذى تجشم الأسفار في جمعه ، وصرف حياته في تدوينه وضبطه ، والذى قصد منه أن يكون للناس اماماً ، يهديهم سواء

السييل ، اذا ما استغلق عليهم أمر من أمور دينهم ، ويصرهم بأحكام
السنة النبوية ويذل لهم نهج الاقتداء بآدابها وتعاليمها

وبعد فان باتون مع اعتماده على الرواية السنية للمحنة ، لم يقم
باستقصائها في مصادرها الكثيرة ، ولم يبذل جهداً في تحقيق مدى
ضبطها ووثوقها ، ويشتمل جانب منها على ما يمكن أن يسمى بالقصص
الديني الذي يخرج عن دائرة البحث التاريخي ، كما هو الحال في كتاب
المحنة لعبد الغنى الجماعلي المتوفى سنة ٦٠٠ هـ ، والذي توجد منه
نسخة خطية في دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٣٤٥ تاريخ ،
والصادر ذات النزعة التاريخية تتماثل فيما بينها ، اذ لا نجد فرقاً كبيراً
بين ما كتبه ابن عساكر والذهبي وابن كثير في ترجمتهم لأحمد ، ولكننا
نلاحظ أن شخصية الامام أحمد تنقسمها نزعات مختلفة غلبت على كتاب
سيرته ، فالصوفيون أدرجوه في طبقاتهم ، ومثلوه في صورة تتلاءم مع
ما كان يذهب اليه معاصروه من الزهاد مثل بشر الحافي ، أو تخفف من
انكار أحمد لحركة التصوف التي بدأت تقوى منذ أوائل القرن الثالث
الهجري ، وكان يمثلها آنذاك الحارث بن أسد المحاسبى

والى جانب التصوير الصوفي للامام أحمد ، ممثلاً في متقدمى الصوفية
كأبى طالب المكي في قوت القلوب ، وأبى نعيم الأصبهاني في الحلية ،
وفى متأخريهم كالمناوى في الكواكب الدرية والشعراني في لواقح الأنوار،
تصوير أشعري ، ينزه فيه الأشاعرة أحمد عما زعموه من اغراق أتباعه
في التجسيم والتشبيه . هذا فضلاً عن التصوير الحنبلي لسيرة الامام في
كتب طبقات الحنابلة التي يتحمس فيها الحنابلة لامامهم ، ولعل أبلغها
ترجمة أحمد التي صّدر بها مجير الدين العليمي كتابه : « المنهج الأحمد
في تراجم أصحاب الامام أحمد » ، والذي توجد منه في دارالكتب المصرية
بالقاهرة نسخة مخطوطة مصورة في مجلدين تحت رقم ٨١١ تاريخ . يضاف
الى ذلك ، ما ذكرنا ، من أن بعض المعتزلة والشيعة نسبوا الى الامام

أحمد أنه أجاب في المحنة الى القول بأن القرآن مخلوق

ولعل من الأسباب التي عاقت المؤرخين عن تحقيق ترجمة أحمد وحوادث المحنة ، هذه الحجب الكثيفة من تحامل الخصوم ومغالاة الأنصار وتعدد وجهات النظر ، فضلا عن اختلاط سيرته بمشكلة كلامية معقدة ، مرت في مراحل مختلفة ، وتتقضى من المؤرخ دراسة خاصة لتاريخ علم الكلام والفرق الاسلامية ، حتى يدرك ادراكا صحيحا العوامل التي حملت المأمون ومن جاء بعده على اضرار فتنة المحنة

ومن الدلائل التي تثبت ما يجب على مؤرخ المحنة من المام بالمسائل الكلامية ، حقيقة أولية غابت عن مؤرخ محدث اشتهر بسعة اطلاعه على أمهات الكتب العربية ، ذهب فيها الى أن المأمون تمسك بمذهب الاعتزال ، وقرب اليه أشياخه ، وصرح بأقوال لم يقو هؤلاء على التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء ، وفي مجلتها القول بخلق القرآن أى أنه غير مننزل (تاريخ التمدن الاسلامى لجرى زيدان ، ج ٣ ص ١٤١ ، الطبعة الأولى بالقاهرة سنة ١٩٠٤ م) . والمعروف أن المعتزلة على اختلاف فرقهم ومتكلميهم لم يتشككوا قط في أن القرآن تنزيل من عند الله ، وقد صدروا في نظريتهم عن الصفات ومنها صفة الكلام التي ترتب عليها قولهم بأن القرآن مخلوق ، عن ايمان صادق ، حرصوا فيه على تأكيد وحدانية الله تعالى ، وتنزيهه حتى سمو بأهل العدل والتوحيد ، ولا ينفى هذا اعتقادهم بأن القرآن كتاب منزل من عند الله

وقد باءت سياسة المعتزلة ابان المحنة بالخيبة والخذلان ، وانتصرت عليها عاطفة التدين الشعبى ، التي آثرت الاعتصام بالسنن والآثار والابتعاد عن تشقيقات المتكلمين ودعواهم في تحكيم العقل دون النقل . وأغلب ظنى أن من عوامل انتصار أهل السنة ، ما كان لكلمة مخلوق من دلالة خاصة ابان القرنين الثانى والثالث الهجريين ، يوضحها خبر عابر أورده الراغب الأصبهاني في محاضراته (ج ٢ ص ٢٤٦ ، طبعة القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ) ، روى فيه أن الخليل بن أحمد ، صاحب كتاب العين المتوفى

سنة ١٧٠ هـ ، كان يمنع أن يوصف الكلام بال مخلوق ، فيقول : ان الكلام متى وصف بالخلق ، فالقصد به الكذب ، ولهذا يقال : هذا كلام خلقه فلان ، أى تَقَوُّله . وفى تاريخ المحنة أن بعض الفقهاء لما سئل فى القرآن ، قال : أصفه بأنه محدث ولا أقول أنه مخلوق ، لقوله تعالى : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ »

ومن القواعد المنهجية التى يقتضيها البحث فى تاريخ أئمة الفقه والمذاهب الكلامية فى الاسلام ، وجوب التفرقة بين الامام وأتباعه ، فقد ينحو الأتباع نحواً يخالفون فيه امامهم ، ولكن كثيراً ما لا يتجاوز الخلاف المسائل الفرعية ، وقد يمتد الى ما هو أبعد من ذلك ، وأياً كانت هذه الفروق ، فمن الواجب مراعاتها والاشارة اليها عند البحث فى تاريخ أولئك الأئمة . ولم يكن ياتون بحاجة الى اتباع هذا المنهج ، لأنه لم يعقد فى كتابه فصلاً خاصاً يوضح فيه أثر الامام أحمد فى المدرسة الفقهية التى تنتسب اليه ، مع أن هذا الأثر وثيق الصلة ببحثه ، وقد اتخذ فى العصور التالية مظهراً اصلاحياً ، تجاوز به طابعه الفقهى ، وميزه على سائر المذاهب السنية الأخرى فى أنه كان أشدها حرباً على البدع الدخيلة فى الاسلام ، مما هيأه لأن يكون الدعامة التى قامت عليها أول حركة اصلاحية فى العالم الاسلامى فى العصر الحديث

ومن المؤلفات العربية القريبة العهد من تاريخ المحنة التى توضح آراء امام الحنابلة ، ولم يوفق ياتون الى الاطلاع عليها ، كتاب مسائل الامام أحمد لأبى داود السجستانى صاحب السنن المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، الذى نشره رشيد رضا بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ ، فأبوابه الأخيرة تتضمن مرويات عن أحمد تشرح مذهبه فى كثير من المسائل الكلامية : كالجهمية والقدرية والايان والتفضيل الى غير ذلك (من ص ٢٦٢ الى ص ٢٧٧) ، كما تبين ما كان يتحلى به الامام أحمد من روح انسانية عالية ، بعيدة عن التعصب ، فقد سئل عن حبس أهل البدع ، فأنكر ذلك بحجة أن لهم

والدات وأخوات ، أى أنه كره أن يتعدى عقابهم الى الأبرياء من ذويهم ممن ليس لهم ذنب أو جريمة ، وهذا يدل على حسه المرهف بالعدالة وقد أوردت المصادر العربية الأخرى أخباراً كثيرة في هذا المعنى ، مثل كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلى ، ومناقب الامام أحمد لأبى الفرج ابن الجوزى ، لو اطلع عليها ياتون لأفرد فى كتابه فصلاً خاصاً بشخصية الامام أحمد ، وليست هذه المناقب من قبيل ما يغدقه كتاب التراجم عادة على أبطالهم ، بدافع الاغراق والمبالغة ، فقد كانت لها حقيقة تاريخية ، نظراً لأثرها الواضح فى أخلاقيات المذهب الحنبلى الذى لايجز الحيل الفقهية التى تلجأ اليها بعض المذاهب الأخرى من باب التيسير ، ولكنها قد تتحول فى النهاية الى عامل يضعف من الحاسة الخلقية فى نفوس الأفراد ، ويجعل الأخلاق صورة شكلية لا علاقة لها بالضمائر والنيات وهناك رسالة قصيرة فى تاريخ المحنة ، قريبة العهد من أحداثها ، مما يزيد فى قيمتها التاريخية ، ولو أنها تمثل وجهة النظر السنوية فحسب ، تلك هى « ذكر محنة أبى عبد الله أحمد بن حنبل » ، كتبها ابن عمه : حنبل بن اسحق بن حنبل ، المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، الذى ترجم له الخطيب فى تاريخ بغداد ، وابن الجوزى فى المنتظم ، وابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب . ومنها نسختان خطيتان احدهما فى المكتبة التيمورية تحت رقم ٢٠٠٠ تاريخ ، وتقع فى أربعين صفحة من القطع المتوسط ، والأخرى فى المكتبة الظاهرية فى دمشق ، وصفها يوسف العش فى فهرست مخطوطاتها الذى طبع فى دمشق فى سنة ١٩٤٧ م ص ٢٦٥ ، وروى فيه عن الأستاذ الميمنى أن هذه الرسالة مطبوعة ، وأن ما ورد فيها مطابق لما جاء فى ص ٣٩٤ من كتاب مناقب أحمد لأبى الفرج ابن الجوزى . غير أنى لم أعثر على النسخة المطبوعة من هذه الرسالة كما أنى وازنت بين النسخة الخطية لها فى المكتبة التيمورية ، وكتاب مناقب أحمد لابن الجوزى الذى نشره الخانجى فى القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ ، فى الموضع الذى أشار اليه الأستاذ الميمنى ، فوجدت أن التشابه

مقصود على ما جاء في ص ٢٥ من مخطوطة حنبل بن اسحق ، وهو ما حدث بين عفان بن مسلم ، واسحق بن ابراهيم عامل المأمون على بغداد ، الذي هدد عفان بقطع رزقه ان لم يجب الى القول بخلق القرآن

غير أن رسالة حنبل بن اسحق، على ايجازها ، أتت بتفصيلات وأخبار عن المحنة ، لم ترد في كتاب المناقب لابن الجوزي ، مع أن الأخير يقع في نحو ٥٤٤ صفحة . مثال ذلك أنه جاء في رسالة حنبل في ص ٢٦ و ٢٧ : « أن نقرأ من الفقهاء توجهوا الى أحمد بن حنبل وقالوا له : هذا أمر قد فشا وتفاقم ، وهذا الرجل يفعل ويفعل ، ونحن نخافه على أكثر من هذا . وذكروا له أن ابن أبي دواد ، يأمر المعلمين بتعليم الصبيان في الكتاب مع القرآن : القرآن كذا وكذا » . ثم اقترحوا عليه أن يعلنوا عدم رضاهم بامرته وسلطانه . غير أن أحمد نصحهم ألا يخلعوا يدا من طاعة ، وألا يعملوا على سفك دمائهم وسفك دماء المسلمين ..

وهذا الخبر على ايجازه ، يشتمل على حادثين على جانب كبير من الخطر والأهمية : أولهما أن الفقهاء فكروا في الخروج على الخليفة ، وتناقشوا في هذا الموضوع طويلا ، وقد عارضهم أحمد . ويلاحظ أن هذا الخبر نقله القاضي أبو يعلى محمد بن الحسين الفراء في ص ٥ من كتابه : « الأحكام السلطانية » (طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م) عن حنبل بن اسحق بن حنبل . وثانيهما أن أحمد بن أبي دواد ، كان يأمر المعلمين في الكتابيب أن يلقنوا الصبيان أن القرآن مخلوق . فكان الحكومة لم تكتف بحمل القضاة والشهود والمحدثين والفقهاء على أن يقولوا هذه المقالة ، بل حرصت على أن تجعلها عقيدة رسمية ، فيما يلقي من الدروس في معاهد التعليم ، فينشأ الجيل الجديد مثثرباً بعقائد الاعتزال

والرواية السنية للمحنة كما وردت في المصادر العربية المختلفة ومنها رسالة حنبل بن اسحق بن حنبل ، تخفف من مسئولية الخلفاء والعباسيين عن المحنة ، وذلك بأن تنسب الى المعتصم الرأفة بالامام أحمد ، وأن

حاشيته هي التي كانت تعرض على قتله ، وأن الواثق كان يستثقل أمر المحنة ويرغب في رفعها لولا معارضة ابن أبي دواد ، ونستشف من هذا رغبة هؤلاء المؤرخين في ممالأة الدولة الحاكمة ، وقد كان البلاذري يسمي الدولة العباسية بالدولة المباركة . كما نسبت الرواية السنية أحمد بن أبي دواد الى الجهل

جاء في رسالة حنبل بن اسحق أن أبا عبد الله أحمد بن حنبل قال : « وما كان في القوم أرفأ بي ، ولا أرحم من أبي اسحق (أى المعتصم) ، فأما الباكون فأرادوا قتلى ، وشركوا فيه لو أطاعهم أو أجابهم الى ذلك . قلت لأبي عبد الله : فكان لابن أبي دواد علم ؟ فقال : كان من أجهل الناس بالعلم والكلام ، إنما كان أهل البصرة ، المعتزلة ، الذين يقومون بأوده ، فإذا انقطع الرجل منهم ، عرض ابن أبي دواد في الكلام ، يوهم الآخر أن عنده شيء ، ولم يكن عنده شيء من ذلك » . وسأله أبو بكر ابن عبيد الله قائلًا : « يا أبا عبد الله ، كان ابن أبي دواد يناظر ويتكلم ؟ قال : لا ، ما كان له معرفة بشيء ، إنما كان يتعول على هؤلاء المعتزلة ، أهل البصرة ، برغوث وأصحابه ، فأما هو ، فلا صاحب علم ولا كلام ولا نظر » . (ص ١١ من المخطوطة التيمورية)

ومن المستبعد أن يقول الامام أحمد في ابن أبي دواد أنه ليس بصاحب كلام ولا نظر ، لأن أحمد كان لا يعد الكلام أو الآراء المبنية على النظر والقياس علماً ، فالعلم عنده هو السنن والآثار . وهذا هو ما رواه عنه أصحابه وكتاب سيرته ، بل انه كان يتخرج من ابداء رأيه في المسائل التي لم يرد عنها نص صريح من الكتاب أو السنة ، وكان يكتفى بأن يقول : يعجبني أو لا يعجبني ، مبالغة منه في الحذر والحيلة . مما أجهد مصنفى مذهبه فيما بعد عندما أرادوا أن يصوغوا من هذه الآراء مذهباً فقهياً متماسكاً

وان غلبة التحديث على الامام أحمد واحتياطه في مسائل الفقه حملاً

الطبرى على اغفال ذكر الامام أحمد في كتابه : اختلاف الفقهاء ، فقد عده محدثاً ولم يعده فقيهاً . ولما سأله الحنابلة في بغداد في هذا ، قال : مارأيته روى عنه ، ولا رأيت له أصحاباً يعول عليهم ، وقد أدى ذلك الى أن وثب عليه الحنابلة ورموه بمحابرهم ، ولما دخل داره ، عادوا ورموها بالحجارة الى أن تدخل الشرطة ومنعوا عنه العامة . ثم اضطر الطبرى أخيراً للاعتذار لهم ، ولكن لم يحل هذا دون اضطهادهم اياه ، وعند وفاته في سنة ٣١٠ هـ منعوا من الاحتفال بجنائزته ، فدفن بداره ليلاً



ومن العجيب أن ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، لم يذكر في كتابه المعارف الامام أحمد من بين المحدثين في الفصل الذي عقده تحت عنوان : ومن أصحاب الحديث (من ص ٢١٩ الى ص ٢٣٠ من طبعة القاهرة سنة ١٩٣٤ م) كما لم يذكره في عداد الفقهاء الذين سماهم أصحاب الرأى (من ص ٢١٦ الى ص ٢١٩) . ولكنه عده في مقدمة كتابه : « تأويل مختلف الحديث » من بين « العلماء المبرزين والفقهاء المتقدمين والعبيد المجتهدين الذين لا يجارون ولا يثبغ شأوهم ، وأمثال هؤلاء ممن قرب من زماننا » . وذكر من بين الأخيرين أحمد بن حنبل (طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ ص ١٩ ، ٢٠)

بيد أن الرواية السنية عن المحنة التي تميل الى تبرئة الخلفاء العباسيين من أوزار حوادثها ، وتنسبها الى من كان في بطانتهم من علماء السوء مثل أحمد بن أبى دواد ، ومحمد بن سماعة ، قد تأثر بها أحد الكتاب المحدثين في أئمة الفقه الاسلامى ، فقد ذهب الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه القيم : « ابن حنبل : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه » (القاهرة سنة ١٩٤٧ م ص ٥٩ ، ٦٠) الى أن كتب المأمون الخاصة بالمحنة التي أرسلها وهو في شمالى الشام في غزوته للروم ، الى اسحق بن ابراهيم عامله على بغداد ، هى من انشاء أحمد بن أبى دواد ، وقد رجح ذلك لدى المؤلف أن المأمون كان مريضاً ، وأنه يتسامى عما يحتويه كتاب

منها ، من الطعن في الفقهاء والمحدثين وذكر معاييبهم رجلا رجلا
ولو حققنا هذا الرأي تحقيقاً تاريخياً ، لوجدنا في مصادرنا العربية
ما ينقضه ..

فأولاً : من المستبعد أن يكون أحمد بن أبي دواد قد أعد كتب المأمون
الخاصة بالحنة ، ودفعها اليه قبل خروجه لغزو الروم في سنة ٢١٨ هـ ،
أو أنها كتبت في بغداد في غياب المأمون ، وزعم اسحق بن ابراهيم أنها
وردت من الخليفة

ثانياً : لا نجد في مصادرنا التاريخية ما يدل على أن المأمون أرسل
كتب المحنة وهو مريض في بلاد الشام ، بل كان عندما بعث بها الى
عامله على بغداد ، سليماً معافى ، لأن تواريخ ارسالها تقع في أشهر
ربيع الأول والثاني وجمادى الأولى وعشرين يوماً من جمادى الثانية ،
وقد بدأ مرضه الذي توفي فيه في الأيام العشرة الأخيرة من جمادى
الثانية ، وكانت كتب المحنة قد أرسلت كلها الى اسحق بن ابراهيم قبل
ابتداء مرضه بالحمى على نهر البدندون ، التي ظل يعاني منها الى وفاته
لاثنى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨ هـ (الطبرى ج ١٠ ص ٢٩٥)

ثالثاً : أن المأمون لم يكن بحاجة الى أن يكتب له أحمد بن أبي دواد
كتب المحنة ، فقد كان لا يقل عن قاضى قضاته بصرا بعقائد الاعتزال ، بل
كان يفوقه في ثقافته الواسعة واحاطته بعلوم الأوائل واشتغاله بالفلسفة
والفلك ، وقد أطنبت كتب الأدب والتاريخ كثيراً في سعة علم المأمون ،
حسبنا منها ما ذكره القاضى صاعد الأندلسى المتوفى سنة ٤٦٢ هـ في
كتابه طبقات الأمم (ص ٧٥ ، ٧٦ من طبعة القاهرة دون تاريخ) اذ
قال : « لما أفضت الخلافة الى المأمون تم ما بدأ به جده المنصور ، فأقبل
على طلب العلم في مواضعه ، واستخرجه من معادنه ، بفضل همته
الشريفة ، وقوة نفسه الفاضلة ، فداخل ملوك الروم ، وأنحفهم بالهدايا
الخطيرة ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة . فبعثوا اليه بما
حضرهم من هذه الكتب . فاستجاد لها مهرة التراجمة ، وكلفهم احكام

ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حض الناس على قراءتها ، ورغبهم في تعلمها ، فنفتت سوق العلم في زمانه ، وقامت دولة الحكمة في عصره ، وتنافس أولو النباهة في العلوم ، لما كانوا يرونه من احظائه لمنتحليها ، واختصاصه لمقلديها . فكان يخلو بهم ، ويأنس بمنظرهم ، ويلتذ بمذاكرتهم ، فينالون عنده المنازل الرفيعة ، والمراتب السنية . وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء ، والفقهاء ، والمحدثين ، والمتكلمين ، وأهل اللغة ، والأخبار ، والمعرفة بالشعر ، والنسب ، فأقتن جماعة من ذوى الفنون والتعلم في أيامه ، كثيرا من أجزاء الفلسفة ، وستثوا لمن بعدهم منهاج الطب ، ومهدوا أصول الأدب ، حتى كادت الدولة العباسية ، تضاهى الدولة الرومية ، أيام اكتمالها ، وزمان اجتماع شملها «



وعند ابن النديم أنه أعلم الخلفاء بالفقه والكلام ، ولم يستقص ذكره مكتفيا بشهرة أخباره ، ولكنه ذكر من كتبه : مناقب الخلفاء ، وأعلام النبوة ، وجواب ملك البرغر (أى الروس الصقالبة في حوض نهر القولجا) فيما سأل عنه من أمور الاسلام والتوحيد (الفهرست ص ١٦٨ من طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ) . وذكر ابن النديم في مواضع أخرى من كتابه ، اشتغال المأمون بالفلسفة والرياضيات وعلوم الأوائل ، فقال في ص ٣٣٩ انه رأى أرسطو في المنام ، وأن هذا المنام كان من أوكد الأسباب في اخراج الكتب القديمة وترجمتها ، وأنه راسل ملك الروم في طلبها وأنفذ اليه رسلا في استحضرها . وان كتاب اقليدس في الهندسة نقله الحجاج ابن يوسف بن مطر ، نقلا ثانيا يعرف بالمأموني ، الذى كان عليه المعول في علم الهندسة ، وانه أقسح المجال لبنى موسى بن شاكر ، وهم محمد ، وأحمد ، والحسن في دراسة العلوم الرياضية والحيل والفلك . وان الآلات الفلكية كالأسطرلاب ، اتسع للصناع عملها في الدولة العباسية منذ أيام المأمون ، وان الحجاج بن مطر فسر للمأمون ما نقله من كتاب المجسطى واقلیدس

فلا يعقل أن خليفة يمثل هذه الثقافة الواسعة ، والمشاركة في علوم مختلفة ، كانت تعوزه الاستعانة ، بقاضى قضاته ، ليكتب له الكتب التى أرسلها ، يبرر فيها سياسة المحنة ، التى اعتزم أن يأخذ الناس بها ، تصحيحا لعقائدهم ، وتقربا الى الله ، بما كان يشعر به فى قرارة نفسه ، من واجب نحو رعاياه ، يفرضه عليه منصبه كامام للمسلمين . وتكشف لنا كتبه التى تعد من الوثائق التاريخية الهامة ، عن نهج تفكيره ، ومستوى عقليته ، وتوضح لنا رأيه فيما يضطلع به الخليفة من مهام وواجبات . ولا نظن أنه قصر فيما رسم لنفسه أن يقوم به . فقد أنفذ - وهو يتهايا للغزو والجهاد ، بعيدا عن عاصمة ملكه - ما شغل فكره طويلا ، وهو أن يصحح عقائد رعاياه ، طبقا لما كان يعتقد أنه الايمان الصحيح ، ولم يصرفه قتاله العدو ، عن امضاء أمره فى امتحان الناس ، بتلك المحنة العجيبة التى لم يسبقه فى انتهاجها خليفة من خلفاء المسلمين



وإذا كنا نرى ان سياسته فى امتحان الناس وتكشيف سرائرهم ، وترويعهم بصنوف من الأذى والنكال ، لحملهم قسرا على معتقده ، سياسة خاطئة ، عاقبتها الفشل فى النهاية ، فلقد كان مخلصا فى الدعوة لها ، والايمان بها . ولم ينكر عليه المؤرخون هذا الاخلاص والايمان ، مع ما وصموا به فعله من قبح وشناعة ، وزيف وانحراف ، وقد لخص هذا المعنى مؤرخ متأخر من مؤرخى القرن الحادى عشر الهجرى ، هو ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب ، حيث قال : « ان المأمون قام فى هذه البدعة قيام متعبد بها » (ج ٢ ص ٣٩)

رابعا وأخيرا ، اننا اذا كنا نستنهجن ما ورد فى كتاب المأمون الأخير من تنقص للفقهاء ، الذين امتنعوا عن الاجابة فى المحنة ، وذكر معاييهم رجلا رجلا ، واتهامهم باختلاس الودائع ، وأكل الربا ، وخساسة المتجر ، وادعاء العلم ، فان مصادرنا لا تتمشى مع رغبتنا فى تزييه ، ونسبة هذه البيانات الفاضحة الى أحمد بن أبى دواد . لأن هذه البيانات كانت

تستقى من جهاز للأخبار خاص ، ابتدعه خلفاء بنى العباس فى صدر دولتهم ، وفاقوا فى تنظيمه واحكامه سلفهم من خلفاء بنى أمية ، وكان يشرف عليه موظف كبير يسمى صاحب الخبر ، يتحسس أخبار الناس ، ويستكشف دخائلهم ، مستعينا بمختلف الأعوان من الرجال والنساء ، حاذقا أربيا فيما يتخذ من الخطط والوسائل لاستقاء البيانات ، من أجل سلامة الدولة وأمنها

ولدينا نواذر كثيرة ذكرتها كتب الأدب والتاريخ ، توضح يقظة العباسيين ، والمأمهم بكل صغيرة وكبيرة فى دولتهم ، نذكر منها تلك القصة التى رواها ابراهيم بن السندى بن شاهك عن المأمون وهى تدل على علمه بدخائل عسكره ، فقد أبان فيها السندى ما حفظه عن المأمون فى ثلب أصحابه ، وذكر ما يتظاهرون به ، فقال له رجل من عظماء عسكر المأمون ، حين خرجا من الدار : هل رأيت أو سمعت قط ملكا أعلم برعيته ، وأشد تقيرا من هذا ؟ فقال : اللهم لا . وقد حدث السندى بهذا الحديث ، بعض أهل الخطر ، فقال : وما تصنع بهذا ؟ وقد كتب المأمون الى اسحق بن ابراهيم ، فى الفقهاء بمعايهم رجلا رجلا ، حتى انه أعلم بما فى منازلهم منهم . (المحاسن والمساوى للبيهقى ج ١ ص ١١٥ ، ١١٦ ، طبعة القاهرة سنة ١٩٠٦ م)

ولقد كان من سياسة الدولة العباسية ، ابان قوتها ، أن تؤكد طابعها الدينى ، فقربت اليها العلماء ، والفقهاء والمشتغلين بالعلوم الاسلامية ، وكانت ترقب أيضا حركات فريق منهم ، ممن يؤدى اشتغالهم بالعلم والورع الى تعلق الجماهير بهم ، اذ قد يؤثر ذلك فى مركز الخلفاء ، وقد يزعزع ولاء المسلمين لهم . فكان الخلفاء يهتمون بما يجرى فى حلقات الفقهاء والمحدثين ، ويراقبون من يتعرض منهم بالنقد للنظام القائم . وقد يبطشون به أو يكتفون بتقصي معايه أو وصمه بالنفاق والتماس السمعة . وقد جاء فى وصف المأمون لهم بأنهم من « متصنعة القبلة

وملتسى الرئاسة فيما ليسوا له بأهل » . بل ان عبارة الاتجار بالدين التى نظن انها من التعبيرات الحديثة ، كانت من المعانى المعروفة فى هذا العصر . وقد جاءت بالنص فى كتاب يعقوب بن اسحق الكندى الى المعتصم ، عن أولئك الذين يدعون العلم ، « ذبا عن كراسيهم المزورة التى نصبوها ، عن غير استحقاق ، بل للترؤس والتجارة بالدين ، وهم عدماء الدين » ، (كتاب الكندى الى المعتصم تحقيق الأهوانى ، ص ٨٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ م)



وقد فات پاتون أن يستقصى أخبار المحنة ، فى الولايات الاسلامية ، ولا سيما فى المغرب ، وكان ميسورا له أن يطلع على قطعة نشرها « هوداس » من كتاب معالم الايمان بمن حل القيروان ، للدباغ المتوفى سنة ٦٩٦ هـ ، تهذيب ابن ناجى التنوخى المتوفى سنة ٨٣٧ هـ ، وذلك فى كتابه : « مختارات مغربية » طبع بباريس سنة ١٨٩١ م ، والذي قصد به تيسير تعلم اللغة العربية على الفرنسيين من طلاب مدرسة اللغات الشرقية الحية . فقد جاء فى ص ٧٧ ذكر محنة سحنون ، عندما ولى أحمد بن الأغلب الامارة ، وأخذ الناس بالمحنة بالقرآن . مع أن دولة الأغلبة فى المغرب كانت قد استقلت عن العباسيين ، ولم يمنعها استقلالها مع ذلك ، من مسايرة الدولة العباسية فى سياستها الخاصة بالمحنة

أما أخبار المحنة فى مصر ، التى أوضحها پاتون فى كتابه ، فقد أتيت لنا مادة وفيرة عنها ، بعد ظهور كتاب پاتون ، عندما نشر « روثون جست » فى سنة ١٩٠٨ م ببيروت ، كتاب الولاة والقضاة ، للمؤرخ يوسف بن عمر الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ . وتقع أخبار المحنة فى هذا الكتاب فى ص ١٩٣ ، وكذلك فى ص ٤٤٥ الى ص ٤٥٣ . وقد اعتمدت عليه فى تصحيح خطأ وقع فيه پاتون ، أشرت اليه عندما تكلم عن المحنة فى عهد المعتصم . فان كتاب المحنة الذى أرسله المعتصم لوالى مصر ، لم يرسله الى المظفر بن كيدر الذى تقلد الولاية بعد أبيه . ولكنه أرسل

ابان ولاية أبيه كيدر نصر بن عبد الله . كما أن المعتصم لم يرسله حينما بويج بالخلافة بعد أخيه المأمون . بل أرسله حين كان أخوه لا يزال على قيد الحياة ، وكان المعتصم آنذاك نائباً عنه في بغداد . وقد أورد الكندي ، النص الكامل لهذا الكتاب الذي لم يورده الطبري . وفي فاتحة الكتاب ما يوضح أن المعتصم لم يكن قد تولى الخلافة بعد . اذ يقول بعد البسلة (ص ٤٤٥) : « من أبي اسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد ، أخي أمير المؤمنين (أي المأمون) الى نصر بن عبد الله كيدر... »



ويؤخذ على باتون انه لم يعن العناية الواجبة بالجانب الكلامي من مسألة المحنة ، فانه لم يغفل رواية المعتزلة عنها فحسب ، بل لم يرجع الى المصادر العربية ذاتها التي أوردت رواية أهل السنة ، فقد اقتصر على ترجمة هاربريكر الألمانية لكتاب الملل والنحل للشهرستاني ، واعتمد في بحثه على دراسات المستشرقين مثل هوتسما في كتابه « المنازعات الكلامية » ، (نشر بالهولندية في لندن سنة ١٨٧٥ م) ، ودوزي في كتابه « بحث في الاسلام » . وكتاب المعتزلة بقلم شتينر . بدليل كثرة اشاراته اليهما

وقد توالى بعد صدور كتابه ، نشر الكتب العربية الخاصة بالفرق الاسلامية ، ومنها كتابا البغدادي : الفرق بين الفرق ، وأصول الدين ، وكتابا الأشعري : الابانة عن أصول الديانة ، ومقالات الاسلاميين ، وكتاب الاسفراييني : التبصير في الدين . ولكن يهنا من هذه الكتب ، من ناحية التحقيق التاريخي ، ما كان منها قريباً من عصر المحنة ، مثل كتاب الاختلاف في اللفظ لابن قتيبة ، وكتاب رد الدارمي على بشر المريسي ، وأهم من ذلك كله ، كتب الامام أحمد بن حنبل نفسه وهي : الرد على الجهمية ، وكتاب السنة ، وكتاب آخر بنفس العنوان الأخير لولده عبد الله ، وكل ذلك يوضح المشكلة الكلامية ويجلو غامضها كما ظهرت في ذلك العصر ، قبل أن تطرأ عليها تطورات حدثت في العصور التالية . وقد أوضحت هذا في اثبات المراجع في نهاية الكتاب

بيد أنى أعود الى القول بأن ما ذكرناه من المآخذ على رسالة پاتون لا يغمط ما بذل من جهد فى اعدادها ، وليس من الانصاف أن ننتقد رسالة مضى على ظهورها أكثر من ستين عاما ظهرت خلالها بحوث ودراسات مختلفة ، ونشرت مخطوطات ومصادر كثيرة . ولكنها كانت عند ظهورها أجود ما وصل اليه البحث العلمى فى ذلك الموضوع آنذاك . ومع ذلك فانها لا تزال تعد الرسالة الوحيدة من نوعها فى سيرة الامام أحمد ابن حنبل وتاريخ المحنة

وقد توخيت الدقة فى ترجمتها ، وحافظت على عبارة المؤلف ، فلم أحاول صوغها فى قالب النصوص العربية التى أوردتها ، حتى يتسنى للقارئ أن يوازن بين فكرة المؤلف وعباراته ، ونظائرها فى تلك النصوص . ولكنى اضطررت الى حذف عدة فقرات يسيرة فى الفصل الثانى والخامس ، تمس السنة الاسلامية ، رأيت فى اثباتها ما يجرح مشاعر المسلمين ، فليعذرنى القارئ عما لم أرد به اخلايا بواجب الأمانة فى النقل ، ولكنى وجدت أن المؤلف فى هذه الفقرة التى حذفها ، لم يستطع أن يكون موضوعيا فى دراسته كما يقضى بذلك منهج البحث العلمى ، كما أنه لم يتثبت فى دراسته للسنة الاسلامية



هذا وقد أتيج لى فى النصوص العربية التى أوردتها المؤلف ، نقلا عن مخطوطات ليدن الخاصة بتاريخ بغداد للخطيب ، وحلية الأولياء لأبى نعيم ، وطبقات الشافعية لابن السبكي ، أن أعارضها بما طبع منها فى مصر نقلا عن مخطوطات أخرى ، وأشرت الى مواضع الاختلاف وأثبت ما رأيته صوابا . كما حققت كتب المأمون التى أوردتها الطبرى ، وراجعتها أيضا على ترجمة پاتون لها . وآثرت اثبات النصوص العربية فى صلب كلام المؤلف ، بدلا من إحالتها الى الهوامش ، كما هو الحال فى الأصل . وحين وجدت هذه النصوص تستغرق من الصفحات ، ما تفقد معه صلتها بما

يتلو من كلام المؤلف ، عمدت الى تقسيمها الى فقر ، أدرج منها مايتفق موضوعه مع بحث الكاتب ، دون أن أغفل منها شيئا . بل أثبت نصوصا عربية أخرى اكتفى المؤلف بالإشارة اليها دون إيرادها ، زيادة في فائدة القارئ

و كنت أعزم أن أذيل الكتاب بحواش كثيرة لتكملة بحث المؤلف ، وقد رجعت فيها الى مصادر عربية مطبوعة ومخطوطة ، لم يتح له الاطلاع عليها ، كما رجعت الى ما ظهر بعد كتابه من دراسات للمستشرقين في هذا الموضوع . وقد أردت أن ألحق به ثلاث مقالات وثيقة الصلة بهذا الكتاب ، وهى للمستشرق المجرى جولدتسيهر ، الأولى مقالة مطولة عن المسند ، والثانية فى نقد كتاب پاتون ، والثالثة فى تاريخ الحركة الحنبلىة ، وقد نشرت بمجلة المستشرقين الألمانية فى سنة ١٨٩٦ م ، ١٨٩٨ م ، ١٩٠٨ م على التوالي . ولكنى وجدت أن هذه اللواحق تزيد فى حجم الكتاب ، وتشتت ذهن القارئ ، فآثرت أن أفرد لهذه الحواشى والدراسات كتابا مستقلا ، واكتفيت بما ذيلت به صفحات الكتاب من تعليقات يسيرة ، راعيت فيها الإيجاز ، واقتصرت فيها على ما يوضح فكرة المؤلف أو يكملها ، ووضعت لها علامات خاصة ليميز القارئ بينها وبين الأصل



ولا يسعنى فى الختام الا أن أتقدم بالشكر الجزيل للكثيرين ممن عاونونى ، وعلى الأخص أمين مكتبة كلية الآداب بجامعة القاهرة لتفضله باعارتى كتاب پاتون ، ورجال دارالكتب المصرية الذين يسّروا لى الاطلاع على كثير من المخطوطات التى تتصل بموضوع المحنة وسيرة الامام أحمد ، كما أشكر فضيلة الشيخ محمد حامد الفقى ، رئيس جماعة أنصار السنة المحمدية الذى أتاح لى الانتفاع بذخائر مكتبته ، وأفادنى بملاحظاته القيمة وعكّى أن أنوه بالعناية التى بذلها الأستاذ محمود محمود فى مراجعة الترجمة العربية للكتاب . وأن أذكر ما تفضل به المستشرق چومييه من

ترجمة فقرة باللغة الهولندية نقلها المؤلف عن كتاب المنازعات الكلامية بقلم هوتسما . كما أشكر للدكتور حامد عبد المجيد عنايته بعبارة الكتاب واهتمامه بمراجعة تجارب الطبع . وأخيرا أخص بالشناء والتقدير رجال الادارة العامة للثقافة بالقاهرة ، لعنايتهم بنشر هذا الكتاب

عبد العزيز عبد الحق

القاهرة في ٢١ رمضان سنة ١٣٧٧ هـ

الموافق للعاشر من ابريل سنة ١٩٥٨ م

ملاحظات تمهيدية

تشتمل الصفحات التالية على تاريخ الامام أحمد بن حنبل ، كما أنها تسجل قصة النضال الديني المعروفة بالحنة (١) ، التي ارتبطت أحداثها باسمه ، والتي أعقبت من النتائج ، البعيدة المدى ، العميقة الأثر ، ما يبرر دراسة هذه الحركة دراسة متفصلة ، وتَقْصِي كافة الظروف التي اكتنفها ، والأدوار التي مرت بها . وقد قدم لنا الكتاب الغربيون ، فيما دبّجوه من أبحاث ، في تاريخ العقائد في الاسلام ، فكرة عامة ، أو

(١) تدل كلمة « حنة » اطلاقاً على الاختيار والابتلاء ، سواء أكان ابتلاء بصروف الدهر أم بأعمال البشر . وتستعمل غالباً كما يستعمل فعل « محن » ، بمعنى الاختيار الديني الذي يقصد به الحصول على اقرار المتحن بعقيدة ما أو بطائفة من العقائد ، يعلن تسليمه بها واعتناقه ايها . وانا لنلمس هذه الدلالة الخاصة واضحة ، فيما دون من تاريخ المحاكمات التحقيقية التي نصّبها المعتزلة لخصومهم . وسنبسط القول في أخبارها فيما يلي . كما أن كلمة حنة استعملت بهذا المعنى فيما دون من أخبار الاضطهاد التي اصطنعها أهل السنة لخصومهم في عهد الخليفة القادر بالله ، وذلك بعد حنة أحمد بن حنبل بمائتي سنة . ولكنها تطلق عادة على فترة الاضطهاد الديني الذي بدأ في سنة ٢١٨ هـ وانتهى في سنة ٢٣٤ هـ

(٢) دعوى المؤلف بأن الاستعمال الغالب للمحنة هو بمعنى الاختيار الديني لا يؤيدها ما جاء في معجمات اللغة العربية ومصادر التاريخ والأدب والتراجم ، فهي مجرد ابتلاء لا يتعلق غالباً بالمسائل الاعتقادية . فتفرق قلوب الخلفاء على المقربين اليهم واستصفاء أموالهم حنة ، وايداء السلطة الحاكمة للأفراد أيا كانت أسبابه حنة . واصطناع الأذى للمتهم حتى ينسب لنفسه ما لم يأت ، بعد حنة . والمعنى الأخير جاء في حديث الشعبي : « المحنة بدعة » ، هي أن يأخذ السلطان الرجل فيمتحنه ويقول فعلت كذا وفعلت ، فلا يزال به حتى يسقط ويقول ما لم يفعله أو مالا يجوز قوله ، يعنى أن هذا الفعل بدعة »

انظر النهاية في غريب الحديث لمجد الدين بن الاثير ح ٤٤ ص ٨٢ ، وتاج العروس ح ٦ ص ٣٤١ .

وترجم المؤلف المحنة الى الانجليزية بالكلمة التي تطلق على محاكم التفتيش في اوربا في العصور الوسطى والحديثة مع انه يرتبط بمعنى هذه المحاكم صنوف من التعذيب والتنكيل تتضاءل أمامها حوادث المحنة بخلق القرآن ، انظر مادة : اضطهاد في الاسلام بقلم أرنولد في موسوعة الدين والاخلاق ، مجلد ٦ ص ٧٦٥ ب . وفي الاصل في عهد الخليفة القاهر بالله وصحته القادر بالله كما أثبتناه ، راجع الكامل لابن الاثير في حوادث سنة ٤٠٨ هـ ح ٧ ص ٢٩٩ طبعة منير بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ .

صورة مجملة عن المسائل التي كانت مثار النزاع والجدال في ذلك العصر، كما أن التاريخ السطحي للحوادث التي وقعت في هذه الحقبة، قد دون أخباراً ضئيلة، وتفا مقتضبة، لا تنفع غلّة، عن أهم الأحداث العامة التي تتضمنها قصتنا. غير أن الباحثين لم يعمدوا، فيما أعلم، إلى الانتفاع بفرصة ثمينة مواتية، تتيحهم إياها، أخبار ترجمة الامام أحمد ابن حنبل، لكي يشهدوا في تضاعيفها المجادلات الكلامية في الاسلام، من حيث علاقتها بالتاريخ العام للدولة الاسلامية. ولا ريب أن هذا الضرب من الدراسة التاريخية شائق طريف، اذ يعيننا على ادراك العلاقة التي كانت قائمة بين الدين والدولة في ذلك العصر، والوقوف على مدى ما كان يشغله الدين آنذاك من مكانة، وما حظى به أئمنه وفقهاؤه من رعاية في الدولة الاسلامية

وقد أشرنا فيما سلف إلى ما أعقبته حركة الاضطهاد الدينى التي بدأ بها المؤمنون، والتي تعرف باسم المحنة، من نتائج بعيدة المدى، عميقة الأثر، فنقول بأن وجه الخطر في هذه النتائج، وفي تفاذ أثرها، يتضح في أنها قررت الطابع السنى الذى اتخذته الاسلام في كافة العصور التالية. وعندى أنه لا بقاء للاسلام الا ببقاء السنة، ففى سلامتها سلامته، وفى صونها صونه. ولو أنه أتيح للحركة العقلية التى نهض بها المعتزلة أن تحمل المسلمين قسراً على نبذ السنة، فمن الراجح أن يكون لمبدأ حرية الفكر الذى يدين بالعقل دون النقل، ولا ينزل على حكم سلطة ما - أثر انحلالي يوهن من قوة الاسلام وتماسكه، كما أنه يجعل الاسلام أكثر قابلية للتأثر بما يطرأ عليه من خارجه من عوامل التعديل والاصلاح، حتى أنه لو حدث هذا، لكنا نرى بعد انقضاء فترة من الزمان، ألواناً من العقائد وصوراً من الحياة الدينية تخالف عقولنا(١). ولكنها تكون أكثر انطباقاً على نوااميس العقل وسننه،

(*) المؤلف هنا يعبر عن وجهة نظره وهى تخالف بطبيعة الحال وجهة نظر المسلمين.

وأدنى الى مقتضيات أحكامنا الخلقية . وانا نعتقد بأن الإبقاء على السنة وصيانتها ، قد أتى بخير النتائج وأعظمها فائدة . ويمكن أن تتجاوز ذلك الى القول بأن الاسلام ، اذا كان يبغي المحافظة على جوهره وطابعه ، ليظل اسلاماً ، فما من سبيل يبلغ به هذه الغاية أفضل من سبيل المحافظة على السنة والاستمسك بعُراها

غير أنه يجب أن نشهد بما كان للروح العقلى من فضل ، اذ أنه أقر مبدأً جليلاً ، وهو أن الفكر يجب أن يكون حراً طليقاً ، اذا ما تصدى للبحث عن الحقيقة (٢) . ومع ذلك فانه توجد لدينا عن هذا العصر ، شواهد كثيرة ، تدل على أن المفكرين الأحرار قد أساءوا استعمال حريتهم ، بسبب ولعهم بالنظر العقلى من أجل النظر العقلى ، وبسبب تعشقهم للفوز والعكبة في ميدان المجادلات والمناظرات

وقد كان أحمد بن حنبل ، طوال الفترة الباقية من حياته ، التالية لوفاة الامام الشافعى فى سنة ٢٠٤ هـ ، أقوى الشخصيات فى معسكر أهل السنة وأنبهها ذكراً . ففى خلال الأدوار التى مرت بها المحنة ، قام بما لم يقيم به فرد آخر ، فى تعزيز روح المقاومة فى حزبه ، ومناهضة جهود الحلفاء وعمالهم فى قمع أنصار السنة والقضاء عليهم . ولقد ابتليت السنة الاسلامية فى شخصه ، فكان فى صبره - لو صبر - فوزها ونهوضها ، وفى ضعفه فوفتن - سقوطها وخذلانها . واذا كان هناك قدر ضئيل من المبالغة فى العبارات التى ركدهتها الأفواه بشأنه ابان المحنة ، والتى تدل على « أن الناس انما كانوا ينتظرونه لأن يقول فيقولوا » ، وأنه اليوم رأس ، والناس يقتدون به ، فوالله لئن أجاب الى خلق القرآن ليحيين باجابته

(*) لقد أسرف المؤلف فى حكمه ونسى أن الفكر الاسلامى فى جوهره قبل أن يحتك بثقافة الاغريق والفرس فى العصر العباسى كان ينطوى على تحكيم العقل وينزع الى الحرية والطلاقة . وفى القرآن والحديث من الشواهد ما يؤيد هذا ، فضلاً عن أن الحجج التى أدلت بها طلائع الفرق الاسلامية من الخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية لتأييد دعاويها وذلك فى القرن الاول للهجرة ، تدل على أن الفكر الاسلامى كان أوفر من غيره حرية وانطلاقاً .

خَلَقَ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ، وَانْ هُوَ لَمْ يَجِبْ لِيَمْتَنِعَنَّ خَلْقٌ " مِنْ النَّاسِ كَثِيرٌ . وَأَنَّهُ « رَجُلٌ يَتَّقِدِي بِهِ وَأَنَّ الْخَلْقَ قَدْ مَدُّوا أَعْنَاقَهُمْ إِلَيْهِ لِمَا يَكُونُ مِنْهُ » . فَهَذِهِ الْعِبَارَاتُ كُلُّهَا تَعُدُّ فِي جَوْهَرِهَا صَحِيحَةً صَادِقَةً

وَلَدِينَا لِلتَّدْلِيلِ عَلَى مَكَانَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ، عِنْدَ مُسْلِمِي عَصْرِهِ ، وَمَدَى تَأْثِيرِهِ فِيهِمْ ، دَلِيلٌ غَيْرُ مُبَاشِرٍ ، يُمْكِنُ أَنْ نَسْتَخْلَصَهُ مِنَ الْأَسْلُوبِ الَّذِي جَرَى عَلَيْهِ خَلْفَاءُ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي مُعَامَلَتِهِ . فَالْمَأْمُونُ كَانَ قَدْ اعْتَزَمَ أَنْ يَشْنَخَصَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ يَحْمَلَ مَعَ السَّبْعَةِ الْأَوَّلِ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَشُيُوخِ الْحَدِيثِ الَّذِينَ كَانَ سَيَجْرَى عَلَيْهِمُ الْامْتِحَانُ ، غَيْرَ أَنْ قَاضِيَ الْقَضَاةَ ، أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَادٍ - عَلَى الرَّغْمِ مِنْ شِدَّتِهِ وَتَعَصُّبِهِ - نَصَحَ مَوْلَاهُ الْأَ يَا مَرْءُ بِاحْضَارِهِ لِاعْتِقَادِهِ - دُونَ رَيْبٍ - أَنَّ فِي وَجُودِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي زِمْرَةِ هَؤُلَاءِ الْفُقَهَاءِ ، مَا يَجْعَلُ النِّجَاحَ فِي حَمْلِهِمْ عَلَى الْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ ، شَاقًّا مُتَعَذِّرًا ، وَلاحِساسَهُ بِأَنَّ عَاقِبَةَ هَذِهِ الْمُحَنَةِ هِيَ الَّتِي سَتَقَرُّرُ فِيهَا إِذَا كَانَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَسَدَادِ الرَّأْيِ أَنْ يَمْتَنَحَ مِنَ الْفُقَهَاءِ ، مَنْ هُوَ أَكْثَرُ مِنَ هَؤُلَاءِ شَأْنًا

وَأَنَّ كِتَابَ الْمَأْمُونِ لِعَامِلِهِ فِي بَغْدَادَ ، بَعْدَ اخْتِبَارِ هَذَا لِلْفُقَهَاءِ ، لِيُشِيرَ إِلَى اصْطِنَاعِ اللَّيْنِ وَالْأَنَاقَةِ مَعَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ . وَيَتَضَحَّ هَذَا مِنْ قِرَاءَةِ مَا كَتَبَهُ الْمَأْمُونُ بِصَدَدٍ غَيْرِهِ مِنَ الْفُقَهَاءِ . أَمَّا مُعَامَلَةُ الْمُعْتَصِمِ لَهُ ، فَيَنْبَغِي الْأَنْفُخَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ لَمْ يَعْمِدْ إِلَى تَعْذِيبِ أَحْمَدَ ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ اسْتَنْفَدَ كُلَّ الطَّرِيقِ وَالْوَسَائِلِ إِلَى انْقِاذِهِ ، سِوَاكَ أَنَّ ذَلِكَ بِاخْفَافِهِ وَتَوَعُّدِهِ إِيَّاهُ ، أَمْ بِمُنَازَظَرَتِهِ وَاقْنَاعِهِ ، أَوْ بِاسْتِرْضَائِهِ وَالتَّوَسُّلِ إِلَيْهِ ، لَصَرْفِهِ عَنْ عُنَادِهِ . وَقَدْ قَالَ لَهُ : « لَوْلَا إِنِّي وَجَدْتُكَ فِي يَدٍ مِنْ كَانَ قَبْلِي مَا عَرَضْتُ لَكَ »

هَذَا فَضْلًا عَنْ أَنَّ ضَرْبَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ، حَدَثَ فِي فَنَاءٍ مِنْ أَفْنِيَةِ الْقَصْرِ ، يَجْهَلُ مَكَانَهُ الْعَامَّةُ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ ، الَّذِينَ ظَلَمُوا خَارِجَ الْقَصْرِ يَنْتَظِرُونَ نَتِيجَةَ الْامْتِحَانِ . وَمَا عَتَمُوا أَنَّ هَجَسُوا بِامْتِحَانِ إِمَامِهِمْ وَتَعْذِيبِهِ ، حَتَّى عَرَاهُمُ الْاضْطِرَابُ ، وَلَسَّجَ بِهِمُ الْقَلَقُ ، وَظَهَرَ أَنَّ قَصْرَ الْخَلِيفَةِ سَيَعْدُو هَدَفًا لِهَجُومِهِمْ ، فَأَخْرَجَ الْمُعْتَصِمُ لَهُمْ ، اسْحَقَ عَمَّ الْإِمَامِ

أحمد ، ليثّموه عليهم بأن الخليفة لم يثّبحق بأحمد أذىً ، ولم يصبه بسوء . كما أبقي المعتصم ، أحمد ، داخل القصر حتى المساء ، ثم خلع عليه خلعةً ، وردّه الى منزله في غسق الليل . كل ذلك ليستوثق من أمنه وطمأنينته ، وليدراً عن نفسه ثورة العامة

ولما لم تبذل الحكومة ، ابان الخمسة عشر عاماً الباقية من المحنة ، محاولات أخرى لحمله على الاجابة ، فانا نعد نكوصها دليلاً على جليل مكاتته عند الشعب وعظيم قدره ، مع أن لدينا ما يؤيد دأبه على بث أفكاره وتعاليمه ، ومثابرتة على التحديث والتفقيه ، حتى زاد الناس به تعلقاً ، وشغفوا به حباً ، بل كادوا أن يفتنوا به افتتاناً

ولنا في معاملة الخليفة الواصل له ، ما يدل على ادراكه لعظيم خطره ، ونفاذ أثره . وتنبؤنا مصادرتنا بأنه لم يستدع أحمد لامتحانته ، على الرغم من الحاح أحمد بن أبي دؤاد عليه في هذا الصدد ، غير أن الواصل أمر أحمد بن حنبل بألا يقيم في البلد الذي يقيم به الخليفة ، وألا يسكنه في أرض . وفي هذا برهان واضح على ما كان يحظى به الامام من نفوذ واسع ، ومكانة مرموقة في قلوب الشعب . وزاد أحد المترجمين لأحمد ، بأنه لا يعلم فيما اذا كان الخليفة تحامى التشدد معه لأنه أعجب بشباته ، أو لأنه خشى العواقب الوخيمة التي قد تنجم عن اصطناع الأذى لرجل ، كان يعدّه جمهور عصره من الأولياء الصالحين

ولسنا بحاجة الى أن نكثر القول في المتوكل ، فان رعايته لأحمد ، وما بعث به اليه من رسل ، لتؤيد بأجلى بيان نباهة ذكره وعظيم أثره .

هذا وان العاطفة الدينية عند جمهور المسلمين ، لم تكن لتألف كثيراً تلك الآراء الطليقة والحياة المتحللة من كل قيد ، والتي كان يحياها المفكرون الأحرار ، ولذا فانهم قد شغفوا حباً برجل كأحمد بن حنبل ، لمسوا في اخلاصه الصحيح وورعه الصادق ، واستمسكوا الوثيق بكل ما يقدرسه

المسلمون ، ويدينون به ، من إيمان بالله ورسوله ، وبالقرآن والحديث ، وسنة النبي عليه السلام ، وشعور التكافل والتعاطف بين أبناء الأمة الإسلامية ، ما جعله موضع الاعزاز والتقدير عند الكفاة . كما أنه كان مثالا للسعى الذي يحمده كل مسلم ، ويستأثر بإجلاله واعجابه ، وهو العمل الذي يتقرب به العبد لربه ، ابتغاء ثوابه ومرضاته . وممن يدرك جيداً معنى هذه العبارة ، بالنسبة لرجل كالامام أحمد ، في صدق إيمانه ورسوخ عقيدته ، أولئك الذين ألفوا العبارات المأثورة والكلمات السائرة في محيط الورع الاسلامى . ولو أخذنا بالعدد الجم من المنامات الصالحة المغالية ، التى رآها الناس للامام أحمد بعد وفاته ، والتى تمثله في نعيم الخلد يرتع في بحبوخته ، لا يشك المرء في أن المسلمين الصالحين ، كانوا يعتقدون أنه نال من الأجر والثوبة فوق ما كان يرجو

وليس من المستغرب أن أحمد بن حنبل ، قد اعتبر فيما بعد ، المؤسس للمذهب الحنبلى ، ولو أن ذلك لم يكن ، فيما أعلم ، عن قصد منه ، أو اعداد من جانبه . غير أنه كان وليا عظيما ، منافحا عن السنة ، اجتمعت فيه خلال الورع والتسكن والنضال . وهذه الحقيقة وحدها ، هى التى حملت تلامذته والمعجبين به ، على أن يفرغوا تعاليم أستاذهم ، بعد موته ، فى قوالب محدودة ، هى قواعد ومبادئ ، كما ضموها صفوفهم ، وتساندوا فيما بينهم ، كى يؤلفوا مدرسة فقهية . ولا أعتقد أن أحمد جال بذهنه أن شيئا من هذا سيحدث بعد موته . أما وقد نشأ هذا المذهب الفقهى عفواً ودون تدبير سابق ، فانا لنعده دليلاً على الأثر العميق الذى كان لشخصية هذا الرجل على عصره ، والعصور التالية له . فمما حمده المسلمون له من المناقب التى ألهمت ألسنتهم بالثناء عليه ، سيرته الشخصية وتعاليمه التى لا تحيد عن السنة قيد أنملة ، واعتصامه بالسنة ، على الرغم مما لا قاه فى سيل الذب عنها ، والحفاظ عليها ، من أذى واضطهاد ولقد كان أحمد بن حنبل عالماً ، أَلَمَّ علمه بناحية واحدة فحسب ، ألا وهى القرآن والحديث ، وما انعقد من اجماع المسلمين فى

العرف الذي جَرَّوْا عليه والرأى الذي ارتضوه . فكان واسع الخبرة بهذه الموضوعات ، راسخ القدم فيها . أما العلوم الدنيوية ، فيبدو أنه لم يكن على حظ كبير منها . وكان هذا الضرب من العلوم الشرعية ، مضافا إليها شجاعة أدبية عالية ، وجأش رابط ، وقدر كبير من الحذق الفطرى والبراعة الفائقة ، سلاحه الماضى فى الحرب الجدلية التى أوقد نارها . والمسند وهو أجل كتبه ، وأعظم أثر خلفه ، يشهد بعلمه الواسع ، فيما برع فيه خاصة من العلوم الدينية الاسلامية . وقد ساعد هذا الكتاب والكتب الأخرى التى اشتقت منه ، على احلال الحديث مكانة رفيعة ، كمصدر من مصادر الفقه الاسلامى . وقد أصاب مسنده من التأثير مبلغاً يحملنا على أن ندرس سيرة مؤلفه ، وأن نستوعب ترجمته ، وسوف نرى فى ثناياها حياة واقعية صميّة ، اضطرر أثرها فى الفكر الدينى الاسلامى ، وشاركها فى هذا الأثر النافذ ، السيفر القيم الذى أخرجه

وقد ذكر أصحاب التراجم والمؤرخون ، الرجل وما لاقاه من الاضطهاد من أجل عقيدته ، وقد أغرقوا فى اطرائه ، والاعتراف بفضلته والتتويه بخدماته . ومضى آخرون ممن يعنون بالمسائل الدنيوية ، يسجلون فى الغالب الحوادث العامة للتاريخ المدنى غير الدينى ، مؤثرين أن يتجاوزوا الحركة الدينية فى عصر أحمد بن حنبل ، وأن يغفلوها ، أو لا يذكرونها الا لمآماً . غير أنه كان لهذه الحركة من المعنى والخطر ، ما لم يَفْتَتِ أعظم المؤرخين ، كالطبرى مثلاً ، أن يدركوه وأن يفتنوا اليه . وقد أنصفها أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، الذى عثى بالمجرى العام للحوادث من حيث علاقتها بالحنة وبسيرة أحمد بن حنبل ، مع أنه صرح فى كتابه « النجوم الزاهرة » ، أنه انما يكتب حوليات مصر وتاريخها . غير أن عنايته بتدوين أخبار الفقهاء والأولياء ، تكاد تتجلى فى كل صفحة من صفحات كتابه . فقد وقى هذه الأخبار حقها من الشرح والبيان

وفى القصة التالية عثيت بأن أورد سيرة متصلة الحلقات ، لحياة

الشخصية التي اتخذتها موضوعاً لدراستي ، وذلك من مبدئها الى منتهاها . ومع ذلك فالقصة تشعب حوادثها ، ويتسع نطاقها ، حينما تصبح حياة أحمداء ، أحد العوامل الرئيسية في التاريخ العام لهذا العصر ، وقد بسطتها كي يتهيأ لنا أن نعيد فكرة صحيحة عن كافة الحوادث الدينية التي كانت تجري في ذلك الوقت ، كما يتاح لنا أن نرى أحمد بن حنبل في صورة جليلة واضحة ، في المجال الذي أحرز فيه دون غيره ذكراً نابهاً وصيتاً ذائعاً ، جعله في مصاف أبطال الاسلام وأعلام فقهاء وزاهديه

وللاحظ أن الكتاب الأوربيين كتبوا ما كتبوه عن عقائد السنة الاسلامية ، وقد غلب عليهم شعور النفرة منها والاستئثار لها . كما أنهم خصوا المعتزلة بأكثر مما يستحقون من اطراء وتقدير . وفي الحق لقد كان المعتزلة أنصارا لحرية الفكر . ولكنهم كانوا في كثير من الحالات لا يتخرجون عن التماس ملذاتهم والاسترسال فيها ، الى الحد الذي لا يؤمنون فيه على رعاية المثل الخلقية أو الغيرة عليها (*) . ومن المشكوك فيه أن مناصرتهم للتفكير الحر ، كانت تصدر في الغالب عن تقدير سليم أو فكرة عالية عما يدخل في تكوين الحرية الصحيحة . ويبدو أن الباعث الذي حملهم على انتهاج الخطة التي سلكوها ، هو باعث النفع والمصلحة . فقد بشروا بانجيل الحرية لأنهم أحسوا أن أحكام الشريعة تقيدهم بالقيود التي تحول بينهم وبين ما يشتهون . فالواجب أن يكون الثناء مصروفاً الى الأفاض المخلصين الذين يتعشقون الحرية ، ويرونها حقاً لكل انسان ، ويسعون لاستخلاصها على هذا الاعتبار . غير أن الجزء الباقي من القصة ، سوف لا يبين لنا الا عدداً قليلاً من أمثال هؤلاء في هذه الناحية من نواحي التاريخ التي يتناولها موضوعنا

(*) لا أدري المصادر التي رجع اليها المؤلف والتي استند اليها في اصدار حكمه هذا على المعتزلة . ولم تكن قد نشرت بعد في سنة ١٨٩٧ م التي ظهر فيها كتاب المؤلف ، بعض الكتب الخاصة بالمعتزلة ، ولكن تراجم اعلام الاعتزال كانت في كثير من كتب التراجم كتاريخ بغداد للخطيب ووفيات ابن خلكان ، وكذلك في مؤلفات الجاحظ ، وكلها تدل على أن أقطاب الاعتزال كانوا اعلاماً في العلوم العربية والشرعية والكونية كما كانوا امثلة للرجولة وسمو الخلق ، مثل العلاف والنظام وأحمد بن أبي دواد ، ومن العجيب أن تخفى هذه الحقائق عن المؤلف .

وسيلقى هذا البحث ضوءاً جديداً على أخلاق الخلفاء العباسيين الأربعة : المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل . وقد ينتهي بنا هذا ، الى تغيير حكمنا على المأمون والمتوكل .. اذ يصبح الرأي فيهما مغايراً لما كان مألوفاً من قبل . فالمأمون العالم ، نصير العلماء ، وأول خليفة من المفكرين الأحرار ممن عنوا عناية صادقة بالمسائل الدينية ، سيتكشف لنا عن رجل لا يتسامح مع خصومه في الرأي ، الى الدرجة التي تجعل منه طاغية عسوقاً ، يصطنع لمخالفه صنوف الايذاء والاضطهاد

وليس من المحتمل أن نجد من الأسباب ، ما يحملنا على تغيير حكمنا عليه من حيث ميوله الحرة . فقد كان ذا عقل فطن متوقد ، يكره أن بدعه مٹصفاً بالقيود والأغلال . كما اعتقد أن من حقه أن يفكر الى أقصى مدى يتتاح له من التفكير ، وأن يخلق المجال للترتيب العقلي ، فيما لا يجد فيه ارتباطاً أو اتساقاً . 'ولو أنه وقف عند هذا الحد ، لسجل لنا خدمة جليلة من الخدمات التي أسداها لمواطنيه ، والتي حققها لهم بوسائط معنوية . غير أنه لما أبى أن يتقيد بما اعتقده طغياناً روحياً ، لكى يغدو بدوره طاغية روحياً ، ومضطهداً يروع الناس بالعذاب والنكال ، فقد تلوث ، في نظرنا ، الصورة النقية الخالصة التي كانت لمطامحه وأمانيه الأولى ، وتلطخت تلطخاً نستشعر معه الأسى والراء

أما المتوكل فهو أحد الخلفاء الذين تباين أخلاقهم الوصف الذي وصفه به المؤرخون الأوربيون ، فأخلاقه هي أشد سواداً من الليل البهيم . لقد كان سنياً ، غير أن معاملته للأحرار شابهت معاملة أسلافه لفقهاء السنة . بينا الموقف الذي اتخذته حيال أحمد بن حنبل ، يكشف لنا عن رجل له من المناقب والمآثر ، ما يخفف من أوزاره ومساوئه . ولكن لا يؤخذ من هذا ، أنا تتجاوز عما اقترفه من فظائع مروعة نحو ضحايا ، أو نغضى عينا على ما كان يغلب عليه أحيانا من شعور التشفى والارتياح ، حين يحكى جرائمه ، وكأنه كان يترنم بذكرها . بل لا نخفف من حكمنا عليه

بسبب غلظته وتضييقه على اليهود والنصارى . غير أن الرجل كان متعصباً لدينه ، فعلينا أن نتقيد بهذا الاعتبار في حكمنا على الكثير من أعماله ، وأن نكون في تقديرنا أكثر رعاية لوجهة النظر الدينى عما كان عليه الباحثون من قبل

وسوف يرى القارىء أننا في بعض النقاط الأخرى من البحث ، قد أشرنا في الحواشى ، في مواضع متفرقة من كتابنا الى وجوه الخلاف في الرأى ، بينى وبين المؤلفين المحدثين من المستشرقين ، الذين رجعت الى مؤلفاتهم وأبحاثهم ، غير أننى مع ذلك أتهز هذه الفرصة لأقرر بأن مؤلفات شتينر Steiner ، وفون كريمير ، Von Kremer ، وهوتسما Houtsma وجولدسيهر Goldziher وأضرابهم من العلماء ، قد أمدتنى بجزيل الفوائد . كما وانى أقدر خالص التقدير ما أسدته أبحاثهم ودراساتهم من جليل الخدمات ، فى جلاء معلوماتنا عن هذا العصر من التاريخ الاسلامى الذى تتناوله أيضاً عجالتى هذه

وانى فى كتابى هذا ، قد استعنت بثلاث مخطوطات عربية فى مكتبة جامعة ليدن ، استقيت منها القسط الأوفر من مادة بحثى وهى :

١ - المخطوط رقم ١٣١١ ، وزميله رقم ٣١١ ب ، وهما الجزءان الرابع والخامس من كتاب حلية الأولياء أو حلية الأبرار ، لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، المتوفى سنة ٤٣٠ هـ (١٠٠٠) ، وهذا الكتاب يقع فى خمسة مجلدات مخطوطة

(*) فى الاصل ٥٠ هـ والصحيح أنه توفى سنة ٤٣٠ هـ وقد أورد له الذهبى ترجمة مطولة فى كتابه تذكرة الحفاظ طبعة حيدر آباد سنة ١٢٣٤ هـ ج ٢ ص ٢٧٥ فى الطبقة ١٣ ترجمة رقم ١٨ ، وذكر أنه ولد سنة ٣٣٦ هـ ومن مؤلفاته الحلية التى ذكرها المؤلف وقد طبعت بالقاهرة فى عشرة أجزاء من سنة ١٢٥١ هـ الى سنة ١٣٥٧ هـ . وكان أبو نعيم من شيوخ الحديث كما كان مؤرخاً فقد كتب علاوة على كتابه فى تراجم الاولياء الأنف الذكر ، كتاباً فى تاريخ اصبهان طبع فى ليدن سنة ١٩٢١ م فى مجلدين . ومن مؤلفاته كتاب دلائل النبوة طبع فى حيدر اباد اعتمد عليه المستشرق الانجليزى مرجليون فى كتابه : المراحل الاولى للتطور الاسلامى (بالانجليزية) المحاضرة السابعة ، لندن سنة ١٩١٤ م

٢ - المخطوط رقم ١٧٣ ، ولم يكن موجوداً بين مخطوطات جامعة ليدن ، حين صنف دوزى Dozy فهرسته لمخطوطات مكتبة هذه الجامعة ، ولذا لم يرد ذكره ووصفه في هذا الفهرست . غير أن دوزى ذكر المجلد المكمل لهذا المخطوط ، وهو تحت رقم ٧٣ ب ، وتناوله بالوصف والبيان . والكتابان 'جزءان' من كتاب طبقات الشافعية لتاج الدين عبد الوهاب ابن السبكي المتوفى سنة ٧٧١ هـ

٣ - المخطوط رقم ١٩١٧ ، وهو كالمخطوط السابق لم يرد ذكره في قائمة المخطوطات بمكتبة جامعة ليدن ، ولكنه ورد في فهرست لاندبرج Landberg ، وهو 'قائمة بمخطوطات عربية أمكن الحصول عليها من إحدى المكتبات الخاصة ، في المدينة المنورة ، وهي في حيازة ا.ج. بريل E. J. Brill ، أحد البيوت التجارية بمدينة ليدن بهولندية'. وعنوان المخطوط : مناقب أحمد بن حنبل وهو بخط مؤلفه نفسه ، وهو المؤرخ الكبير أحمد المقرئ المتوفى سنة ٨٤٥ هـ

وتوجد ترجمة أحمد بن حنبل في الصفحات التي تبدأ من ص ١٣٨ وتنتهى في ص ١٦١ من كتاب « حلية الأولياء » لأبى نعيم ، وفي الصفحات التي تبدأ من ص ١٣٢ وتنتهى في ص ١٤٣ من كتاب « طبقات الشافعية الكبرى » لابن السبكي (٢) . وقد استقيت الكثير من مادة بحثي من الكتاب الأول وهو « الحلية » لأنه أوسعها مادة ، وأكثرهما تفصيلاً ، وأجلاهما بياناً للحقائق المتعلقة بسيرة الامام أحمد بن حنبل ، كما أنه أقدم المصادر الثلاثة السابقة ، ودليل قدّمه ، الروايات الكثيرة والمحدثات المستفيضة والتفصيلات الشخصية التي سجلها ، وهو مما أغفلته المصادر المتأخرة عن أبى نعيم . وتزودنا ترجمة ابن السبكي لأحمد ، بمادة غزيرة

(٢) لقد طبعت المخطوطات التي رجع اليها المؤلف ، وهي : حلية الاولياء لابى نعيم في عشرة اجزاء ، وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي ، طبعت بالقاهرة في سنة ١٩٠٦ م في ستة اجزاء ، والنجوم الزاهرة تطبعه دار الكتب المصرية منذ سنة ١٩٢٩ م وقد ظهر منه احد عشر جزءاً ، وتوجد مراجع أخرى هامة عن المحنة لم يرجع اليها المؤلف ، طبع بعضها ولا يزال البعض الآخر مخطوطاً مما فصلنا ، في غير هذا الموضع

تتعلق بالدور الذى قام به أحمد فى المحنة ، ولكنها لم تبسط القول فى ترجمة الامام فى الأعوام السابقة للمحنة أو التالية لها . أما بحث المقرئى ، فأنى أكاد أتقن أنه جزء من كتابه الكبير « المتقنى » ، وهو قطعة جيدة من أدب التراجم والسير ، تتسم بحسن الترتيب ، وإيجاز العبارة ودقة الاستيعاب لسيرة الامام وذويه . وترجمة المقرئى لأحمد ، تفوق ترجمة أبى ثعينة ، إذا راعينا احكام التأليف ، وجودة الانتاج الأدبى ، فهى تمتاز باكتناز الأسلوب ولطف السبك وحسن الرصف ، ولكنها لا تجدى كثيراً الباحث الذى يسعى لجمع المادة التاريخية ليؤلف منها ترجمة موجزة كترجمة المقرئى ، غير أن الحلية لسعة مادتها ، وكثرة رواياتها المتعلقة بنواح فرعية صغيرة فى سيرة أحمد ، تزوده بمادة أغزر وبيان أوفى ، وتفصيل أدق عما جاء فى كتابة المقرئى

وقد أشرت فى احدى الحواشى أنى تابعت الطبرى فى تاريخه فى مراجعة كتب الخليفة المأمون والاستشهاد بها ، كما أمدنا هذا المصدر بطائفة من المعلومات القيمة ، الخاصة بمسائل ذات صبغة عامة ، وقعت إبان المحنة ووقت اضطراد حوادثها

وقد اتجهت محاولتى الى الانتفاع بهذه المواد التاريخية التى جمعتها من هذه المصادر والمصادر الأخرى ، بحيث جعلت كل رواية من الروايات مكملة لغيرها ، معززة لها . ومع ذلك فقد ألفت بين هذه النصف المتناثرة ، ودأبت على أن يوحى مجموعها بقصة متسقة متماسكة ، قد اضطررت وقائعها وتكاملت أجزاؤها

وكم أدين بالفضل الكثير لأستاذى المجل ، الدكتور م.ج.دى خوى(*)

(*) هو المستشرق العلامة الهولندى الكبير ولد سنة ١٨٣٦ م وتوفى سنة ١٩٠٩ م صاحب الفضل فى نشر تاريخ الطبرى ووضع فهارسه كما نشر المكتبة الجغرافية العربية فى ٨ مجلدات المشتملة على مؤلفات جغرافى العرب فى القرن الرابع الهجرى وفتوح البلدان للبلاذرى وقسما من جغرافية الادريسي : نزهة المشتاق الى غير ذلك . راجع الاداب العربية فى الربع الاول من القرن العشرين بقلم شيخو ، بيروت سنة ١٩٢٦ م ص ٨٤

الذى أكن له كل تقدير واحترام ، لما خصنى به من حسن التوجيه
وخالص النصيحة وصادق التشجيع ، والذى لولا عنايته ، ما كنت بالغا
هذه النتيجة ممثلة فى كتابى هذا . وانى أزجى له أصدق عبارات
الشكر لعطفه ، ولما أظهره نحوى من رقة وما غمرنى به من فضل ، اذ
وضع تحت تصرفى المخطوطات الثلاثة التى استعنت بها فى اعداد هذا
البحث

ولتر ملفيل باتون

Walter Melville Patton

ليدن فى الرابع من شهر فبراير سنة ١٨٩٧ م

أحمد بن حسن بنبل والمحنة

نشأة أحمد بن حنبل وطلبه للعلم (*)

- ١ - مولد أحمد ونسبه ٢ - سنو دراسته وشيوخه
- ٣ - تصدره للتحدث ٤ - مؤلفاته وتصانيفه .
- ٥ - المسند ٦ - تلامذة أحمد ٧ - علاقة أحمد
- بالشافعى ٨ - معاصروه ٩ - يزيد بن هرون
- ١٠ - على بن المدنى ١١ - يحيى بن معين ١٢ - الحسين
- ابن على الكرابسى ١٣ - البخارى ١٤ - محمد بن
- أسلم ١٥ - الزهاد والمتصوفة (١) الحارث المحاسبى
- (ب) بشر الحافى ١٦ - داود بن على ١٧ - ابراهيم
- ابن اسماعيل المعتزلى **

١ - مولد أحمد ونسبه

ولد أحمد بن حنبل فى شهر ربيع الأول سنة ١٦٤ هـ (١) . وكانت خراسان موطن أبويه (٢) . وكان والده محمد بن حنبل من أبناء أحد قواد خراسان فى الجيش العباسى الذى قوض عرش الأمويين (٣) . غير أن أسرته كانت قد تركت خراسان لتقيم ببغداد ، وولد لها أحمد ، يستعيد بلوغها هذه المدينة بأيام ، أو بأشهر قلائل على خلاف (٤) . ولم تنف على

(*) لا يوجد هذا العنوان فى الاصل ، فالفصول مرقمة ترقىما عدديا . وقد اضطررنا لوضع عناوين لها للإرشاد الى ما شتمل عليه

(**) هذه هى عناوين الفقرات التى أنبتها المؤلف بجوار كل فقرة وقد رقمناها ، ووضعنا قبل كل رقم هذه العلامة ، التى تفيد معنى فقرة ، وأدرجنا عناوين الفقرات كلها تحت عنوان الفصل .

(١) وفيات الاعيان لابن خلكان رقم ١٩ ، وتذكرة الحفاظ للذهبى ، الطبقة ٨ رقم ١٨ ، والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ١ ص ٧٣٥ وما بعدها

ويشير المؤلف للطبعة الاوربية لهذا الكتاب وهو فى طبعة القاهرة سنة ١٩٣٠ م فى ج ٢ ص

(٢) ياقوت ج ٢ ص ٧٧٧

(٣) ياقوت ج ٢ ص ٧٧٧

(٤) حلية الاولياء لابی نعيم مخطوط ليدن ورقة ٢١١ ، ١٥٠ ب

(٤) ابن خلكان رقم ١٩ ، والذهبى الطبقة ٨ رقم ١٨ ، وتهذيب الاسماء واللغات للنوى ص

١٤٦ (هذه هى الطبعة الاوربية ، وفى طبعة منير بالقاهرة فى ج ١ ص ١١٠)

أسماء أفراد أسرته ، كما لم نعرف لأبويه أبناء سواه . وليس فيما رجعنا اليه من المصادر ، ذكر لأحد من ذويه أو أقرباء أبيه ، اللهم الا عمه اسحق ابن حنبل (١) ، وولد لهذا الأخير ، يدعى حنبل بن اسحق بن حنبل (٢) . وأصل أحمد من سلالة عربية خالصة (٣) ، من شيان ، إحدى بطون القبيلة العربية الكبيرة : بكر بن وائل . وقلما يُنسب أحمد الى أبيه محمد . بل ينسب لجده لأبيه حنبل . وقد يرجع هذا الى أن أباه توفي في الثلاثين من عمره (٤) ، حين كان أحمد لا يزال طفلاً . ومن ثم انتقل عبء تربيته الى أمه التي لا نعرف عن اسمها أو ترجتها شيئاً (٥)

٢ - سنو دراسته وشيوخه

ولم نقف على شيء من أخباره في السنين الأولى من حياته . ولا نعلم سوى أنه ظل مقيماً ببغداد الى سنة ١٧٩ هـ ، ففي هذه السنة ، حين بلغ الخامسة عشرة من عمره ، أخذ في طلب الحديث (٥) . فبدأ بمجلس عبد الله ابن المبارك ، الذي قدم ببغداد لآخر مرة في سنة ١٧٩ هـ ، غير أن أحمد جاء متأخراً ، اذ وجد أن ابن المبارك قد غادرها الى طرسوس (٦) (في غزوة جردت عليها لقتال الروم) وقد تأسف أحمد على عدم اجتماعه بالامام

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٧١ . (النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٣٦)

(٢) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٧٦ ، وانظر ايضا ص ٢٦ (النجوم الزاهرة ج ٢)

(٣) المقرئ مخطوط ليدن رقم ١٩١٧ ورقة ١ : واسلة من العرب . قال يحيى بن معين : ما رأيت خيراً من أحمد ، ما افتخر علينا قط بالعربية ، ولا ذكرها

(٤) يتضح لنا أن والد أحمد لم يموت قبل مولد ولده من العبارة التالية في الحلية ورقة ١٢٨ ب (النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦٣) : وتوفي أبوه محمد ابن حنبل وله ثلاثون سنة ، فوليته أمه . قال : أبى كان قد ثقب أذنى .. الخ

(٥) تذكرة الذهبي الطيبة ٨ رقم ١٨

(٦) الحلية ورقة ١٢٨ (النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٦٣) : وكان ابن المبارك قدم في هذه السنة وهي آخر قلعة قدمها . وذهب الى مجلسه فقالوا : خرج الى طرسوس فتوفي سنة إحدى وثمانين . وفي تهذيب النوى ص ٣٦٥ (منير ج ١ ص ٢٨٦) أن ابن المبارك توفي سنة ١٨١ هـ (٧) ورد اسمها صفية بنت ميمونة بنت عبد الملك الشيباني في كتاب المصنف الاحمد الذي نشره الشيخ احمد شاكر في صدر المسند (ج ١ ص ٣٦ ط . القاهرة سنة ١٩٤٦)

مالك . لأن مالك بن أنس توفي في سنة تسع وسبعين ومائة وهي السنة التي طلب الإمام أحمد فيها الحديث ، فكان يقول :

« فأتى مالك ، فأخلف الله علي ، سفيان ابن عيينة . وفاتى حماد ابن زيد ، فأخلف الله علي سفيان بن عيينة . وفاتى حماد بن زيد ، فأخلف الله علي اسماعيل بن عتيبة » (١)

وأول شيخ تلقى عليه العلم ، هو هشيم بن بشير السلمى الذى توجه اليه في سنة ١٧٩ هـ (٢) .

فقد أخذ عن هشيم في هذه السنة . ثم انه واصل دراسة الحديث معه لكي يتلقى بيانات أوفى عن الأحاديث المشككة . واستغرقت هذه الدراسة ثلاث سنوات وجانباً من السنة الرابعة ، الى وفاة هشيم التى وقعت في سنة ١٨٣ هـ . وقد كتب من املاء هشيم كتاب الحج الذى يتضمن نحو ألف حديث ، وجانباً من التفسير والقضاء ، وكتباً صغاراً قال أبو الفضل صالح عن أبيه أحمد :

« وكتبت عن هشيم سنة تسع وسبعين ، الا أنى لم أعتقد بعض سماعى . ولزمناه سنة ثمانين واحدى وثنتين وثلاثة . ومات سنة ثلاث وثمانين . كتبنا عنه كتاب الحج ، نحواً من ألف حديث ، وبعض التفسير والقضاء ، وكتباً صغاراً . قال : قلت : تكون ثلاثة آلاف حديث ؟ قال : أكثر (١) »

وقد رحل أحمد في طلب الحديث ، الى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والعراق (٣) . وممن تلقى عليهم : سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، وإبراهيم بن سعيد المتوفى سنة ١٨٣ هـ ، ويحيى ابن سعيد القطان المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، ووكيعة المتوفى سنة ١٩٦ هـ ، وابن

(١) المقرئى ورقة ٣

(٢) حلية الاولياء ورقة ١٣٩ * طبعة القاهرة - ٩ ص ١٦٤

(٣) أنظر في موضوع الرحلة في طلب الحديث كتاب جولد نسيهر : دراسات اسلامية (بلاطية)

عَلِيَّةُ المتوفى سنة ١٩٣ هـ ، وابن مهدي المتوفى سنة ١٩٨ هـ ،
وعبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة ٢١١ هـ ، وجريز بن عبد الحميد ،
المتوفى سنة ١٨٨ هـ ، والوليد بن مسلم المتوفى سنة ١٩٤ هـ ، وعلى
ابن هشام بن البريد ، ومُعْتَمِر بن سليمان المتوفى سنة ١٨٧ هـ ،
وغُنْدَر المتوفى سنة ١٩٣ هـ ، وبشر بن المفضل المتوفى سنة ١٨٦ هـ ،
وزياد البكائي ، ويحيى بن أبي زائدة ، المتوفى سنة ١٨٢ هـ ، وأبويوسف
القاضي المتوفى سنة ١٨٢ هـ ، وابن ثَمِير المتوفى سنة ٢٣٤ هـ ، ويزيد
ابن هرون المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، والحسن بن موسى الأشنَّيب المتوفى سنة
٢٠٩ هـ ، واسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، وعلى بن المديني المتوفى
سنة ٢٣٤ هـ ، ويحيى بن مَعِين المتوفى سنة ٢٣٣ هـ (١)

« واجتمع أحمد بالامام الشافعي وأخذ عنه الفقه وأصوله (٢) » . ولا
نعرف كثيرا عن تاريخ أحمد الى سنة ٢١٨ هـ ، التي بدأ فيها الخليفة المأمون
في امتحان الناس بالقول بخلق القرآن . ففي هذه السنة يظفر اسم أحمد
بغثة ، ويصبح علما واسع الشهرة . ولا بد أنه درس على أبي يوسف ،
قبل سنة ١٨٢ هـ ، وهي تاريخ وفاة ذلك القاضي الكبير . وبدأت علاقته
بالشافعي في سنة ١٩٥ هـ ، حين قدم الشافعي بغداد ، ودام هذا الاتصال
الى سنة ١٩٧ هـ ، وهي السنة التي توجه فيها الشافعي الى مكة

(١) انظر ايضا : تهذيب النوى ص ١٤٢ وما بعدها (* طبعة منير بالقاهرة > ص ١٥٦) ،
وطبقات الشافعية لابن السبكي ورقة ١٢٣ (* طبعة الحسينية بالقاهرة > ١ ص ٢٠١) ،
وتذكرة الحفاظ للذهبي ، الطبقة ٨ رقم ١٨ ، وقد أضاف الذهبي لشيخ أحمد بن حنبل ،
تجرب بن أسد ، كما ذكر أبو المحاسن (بن بفرى بردى) من شيخ أحمد : قبيصة بن عقبة ،
النجوم الزاهرة > ١ ص ٦٣٨ (* طبعة القاهرة > ٢ ص ٢١) ، وخلف ابن هشام البزار ،
النجوم > ١ ص ٦٨١ (طبعة القاهرة > ٢ ص ٢٥٦) ، واسماعيل بن ابراهيم بن بسطام ،
النجوم > ١ ص ٧١٥ (*) وصحته اسماعيل بن ابراهيم بن بسام ، انظر طبعة القاهرة للنجوم في
> ٢ ص ٢٨٦ (> ٢ ص ٣٠٣) . وفتية بن سعيد بن جميل ، النجوم الزاهرة ١ : ٧٣٤ (* القاهرة
> ٢ ص ٣٠٣ وقد عد الشهرستاني ، وكينا ، ويزيد بن هرون من الشيعة ، انظر الملل والنحل ،
ترجمة هاربريكر > ١ ص ٢١٨

(٢) القريري ورقة ٢

وبعد أن انقطع أحمد عنه فترة ، اتصل به مرة أخرى في مكة ، كما اتصل به بعد ذلك في بغداد مدة وجيزة ، عند عودة الشافعى إليها ، ليقیم بها شهرا في سنة ١٩٨ هـ ، وذلك قبل رحيله نهائيا عن العراق (١) . وانا نعلم أن أحمد كان ببغداد في هذا العام . وكان قبل ذلك قد جالس وكيع ابن الجراح ، ولازمه ، وذلك قبل وفاة وكيع في سنة ١٩٧ هـ . وكان أحمد جيد الحفظ للأحاديث التي تلقاها عن شيخه ، حتى انه أباح لابنه أن يأخذ أى كتاب شاء من كتب وكيع ، فيذكر له حديثا ، فيأتى أبوه باسناده ، أو يذكر اسنادا فيأتى أبوه بالحديث . وقد روى وكيع حديثه عن سفيان عن سلمة . ولكن أحمد استطاع أن يزيد في رواة شيخه عن سلمة جاء في طبقات الشافعية لابن السبكي (٢) : « وقال قتيبة بن سعيد : كان وكيع ، اذا كانت العتمة ، ينصرف معه أحمد بن حنبل ، فيقف على الباب ، فيذاكره ، فأخذ ليلة بعضادتي الباب ، ثم قال : يا أبا عبد الله ، أريد أن ألقى عليك حديث سفيان . قال : هات . قال : تحفظ عن سفيان ، عن سلمة بن كهيل كذا ؟ قال : نعم ، حدثنا يحيى . فيقول : سلمة كذا وكذا . فيقول : حدثنا عبد الرحمن . فيقول : وعن سلمة كذا وكذا . فيقول : أنت حدثنا ، حتى تفرغ من سلمة . ثم يقول أحمد : فتحفظ (عن) سلمة كذا وكذا ؟ فيقول وكيع : لا . فيأخذ في حديث شيخ شيخ . قال : فلم يزل قائما حتى جاءت الجارية ، فقالت : قد طلع الكوكب ، أو قالت : الزهرة . وقال عبد الله (بن أحمد بن حنبل) : قال لى أبى : خذ أى كتاب شئت من كتب وكيع ، فان شئت أن تسألنى عن شيء من الكلام ، حتى أخبرك بالاسناد ، وان شئت بالاسناد حتى أخبرك عن الكلام »

ودرس أحمد مع سفيان بن عيينة في مكة قبل سنة ١٩٨ هـ . وهى السنة

(١) مقال لدى خوى ، فى مجلة المستشرقين الألمانية ، المجلد ٤٧ ص ١١٥ ، وابن خلكان

رقم ٥٩٦

(٢) ورقة ١٢٢ (* طبعة الحسينية بالقاهرة - ١ من ٢٠٠)

التي مات فيها سفيان . وليس لدينا ما يعيننا على تحديد التاريخ الذي درس فيه معه ، ولا شك أن هذه الدراسة كانت في مواسم الحج . فقد حج أحمد خمس حجج ، ثلاثا منهن راجلا (١) . ومن الراجح أن طلبه للحديث كان إبان إقامة الشافعي بمكة . فقد ذكر السبكي أنه حدث في مناسبتين ، أن قامت مناظرتان بين الشافعي واسحق بن راهويه ، وكان أحمد بن حنبل من شهودهما (٢)

والحادث التالي قوى في دلالة على أخلاق الرجل ، فحين كان أحمد بمكة ، سُرقت ثيابه ومتاعه ، إبان غيبته عن مسكنه في الساعات التي كان يشتغل فيها بدراسة الحديث عن شيخه سفيان بن عيينة . وعند عودته أخبرته امرأة البيت بالسرقة . ولكنه لم يستفسر عن شيء سوى أوراقه وألواحه . ولما أنتبى بوجودها لم يسأل عن شيء سواها . كما أنه قد اضطر ، بسبب تمزق ثيابه وتهللها إلى التخلف لعدة أيام عن قاعة الدرس ، إلى أن دفع القلق عليه زملائه من طلاب الحديث إلى اقتقاده . وأن يعرضوا عليه تكسب قدر قليل من المال لتغيير ثيابه . ولكنه لم يقبل بأي حال ما عرضوه عليه من صلات أو قروض . فقد أورد أبو نعيم في الحلية : حدثني أبي : حدثنا أحمد ، قال : أُملى عليّ ، عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، من حفظه ، قال : نزلنا بمكة دارا ، وكان فيها شيخ يكنى بأبي بكر بن سماعة ، وكان من أهل مكة . قال : نزل علينا أبو عبد الله في هذه الدار ، وأنا غلام ، قال : فقالت أمي : الزم هذا الرجل فاخدمه ، فإنه رجل صالح . فكنت أخدمه . وكان يخرج لطلب الحديث . فسرق متاعه وقماشه . فجاء ، فقالت له أمي : دخل عليك الثراق ، فسرقوا قماشك . فقال : ما فعلت الألواح ؟ قالت له أمي : في الطاق . قال : وما سأل عن شيء غيرها (٣) «

(١) تهذيب الاسماء للنووي ص ١٤٤ (* طبعة منير بالقاهرة - ١ ص ١١٢)

(٢) طبقات الشافعية لابن السبكي ورقة ١٥٧ ، ١٥٨ (* طبعة الحسينية بالقاهرة - ١ ص ٢٣٦)

(٣) ورقة ١٤٢ (* الحلية طبعة القاهرة - ٩ ص ١٨٠)

قال أبو ثَعِينَم : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثنا علي بن الجهم بن بدر . قال : كان لنا جار ، فأخرج إلينا كتابا ، فقال : أتعرفون هذا الخط ؟ قلنا : نعم ، هذا خط أحمد بن حنبل . فقلنا له : كيف كتب ذلك ؟ قال : كنا بمكة مقيمين عند سفيان بن عيينة ، ففقدنا أحمد بن حنبل أياما لم نره . ثم جئنا إليه نسأل عنه . فقال لنا أهل الدار التي هو فيها : هو في ذلك البيت . فجئنا إليه ، والباب مردود عليه . وإذا عليه خُلُقَان . فقلنا : يا أبا عبد الله ، ما خبرك ؟ لم نرك منذ أيام ، قال : مشرقت ثيابي . فقلت له : معي دنانير ، فإن شئت خذ قرصا ، وإن شئت صلة . فأبى أن يفعل . فقلت : تكتب لي بأجرة ؟ قال : نعم . فأخرجت دينارا وأبى أن يأخذه . وقال : اشتتر لي ثوبا واقطعه نصفين . فأومأ أنه يأتزر بنصف ، ويرتدي بالنصف الآخر . وقال : جئني بقيته . ففعلت فجئت بورق . فكتب لي ، فهذا خطه (١)

أما عبد الرزاق مُحَدِّث اليمن ، فقد لقيه أحمد ، لأول مرة بمكة ، حيث كان الامام يؤدي فريضة الحج برفقة يحيى بن معين (٢) وقد اعتزما بعد اتمام الحج أن يسافرا الى صنعاء في اليمن وأن يأخذا الحديث عن عبد الرزاق . ولكنهما لما وصلا مكة لقيا شيخهما عبد الرزاق الذي جاء مثلهما لأداء فريضة الحج . وقد قدم يحيى بن معين أحمد بن حنبل لعبد الرزاق وأعلمه برغبتهما في أخذ الحديث عنه . وحدد ابن معين موعدا مع عبد الرزاق لتلقى الحديث في مكة بدلا من السفر الى صنعاء . وقد أنبأ ابن معين أحمد بهذا ، غير أن أحمد سألَه لِمَ قام بعمل كهذا ؟ فأجاب ابن معين بأن هذا يوفر مشاق الرحلة شهرا في الذهاب ومثله في العودة ، فضلا عن اقتصاد كافة النفقات في الطريق . غير أن أحمد أعلن أن مثل هذه الاعتبارات

(١) الحلية ورقة ١٤٢ (* طبعة القاهرة ج ٩ ص ١٧٧)

(٢) أبو الفداء : المختصر في تاريخ البشر ، طبعة ريسكة ج ٢ ص ١٨٦

لا تغير ما اعتزمه من نية صالحة . وفي النهاية سافرا الى صنعاء . وتلقيا الأحاديث هنالك عن عبد الرزاق . ووصف المقرئ (١) هذا اللقاء فقال : « حَجَّ أحمد حجات ، رافق في بعضها يحيى بن معين ، واتفقا على أنهما بعد انقضاء الحج ، يمضيان الى صنعاء اليمن ، يأخذان الحديث عن عبد الرزاق ، فوجداه في الطواف . فلما فرغ اجتماعا عليه . وكان أحمد لا يعرف شخصه ، وإنما يعرفه باسمه . فقال له يحيى بن معين : هذا أخوك أحمد بن حنبل . فقال : حيَّاه الله ، انه ليبلغني عنه كل ما أسر به ، ثبَّته الله تعالى ، على ذلك . ثم واعد يحيى ، الشيخ على قراءة . فلما انصرفا عنه ، قال أحمد لابن معين : لِمَ أخذت على الشيخ الموعد ؟ فقال له يحيى : قد أراحك الله مسيرة شهر ورجوع شهر والنفقة . فقال الامام أحمد : ما كان الله ليراني ، وقد نويت نيَّةً أفسدَها بما تقول . ثم سافرا الى صنعاء اليمن وأخذاه عنه بها »

وقد احتمل أحمد كثيرا من المشاق في طريقه الى صنعاء . وعرض رفاقؤه أن يقرضوه ما يكفى من المال ، ليُجَنَّب نفسه متاعب السفر ، ولكنه أبى وعمل مع الجمَّالين في القافلة ليتكسَّب نفقات رحلته . ولما بلغ صنعاء ، أقام بها في ضنك وحرمان . وكان يقدر أن يدفع عن نفسه ما يعاينه ، لو أنه قبِل مواساة أصحابه . وذكر عبد الرزاق نفسه أن أحمد لازمه قرابة عامين . وانه عندما قدِم ، بذل له مالا يستعين به . لأن البلد لا تنفق فيها تجارة . ولكن أحمد أصَرَ على ابائه ، لأن عنده ما يكفيه »

وقد وصف ذلك أبو ثَعِينَم (٢) ، فقال : « لما خرج أحمد بن حنبل الى عبد الرزاق ، انقطعت به النفقة ، فأكرى نفسه من بعض الجمَّالين الى أن وافى صنعاء . وقد كان أصحابه عرضوا عليه المواساة ، فلم يقبل من أحد شيئا ... يقول (عبد بن حميد) : سمعت عبد الرزاق يقول :

(١) المقرئ ورقة ٧

(٢) الحلية ورقة ١٤١ ب (* طبعة القاهرة - ١٧٤٩)

قَدِمَ علينا أحمد بن حنبل هاهنا . فأقام سنتين الا شيئا . فقلت له : يا أبا عبد الله ، خذ هذا ، لشيء دفعه اليه ، فانتفع به ، فان أرضنا ، ليست بأرض متنجس ولا مكسب ، وأرانا عبد الرزاق كفته ، مدها فيها دنائير . فقال أحمد : أنا بخير . ولم يقبل مني »

والأحاديث التي أخذها عن شيخه عبد الرزاق ، هي رواية الزهري عن سالم بن عبد الله ، عن أبيه . وأحاديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة . وكان أحمد مجتهدا موقفا في أخذه الحديث عن عبد الرزاق قبل سنة ٢٠٠ هـ ، لأن مُحَدِّث اليمن ، اضطرب حفظه ، واختلت روايته بعد هذا التاريخ

روى أبو نعيم (١) : « لما قدم أحمد بن حنبل مكة من عند عبد الرزاق ، رأيت به شحوبا ، وقد تبين عليه أثر التَّصَبِّ والتعب ، فقلت (أى أحمد ابن ابراهيم الدورقي) : يا أبا عبد الله ، لقد شَقَّقْتَ على نفسك في خروجك الى عبد الرزاق . فقال : ما أهون الشَّقَّةَ فيما استفدنا من عبد الرزاق ، كتبنا عنه حديث الزهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، وحديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضى الله عنه ... قال أبى (أى أبو عبد الله) : ما كتبنا عن عبد الرزاق من حفظه شيئا الا المجلس الأول ، وذلك أنا دخلنا بالليل ، فوجدناه في موضع جالسا ، فأملى علينا سبعين حديثا ، ثم التفت الى القوم ، فقال : لولا هذا ما حَدَّثْتُكم ، يعنى أبى (أى أبو عبد الله) . قال أبى (أبو عبد الله) : وجالس عبد الرزاق مَعْمَرًا (الذى توفى سنة ١٥٣ هـ) تسع سنين ، فكان يكتب عنه كل شيء . يقول : قال عبد الله : وكل من سمع من عبد الرزاق بعد المائتين فسماعه ضعيف ، وسمع منه أبى قديما »

ومما يتفق وحرص أحمد على اتباع سنة النبي (عليه السلام) انه عمل بكل ما جاء في الاحاديث التي تلقاها عن شيخه عبد الرزاق ، حتى انه

احتجم كما احتجم النبي . قال المقرئى (١) : وصح عن الامام أحمد أنه قال : ما كتبت حديثا الا وقد عملت به ، حتى مرّ بى أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، احتجم وأعطى أبا طيّبة الحجّام ديناراً ، فاحتجمت وأعطيت الحجّام ديناراً »

وقد راسل الامام أحمد ، لمدة من الزمن ، اسحق بن راهويه ، الذى ذكره ابن النديم فى كتابه الفهرست (٢) بأنه من جلة أصحاب أحمد بن حنبل ، الى أن أخذ اسحق رقعة توصية للأمير عبد الله بن طاهر ، كتبها له يحيى ابن يحيى ، فأكرمه الأمير ، وقضى دينه ورفع منزلته

كتب السبكي (٣) : « ركب اسحق بن راهويه دين ، فخرج من مرو ، وجاء نيسابور ، فكلّم أصحاب الحديث يحيى بن يحيى فى أمر اسحق ، فقال : ما تريدون ؟ قالوا : تكتب الى عبد الله بن طاهر ، رقعة ، وكان عبد الله أمير خراسان ، وكان بنيسابور . فقال يحيى : ما كتبت اليه قط . فألحّوا عليه . فكتب فى رقعة : الى عبد الله بن طاهر ، أبو يعقوب اسحق ابن ابراهيم ، رجل من أهل العلم والصلاح . فحمل اسحق الرقعة الى عبد الله بن طاهر . فلما جاء الى الباب ، قال للحاجب : معى رقعة يحيى ابن يحيى ، الى الأمير . فدخل الحاجب ، فقال له : رجل بالباب ، زعم أن معه رقعة يحيى بن يحيى الى الأمير . فقال : يحيى بن يحيى ؟ قال : نعم . قال : أدخله . فدخل اسحق وناوله الرقعة . فأخذها عبد الله وقبلها ، وأقعد اسحق بجانبه ، وقضى دينه : ثلاثين ألف درهم ، وصيّره من ندمائه »

وكفى بهذا الحادث ، فى نظر أحمد ، أن يكون سببا يحمله على الكف عن مراسلة اسحق بن راهويه (٤)

(١) المقرئى ورقة ٧

(٢) الفهرست لابن النديم طبعة فلوجل - ١ ص ٢٣٠ (**) طبعة التجارية بالقاهرة ص ٢٢١

(٣) طبقات الشافعية ورقة ١٥٦ (**) طبعة الحسينية بالقاهرة - ١ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤

(٤) زيادة عن الاصل لتوضيح اقتباس المؤلف

جاء في تهذيب النووى (٢) عن صالح بن أحمد بن حنبل : « قال : وأمسك أبى عن مكاتبة اسحق بن راهويه ، لما أدخل كتابه الى عبد الله بن طاهر وقرأه »

٣ - تصدر احمد للحديث

كان أحمد بن حنبل معدودا من الثقات الاثبات ، وهو ما يزال شابا ، معروفا بصدقه وثبته ، على الرغم من صغر سنه . كما كان في مجالس العلم بين الشيوخ مهيبا موقرا

« قال أبو نصر : سمعت عَبد بن حَمَيد يقول : كان في مسجد أظنه ببغداد ، وأصحاب الحديث يتذكرون ، وأحمد يومئذ شاب ، الا أنه المنظور اليه من بينهم (١) »

ولا ندرى في أية فترة في تاريخ حياته كان أكثر نشاطا واشتغالا بالحديث والتصنيف ، ولكننا نعلم أن الرياسة في الحديث وروايته ، كانت قد انتهت اليه ، لما بدأ المأمون في امتحان الناس بخلق القرآن ، وظل يروى الاحاديث ويلقنها الى ما بعد خلافة الواثق بقليل ، حين أمره هذا الخليفة بالكف عن القاء الدروس . ويحتمل أن يكون قد عاود تحديثه لعام أو أكثر ، بعد مبايعة المتوكل بالخلافة . ولكنه لما ذهب الى العسكر في سنة ٢٣٧ هـ ، أقسم ألا يَروى حديثا بتمامه ما دام حيا ، ويظهر أنه برّ بقسمه (٢)

(٢) تهذيب النووى ص ١٤٤ وما بعدها (طبعة منير بالقاهرة ح ١ ص ١١٢ ، ويلاحظ ان التاج السبكي علق على العبارة السابقة قائلا : « انظر ما كان أعظم أهل العلم عند الامراء ، وانظر ما أدنى هذه الكلمة واقصر هذه الرقعة ، وما ترتب عليها من الخير . وما ذلك الا لحسن اعتقاد الامير ، وصيانة أهل العلم أيضا ، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم » ومع ما تدل عليه هذه العبارة من تتأزم السبكي وتحصره على هذا العصر ، فان تقاليد المحدثين في القرن الثالث الهجرى كانت تقضى بمقاطعة كل محدث يتصل بالامراء او يتقلد من السلطان عملا ، اذ ان هذا يجعله متهمًا في روايته

(١) الحلية لأبى نعيم ورقة ١٤٤ ب (٢) طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٨٦

(٢) انظر نهاية الفصل الثانى واول الفصل الثالث من هذا الكتاب

٤ - مؤلفات احمد بن حنبل وتصانيفه

ولا نعلم عن كتب أحمد بن حنبل وتصانيفه الا القليل . وقد « حُزِرَتْ » كتبه اثني عشر حملا وعدلا ، كل ذلك كان يحفظه عن ظهر قلبه (١) . وقد بلغنا من أسماء كتبه : كتاب العلل ، كتاب الفرائض ، كتاب التفسير ، كتاب الناسخ والمنسوخ ، كتاب الزهد ، كتاب الايمان ، كتاب الأشربة ، كتاب المسائل ، كتاب الفضائل ، كتاب المسند ، كتاب طاعة الرسول ، كتاب الرد على الجهمية ، كتاب المناسك (٢)

٥ - المسند

وأعظم هذه الكتب المسند ، مؤلفه العظيم الذي نعرف عنه دون سائر مؤلفاته ، بيانات أوفى ، وتفصيلات أكثر ضبطا وتحديدا . ويشتمل على أحاديث مستندة لأكثر من سبعمائة صحابي ، وقد انتقاه جامعته وانتخله من سبعمائة ألف حديث (وفي تقدير آخر من سبعمائة ألف وخمسين ألف

(١) تهذيب النووي ص ١٤٣ (※) منبر بالقاهرة - ١ ص ١١١)

(٢) الفهرست لابن النديم - ١ ص ٢٢٩ (※) طبعة التجارية بالقاهرة ص ٣٢٠ . ويلاحظ ان ياتون لم يخصص حيزا في رسالته لتحقيق أسماء المؤلفات التي كتبها الامام أحمد او التي تنسب اليه ، كما لم يبحث فيما لا يزال باقيا . واعتقد أن أى بحث في سيرة الامام لا يعنى فيه بمؤلفاته بمد بحثا ناقصا . ولم يصلنا من كتب أحمد التي ذكرها ابن النديم سوى مؤلفه الضخم المسند ، وكتاب الرد على الجهمية وهو رسالة صغيرة نشرها عيسى الحلبي بالقاهرة دون تاريخ للطبع . وتوجد كتب أخرى للامام أحمد لم يذكرها ابن النديم وهي : ١ - كتاب الصلاة وما يلزم فيها وهو رسالة قصيرة ظهرت في عدة طبعات بالقاهرة ٢ - كتاب السنة وهو رسالة قصيرة نشرت مع كتاب الرد على الجهمية ، وهو أيضا غير كتاب كبير نوعا ، بهذا العنوان لابن الامام أحمد ، واسمه عبدالله . وقد نشر يمكة في سنة ١٣٤٩ هـ - ٣ - كتاب الورع ، ولعله كتاب الايمان الذي ذكره ابن النديم ، وقد نشره الكردي بالقاهرة في سنة ١٣٤٠ هـ في ١٢٦ صحيفة من القطع الصغير ٤ - كتاب مسائل الامام أحمد ، ولعله كتاب المسائل الذي ذكره ابن النديم ، وقد جمعه أبوداود السجستاني صاحب السنن ونشره وشيد رضا بمطبعة المنار بالقاهرة في سنة ١٣٥٣ هـ في ٣٢٨ من القطع المتوسط . ولا بد أن توجد مقتبسات من مؤلفات أحمد في كتاب أبي بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلال البغدادي واسمه : الكتاب الجامع لعلوم أحمد بن حنبل « وهو مخطوط بالمتحف البريطاني رقم ١٦٨ بالملحق ، راجع كتاب هنرى لاوست ، بحث في المبادئ الاجتماعية والسياسية لتقى الدين أحمد بن تيمية (بالفرنسية) - المعهد الفرنسي بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م ص ٦٣٣

حديث) ، ويشتمل المسند على ثلاثين ألف حديث (وفي روايات أخرى على أربعين ألف حديث (٢٠)

وقد باهى أحمد بأن ما يحتويه مسنده وما يمكن أن يشتمل عليه ، يعد أصلاً صحيحاً يحتاج به ، وإن ما لم يأت به من حديث ، لا يثبته إليه . فمسنده « أصل من أصول هذه الأمة »

وقد قال أحمد : « ان هذا الكتاب قد جمعته واثبتته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً ، فيما اختلف فيه المسلمون من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجعوا إليه ، فإن كان فيه ، والا ليس بحجة » . وقال : « عملت هذا الكتاب اماماً اذا اختلف الناس في سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رجع إليه » . وقال عبد الله : « خرج أبى المسند من سبعمائة ألف حديث » . وقال أبو موسى المدينى (٢١) : « ولم يخرج (أحمد) الا عمّن ثبتت عنده صدقه وديانته ، دون من طعن في أماته » . ثم ذكر باسناده الى عبد الله بن الامام أحمد ، رحمه الله عليهما ، قال : « سألت أبى عن عبد العزيز بن أبان ، فقال : لم أخرج عنه في المسند شيئاً ، لما حدثت بحديث المواقيت تركته . وقال أبو موسى : « فأما عدد أحاديث المسند ، فلم أزل أسمع من أفواه الناس أنها أربعون ألفاً ، الى أن قرأت على أبى منصور بن زريق ببغداد ، قال : أنبأنا أبو بكر الخطيب قال : قال ابن المنادى : لم يكن في الدنيا أروى عن أبيه منه ، يعنى عبد الله

(٢٠) قدر ابن خلدون احاديث المسند بخمسين ألف حديث ، راجع المقدمة طبعة المهدى بالقاهرة سنة ١٩٣٠ م ص ٣٧٢ . وقدرها جولد يستهر بما يتراوح بين ٢٨ ، ٢٩ ألف حديث ، انظر مادة أحمد بن حنبل في دائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول ص ١٩٩ : ٢٠١ ، في النسخة الفرنسية ، وتابعه في هذا التقدير « نالينو » المستشرق الايطالى انظر دائرة المعارف الايطالية في مادة أحمد ح ٢ ص ٢٩ . ويقوم الشيخ أحمد محمد شاكر بترقيم أحاديث المسند واحصائها في الطبعة المحققة للمسند التى يخرجها والتى نشرت دار المعارف اول اجزائها في سنة ١٩٤٦ م بالقاهرة

(٢١) هو الحافظ ابو موسى المدينى المتوفى سنة ٥٨١ هـ ، له رسالة صغيرة اسمها : خصائص المسند ، تبحث في مسند الامام أحمد ، وقد نشرها الشيخ أحمد محمد شاكر مصدراً بها الجزء الاول من المسند ، القاهرة سنة ١٩٤٦ م

ابن الامام أحمد ، لأنه سمع المسند وهو ثلاثون ألفا ، والتفسير وهو مائة ألف وعشرون ألفا (١) ، وذكر ابن النديم في الفهرست أن عدد أحاديث المسند أربعون ألفا (٢)

والمسند مرجع طائر الصيت في بيئات الفقه والحديث وسائر العلوم الدينية في العالم الاسلامي . وكان ولا يزال مصدرا ، يستقى منه كثير من المؤلفين ، ويجعلونه عُمدة لهم ، في وضع مؤلفات أصغر من المسند حجما . غير أن ضخامته وسعة مادته ، ومَنَحاه في ترتيب الأحاديث ترتيبا يَكِد الباحث ويَضْجِرُه ، كان من العوائق التي حالت دون كثرة تداوله والانتفاع به . وفي الحق أنه ما من فرد استطاع أن يستوعبه أو يحيط به ، وربما تَدَرَ من قدر على نسخه بمفرده . ولذا بينا نرى أجزاء من الكتاب مخطوطة بأقلام مختلفة ، لا نجد اليوم من نُسَخِه المخطوطة الكاملة سوى نسخة واحدة (٣)

ولا أثر اليوم للمسند كما دونه أحمد (٤) . ويظهر أن هذا المسند لم يتجاوز العصر الذي كُتِب فيه ، لأن أبا عبد الرحمن عبد الله بن أحمد ابن حنبل الذي حرر مسند أبيه بعد وفاته (٥) ، وأضاف اليه زيادات من عنده ، يتكلم في هذا المسند ، عما سمعه من أبيه ، وما قرأه له من نسخته (أي من نسخة عبد الله) التي نقلها عن الأصل ، وما جمعه من كتب أبيه وأوراقه ، ثم أدرج في النسخة التي قام بتحريها ، هذه المادة كلها (٦)

(١) طبقات الشافعية للتاج السبكي ورقة ١٣٣ (٢) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ٢٠٢

(٢) ح ١ ص ٢٢٩ (٣) نص عبارة ابن النديم كما وردت في ص ٣٢٠ من طبعة التجارية بالقاهرة هو : كتاب المسند يحتوى على نيف وأربعين ألف حديث

(٤) جولد تسيهر في مجلة المستشرقين الألمانية مجلد ٥٠ ص ٤٦٦ وما بعدها

(٥) وقد اعتمد باتون في بيانه عن المسند على هذا البحث القيم للمستشرق جولد تسيهر وعنوانه : « مواد جديدة في مؤلفات الحديث عن المسلمين » ، ويستغرق من ص ٤٦٥ الى ص ٥٠٦ من المجلة المذكورة . وقد كتبه جولد تسيهر في سنة ١٨٩٦ م مناسبة طبعة المسند التي نشرت بالقاهرة في تلك السنة . ونظرا لاهيته نرجو أن نذيل به رسالة باتون

(٦) جولد تسيهر في مجلة المستشرقين م ٥٠ ص ٤٧٣

(٥) المصدر السابق ص ٤٧٢ ، ص ٥٠٤

(٦) المصدر السابق ص ٤٩٧

وفى بعض الحالات يقول فى بعض مروياته انه « يعتقد » أنه تلقى حديث كذا ، عن أبيه فى رواية الراوى الفلانى التى تلقاها عن فلان ، وأنه أدرجها فى مسند أحد الصحابة ، (ويذكر اسم واحد منهم ، الى غير ذلك) وتشير هذه الأدلة كلها الى أن عبد الله بن أحمد ، لم يرجع الى كتاب يستعين به للاستيثاق من الأحاديث التى كان يرويها من حفظه

فالمسند كما وصلنا اليوم هو فى الصورة المُنقَّحة المُعَدَّلة التى قام بتحريرها عبد الله بن أحمد بن حنبل ، كما روت لنا مصادرنا أن أبا عمر محمد بن عبد الواحد ، المتوفى سنة ٣٤٥ هـ ، كتب نسخة للمسند ، أضاف اليها الأحاديث التى زادها مَحَرَّرَة عبد الله بن أحمد . وفى عصر متأخر ، وضع أبو الحسن بن عبد الهادى السندى ، المتوفى سنة ١١٣٩ هـ ، شرحا كبيرا للمسند فى ثمانين قسما ، جاء فى عشرة مجلدات . وقد صنَّف زين الدين عمر بن أحمد الشَّمَّا الحلبى (١) ، مختصرا للمسند أسماء : « الدر المنتقد من مسند أحمد » وأخيرا عمد أحد علماء بيت المقدس ، وهو أبو بكر محمد ابن عبد الله المقدسى ، الى ترتيب المسند ترتيبا أبجديا ، وفق أسماء الصحابة الذين رُوي عنهم الأحاديث ، وسمَّاه : « ترتيب مسند أحمد على حروف المعجم (٢) » . وظهرت للمسند طبعة بالقاهرة فى سنة ١٨٩٦ م (٣) ، اعتمد فيها فى الغالب على نسخة خطية فى مكتبة السادات الوفائية

وقد فخر أحمد بمؤلفه الضخم (٤) ، الذى رُمى فيه الى غاية موسوعية ، طالما أن هذه الأحاديث تتعلق بالسنة النبوية . ويبدو أنه حاول أن يحيط بكل شيء ، يمكن فى نظره ، أن يعطى صورة كاملة غير منقوصة ، عما كانت

(١) كشف الظنون لحاجى خليفة ح ٥ ص ٥٢٤ وما بعدها

(٢) جولد تسيهر فى مجلة المستشرقين م ٥٠ ص ٢٧٠

(٣) المصدر السابق ص ٢٦٨

(٤) لقد فهم المؤلف من عبارة أحمد فى وصف مسنده بأنه أصل للسنة يرجع اليه بأن أحمد كان يفخر به ، والمتصفح لسيرة أحمد يجد أنه كان أبعد الناس من الفخر والمباهاة ، بل كان يمتنع الشهرة ويجد السلامة فى خمول الذكر

عليه سُنَّةُ النبي (عليه السلام) ، لذا عمل على أن يدرج في كتابه كل الروايات ، الموثوق بصحتها ، المروية عن الصحابة . وقد ترتب على ذلك ، أنه في انتقاء الأحاديث ، لم يلتزم من الشروط الا أيسرها ، ومن الموازين الا أرحبها وأسهلها . وكان مَعَوَّلَه في اختبارها وتمييز صحيحها من زائفها هو صحة الاسناد . فمن اتهم من رجال السند في صدقه ، أو كان مدخولا في دينه ، جرحه ، ولم يأخذ بروايته (١) . كما استعان أحمد بمقياس آخر ، وهو اسقاط الأحاديث التي تتعارض تعارضا واضحا مع ما جاء بالقرآن ، أو ثبت في السُنَّة ثبوتا قاطعا . ولكن لم تراعى المطابقة بينهما مراعاة دقيقة (٢) . وأخيرا أقصى أحمد عن مسنده الأحاديث المتماثلة ، ولو أنه لم يلتزم هذا في كافة الحالات (٣) . هذا وانا لتتوقع أن نصادف في كتاب موسوعي كالمسند ، جميع أنواع الأحاديث ، كأحاديث العبادات والأحكام ، والآداب والرقائق ، والقصص والأساطير ، وأحداث التاريخ ، ونوادر التراجم (٤) . غير أننا لا نجد ترتيبا موضوعيا ، كالذي نراه في صحيح البخارى ومسلم . فالأحاديث التي أخرجها هذان المحدثان هي أقل مما أخرجهم أحمد ، وأقصر مدى من حيث الموضوعات أو الأبواب التي تتناولها . وذلك لأن البخارى ومسلم وضعوا نصب أعينهما غاية خاصة ، أتاحت لهما منهاجاً ، سارا على مقتضاه . أما غاية أحمد ، فكانت لا تتعدى جمع الأحاديث الصحيحة وتكديسها ، ولم يغب شيئا سوى هذا

ومن الراجح أيضا أن مواد المسند جُمِعت خلال سنين طويلة . وان الجهود التي بذلها واضعه في تأليفه لم تكن جهودا متصلة مضطربة . كما أنه من المحتمل أيضا ، أن الكتاب بعد الفراغ من تدوينه ، لم يراع عند

(١) المصدر السابق ص ٤٧٨

(٢) جولد تسيهر في مجلة المستشرقين م ٥٠ ص ٤٨٠

(٣) المصدر السابق ص ٤٨١

(٤) المصدر السابق ص ٤٧٤

استعماله الربط بين مسانيده واحكام تسلسلها (٢). فقد يقرأ قسما في وقت ما ، ثم قسما آخر . كما يروى جزءاً لأحد المستمعين وجزءاً آخر لمستمع آخر . (ولم يسمع أحد " المسند بتمامه من الامام أحمد ، سوى ثلاثة) . وهذه الحقائق أعاقَت أحمد عن القاء نظرة شاملة لكافة أجزاء الكتاب في وقت واحد ، أو تخيُّل صورة كاملة تجمع أشتاته ، يمكنه أن يعجل فكره فيها ، فقد كان مقصوراً على جمع أشتات الأحاديث الصحيحة ، دون أن يشايح فكرة من الأفكار ، أو يؤيد حركة من الحركات ، قد تفيدها معاني هذه الأحاديث . اذ لم يكن من قصده أن ينصب نفسه حكماً أو عاملاً للتأويل والتوفيق

وما من نص لدينا يدل على أن أحمد ، اتهم في حياته بوضع الأحاديث وانتحالها (١) ، وانما يبدو ميله الى جانب التساهل واللين في أسانيده ، مع أن المعروف عنه والمفروض فيه أنه حجة تقادة في الاسناد . فمن عدم ضبطه ، أن بالمسند عنعنات طويلة ، تشتمل على مجاهيل ، حتى في الأسانيد الأولى للأحاديث التي أخرجها . ومع ذلك فان أحمد يشير اشارة خاصة الى أنه لا يرى مانعاً من قبول الأحاديث التي رواها هؤلاء الضعفاء . وأخيراً كان

(*) ان مادة المسند متنوعة ، كما ان امانة المؤلف في جمعها هي فوق كل شك . ومع ذلك فقد تسربت الى مسند أحمد احاديث يقول المشتغلون بالحديث بأنها احاديث ضعيفة . وينسب ابن تيمية ما يتبين انه موضوع من احاديث المسند الى زيادات القطيعي التي اضافها لما روى عن عبدالله بن أحمد . وقد لقي واعظ بغداد الشهير أبو الفرج بن الجوزي المتوفى سنة ٥١٧هـ عننا كبيراً من الحنابلة ، لما قرر أن بالمسند احاديث ضعيفة . وقد صنف ابن حجر المسقلاني مؤلف الاصابة وشارح البخاري ، المتوفى سنة ٨٥٢ هـ كتاباً في الدفاع عن مسند أحمد ، اسمه : القول المسدد في اللب عن المسند ، للامام أحمد ، طبع في حيدر اباد الدكن سنة ١٢١٩ هـ في ١٠٤ صحيفة

(١) لم يعترض على صحة الاحاديث التي احتج بها أحمد ، ابان امتحانه في حفرة المعتمس . وحين اتهم بأنه ينتحل الحديث فضب ، وعهد الى افحام خصومه . راجع الفقرة العربية بطولها التي استشهدنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب

أحمد يميل الى الرواية عن القصص (١) الذين لم يحظوا بتقدير العلماء ، ولو أن المحدثين لم يتحاموا الرواية عنهم اطلاقا

وقد قام عبد الله بن أحمد بمهمته في تحرير المسند في أمانة ودقة ، وكان يعنى بالاشارة الى ما أضافه للأحاديث التي أخرجها أبوه ، مثيرا تصويباته وشروحه ، مع النص في عبارة واضحة الى أنها من عمله وتأليفه . ويظهر أنه أفرد للأحاديث التي أضافها للمسند كتابا خاصا ، حمل هذا العنوان وهو : « زوائد مسند الامام أحمد بن حنبل لولده عبد الله الزاهد » . وكان عبد الله اذا ما سمع من أحد الرواة حديثا ، سبق لأبيه أن أخرجه في مسنده ، نص عبد الله على ذلك عند تدوينه لهذا الحديث (٢)

وقد قرأ أحمد المسند على ولديه : صالح وعبد الله ، كما قرأه على عمه اسحق بن حنبل . وتألف من هؤلاء الثلاثة ، الجماعة التي حطّيت بسماع السند بتمامه ، وتلقيه عن مؤلفه

ولعله قد تبين لنا مما كتبناه آنفا ، أن ما يحتويه هذا السفر العظيم من أحاديث ، رواها أحمد وأخرجها ليست مرتبة وفق الموضوعات التي تتناولها . فإن هذا الترتيب الموضوع لا نراه الا في ضرب آخر من مجموعات الأحاديث التي تسمى بالمصنّفات . وهى نوع من التأليف يرتبط بمرحلة أخرى من مراحل التطور في مؤلفات الحديث ، يختلف عن كتب المسانيد ، فالمسانيد

(١) جولد تسيهر في مجلة المستشرقين الالمانية م ٥٠ ص ٤٧١ وما بعدها ، و ص ٤٧٨ وما بعدها . وانظر أيضا تعليقات دى خوى على كتاب فتوح البلدان للبلاذرى ، والشذور العربية التاريخية في مادة : قص . ومن الطبيعى أن القصص كانوا موضع الريبة عند المتحدثين المتشددين في ضبط الحديث ، لانهم كفوم يحكون القصص ، لم يكن لهم من هدف جدى يجاوز التأثير في سامعيهم . ولكن من الجائز انهم كانوا يأتون ببعض الاحاديث الصحيحة . واذا ما راعينا المنهج الانتقادي الذى كان شائعا في ذلك العصر ، فإن أمثال هذه الاحاديث كانت تتوقف صحتها الى حد ما على ضبط ممتنها . غير أنها في الاغلب كانت تتوقف على صحة اسنادها

(٢) جولد تسيهر في مجلة المستشرقين م ٥٠ ص ٥٠١ وما بعدها . وقد قيل أيضا ان عبد الله أضاف زوائد لكتاب الزهد في مسند أبيه

التي يمثلها مسند أحمد ، مَرْتَبَةً تبعاً لأسماء رواتها ، من الصحابة ، أو المصادر الأولى للحديث ، أو وفق البلاد التي التقى فيها صاحب المسند بالرواة وأخذ عنهم . وانا لنتوقع أن نجد في كتب الحديث المنسقة على هذا الوضع ، أن كل مسند من مسانيدها يحمل طابعا خاصا ويتسم بِسِمَات معينة ، كما يكشف عن نزعة أو نزعات تشاكل هذه السّمات ، وذلك تبعاً لميول رجال السّنَد الأولين ، أو رغبات سكان البلاد التي روى أهلها هذه الأحاديث

وهذه الظاهرة التي لا مندوحة عنها عند انتهاج طريقة المسانيد ، ما هي الا مصادفة طارئة في ترتيب الأحاديث ، ولم تكن مما يقصده مؤلفو كتب الحديث . وقد صارت هذه المسانيد قليلة الجدوى ، بسبب طريقة ترتيبها الحاشدة لثَمَنِي الأبواب ، والجامعة لأكداس متراكمة من المادة الحديثية التي حُشِرَت بين دفتيها ، وتعذر الانتفاع بها كمصادر يمكن الرجوع اليها لثقلها واستغلاقها ، مما حمل (أبا بكر محمد بن عبد الله) المقدسي ، على أن يقوم بترتيب مسند أحمد ، وتصنيف أحاديثه وفق موضوعاتها (١) تيسيراً لمراجعتها

ولم يقلل من ثقل مسند أحمد وعسره أن الأحاديث التي يشتمل عليها ، مرتب بعضها طبقاً لأسماء رواتها من الصحابة ، وبعضها الآخر قد رتب تبعاً للبلاد التي رويت فيها هذه الأحاديث وجمعت منها (١)

وترتيب الأحاديث في هذا المسند ، كما ظهر في طبعة القاهرة التي نشرت حديثاً (في سنة ١٣١٣ هـ - ١٨٩٦ م) هو كما يلي :

المجلد الأول ، من الصحيفة الثانية الى ص ١٩٥ ، مسانيد الصحابة العشرة بما فيهم الخلفاء الأربعة الأوّل

(*) يقصد بكلمة موضوعات هنا الأبواب الخاصة بالحديث ، وليس المعنى الاصطلاحي لكلمة موضوعات في علم الحديث ويقصد بها الأحاديث الموضوعية التي تقابل الأحاديث الصحيحة .
(١) جولدسيهر في مجلة المستشرقين الألمانية ٥٠ ص ٢٦٩ وما بعدها

المجلد الأول ، من ص ١٩٥ الى ص ١٩٩ ، مسانيد أربعة آخرين من الصحابة ، ولم يثبّن سبب افرادهم

المجلد الأول ، من ص ١٩٩ الى ص ٢٠٦ ، مسند أهل البيت

المجلد الأول ، من ص ٢٠٦ الى نهاية المجلد

والمجلد الثانى والمجلد الثالث من الصحيفة الثانية الى ص ٤٠٠ ، مسانيد المشهورين من الصحابة

المجلد الثالث ، من ص ٤٠٠ الى ص ٥٠٣ ، مسند المكيين

المجلد الرابع ، من الصحيفة الثانية الى ص ٨٨ ، مسند المدنيين

المجلد الرابع ، من ص ٨٨ الى ص ٢٣٩ ، مسند الشاميين

المجلد الرابع ، من ص ٢٣٩ الى ص ٤١٩ ، مسند الكوفيين

المجلد الرابع ، من ص ٤١٩ ، الى نهايته ، والمجلد الخامس من الصحيفة الثانية الى ص ١١٣ ، مسند البصريين

المجلد الخامس ، من ص ١١٣ ، الى نهايته ، والمجلد السادس من الصحيفة الثانية الى ص ٢٩ ، مسند الأنصار

المجلد السادس ، من ص ٢٩ ، الى ص ٤٦٧ ، مسند النساء — وقد أدرج فيما بين الصفحات ٣٨٣ الى ص ٤٠٣ ، أحاديث تحت عنوان : « من مسند القبائل (١) »

ويتضح لنا أن كل قسم من الأقسام التى عددناها يسمى بالمُسند ، مثل مُسند المكيين ومُسند الأنصار ، كما أن المُسند هو عنوان الكتاب بكامل أجزائه (٢)

هذا وصف عام للمُسند الضخم الشهير الذى ألفه الامام أحمد بن حنبل

(١) المصدر السابق ص ٤٧٠ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٧٢ ، وعن المُسند أيضا أنظر كتاب جولدسيهر : دراسات اسلامية

(باللاتينية) ج ٢ ص ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٦٦ ، ٢٧٠ .

٦ - تلامذة أحمد

ولدينا أسماء جماعة ممن سمع الحديث من أحمد . فمنهم شيوخه :
عبد الرزاق ، وابن مهدي ، ويزيد بن هرون . ومن تلامذته : أبو الوليد ،
وعلى بن المديني ، والبخاري ، ومسلم ، وأبو داود ، والثذهلي ، وأبو
زُرعة الرازي ، وأبو زُرعة الدمشقي ، وإبراهيم الحربي ، وأبو بكر أحمد
ابن محمد بن هانيء الطائي الأثرم ، والبغوي عبيد الله بن محمد أبو القاسم ،
وهو آخر تلامذته (١) ، وابن أبي الدنيا ، ومحمد بن اسحق الصاغاني ،
وأبو حاتم الرازي ، وأحمد بن أبي الحواري ، وموسى بن هرون ، وحنبلي
ابن اسحق ، وعثمان بن سعيد الدارمي ، وحجاج بن الشاعر ، وعبد الملك
ابن عبد الحميد الميموني (٢) ، وبقى بن مخلد الأندلسي (٣) ، ويعقوب
ابن شيبة ، ودحيم الشامي ، وولدا أحمد : عبد الله ، وصالح

وكان أحمد بن حنبل في طريقة تعليمه ، يقرأ الحديث من الكتب ، ولا
يرويه من حفظه (٤) ، ولم يرو من حفظه الا عددا يقرب من نحو مائة
من الأحاديث . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : « ما رأيت أبى في حفظه ،
حدّث من غير كتاب ، الا بأقل من مائة حديث (٥) »

وقد اتبع هذه الطريقة وسار عليها على الرغم من أنه كان يعي كل
ما يصل الى علمه ، ويحفظه عن ظهر قلب ، وقد جعله هذا امام الحفاظ في

(١) تذكرة الحفاظ للذهبي الطبقة ١٠ رقم ٧٤ (٢) في الاصل الطبقة ٨ رقم ١٨ وهو خطأ

(٢) في الاصل : الميمون وصحته ما أثبتناه

(٣) تهذيب النوى ص ١٤٣ (٤) منير بالقاهرة ح ١ ص ١١٠ وضبط مخلد (وهو بتشديد
اللام في الطبعة الأوروبية لتهذيب النوى) خطأ ، وصحته مخلد ، انظر دي يونغ de Yong
في طبعته لكتاب المتشبه في أسماء الرجال للذهبي ، وانظر الفاموس المحيط ، والنجوم الزاهرة
لابي المحاسن ح ٢ ص ٣٢٨ . وقد أضفت دحيم الشامي لتلاميذ احمد ، وذلك نقلا عن طبقات
الشافعية للسبكي ورقة ١٣٣ (٥) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ٢٠١ ، وانظر أيضا تذكرة
الحفاظ للذهبي الطبقة ٨ رقم ٧٦ (٦) في الاصل رقم ٦٩ وهو خطأ

(٣) تهذيب النوى ص ١٤٣ (٤) منير بالقاهرة ح ١ ص ١١ : وروينا عن علي بن المديني ،
قال : قال لي سيدي احمد بن حنبل : لا تحدث الا من كتاب .

(٤) الحلية لأبي نعيم ورقة ١٣٩ (٥) طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٦٥

عصره . وحدث ذات مرة ، انه كان يلقي دروسه في الحديث على تلامذته ، فبعد أن حفظوها عن ظهر قلب ، وتهيأوا لكتابتها ، صاح أحمد وقال : « الكتاب أحفظ شيء » ، فيشب ويحيى بالكتاب (١) . وربما قصد بهذا ، مراجعة حفظه . ويبدو أن أحمد لم يتقاض من تلامذته أجرا على تعليمه ، سواء أكان الأجر لقاء قيامه بالتحديث أم مقابل تزويده تلامذته بأدوات الكتابة (٢)

٧ - علاقة أحمد بالشافعي

كان أحمد يخص الشافعي بخالص مودته ، وعظيم تقديره . وقد شهد بفضله بقوله : انه ما من أحد مسّ بيده محبرة وقلم الا وللشافعي في عنقه منة (٣) . وقد أعلن أنه لم يبت مدة ثلاثين سنة الا ويدعو الله للشافعي صديقه ويستغفر له (٤) . ولما سأل عبد الله أباه أحمد ، أي رجل كان الشافعي حتى يدعو له كل هذا الدعاء ، أجاب بأن الشافعي كان كالشمس للدنيا وكالعافية للناس (٥)

ويبدو لنا أن أحمد كان أيضا موضع تقدير الشافعي ومحبته ، فقد روى أن الشافعي قال له : « يا أبا عبد الله ، اذا صَحَّ عندكم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرونا به حتى نرجع اليه » . كما قيل ان أحمد قال : « قال لي محمد بن ادريس الشافعي : أنت أعلم

(١) تهذيب النووى ص ١٤٤ (※) منير بالقاهرة ح ١ ص ١١١ . وانظر ايضا دراسات اسلامية لجولد تسيهر ج ٢ ص ١٩٦ ، ١٩٧

(٢) تهذيب النووى ص ١٤٥ (※) في طبعة منير بالقاهرة ح ١ ص ١١٢ ، عبارة لا تفيد المعنى الذى ذهب اليه المؤلف : عن الحسن بن الحسين الرازى ، قال : حضرت بمصر عند بقال ، فسالني عن أحمد بن حنبل ، فقلت : كتبت عنه ، فلم يأخذ ثمن المتاع مني ، وقال : لا آخذ ثمن من يعرف أحمد بن حنبل ، وربما التبست هذه العبارة على المؤلف ، ففهم منها ، أن أحمد كان لا يأخذ ثمن أدوات الكتابة من تلامذته

(٣) تهذيب النووى ص ٦٣٠ (※) منير بالقاهرة ح ١ ص ٦٠

(٤) تهذيب النووى ص ٧٩٠ (※) منير بالقاهرة ح ١ ص ٥٠

(٥) المقرئى ورقة ٢

(※) وانظر دراسات اسلامية (بالالمانية) لجولد تسيهر ج ٢ ص ١٨١ (※) ظهرت ترجمة فرنسية =

بالأخبار الصحاح منا ، فإذا كان خبر صحيح ، فأعْلِمْنِي ، حتى أذهب اليه ، كوفيا كان أو بضر يا أو شاميا » . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : « جميع ما حَدَّث به الشافعي في كتابه ، فقال : حدثني الثقة ، أو أخبرني الثقة ، فهو أبي رحمه الله » . وزاد قائلا : « وكتاب (أى كتاب الشافعي) الذى صنَّفه ببغداد هو أعدل من الكتاب الذى صنَّفه بمصر ، وذلك أنه حيث كان هاهنا (ببغداد) ، يسأل الشيخ (أى الامام أحمد) ، فيُغيَّر عليه ، ولم يكن بمصر من يغيَّر عليه ، اذا ذهب الى خبر ضعيف » ثم قال : « وسمعت أبي يقول : استفاد منا الشافعي ما لم نستفد منه (١) »

سافر الشافعي الى مصر في سنة ١٩٨ هـ ، وأقام هنالك مدة تتراوح من شهرين الى ثلاثة ثم عاد الى مكة ، حيث بدأ منها رحلته الأخيرة الى مصر في نهاية سنة ١٩٩ هـ ، أو بداية سنة ٢٠٠ هـ . وقد ألَّف بالعراق كتاب الحج . أما زيارته الأولى لبغداد ، فكانت في سنة ١٩٥ هـ . ثم رحل منها الى مكة في سنة ١٩٧ هـ ، وعاد ليقم ببغداد شهرا في سنة ١٩٨ هـ (٢) . وقد قال الشافعي (فى أحمد ، فيما رواه حرمله) : « خرجت من بغداد ، وما خلَّفت بها أفقه ولا أروع ولا أزهد ولا أعلم من أحمد (٣) »

٨ - معاصرو أحمد

ومن شيوخ أحمد ببغداد : الهيثم بن جميل ، الذى كان عظيم الثقة بعدالة

لبعض فصول الجزء الثانى بعنوان : دراسات فى الحديث الإسلامى ، ترجمها ليون برشيه Leon Bercher - باريس سنة ١٩٥٢ م فى ٣٦٠ صحيفة ، والاصل الالمانى طبع فى مجلدين فى هاله Halle فى سنتى ١٨٨٩ م ، ١٨٩٠ م . ولم يكتب مثله فى تاريخ الحديث الإسلامى ولا يزال الى اليوم حافظا لقيمه العلمية

(١) الحلية لأبى نعيم ورقة ١٤٠ ب (٢) طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٧٠

(٢) دى خوى فى مجلة المستشرقين الالمانية مجلد ٤٧ ص ١١٥ ، وابن خلكان رقم ٥٦٩ .

(٣) طبقات الشافعية للسبكي ورقة ١٣٢ (٢) الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ١٩٩ ، ص ٢٠٠

وانظر ايضا ابن خلكان رقم ١٩

تلميذه وضبطه ودياته . وقد حدث مرة أن قيل له بأن أحمد بن حنبل خالفك في حديث معين ، فقال : « وكذبت أنه نقص من عمري وزاد في عمر أحمد بن حنبل (١) »

٩ - يزيد بن هرون

ومما هو جدير بالملاحظة أن أحمد بن حنبل اعتبر يزيد بن هرون من الحفاظ المتقين الذين تؤمن روايتهم للحديث . ويروى أن موسى ابن حزام الترمذي ، كان في طريقه الى أبي سليمان الجوزجاني ، ليستفسر منه عن بعض مسائل ، في كتب محمد بن الحسن . فقابل به أحمد بن حنبل (عند الجسر) ، فاستفسر منه عن مقصده . فلما علم به قال له أحمد : « العجب منكم ، تركتم الى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة ، وأقبلتم على ثلاثة الى أبي حنيفة . فلم يفهم ابن حزام ما يعنيه أحمد ، فقال له أحمد : يزيد بن هرون بواسط يقول : حدثنا حميد عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا يقول : حدثنا محمد بن الحسن عن يعقوب عن أبي حنيفة . فأضاف موسى بن حزام قائلا : فوق قوله في قلبي ، فاكترت زورقا من ساعتى ، فانحدرت الى أواسط ، فسمعت من يزيد بن هرون (٢) » ومن جهة أخرى حين ذهب أحمد بنفسه ليأخذ عن يزيد بن هرون ، سأل عنه يحيى بن سعيد القطان . فلما علم الأخير بالمكان الذى ذهب اليه أحمد قال : وأى شيء يصنع عند يزيد بن هرون ؟ (٣) وقد فسر ذلك بأن أحمد أكثر صلاحية لأن يكون شيخا ليزيد بن هرون ، لا لأن يكون تلميذا له

(١) الحلية لأبي نعيم ورقة ١٤١ (※) طبعة القاهرة ح ٨ ص ١٧٣

(٢) الحلية لأبي نعيم ورقة ١٤٤ ب (※) طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٨٥

(٣) الحلية ورقة ١٤٠ (※) طبعة القاهرة ح ١٦٩ ، ويلاحظ أن سؤال يحيى بن سعيد

سؤال استنكارى

١٠ - علي بن المدين

كان علي بن المدينى يُجِلُّ أحمد بن حنبل اجلالا عظيما ، كما كان أحمد يقدره حق قدره . وقد قيل ان علي بن المدينى ، لما قدم بغداد تَصَدَّر حلقة الحديث ، ومن شهودها أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وخلف ، والمتعینطى . فاذا تناظروا واختلفوا فى مسألة ما ، انتهوا الى رأى علي بن المدينى ، اذا ما علا صوته بالكلام فيها . « وكان أحمد لا يسميه بل يكتيه أبا الحسن ، تبجيلا (١) » . واذا كان أحمد قد انتهت اليه الرياسة فى الفقه فى عصره ، فان علي بن المدينى كان أعظم معاصريه بصرا باختلاف الحديث (٢) ، ويحيى بن معين آكتبهم له ، وأبو بكر بن أبى شيبة أحفظهم له (٣)

١١ - يحيى بن معين

وقال أحمد بن حنبل : « السماع من يحيى بن معين شفاء لما فى الصدور » . كما قال : « بأنه رجل خلقه الله لهذا الشأن ، يظهر كذب الكذابين » ، وأن « كل حديث لا يعرفه يحيى ليس بحديث » . ولما مات خلف من الكتب مائة قمطر وأربعة عشر قمطرا ، وأربعة حباب مملوءة كتباً . وهذا يؤيد ما قيل عنه بأنه أكثر المحدثين فى عصره كتابة للحديث (٤)

(١) تهذيب النووى ص ٤٤٣ (※) طبعة منير بالقاهرة ح ١ ص ٣٥١ وانظر ايضا دراسات اسلامية

لجولد تسيهر ح ١ ص ٢٦٧

(٢) السبكي ورقة ١٨٥ (※) الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ٢٦٦

(٣) تهذيب النووى ص ١٤٤ (※) منير بالقاهرة ص ١١١

(٤) تهذيب النووى ص ٦٢٨ (※) منير بالقاهرة ح ٢ ص ١٥٧ وان كلمة « جيات » يجب

ان تقرأ فيما يرجع ، حباب ومفردها حب ، انظر شرح دى خوى على المكتبة الجغرافية العربية (الحب بالضم الخابية فارسى معرب وجمعه حباب ، وفى الطبعة العربية بالقاهرة لتهذيب النووى حباب بالجيم

١٢ - الحسين بن علي الكرايسي

وكان الحسين بن علي بن يزيد أبو علي الكرايسي ، المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ، من معاصري أحمد بن حنبل . وكان اماما جليلا ، جمع بين علمي الفقه والحديث . وقد تفقّه أولا على مذهب أهل الرأي ، ثم تفقّه على الشافعي وأخذ عنه ، حتى أجيّز (١) بالتصدر للافتاء والتحديث . وقال الخطيب البغدادي : « حديث الكرايسي يعز جدا ، وذلك أن أحمد بن حنبل كان يتكلم فيه لما نال من ذكر سيء في نظره » ويرجع ذلك الى ولعه بعلم الكلام (٢) وبمذاهب المتكلمين عموما ، ثم الى ميله بصفة خاصة الى تطبيق النظريات الكلامية ، للوصول الى آرائه فيما يتعلق بالقرآن . وقد كان الكرايسي راسخ الايمان بأزلية القرآن ، ولكنه لما أفصح عن عقيدته هذه ، لم يرض أحمد بن حنبل ، فقد أخذ عليه أحمد قوله في مسألة اللفظ بالقرآن (٣) . ويبدو أنه استخف الى حد ما بمسائل وموضوعات ، كانت تعد في نظر أقطاب السنة على جانب كبير من القداسة والخطورة ، فانه مثلا لما أجاب سائله بأن لفظه بالقرآن مخلوق ، وهو رأى يتفق وعقيدة الامام أحمد ، بدّعه أحمد ، لأنه انتهى الى هذا الرأي بالنظر العقلي والاستنتاج ، وليس باتباع السنن . ولما بلغ الكرايسي قول أحمد فيه ، جحد رأيّه الأول ، وذهب الى أن اللفظ بالقرآن غير مخلوق كالقرآن تماما ولم يكن في هذا بطبيعة الحال بأوفر حظا في نيل موافقة الامام ، اذ عّد قوله الجديد بدعة ثانية . ويبدو أن مدار النزاع ، كما يتضح ذلك لأول وهلة ، يدور على منهج الكرايسي في البحث ، أكثر مما يدور على صحة النتائج التي انتهى اليها في آرائه الاعتقادية

(١) انظر معنى الاجازة في دراسات اسلامية لجولد تسيهر ح ٢ ص ١٨٩

(٢) انظر كتاب هوتسما Houtsma : المنازعات الاعتقادية (٤) باللغة الهولندية ونشر بليدن سنة ١٨٧٥ م ص ٨٧ وما بعدها للوقوف على أصل هذا المصطلح : « كلام » وتاريخ استعماله ، وانظر أيضا : الملل والنحل للشهرستاني ترجمة هاربريكر ح ٢ ص ٣٨٨ وما بعدها (٣) استخدمت هنا عبارة : « اللفظ بالقرآن » من حيث الاشارة الى التفوه بالقرآن في الكلام البشري . وفي الفقرة التالية أخذنا بها على أنها تفيد معنى أوسع

وقد أورد السبكي (١) هذه القصة ، فقال : « قيل للكرائيسى : ماتقول في القرآن ؟ قال : كلام الله غير مخلوق . فقال له السائل : فما تقول في لفظي بالقرآن ؟ فقال : لفظك به مخلوق . فمضى السائل الى أحمد بن حنبل ، فشرح له ما جرى . فقال : هذه بدعة . ثم اعتذر السبكي عن عبارة أحمد ، فقال : « والذي عندنا أن أحمد أشار بقوله : « هذه بدعة » ، الى الجواب عن مسألة اللفظ ، اذ ليست مما يَعْنِي المرء ، وخوض المرء فيما لا يعنيه من علم الكلام بدعة . فكان السكوت عن الكلام فيه أجمل وأولى . ولا يَظُنُّ بأحمد ، رحمه الله ، أنه يَدْعِي أن اللفظ الخارج من بين الشفتين قديم . ومقالة الحسين (الكرائيسى) هذه ، قد ثَقُلَ مثلها عن البخارى ، والحارث بن أسد المحاسبى ، ومحمد بن نصر المروزى ، وغيرهم ، وسيكون لنا عودة ، في ترجمة البخارى الى الكلام في ذلك

ونقل أن أحمد ، لما قال « هذه بدعة » رجع السائل الى الحسين (٢) ، فقال له : تلفظك بالقرآن غير مخلوق ، فعاد الى أحمد ، فعرفه مقالة الحسين ثانيا ، فأفكر أحمد أيضا ذلك ، وقال : هذه أيضا بدعة . وهذا يدل على ما تقوله من أن أحمد انما أشار بقوله هذه بدعة ، الى الكلام في أصل المسألة . والا فكيف اثبات الشيء ونفيه ؟ فافهم ما قلناه ، فهو الحق ان شاء الله تعالى ، وبما قال أحمد نقول ، فنقول : الصواب عدم الكلام في المسألة رأسا ، ما لم يدع الى الكلام حاجة ماسة . ومما يدل على ما تقوله ، وأن السلف لا ينكرون أن لفظنا حادث ، وأن سكوتهم انما هو عن الكلام في ذلك ، لا عن اعتقاده ، أن الرواة رَوَوْا أن الحسين بلغه كلام أحمد فيه ، فقال : لأقولن مقالة حتى يقول أحمد بخلافها

(١) طبقات الشافعية ورفعة ١٧٢ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة ج ١ ص ٢٥٢ ، ٢٥٣
(٢) هذا النص الذى أورده المؤلف جاء في مقدمته نقلا عن السبكي : قلت (أى السبكي) : كان أبو على الكرائيسى من متكلمي أهل السنة . أستاذ في علم الكلام كما هو أستاذ في الحديث والفقه ، وله كتاب في المقالات ، قال ابن الخطيب (فى الاصل أبو الخطيب وهو خطأ) الامام فخر الدين فى كتاب غاية المرام ، على كتابه فى المقالات معول المتكلمين فى معرفة مذاهب الخوارج وسائر أهل الاهواء ...

فيكفر ، فقال : لفظي بالقرآن مخلوق . وهذه الحكاية قد ذكرها كثير من الخنابلة ، وذكرها شيخنا الذهبي في ترجمة الامام أحمد وفي ترجمة الكرايسي ، فانظر الى قول الكرايسي فيها ان مخالفها يكفر . والامام أحمد فيما يعتقد لم يخالفها . وانما أنكر أن يتكلم في ذلك . فاذا تأملت ما سطرناه ، ونظرنا قول شيخنا في غير موضع من تاريخه ، ان مسألة اللفظ مما يرجع الى قول جهم ، عرفت أن الرجل لا يدري في هذه المضايق ما يقول . وقد أكثر هو وأصحابه من ذكر جهم بن صفوان . وليس قصدهم الا جعل الأشاعرة الذين قَدَّر الله لقدرهم أن يكون مرفوعا ، ولزومهم للسنة أن يكون مجزوما به ومقطوعا ، فرقة جهمية »

١٣ - البخارى

ولدينا بيان شيق للتدليل على التقارب في رأى بين البخارى وأحمد ابن حنبل ، فقد اتهم البخارى في نيسابور بأنه يقول باللفظ بالقرآن ، حسدا من أحد شيوخها ، (لما رأوا من اجتماع الناس عليه) وشايعهم الكثيرون في تصديق التهمة . مع أن البخارى امتنع عن اجابة السائل في مسألة اللفظ ، كراهة أن يجره ذلك الى اعمال العقل في مسألة ، رأى أن الأدلة المستمدة من الحديث في اثباتها أو نفيها قليلة . فكان امتناعه سلاحهم الوحيد في الطعن على صحة عقيدته ، على الرغم من أنه كان يقول بقول الامام أحمد ، وهو أن القرآن غير مخلوق . ولكن التلفظ بالقرآن الذي يفهم منه أنه من أعمال البشر من حيث الكتابة والقراءة والتلاوة ، وكل ما يتعلق بالمحافظة على الكتاب المنزل ومدارسته والانتفاع به ، فهي عنده أعمال مخلوقة

« قال الحسن بن محمد بن جابر (١) ، قال لنا التذهلى : لما ورد البخارى نيسابور ، قال : اذهبوا الى هذا الرجل الصالح ، فاسمعوا منه ، فذهب الناس اليه ، وأقبلوا على السماع منه ، حتى ظهر الخلل في مجلس التذهلى ،

(١) طبقات الشافعية للسبكي ورقة ٢١٤ (* الحسينية بالقاهرة ح ٢ ص ١١ : ١٣)

فحسده بعد ذلك ، وتكلم فيه . قال أبو أحمد بن عدى : ذكر لى جماعة من المشايخ أن محمد بن اسماعيل (البخارى) لما ورد نيسابور ، واجتمعوا عليه ، حسده بعض المشايخ ، فقال لأصحاب الحديث : ان محمد بن اسماعيل (البخارى) يقول : اللفظ بالقرآن مخلوق ، فامتحنوه . فلما حضر الناس ، قام اليه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ، ما تقول فى اللفظ بالقرآن ؟ مخلوق هو أو غير مخلوق ؟ فأعرض عنه ، ولم يجبه . فأعاد السؤال ، فأعرض عنه . ثم أعاد ، فالتفت اليه البخارى ، وقال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأفعال العباد مخلوقة ، والامتحان بدعة . فشعّب الرجل وشعّب الناس ، وتفرقوا عنه وقعد البخارى فى منزله

« قال محمد بن يوسف الفريدى : سمعت محمد بن اسماعيل يقول : أما أفعال العباد فمخلوقة . حدثنا على بن عبد الله ، حدثنا مروان بن معاوية ، حدثنا أبو مالك ، عن رُبَعى عن حذيفة قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ان الله يصنع كل صانع وصنعتة » . وسمعت عبيد الله بن سعيد يقول : ما زلت أسمع أصحابنا يقولون : ان أفعال العباد مخلوقة . قال البخارى : « حركاتهم وأصواتهم وأكسابهم وكتابتهم مخلوقة ، فأما القرآن المتلو المثبت فى المصاحف ، المسطور المكتوب المتوعى فى القلوب ، فهو كلام الله ليس بمخلوق . قال الله تعالى : « بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » . وقال : يقال فلان حسن القراءة ، ولا يقال حسن القرآن ولا روى القرآن ، وانما ينسب الى العباد القراءة ، لأن القرآن كلام الرب ، والقراءة فعل العبد ، وليس لأحد أن يشرع فى أمر الله بغير علم ، كما زعم بعضهم أن القرآن بألفاظنا ، وألفاظنا به شىء واحد . والتلاوة هى المتلو ، أو القراءة هى المقروء

ف قيل له : ان التلاوة فعل القارىء ، وعمل التالى ، فرجع ، وقال : ظننتهما مصدرين . ف قيل له : هَلا أمسكت كما أمسك كثير من أصحابك ؟ ولو بعثت الى من كتب عنك ، واسترددت ما أثبت ، وضربت عليه ؟ فزعم ، أن : كيف يمكن هذا ؟ وقال : قلت . ومضى .

فقلت له : كيف جاز لك أن تقول في الله شيئاً دون شرح أو بيان ، اذا لم تميز بين التلاوة والمتلو ؟ فسكت اذ لم يكن عنده جواب . وقال أبو حامد الأعمش : رأيت البخارى في جنازة سعيد بن مروان ، والذهلى يسأله عن الأسماء والكنى والعِلل ، ويمر فيه البخارى مثل السهم . فما أتى على هذا شهر ، حتى قال الذهلى : ألا من يختلف الى مجلسه ، فلا يأتنا ، فانهم كتبوا الينا من بغداد أنه تكلم في اللفظ ، ونهيناه ، فلم ينته ، فلا تقربوه . قلت : كان البخارى على ما روى ، وسنحكي ما فيه ممن قال : لفظى بالقرآن مخلوق

وقال محمد بن يحيى الذهلى : من زعم أن لفظى بالقرآن مخلوق ، فهو مُبتَدِع ، لا يجالس ولا يكلم ، ومن زعم أن القرآن مخلوق ، فقد كفر . وانما أراد محمد بن يحيى ، والعلم عند الله ، ما أراده أحمد بن حنبل ، كما قدمناه في ترجمة الكرايسى من النهى عن الخوض في هذا . ولم يترد مخالفة البخارى ، وان خالفه وزعم أن لفظه الخارج من بين شفثيه المحدثين قديم ، فقد باء بغضب واثم عظيم . والظن به خلاف ذلك . وانما أراد هو وأحمد وغيرهما من الأئمة ، النهى عن الخوض في مسائل الكلام . وكلام البخارى عندنا محمول على ذكر ذلك عند الاحتياج اليه . فالكلام في « الكلام » عند الاحتياج واجب ، والسكوت عنه عند عدم الاحتياج سُنَّة ، فافهم ذلك . ودع خرافات المؤرخين ، واضرب صفحا عن تمويهاات الضالين الذين يظنون أنهم مُحَدِّثون ، وأنهم عند السُنَّة واقفون ، وهم عنها مُبْعِدُونَ . وكيف يُظَنُّن بالبخارى أنه يذهب الى شيء من أقوال المعتزلة ؟



وقد صَحَّ عنه فيما رواه الفريدى وغيره أنه قال : انى لأستجهل من لا يُكْفَرُ الجهمية . ولا يرتاب المصنف في أن محمد بن يحيى (الذهلى) لحقته آفة الحسد التى لم يسلم منها الا أهل العصمة . وقد سأل بعضهم البخارى عما بينه وبين محمد بن يحيى ، فقال البخارى : كم يعترى محمد

ابن يحيى الحسد في العلم ، والعلم رزق الله ، يعطيه من يشاء . ولقد ظرف البخارى ، وأبان عن عظيم حكاية ، حيث قال ، وقد قال له أبو عمرو الخفاف : ان الناس قد خاضوا في قولك لفظى بالقرآن مخلوق . يا أبا عمرو احفظ ما أقول لك : من زعم من أهل نيسابور وقومس والثرى وهمذان وبغداد والكوفة والبصرة ومكة والمدينة ، أنى قلت : لفظى بالقرآن مخلوق ، فهو كذاب ، فانى لم أقله ، الا أنى قلت : أفعال العباد مخلوقة . قلت : تأمل كلامه ، ما أذكاه ! ومعناه ، والعلم عند الله : انى لم أقل لفظى بالقرآن مخلوق ، لأن الكلام في هذا ، خوض في مسائل الكلام وصفات الله ، لا ينبغى الخوض فيها الا لضرورة

ولكنى قلت : أفعال العباد مخلوقة ، وهى قاعدة مغلغية عن تخصيص هذه المسألة بالذكر . فان كل عاقل ، يعلم أن لفظنا من جملة أفعالنا ، وأفعالنا مخلوقة ، فألفاظنا مخلوقة . ولقد أفصح بهذا المعنى فى رواية أخرى صحيحة عنه ، رواها حاتم بن أحمد الكندى ، فقال : سمعت مسلم ابن الحجاج ، فذكر الحكاية ، وفيها أن رجلا قام الى البخارى ، فسأله عن اللفظ بالقرآن ، فقال : أفعالنا مخلوقة ، وألفاظنا من أفعالنا . وفى الحكاية أنه وقع بين القوم اذ ذاك اختلاف على البخارى ، فقال بعضهم : قال : لفظى بالقرآن مخلوق . وقال آخرون : لم يقل . قلت : فلم يكن الانكار الا على من يتكلم فى القرآن »

١٤ - محمد بن أسلم

وكان محمد بن أسلم أبو الحسين الكندى الطوسى ، المتوفى سنة ٢٤٢ هـ ، من أقران أحمد ، وأقربهم شبا بالامام الكبير . وكانت هذه المشابهة من

أعظم مناقبه . وكان ابن أسلم خصما لدودا لفرقتي الجهمية والمرجئة (١) :
 خاصم الأولى لأنها كانت تقول بخلق القرآن ، وخاصم الثانية لأنها كانت
 تذهب الى أن الايمان هو محض اقرار (باللسان) ، دون أن يعززه اليقين
 الباطنى والتجربة القلبية . أما حجته فى نقض مزاعم الجهمية ، فهى الآيات
 القرآنية التى خاطب الله تعالى فيها محمدا ، مُنْشِئًا برسالته ، والآيات
 التى خاطب فيها موسى قائلا عن نفسه انه رب العالمين . فاذا أنكر الجهمية
 الآيات الأولى ، وقالوا بأنها ليست من كلام الله ، فقد شكثوا فى رسالة
 النبى . واذا سلّموا بأنها من كلام الله ، فإن صفة الكلام أزلية فى ذاته .
 ولا يتسنى لمن يتصور الذات الالهية تصورا صحيحا أن يزيل عنها صفة
 الكلام . وعلى ذلك فكلام الله غير مخلوق . واذا زعموا فى كلام الله لموسى ،
 أن خلقا قال لموسى : (ياموسى انى أنا الله رب العالمين) فقد جعلوا للعالمين
 ربّا غير الله ، والهما واحد دون ريب ، وتورط القائلون بهذا الرأى فى
 شرك مبین

ولكنهم اذا أقروا بأن الله تعالى تكلم حقا بكلام ، فعلينا ألا نعتبر
 هذه الكلمات التى صدرت عنه تعالى، أنها كلمات مخلوقة ، لمجرد صدورها ،
 بل علينا أن نعدّها جزءا لا ينفصل عن العلم الالهى ، لأنه ما من طريقة
 أخرى غير الوحي المُتَنَزِّل ، ليصل علم الله الى خلقه ، ويَقْوَى أثره فيهم .
 وقد أشركت الجهمية نتيجة لمقالتها . بل انهم دون أن يذهبوا الى هذا
 القول باستنتاجهم الخاطيء ، قد وقعوا ، فى نظر أهل السُنَّة ، فى كفر آخر ،
 بافتراءهم على الله ، حين زعموا أنه تعالى لم يكلم موسى ، مع أنه جاء فى
 القرآن أنه كلّمه تكليما

(١) انظر الشهرستاني ترجمة هاربريكر ، للوقوف على آراء جهم بن صفوان مؤسس فرقة
 الجهمية ، ح ١ ص ٨٩ . وانظر كتاب هوتسما : المنازعات الاعتقادية (بالهولندية) ص ١٠٢ ،
 ص ١٢٢ وما بعدها . وتوجد آراء المرجئة فى كتاب هوتسما ص ٣٤ وما بعدها ، وفى ص ٤٠
 وهى فى الشهرستاني (الملل والنحل) ح ١ ص ١٥٦ وما بعدها من ترجمة هاربريكر
 وتختلف عقائد المرجئة ، كما بينها هوتسما فى كتابه فى ص ٣٦ ، عما جاء عن محمد بن أسلم ،
 ولكنها تتفق مع الطبقة الثانية من فرق الكرامية (هوتسما ص ٣٩) ، ومع الصفائية الكرامية
 (الشهرستاني ، الملل والنحل ، ترجمة هاربريكر ج ١ ص ١١٩ وما بعدها ، ولا سيما
 ص ١٢٧) . وانا نذكر أن أحمد بن حنبل ألف كتابين يحملان هذين العنوانين : أحدهما كتاب
 الرد على الجهمية ، والآخر كتاب الايمان

وقد نقض ابن أسلم مزاعم الكرامية المرجئة ، بما ذهب اليه من أن الايمان هو رحمة من الله الى عبده ، ونور يقذف به في قلبه ، يحببه الى الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، والبعث واليوم الآخر ، والحساب والقدر كله خيره وشره ، والجنة والنار ، وأن هذا الايمان يمتن الله به على من يشاء من عباده ، وأنه لا يكتمل الا اذا نطق اللسان ، مصدقا لما آمن به القلب وعملت الجوارح بعمل الايمان ، تصديقا لما استقر في القلب ونطق به اللسان. وشهادة اللسان الاقرار بأن الاشياء التي آمن بها القلب حق ، فهي تؤمن بصدق هذا وتقر اقرارا رسميا بآلا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، وان عمل الجوارح في اطاعة ما أمر الله به ينحصر في أن « تؤدى حق الله عليها في فرائضه ، وأن تنتهى عن محارم الله »

وهذه النقط المختلفة تعززها حجج مستمدة من الكتاب والسنة . ولكن محمد بن أسلم ، وبعض المتشددین من أهل السنة ، يسوقون حججا أخرى لا يستمدونها من أحد هذين المصدرين . فمثلا يقول ابن أسلم : انه اذا صح قول المرجئة - وهو أن الناس يتفاضلون بالأعمال ويتساوون في الايمان - فان النبي والخلفاء الأوائل الذين لم يقضوا حياتهم كلها في الاقرار بالاسلام ولكنهم امتازوا مع ذلك بصحة الايمان ، يمكن أن يعدوا ، قياسا على هذا الرأي ، أقل فضلا ممن جاء بعدهم ممن كانوا أكثر لوكا وترديدا لصيغ العقيدة ، وكانوا أكثر انشغالا بهذا العمل. أما أولئك - ويسمون أيضا المرجئة (١) - الذين يعتبرون الأعمال ، معيار الايمان ومادته ، فأراؤهم مردودة ، وحججهم في الغصن من الصحابة والرعيّل الأول منقوضة (٢)

وكان محمد بن أسلم « من المثبتة لصفات الله ، القائلين بأنها أزلية غير محدثة » . ولكن ليس لدينا من النصوص والروايات ، ما يبين لنا منهجه في

(١) يطلق عليهم خاصة اسم : الكرامية ، انظر دى خوى : شرح المكتبة الجغرافية العربية

(٢) المعروف أن المرجئة يقولون على الايمان دون الاعمال ، ومن اقوالهم المأثورة : لا تنفع

مع الشرك طاعة ولا تضر مع الايمان معصية

اثبات عقيدته هذه ، كما أنه لم يصلنا عرض " مفصل ، يشتمل على ما تتطلبه البرهنة على هذه العقيدة من حجج

جاء في الحلية (١) : وأما كلامه في النقض على المخالفين من الجهمية والمرجئة ، فشائع ذائع . وقد كان رحمه الله ، من المثبتة لصفات الله أنها أزلية غير محدثة ، في كتابه المترجم بالرد على الجهمية ، ذكرت منه فصلا وجيزا من فصوله ... محمد بن أسلم رحمه الله يقول : زعمت الجهمية أن القرآن خلق ، وقد أشركوا في ذلك ، وهم لا يعلمون ، لأن الله قدبئن أن له كلاما ، فقال : « ائني اصنّفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي » . وقال في آية أخرى : « وكلم الله موسى تكليما » . فأخبر أن له كلاما ، وأنه كلم موسى عليه السلام . فقال في تكليمه إياه : « يا موسى ، ائني أنا ربك » . فمن زعم أن قوله : « يا موسى ، ائني أنا ربك » ، خلق ، وأنه ليس بكلامه ، فقد أشرك بالله ، لأنه زعم أن خلقا قال لموسى : « ائني أنا ربك » . فقد جعل هذا الزاعم رباً لموسى ، دون الله . وقول الله تعالى أيضا لموسى في تكليمه : « فاستمع لما يوحى ، ائني أنا الله لا اله الا أنا فاعبدني » . فقد جعل هذا الزاعم الها لموسى غير الله . وقال في آية أخرى لموسى في تكليمه إياه : « يا موسى ائني أنا الله رب العالمين » . فمن لم يشهد أن هذا كلام الله ، وقوله ، تكلم به ، والله قاله ، وزعم انه خلق ، فقد عظم شركه وافترأوه على الله ، لأنه زعم أن خلقا قال لموسى : « يا موسى ائني أنا الله رب العالمين » . فقد جعل هذا الزاعم ، للعالمين رباً غير الله ، فأى شرك أعظم من هذا ؟ فتبقى الجهمية في هذه القصة بين كافرين اثنين : ان زعموا ان الله لم يكلم موسى ، فقد ردوا كتاب الله وكفروا ، وان زعموا أن هذا الكلام : « يا موسى ائني أنا الله رب العالمين » ، من خلق ، فقد أشركوا بالله ، ففي هذه الآيات ، بيان أن القرآن كلام الله ، وفيها بيان شرك من زعم أن كلام الله خلق ، أو قول الله خلق ، أو ما أوحى الله الى أنبيائه خلق

(١) ورقة ١٦٢ ١ وما بعدها (*) طبعة القاهرة هـ ٩ ص ٢٤٤ وما بعدها

وأما نقضه ، رحمه الله على المرجئة الكسرامية التي زعمت أن الايمان هو القول باللسان من دون عقد القلب الذي هو التصديق ، فقد صنف في الايمان وفي الأعمال الدالة على تصديق القلب وأماراته كتابا جامعا كبيرا.. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الايمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالتقدر كله خيره وشره » ، الحديث . وهذا أول حديث ذكره واستفتح به كتابه وبني عليه كلامه

قال محمد بن أسلم : فبدء الايمان من قبل الله قربانا ورحمة ، ومنايئنه به على من يشاء من عباده ، فيقذف في قلبه الايمان ، ويحببته اليه . فإذا نور قلبه ، وزين فيه الايمان وحببه اليه ، آمن قلبه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وبالتقدر كله ، خيره وشره ، وآمن بالبعث والحساب والجنة والنار ، حتى كأنه ينظر الى ذلك ، وذلك من النور الذي قذفه الله في قلبه . فإذا آمن قلبه ، نطق لسانه مصادقا لما آمن به القلب ، وأقر بذلك ، وشهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وأن هذه الأشياء التي آمن بها القلب حق . فإذا آمن القلب وشهد اللسان ، عملت الجوارح ، فأطاعت أمر الله ، وعملت بعمل الايمان ، وأدت حق الله عليها في فرائضه ، وانتهت عن محارم الله ، إيمانا وتصديقا بما في القلب ، ونطق به اللسان . فإذا فعل ذلك كان مؤمنا . وقد بين الله تعالى ذلك في كتابه : ان بدء الايمان من قلبه . فقال : « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم » وقال : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » . وقال : « الذين أوتوا العلم والايمان » . وقال : « كتب في قلوبهم الايمان » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للحارث ابن مالك : « عباد نور الله الايمان في قلبه » . وقال : « نور يثقف في القلب فينشرح وينفتح »

ثم بين الرسول أنه تبين على المؤمن إيمانه بالعمل حين قيل له : هل له علامة يعرف بها ؟ قال : نعم ، الانابة الى دار الخلود ، والتجاني عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزوله . ألا ترون أنه قد بين أن إيمانه

يَعْرِفُ بِالْعَمَلِ لَا بِالْقَوْلِ ، وَقَدْ بَيَّنَّ أَنَّ الْإِيمَانَ الَّذِي فِي الْقَلْبِ يَنْفَعُهُ إِذَا عَمِلَ بِعَمَلِ الْإِيمَانِ . فَإِذَا عَمِلَ بِعَمَلِ الْإِيمَانِ تَبَيَّنَ عَلَامَةُ إِيمَانِهِ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ ؟ فَهَذَا كَلَامُهُ الَّذِي عَلَيْهِ الْبِنَاءُ وَالْكِتَابُ ، وَأَنَّهُ جَعَلَ الْأَعْمَالَ عَلَامَةَ الْإِيمَانِ . قَالَ : الْإِيمَانُ هُوَ تَصْدِيقُ الْقَلْبِ ، وَأَنَّ اللِّسَانَ شَاهِدٌ " يَشْهَدُ ، وَمُعَبَّرٌ يَتَعَبَّرُ عَمَّا فِي الْقَلْبِ ، لَا أَنَّ الشَّاهِدَ الْمُعَبَّرَ نَفْسَ الْإِيمَانِ مِنْ دُونِ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ ، عَلَى مَا زَعَمَتِ الْكُفْرَانِيَّةُ



وَضَمِنَ هَذَا الْكِتَابُ مِنَ الْآثَارِ الْمُسْتَنْدَةِ وَقَوْلِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ ، أَحَادِيثَ كَثِيرَةً . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَسْلَمَ : (إِنَّ) قَالَ الْمُرْجِيءُ : الْإِيمَانُ وَاحِدٌ ، وَيَتَفَاضَلُ النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ . يُقَالُ لِلْمُرْجِيءِ : قَوْلُكَ : يَتَفَاضَلُ النَّاسُ بِالْأَعْمَالِ خَطَأً ، لِأَنَّهُ زَعَمَ أَنَّ مَنْ كَانَ أَكْثَرَ عَمَلًا ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي كَانَ أَقَلَّ عَمَلًا . فَعَلَى زَعْمِهِ أَنَّ مَنْ كَانَ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ، كَانَ أَفْضَلَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِأَنَّهُمْ عَمِلُوا بَعْدَهُ أَعْمَالًا كَثِيرَةً مِنَ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ وَالْغَزْوِ وَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالصَّدَقَةِ وَالْأَعْمَالِ الْجَسْمِيَّةِ ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ مِنْهُمْ ، ثُمَّ مَنْ كَانَ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ ، قَدْ عَمِلُوا أَعْمَالًا كَثِيرَةً لَمْ يَبْلُغْهَا أَبُو بَكْرٍ ، وَأَبُو بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْهُمْ ، ثُمَّ مَنْ كَانَ بَعْدَ عُمَرَ ، قَدْ عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الْكَثِيرَةَ الَّتِي لَمْ يَعْمَلْهَا عُمَرُ ، وَلَمْ يَبْلُغْهَا ، وَعُمَرُ أَفْضَلُ مِنْهُمْ ، ثُمَّ مَنْ بَعْدَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ التَّابِعِينَ ، قَدْ عَمِلُوا أَعْمَالًا كَثِيرَةً ، أَكْثَرَ مِمَّا عَمِلَتْهُ الصَّحَابَةُ ، وَالصَّحَابَةُ أَفْضَلُ مِنْهُمْ . وَأَيُّ خَطَأٍ أَعْظَمَ مِنْ خَطَأِ هَذَا الْمُرْجِيءِ الَّذِي زَعَمَ أَنَّ النَّاسَ يَتَفَاضَلُونَ بِالْأَعْمَالِ ؟ إِنَّمَا الْفَضْلُ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، يُفَضِّلُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، عَدْلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً . فَكَيْلُ مَنْ فَضَّلَهُ اللَّهُ ، فَهُوَ أَعْظَمُ إِيْمَانًا مِنَ الَّذِي دُونَهُ ، لِأَنَّ الْإِيمَانَ قَسَمَ مِنَ اللَّهِ ، قَسَمَهُ بَيْنَ عِبَادِهِ ، كَيْفَ شَاءَ ، كَمَا قَسَمَ الْأَرْزَاقَ ، فَأَعْطَى مِنْهَا كُلَّ عَبْدٍ مَا شَاءَ

أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ : إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَعْطَاهُ الْإِيمَانَ . فَالْإِيمَانُ عَطِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ ، يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، وَيُفَضِّلُ مَنْ يَشَاءُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ،

وهو قوله : «ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم». وقال : « أفمن شرح الله صدره للاسلام ، فهو على نور من ربه » ، أفلا ترون أن هذا التزيين وهذا النور من عطية الله ورزقه ، يعطى من يشاء كما يشاء ؟ ألا ترون أن الناس يمرون يوم القيامة على الصراط على قدر نورهم ؟ فواحد ثوره مثل الجبل ، وآخر نوره مثل بيت . فكم بين الجبل والبيت من الزيادة والنقصان ؟ فاذا كان نور من خارج مثل الجبل ، وآخر مثل البيت ، فكذلك نورهما من داخل القلب على قدر ذلك

فالمرجئة والجهمية قياسهما قياس " واحد . فان الجهمية زعمت أن الايمان المعرفة فحسب ، بلا اقرار ولا عمل ، والمرجئة زعمت أنه قول بلا تصديق قلب ، ولا عمل ، وكلاهما من شيعة ابليس . وعلى زعمهم ابليس مؤمن ، لأنه عرف ربه ووحدته ، حين قال : «فِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ». وحين قال : «اتى أخافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ». وحين قال : «رَبِّ بَا أَعْوِيَتْنِي». فأى قوم أبين ضلالة وأظهر جهلا وأعظم بدعة ، من قوم يزعمون أن ابليس مؤمن ؟ فَضَلُّوا من جهة قياسهم ، يقيمون على الله دينه ، ولا يُقاس دينه ، فما عُبِدَتِ الأوثان والأصنام الا بالقياس . فاحذروا يا أمة محمد ، القياس على الله في دينه ، واتبعوا ولا تبتدعوا ، فان دين الله استنان (٢) واقتداء واتباع ، لا قياس وابتداع

١٥ - الزهاد والمتصوفة

١ - الحارث المحاسبى

كان أحمد بن حنبل يميل للزهاد والمتصوفة ، ولكنه أبغض واحدا منهم ، هو الحارث بن أسد المحاسبى ، لأنه قيل عنه ، انه يستعين بالعقل والقياس فى المسائل الاعتقادية ، (أى أنه يخوض فى « الكلام ») ويظهر أنه لم يكن من الميسور التوفيق بين الرجلين متواجبة ومشافهة . ولكن جاء

(٢) فى الأصل : « استبان » وصحتها : « استنان » أى اتباع السنة وذلك حتى تستقيم مع ما يتلوها

في احدى الروايات أن أحمد تسامع الحارث خلسة ، حين كان الحارث وصحبه في وليمة ، دُعُوا اليها . فاقتنع أحمد وقتئذ بأنه قد جارَ في حكمه الأول على الحارث

ويبدو أن الامام لم يغير رأيه في الحارث تغييرا كاملا ، يرد اليه ما فقدته من مكانة في بغداد ، اذ أن الحارث عند وفاته سنة ٢٤٣ هـ ، لم يشيع جنازته سوى أربعة نفر . ومع ذلك فقد قيل ان الحارث أوصى قبل موته ألا يشيعه أحد (١)

وقد جاء في طبقات الشافعية (٢) : اعلم أن الامام أحمد رضى الله عنه ، كان يشدد النكير على من يتكلم في علم الكلام ، خوفا أن يجر ذلك الى ما لا ينبغي . ولا شك أن السكوت عنه ، ما لم تدع اليه الحاجة أولى . والكلام فيه عند فقد الحاجة ، بدعة . وكان الحارث قد تكلم في شيء من مسائل الكلام . قال أبو القاسم النصرأبادي : بلغني أن أحمد بن حنبل ، هجره بهذا السبب . قلت : والظن بالحارث أنه ربما تكلم حيث دعت الحاجة ، ولكل مقصد ، والله أعلم ، يرحمهما الله . وذكر الحاكم أبو عبد الله أن أبا بكر أحمد بن اسحق ، أخبره ، قال : سمعت اسماعيل بن اسحق السراج يقول : قال لى أحمد بن حنبل : يبلغني أن الحارث هذا ، يكثر الكون عندك ، فلو أحضرته منزلك ، وأجلستني من حيث ألا يراني ، فأسمع كلامه . فقصدت الحارث ، وسألته أن يحضرنا تلك الليلة ، وأن يحضر أصحابه . فقال : فيهم كثرة ، فلا نردهم على الكسب والثر . فأثيت أبا عبد الله ، فأعلمته فحضر الى غرفة ، واجتهد في ورده . وحضر الحارث وأصحابه ، فأكلوا ، ثم صلوا العتمة (٣) ، ولم يصلوا بعدها .

(١) الملل والنحل للشهرستاني ترجمة هاربريكر ج ١ ص ٩٧ ، ج ٢ ص ٢٨٩ . وقد ذهب فوق كريم مذهب آخر في تحليل الخلاف بين أحمد بن حنبل والحارث المحاسبي وذلك في كتابه : تاريخ الآراء السائدة في الاسلام (بالالمانية) ص ٦٨ هامش رقم ١ (ترجمة خواديش الهندى الى الانجليزية وعن الانجليزية ترجمة الدكتور مصطفى طه بدر الى العربية - القاهرة سنة ١٩٤٧ م) ، راجع ترجمة الحارث المحاسبي في ابن خلكان رقم ١٥١

(٢) ورقة ٢٣٠ (٣) طبعة الحسينية بالقاهرة ج ٢ ص ٣٩
(٣) في الاصل « القيمة » وصوابها « العتمة » أى صلاة العشاء

وقعدوا بين يدي الحارث لا ينطقون الى قريب نصف الليل . ثم ابتدأ رجل منهم ، فسأل عن مسألة . فأخذ الحارث في الكلام ، وأصحابه يستمعون ، كأن على رؤوسهم الطير . فمنهم من يبكى ، ومنهم من يحن ، ومنهم من يزعم ، وهو في كلامه ، فصعدت في الغرفة ، لأتعرف حال أبي عبد الله (أحمد بن حنبل) ، فوجدته قد بكى ، حتى غشي عليه ..

فانصرفت اليهم . ولم تزل تلك حالهم ، حتى أصبحوا وذهبوا . فصعدت الى أبي عبد الله ، فقال : ما أعلم انى رأيت مثل هؤلاء القوم ، ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل . ومع هذا ، فلا أرى لك صحبتهم . ثم قام وخرج . وفي رواية أن أحمد قال : لا أنكر من هذا شيئا . قلت : تأمل هذه الحكاية بعين البصيرة ، واعلم أن أحمد بن حنبل ، انما لم ير لهذا الرجل صحبتهم لقصوره عن مقامهم ، فانهم في مقام ضيق لا يسلكه كل أحد ، فيخاف على سالكه ، والا فأحمد قد بكى وشكر الحارث هذا الشكر ، ولكل رأى واجتهاد (١) . حشرنا الله معهم أجمعين ، في زمرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم

ب - بشر الحافي

أما بشر الحافي المتوفى سنة ٢٢٦ هـ ، والسرى السقَطى المتوفى سنة ٢٥٣ هـ ، فقد كان أحمد على مودة وصفاء معهما . وكان يستعد حقا بلقاء أعظم الناس ورعا من معاصريه الذين تَقَلَّلُوا من الدنيا ولم يكن لهم سوى القليل مما يجاوز فقرهم وتقاهم . ومن جاءنا من هؤلاء الصالحين ، فضلا عن الاثنين اللذين ذكرناهما : عبد الله بن ادريس المتوفى سنة ١٩٢ هـ ، وأبو دواد الحَفَرى ، وأيوب بن النجار

جاء في المقرئى (١) : « ولقى (أحمد) خلقا كثيرا من الصالحين الزهاد . وقال الامام أبو بكر المروذى : سمعت أحمد بن حنبل يقول : ما أعدلُ

(*) في الاصل : « ولكن رأى واجبها » وقد صححناها عن طبعة القاهرة لطبقات الشافعية

(١) المقرئى ورقة رقم ١

بالفقر شيئا ، رأيت قوما صالحين . لقد رأيت عبد الله بن ادريس ، وعليه جبّة من لَبود، وقد أتى عليه السنون والدهور . ورأيت أبا داود الحَفَرى، وعليه جبّة مَخْرَقَة ، قد خرج القطن منها ، يصلّى بين المغرب والعشاء ، وهو يرجح من الجوع . ورأيت أيوب بن النجار ، بمكة ، قد خرج مما كان فيه ، ومعه رشاء يستقى بها بمكة . وقد خرج من كل ما كان يملكه . وكان من العابدين . وكان في دنيا ، فتركها في يَدَي يحيى القطّان ، في أناس آخر، ذكرهم »

١٦ - دواد بن على

كان دواد بن على (بن خلف الأصبهاني *) امام أهل الظاهر ، المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ، من تلامذة أحمد بن حنبل . فقد روى في حقه للإمام أحمد ، رواية بعيدة جدا عن الواقع وهى أن دواد قال في أحد دروسه في خراسان : ان القرآن مُحدَث ، وأن اللفظ بالقرآن مخلوق . وقد غمّ أحمد هذا الخبر ، حتى انه أبى أن يأذن له في الدخول عليه . ولا نعلم فيما اذا كان قد غيّر رأيه في دواد ، فيما بعد . غير أنه من المعروف عن الظاهرية أنهم أعظم تشددا من الامام أحمد في عقيدة عدم خلق القرآن . ومن الجائز أن أحمد ، لم يهتم دواد في صحة اعتقاده دهرًا طويلا . ومما هو جدير بالملاحظة أن محمد بن يحيى الذهلى ، هو الذى كتب هذا الخبر لأحمد ، وهو نفس الرجل الذى اتهم البخارى بالزندقة كيدا منه وحَسَدًا ، وذلك لمقالته في اللفظ . كما يلاحظ أيضا أنه قيل بوقوع مثل هذا الحادث في حياة اسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ ، حين كان دواد بن على لا يزال شابا . وعلى ذلك اذا صَحّت هذه الرواية ، فلا بد أن آراء دواد (١) كانت قد

(*) زيادة عن الاصل لتكملة اسم امام أهل الظاهر ، ويوجد بيان عن مذهبه في مادة داود بن على بموسوعة الدين والاخلاق . وقد كتب هذه المادة المستشرق المجرى الكبير اجناتس جولدتسيهر ، وترجم له ابن العماد الحنبلى في كتابه شذرات الذهب - طبعة القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ ج ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٩ في وفيات سنة ٢٧٠ هـ

(١) الظاهرية لجولدتسيهر (بالالمانية - ليزج سنة ١٨٨٤ م) ص ١٢٤ ، كما اورد السبكي هذا الحادث ، انظر طبقات الشافعية ورقة ٢٣٢ (*) الحسينية بالقاهرة ج ٢ ص ٤٣

تغيرت في السنوات الباقية من حياته . والمعروف أنه وُلد سنة ٢٠٢ هـ ،
وتوفي سنة ٢٧٠ هـ

١٧ - ابراهيم بن اسماعيل المعتزلى

توفي بمصر في سنة ٢١٨ هـ ، ابراهيم بن اسماعيل أبو اسحق البصرى
الأسدى المعتزلى ، المعروف بابن عثيَّة . وكان يقول بمبدأ خلق القرآن .
ونَاطَرَ الشافعى في مصر في مسائل الفقه ، كما ناظر أحمد بن حنبل في بغداد
في مسألة القرآن . وقد عده أحمد زنديقا خطرا (١) . أما ابن عليّة الأكبر ،
الذى جاء اسمه في تاريخ المحنة في عهد المأمون ، فيظهر أنه شخص آخر ،
وقد كان معروفا الى ذلك الوقت بأرائه السُّيَّة . واذا تقيّدنا بتشابه
الاسمين ، فإن ما أبداه ابن عليّة الأكبر من الاستعداد ، أيام محنة المأمون ،
ليجيب بأن القرآن مخلوق ، قد يشير مع ذلك الى اتصاله بشكل ما
بالحزب الذى ذكرناه آنفا . غير أن هذا محض تقدير وافترض

(٢) النجوم الزاهرة ح ١ ص ٦٦٧ (٣) طبعة القاهرة ح ٢ ص ٢٨٨

وقد جاء فيه : قال بن حنبل : ابن عليّة ضال مضل

الفصل الثاني

تاريخ المحنة

تاريخ المحنة (*)

- ١ - التطور التاريخي ٢ - نبوة الشافعي .
- ٣ - المأمون ٤ - ابن أبي دؤاد ٥ - الكتاب الاول للمأمون الى عامله ببغداد ٦ - بداية المحنة في جهات أخرى (١) مصر ، (ب) دمشق ، (ج) الكوفة .
- ٧ - الكتاب الثاني للمأمون ٨ - أثر الكتاب الثاني .
- ٩ - الكتاب الثالث ١٠ - نص الفقهاء في بغداد (١) بشر ابن الوليد ، (ب) علي بن أبي مقاتل (ج) أبو حسان الزيادي ، (د) أحمد بن حنبل ، (هـ) ابن البكاء الاكبر
- ١١ - الكتاب الرابع للمأمون ١٢ - اجابة الفقهاء
- ١٣ - اشخاص أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح الى الخليفة بطرسوس ١٤ - انكار المأمون دعوى التقية التي تعلل بها الفقهاء ١٥ - أمر المأمون باشخاص الفقهاء اليه ١٦ - وفاة المأمون ونتائجها ١٧ - اعادة أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الى بغداد ، و وفاة ابن نوح في الطريق ١٨ - الممتنعون عن الاجابة : (١) عفان ابن مسلم ، (ب) أبو نعيم الفضل بن دكين ، (ج) علي بن المديني ١٩ - أحمد بن حنبل في السجن ٢٠ - أشخاص أحمد بن حنبل مرة أخرى الى اسحق بن ابراهيم
- ٢١ - حمل أحمد بن حنبل الى المعتصم ٢٢ - محاكمة أحمد بن حنبل امام المعتصم : (١) اليوم الاول للمحاكمة (ب) اليوم الثاني (ج) اليوم الثالث ٢٣ - ضرب أحمد ابن حنبل ٢٤ - ما وقع بعد ضرب الامام أحمد
- ٢٥ - المحنة في مصر في عهد المعتصم ٢٦ - المعتصم والمحنة ٢٧ - الواثق وأحمد بن حنبل ٢٨ - الواثق يتابع المحنة ٢٩ - أحمد بن نصر الخزاعي ٣٠ - نعيم ابن حماد ٣١ - أبو يعقوب البويطي ٣٢ - فداء الاسرى المسلمين من البيزنطيين ٣٣ - رجوع الواثق عن القول بخلق القرآن : السبب المزعوم ٣٤ - المتوكل يبطل المحنة ٣٥ - عرض عام للمحنة

(*) العنوان ليس في الاصل ، وكذلك العناوين الفرعية الواقعة بين معقنين . وقد جمعناها من عناوين الفقرات التي وضعها المؤلف واثبتنا لها رقما مسلسلا

١ - التطور التاريخي

في بداية القرن الثاني للهجرة ، أخذ الجعند بن درهم ، مؤدب الخليفة (الأموي) مروان الثاني بالمبدأ القائل بأن القرآن مخلوق . وفي هذا الوقت جمع الخيال بخصوص هذه الفكرة ، فأبدوا مقدرتهم في استخراج الروايات والأحاديث التي تعينهم على ارجاع هذه الفكرة وتتبعها بالعودة بها من عهد الجعد بن درهم الى عهد لييد اليهودي الذي قيل انه سحر النبي (عليه السلام) وأمرضه (١) . ومع أن الفكرة قد آلت الى الجعد ، فقد قُتِلَ من أجلها ، قتله خالد بن عبد الله (القسري) حاكم العراق ، وذلك بأمر الخليفة هشام (ابن عبد الملك) . ولا نسمع بعد مقتل الجعد بن درهم ، بشيء عن مذهب خلق القرآن ، حتى عهد الخليفة العباسي هرون الرشيد (٢)

أما قصة التطور التاريخي لمذهب خلق القرآن (٣) الذي أدى الى أن يمتحن الناس به في عهد المأمون وخلفائه ، فقد بينه أبو الفرج بن الجوزي (٤) المتوفى سنة ٥٩٧ هـ فيما يلي : لم يزل الناس على قانون السكف ، وقولهم ان القرآن كلام الله غير مخلوق ، حتى نبعت المعتزلة (٥) ، فقالوا بخلق

(١) محمد (بالالمانية) بقلم فيل Weil ص ٩٤ هامش رقم ١٢١

(٢) هوتسما في كتابه : المنازعات الاعتقادية (بالهولندية) ص ١٠١ وما بعدها

(٣) انظر في هذا الموضوع كتاب فيل Weil تاريخ الخلفاء (بالالمانية) ح ٢ ص ٢٦٢ هامش رقم ١ ، وتاريخ الآراء السائدة في الاسلام (بالالمانية) بقلم قون كريمر ، ص ٢٢٣ وما بعدها . وانظر في نفس الكتاب الملاحظة الخاصة بالترتيب الزمني للوقائع في الهامش رقم ٢٠ في ص ١٢٧

(*) في الاصل : المتوفى سنة ٥٩٨ هـ وصحتها ما أثبتناه

(٤) انظر في أصل تسمية المعتزلة وقيام فرقته كتاب : المعتزلة (المفكرون الاحرار في الاسلام - بالالمانية) نشر في ليبزج سنة ١٨٦٥ م بقلم شتينر Steiner ص ٢٥ وما بعدها ، وكتاب هوتسما : المنازعات الاعتقادية ص ٥١ . وانظر في تاريخ فرقة المعتزلة كتاب شتينر ص ٤٨ وما بعدها ، وكتاب دوزي : الاسلام (بالهولندية وله ترجمة فرنسية) ص ١٨٣ ، ١٨٤ وشرح السعودي مذهبهم (في كتابه مروج الذهب طبعة باريس) ج ٦ ص ٢٠ وما بعدها ، وكذلك شتينر ص ٣ وما بعدها ، وهوتسما في ص ٥٥ ، ٨٠ ، ٨٩ ، ١٢١ وما بعدها في كتابه . وكذلك في ترجمة هاربريكر (بالالمانية) لكتاب الملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ٤٠ ، أما مذهب المعتزلة في القرآن فيوجد في كتاب شتينر ص ٧٥ وما بعدها ، وفي كتاب هوتسما ص ١٠٤ وما بعدها . وللمترجم تعليقات على هذه المراجع وعلى ما ظهر خاصا بالمعتزلة بعد سنة ١٨٩٧ م التي ظهر فيها كتاب المؤلف

القرآن ، وكانوا يسترون بذلك الى زمن الرشيد ، حتى أن الرشيد قال يوما : بلغني أن بشر المريسي (١) يقول : القرآن مخلوق ، والله على ، ان أظفرنني الله به لأقتلنه قِتْلَةً ، ما قتلتها أحدا . ولما علم بشر بذلك ظل متواريا أيام الرشيد ، نحوا من عشرين سنة (وهذا يرجع بنا في تحديد اعلانه للمذهب الذي نحن بصدده الى نحو سنة ١٧٣ هـ) ، فلما توفي الرشيد ، كان الأمر كذلك في زمن ولده الأمين . فلما ولي المأمون ، خالطه قوم من المعتزلة وضللوهم ، فحسّنوا له القول بخلق القرآن (٢) ؟

٢ - نبوءة الشافعي

ويروى أن الامام الشافعي رأى في نومه ، وذلك قبل وفاته في سنة ٢٠٤ هـ أن النبي (عليه السلام) أنبأه بوقوع المحنة في السنين التالية ، وأن أحمد بن حنبل سيُمتحن في القول بخلق القرآن . بل قيل انه أرسل كتابا للامام أحمد يخبره بما رآه في منامه هذا . كما جاء في الرواية أن أحمد عندما قرأ كتابه قال : « أرجو الله تعالى أن يحقق ما قاله الشافعي » . ويمكن أن نستخلص من هذه القصة أن مذهب خلق القرآن سبق أن أحدث اضطرابا فكريا ، لما كان الشافعي ببغداد ، وأن أحمد في هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المحنة ، كان خصما قويا لهذا الرأي

جاء في المقرئ (٣) تحت عنوان : فصل في بشارة النبي صلى الله عليه وسلم ، له (أى للامام أحمد بن حنبل) بالمحنة ، قبل وقوعها بسنين على

(١) تاريخ الأدب (بالألمانية) بقلم فون هامر Von Hammer ج ٣ ص ٢٠٥ والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن بن تيمري بردي ، ج ١ ص ٦٤٧ ، وهامش رقم ٩ وابن خلكان رقم ١١٤ ، شتينر في كتابه : المعتزلة (بالألمانية) ص ٧٨ . اما هوتسا في كتابه : المنازعات الامتقادية ص ٧٩ (قارن هامش رقم ١) فقد عد بشر المريسي من اعلام المرجئة في عصره . وقد صحف الشهرستاني اسمه في كتاب الملل والنحل ، ترجمة هاربريكر (بالألمانية) فقد ذكره : بشر بن عتاب المريسي ، بدلا من بشر بن غياث (ب) لعل التصحيح من هاروبريكر - ج ١ ص ٩٤ : وقد أورد الشهرستاني آراءه في ج ١ ص ١٦١ ، ١٦٢ ، وقارنها بما جاء في ج ١ ص ٢٤٣

(٢) المقفى ورقة ٢

(٣) المصدر السابق

لسان الامام محمد بن ادریس الشافعی رضی الله عنه : « كان الامام الشافعی رضی الله عنه ، لما دخل مصر ، رأى النبی صلی الله علیه وسلم فی المنام ، وأخبره أن الامام أحمد سيمتحن . قال الربیع بن سلیمان : فكتب الشافعی علی یدی كتابا الی أبی عبد الله أحمد بن حنبل ثم قال لی : یا أبا سلیمان ، انحدر بكتابی هذا الی العراق ، ولا تقرأه

فأخذت الكتاب وخرجت من مصر، حتی قدمت العراق ، فوافیت مسجد أحمد بن حنبل ، فصادفته یصلی الفجر ، فصلیت معه ، وكنت لم أركع السُنَّة ، فقممت أركع عَثَقِیْب الصلاة . فجعل ينظر الی مَلِیًّا ، حتی عرفنی . فلما سَلَمْت من صلاتی ، سَلَّمْت علیه . وأوصلت الكتاب الیه . وقلت له : هذا كتاب أخیک الشافعی من مصر . فجعل یسألنی عن الشافعی طویلا ، قبل أن ينظر فی الكتاب . ثم قال لی : نظرت فیهِ ؟ قلت : لا . فَفَكَ ختمه وقرأه ، حتی اذا بلغ موضعا منه ، بكى ، وقال : أرجو الله تعالی أن یحقق ما قاله الشافعی

قلت : یا أبا عبد الله ، أى شیء قد كتب الیک ؟ قال : ذکر فی كتابه أنه رأى النبی صلی الله علیه وسلم فی نومه ، وهو یقول له : یا ابن ادریس، بِشَّرْ هذا الفتی أبا عبد الله أحمد بن حنبل أنه سيمْتَحَن فی دین الله ، وبُدِعی أن یقول القرآن مخلوق ، فلا یفعل ، فانه سيمْضَرَب بالسیاط . وان الله عز وجل ینشر له بذلك عِلْمًا لا یُطْنَوی الی یوم القيامة

فقلت : بشارة ، فأی شیء جائزتی علیها ؟ وكان علیه ثوبان ، فنزع أحدهما ، فدفعه الی . وكان مما یلی جِلْدَه . وأعطانی جواب الكتاب . فخرجت حتی قَدِمْتُ علی الشافعی . فأخبرته بما جرى . قال : فأین الثوب ؟ قلت : هو ذا . فقال : لیس نَفَجَعُكَ به . ویروى أن الشافعی رضی الله عنه قال للربیع : لا نبتاعه منك ولا نستهدیه ، ولكن اغسله وجئنا بمائه . قال : فغسلته وحملت ماءه الیه . فجعله فی قنينة . وكنت أراه فی كل یوم ، يأخذ منه ، فیمسح علی وجهه تبركا بأحمد بن حنبل «

٣ - المأمون

أجمع المؤرخون على عناية المأمون بدراسة المسائل المتعلقة بعلم الكلام^(١). كما انه تلقى دروسا كثيرة في الحديث وعلوم القرآن ، كما درس القرآن في سن مبكرة . وكان من شيوخه : مالك بن أنس ، وهشيم بن بشير ، وأبوه^(٢) الرشيد

وقد هيأت له همته في التحصيل لما كان طالبا مكانة ممتازة بين المتفهمين بعلوم الدين ، ولكن ذهنا متقدما كذهنه ، قوى الميل الى قدر من العلم أوسع مدى ، مما تهيؤه له حدود السنة الاسلامية ، سرعان ما أبدى شغفه بالفلسفة التي كان الناس قد بدأوا بالعناية بها في عهد الخلفاء (العباسيين) ، كما تعلق بأدب العرب وعلومهم . وقد أشبع ميوله العقلية^(٣) ، فجمع الى بلاطه ، من مختلف أنحاء امبراطوريته ، الفلاسفة والمفكرين الذين كانوا على جانب من التفكير الحر ، أوفر حظا من أولئك الذين كانوا يَغشَوْنَ مجالس آبائه وأسلافه^(٤) . ومع ذلك فانا لا ننظر الى المأمون على أنه رجل نيس الورع والتقوى من طبيعته ، أو أنه اشتد ولعه بالمسائل الدينية ليشبع نهمه في الجدل والمناظرة . فقد قيل عنه انه خَسَمَ في رمضان ثلاثا وثلاثين

(١) انظر أيضا النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٤٤ ، وتاريخ الادب بقلم همر برجنشول ج ٣ ص ٢٦ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطي - كلكتا سنة ١٨٥٧ م ص ٣١٠ ، والاسلام بقلم دوزي ، سنة ١٨٨٠ م ص ١٥٢ ، وتتفق الملاحظات التي كتبها كل من السيكي ص ١٤٤ ، والمقريري ص ٤ ، في اخلاق المأمون ، مع ما جاء في المؤلفات السابقة الذكر

(٢) قال هوتسما في ص ١٣ من كتابه : المنازعات الاعتقادية ، بأن المأمون بدأ بالاستماع الى محاضرات المتكلمين ثم عنى فيما بعد بعلوم السنة . ولم يشر هوتسما الى المرجع الذي استند اليه في هذا . كما أنه لا يتفق مع ما تيسر لي أن أطلع عليه من المصادر التي رجعت اليها ، وهي تعكس الترتيب الذي ذكره هوتسما ، وقد تقيدت بترتيبها (٣) يريد المؤلف أن المأمون بدأ بعلوم السنة وانتهى الى علم الكلام لا العكس كما زعم هوتسما ، وهذا هو الراجح

(٣) ذهب شتينر في ص ١٦ من كتابه المعتزلة الى أن نزعة المسلمين نحو الآراء الحرة في المسائل الكلامية التي زادت الفلسفة اليونانية من قوتها ، سبق أن أحسن بها العرب قبل تعرفهم بالفكر اليوناني الفلسفي

(٤) انظر ص ٨٦ وما بعدها في كتاب : المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ، في موضوع رعاية الخلفاء العباسيين لرجال الادب والفلسفة . وأثر هذه الرعاية في قيام المتكلمين ، وانرها المضاد او غير المباشر في إثارة هم المشتغلين بالحديث .

خُتْمَة (١). كما أنه كان ينفخ شيوخ الحديث بالمال سدًا لحاجتهم . وكانوا جميعا يقبلون هذه المنح ما عدا أحمد بن حنبل (٢) . غير أن الكتب التي كتبها المأمون بشأن المحنة لا تعطينا صورة مرضية عن أخلاقه

ويعد المؤرخون السنيون رجال حاشية المأمون ، مسئولين في حمل المأمون على مخالفة أهل السنة في المسائل الاعتقادية ، وعلى اضطهاد الفقهاء المتمسكين بالسنة . غير أن الواقع الذي هو أكثر انطباقا على الحقائق التاريخية ، هو أن المأمون ضاق ذرعا بالسنة ، واستنقل جوها الخائق (٣)، فالتمس مخرجا منها في احاطة نفسه برجال يماثلونه في نزعتهم نحو الفكر الحر (٣)

أما إذا كان هؤلاء الرجال قد حَبَّذوا هذا الرأي أو ذاك ، فإن هذه الفكرة لا توزن بالفكرة القائلة بأن الخليفة أثر بيئة الزندقة على بيئة السنة . كما يمكن أن يقال بأن أحمد بن أبي دؤاد ، قاضى القضاة كان مسئولاً عن المحنة (٤) . ولكن يجب ألا ننسى أنه قبل أن يظفر ابن أبي دؤاد بهذه السيطرة على عقل المأمون ، كاد المأمون يهيم بامتحان الناس بخلق القرآن ، لولا خشيته عواقب هذا العمل . ويرجع اختيار الخليفة لمذهب خلق القرآن الى ربيع الأول سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) (٥)

(١) دراسات اسلامية لجولدتسيهر ج ٢ ص ٥٨ ، ٥٩ ، وتاريخ الآراء السائدة بقلم فون كريمير ص ٢٠١ هامش رقم ١٥ ، وكتاب المعتزلة بقلم شتينر ص ٦ هامش رقم ٥ ، والسبكي ورقة ١٤٤ (٣) الحسينية بالقاهرة ج ١ ص ٢١٧

(٢) الحلية لابن نعيم ورقة ١٤٣ ب (٣) طبعة القاهرة ج ٩ ص ١٨١ : دفع المأمون مالا ، فقال : اقسمه على اصحاب الحديث فان فيهم ضعفاء ، فما بقى أحد الا اخذ الا أحمد بن حنبل (٣) المؤلف هنا يعبر عن رأيه الخاص وهو لم يدرس السنة الاسلامية دراسة صحيحة

(٣) انظر كتاب هوتسما : المنازعات الاعتقادية ص ١٠٨

(٤) انظر النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٣٣ ، والشذور العربية التاريخية لدى خوى ص ٥٤٧ ، والسبكي ورقة ١٣٦ (٣) الحسينية ج ١ ص ٢٠٦ : وكان معظما عند المأمون أمير المؤمنين يقبل شغلانه ويصنى الى كلامه . وأخباره في هذا كثيرة . فدرس ابن أبي داود له القول بخلق القرآن وحسنه عنده وصيره يعتقده حقا مبينا ، الى أن أجمع رأيه في سنة ثمان عشرة ومائتين على الدعاء به .

(٥) تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٠٩٩

والحادث التالي يكشف لنا بوضوح عما كان يجول بذهن المأمون قبل هذا التاريخ ، ويذكر الكتاب أن لهذا الحادث صلة بيزيد بن هرون ، المتوفى سنة ٢٠٦ هـ ، وذلك قبل أن يستصوب المأمون مذهب خلق القرآن بست سنوات ، وقبل ابتداء المحنة باثنتي عشرة سنة . فقد روى أن يحيى ابن أكثم (١) قال : قال لنا المأمون : لولا مكان يزيد بن هرون ، لأظهرن القول بخلق القرآن . فقال له بعض جلسائه : ومن يزيد بن هرون ، حتى يتقيه أمير المؤمنين ؟ فقال : انى أخاف ان أظهرته ، يرد على ، فيختلف الناس وتكون فتنة ، وأنا أكره الفتنة . فقال الرجل الذى كان فى المجلس للمأمون : أنا أخبرت ذلك من يزيد بن هرون . فخرج الى واسط ، فجاء الى يزيد ، فدخل عليه المسجد ، فقال : يا أبا خالد ، ان أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول لك : انى أريد أن أظهر القول فى أن القرآن مخلوق . فقال له يزيد : كذبت على أمير المؤمنين ، فان كنت صادقا ، فاصبر الى أن يجتمع على الناس . قال : فلما كان الغد ، واجتمع عليه الناس ، أعاد رسول الخليفة ما قاله فى اليوم السابق وتساءل قائلا : « ما عندك فى ذلك ؟ قال : كذبت على أمير المؤمنين ، أمير المؤمنين لا يحمل الناس على ما لا يعرفونه وما لم يقتل به أحد . وبعد هذه المقالة عاد الرجل الى أمير المؤمنين وأخبره بالنتيجة وأقر بأن المأمون كان أكثر دقة وأعظم تبصرا منه فقال له أمير المؤمنين : انه قد تَلَعَّب بك (٢)

ولما أقرت الدولة الاسلامية مذهب خلق القرآن ، كان اقرارها مقترنا باعلانها أفضلية على ، على أبى بكر وعمر . فالمأمون كان من الخلفاء

(١) هذا ما رواه القريرى ج ٣ ص ٢ من كتابه القفى مخطوط ليدن ، نقلنا من البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨ هـ .

(٢) القريرى ورقة ٣ ، وانظر ايضا : تاريخ الادب (باللاتية) بقلم فون هامر ج ٢ ص ١٥٩ : يزيد بن هرون (٣٤) ذكره ابن العماد الحنبلى فى شذرات الذهب ج ٢ ص ١٦ ، فى وفاته سنة ٢٠٦ هـ وقال بأنه كان حافظا اماما ثقة ، يزدهم مجلسه بطالبي الحديث . وله ترجمة مطولة فى تهذيب التهذيب لابن حجر المستقلانى ج ١١ ص ٣٦٦ : ٣٦٩ -

المشايمين للعلويين (١) . ولما ألقى المتوكل مذهب خلق القرآن ، وأبطل المحنة (أعلن أفضلية الشيخين) ولا غرو فقد كان المتوكل ناصبيا معاديا للعلويين . وفي الحق ان الشيعة كانوا ينزعون في آرائهم الكلامية نحو الاعتزال . ولذا فانا لا ندهش اذا رأينا الخليفة الذي أقر رأيهم فيما يتعلق بالقرآن ، يَفْضَلُ في نفس الوقت امامهم على بن أبي طالب ، على أبي بكر وخليفته ، كما لا ندهش اذا علمنا أن الخليفة الذي أبطل مذهبهم في القرآن ، أعاد للخليفتين أبي بكر وعمر ، سَبَقَهُما وفضلهما على علي .

وقد استغل أشياع الحزبين : أهل السنة والشيعة ، هذين الحادثين استغلالا سياسيا . غير أنه يبدو لنا أن رائد الخلفاء كان مبعثه في الأصل في كل من هذين الاتجاهين المتضادين ، هو أن ينهضوا باصلاح الدين (٢) وقد ظل المأمون مترددا طيلة ست سنوات ، في أخذ رعاياه بمذهب خلق القرآن ، وارغامهم على القول به ، وأخيرا حينما عزل يحيى بن أكثم قاضي قضاته (٣) في سنة ٢١٧ هـ ، وقلّد هذا المنصب ، أحمد بن أبي دواد ، شجعه أثيره الجديد على اتخاذ هذه الخطوة ، الى أن أمر في السنة الأخيرة من حياته وهي سنة ٢١٨ هـ ، بامتحان الناس بخلق القرآن

(١) المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٩٧ . وقد ذهب هوتسما في ص ٩٩ من كتابه الى أن المأمون كان يرمى من أعماله (لبس الخضرة شعار العلويين ونزع السواد شعار العباسيين ، وسب معاوية واباحة المتعة والقول بخلق القرآن) الى توثيق عرا الاتحاد السياسي مع العلويين، ولكنه بعد انقضاء فترة من الزمن ، تبين له انه لم ينل شيئا من هذا الاتحاد ، بل فقد الكثير ، فأقلع عن هذه السياسة ، ولو أنه ظل مصافيا للحزب العلوي ، مشايما للكثير من آرائه .

(٢) المنازعات الاعتقادية لهوتسما ص ٩٩ وما بعدها . وانظر في هذا الموضوع : تاريخ الخلفاء (بالالمانية) بقلم فيل ج ٢ ص ٢٥٨ وما بعدها . وتاريخ الآراء السائدة بقلم فون كريمر ص ٣٣٣ وما بعدها

(٣) الشذور العربية التاريخية لدى خوى ص ٢٧٦ .

٤ - أحمد بن أبي دواد (✱)

شَغَلَ أحمد بن أبي دواد منصبا من المناصب الواسعة النفوذ ، في عهود ثلاثة من الخلفاء : المأمون والمعتصم والواثق ، وكان أقوى مُنَافِح عن المحنة ابان خلافتهم (١) . ويصوره مؤلفو تراجم أحمد بن حنبل ، من أهل السنة ، تصويرا قاتما . غير أنه كان عالما متكلمًا ، أخذ الكلام عن هياج ابن العلاء السلمي الذي كان من أصحاب واصل بن عطاء (٢) . وهو أول من افتتح الكلام (✱) مع الخلفاء ، وكان لا يبدؤهم أحد حتى يبدأوه

وقد قال في مجلس المعتصم مرة : « انى لأمتنع من تكليم الخلفاء بحضرة محمد بن عبد الملك الزيات . الوزير في حاجة ، كراهة أن أعلمه ذلك ، وخفاة أن أعلمه التأتى لها » . وكان الخليفة المعتصم خاضعا لرأيه ، واقعا تحت نفوذه . وقد بدأ ابن أبي دواد خدمته (للعباسيين) في سنة ٢٠٤ هـ ، حين اتصل أمره بالمأمون عن طريق يحيى بن أكثم الذي قربه للخليفة وزكاه . وأوصى المأمون عند موته أخاه المعتصم بأن يُشْرِكَ ابن أبي دواد في مشورته ، (وألا يتخذ وزيرًا . فلما ولي المعتصم الخلافة ، عزل يحيى بن أكثم ، وجعل ابن أبي دواد قاضى قضائه) . وفي أول خلافة المتوكل

(✱) يهمز كثير من الكتاب الواو في داود كما في كتاب ابن حنبل للاستاذ محمد أبى زهيرة القاهرة سنة ١٩٤٧ م ص ٦٠ وما بعدها . وقد أشار ابن خلكان في ترجمته لأحمد بن دواد أن دواد غير مهموزة . وفي القاموس المحيط في مادة (دود) أن الدواد الرجل السريع وهى بوزن غراب . وفي تاج العروس ج ٢ ص ٣٥٠ توكيد لهذا . وفي اعجام الاعلام لمحمود مصطفى ، القاهرة سنة ١٩٣٥ م ص ٣ توضيح لخطأ من يهمز الواو .

(١) المعتزلة بقلم شستينر ص ٧٨

(٢) أنظر فيما يتعلق بواصل بن عطاء كتاب الاسلام بقلم دوزى ص ١٣٣ وما بعدها ، والمعتزلة لشستينر ص ٢٥ ، ٥٠ . وقد ذهب هوتسما في ص ١٠٣ من كتابه : المنازعات الاعتقادية الى أنه يبدو أن واصل لم يقل بخلق القرآن .

(✱) زعم المؤلف أن « الكلام » هنا يقصد به علم الكلام مع أن المراد به هنا مجرد التحدث . فالآداب المرعية في البلاط العباسى كانت تقضى بأن الخليفة هو الذى يبدأ الحديث في مجلسه . ولكن نظرا لعلو منزلة أحمد بن أبي دواد أبيع له أن يبدأ الحديث . وقد حملنى هذا على إيراد نص عبارة ابن خلكان في ترجمته لابن أبي دواد ، راجع وفيات الاعيان ج ١ ص ١٧٢ من طبعة الحلبي بالقاهرة سنة ١٩٣٦ م

فُلج أحمد بن أبي دواد ، فعين ابنه محمدا قاضيا للقضاة بدله . ولكنه عزله
في نفس العام أى في سنة ٣٣٢ هـ

وقد كان أحمد بن أبي دواد بليغا وشاعرا (٢) ، مدحه الشعراء والأدباء
وأطنبوا في ذكر مناقبه ومآثره ، وكان سخيا واسع الكرم محبا للعيش الرخى
الرغد (١) وقد وصفه ابن السبكي (٣) فقال : كان القاضي أحمد بن أبي دواد
ممن نشأ في العلم وتضلّع بعلم الكلام ... وكان رجلا فصيحاً . قال
أبو العيناء : ما رأيت رئيساً قط أفصح ولا أنطق منه ، وكان كريماً مثمداً ،
وفيه يقول بعضهم :

لقد أتست مساوىء كل دهر
محاسن أحمد بن أبي دواد
فما سافرت في الآفاق الا
ومن جدواك راحتي وزادى
مقيم الظن عندك والأمانى

وان قلقّت ركابي في البلاد (٢)
ويقابل هذا التقدير للرجل ، ما وصفه به أهل السنة في كتاباتهم من
التهور والجهل والتعصب . وفي سنة ٣٣٦ هـ أو ٣٣٧ هـ ، سخط عليه
المتوكل وسجنه واستصفى أملاكه ، ثم أرسل بعد ذلك ليقم في بغداد ،

(٢) لم ينتفع المؤلف فيما يبدو من الترجمة التي أوردها الخطيب البغدادي لأحمد بن أبي دواد
كتابه «تاريخ بغداد» . مع أن مخطوطه ليدين لهذا الكتاب كانت من مراجع المؤلف . راجع هذه
الترجمة في طبعة القاهرة بغداد سنة ١٩٣١ م ج٤ من ص ١٤١ : ١٥٦

(١) عن ترف رعووس المعتزلة ، انظر هوتسما ص ٨١ وما بعدها ، وشيتر ص ١٠

(٢) طبقات الشافعية ورقة ١٣٦ (٢) الحسينية بالقاهرة ج ١ ص ٢٠٦

(٣) نفل المؤلف البيت الثالث مصحفاً ، وقد صححته عن المتحل للثعالبي طبعة أحمد
أبى على ، الاسكندرية سنة ١٩٠١ م ص ٨٦ ، واخبار أبى تمام للصولي ، طبعة لجنة
التأليف ، القاهرة سنة ١٩٣٧ م ص ١٤١ .

حيث مات بها . وقد توفي هو وولده مغضوبا عليهما في سنة ٢٤٠ هـ ،
وتوفي ولده محمد قبله بعشرين يوما (١)
قال أبو نعيم في الحلية (٢) : « وجعل يعقوب وعتّاب يصيران إليه (أى
الى أحمد بن حنبل) ، فيقولان له : يقول لك أمير المؤمنين : ما تقول في
ابن أبي دؤاد في ماله ؟ فلا يجيب في ذلك بشيء . وجعل يعقوب وعتّاب
يخبرانه بما يحدث في أمر ابن أبي دؤاد كل يوم . ثم احضر ابن أبي دؤاد
الى بغداد ، بعد ما أشهد عليه بيع ضياعه »

٥ - الكتاب الأول للمأمون الى عامله ببغداد

كانت الخطوة الأولى التي خطاها المأمون ليضمن انصياح رعيته
وتسليمها بالنحلة التي انتحلها وهي خلق القرآن ، أنه أرسل كتابا الى
عامله على بغداد : اسحق بن ابراهيم ، وهو ابن عم طاهر بن الحسين . وقد
أمره فيه أن يثخن في القضاة والمحدثين وأن يمتحنهم في موضوع
خلق القرآن . وهاك صورة هذا الكتاب (٣) :

(١) تاريخ الخلفاء بقلم فيل ج ٢ ص ٣٣٤ ، ودراسات اسلامية لجولدستيهير ج ٢ ص ٥٨ ،
ومروج الذهب للمسعودي طبعة باريس ج ٦ ص ٢١٤ ، وابن خلكان ترجمة رقم ٣١ ، والنجوم
الزاهرة ج ١ ص ٧٢٣ (٤) طبعة القاهرة ج ٢ ص ٣٠٢ ، ٣٠٣ . والشذور العربية التاريخية
لدى خوى ص ٥٤٧

(٢) ورقة ١٥٢ (٤) طبعة القاهرة ج ٩ ص ٢١٠

(٣) ان النص الذي اعتمدت عليه في ترجمة كتب المأمون المتعلقة بالنحلة هو ماورد في طبعة
ليدن التاريخية الطبرى ج ٢ من ص ١١١٢ الى ص ١١٢٣ ، ويبدو أن هذه النصوص هي
نسخة أصلية لكتب المأمون . اما ما أورده ابن تفرى يردى في النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٣٧ :
٦٤١ (٤) طبعة القاهرة ج ٢ ص ٢١٨ وما بعدها . ودى خوى في الشذور التاريخية العبرية ج ٢
ص ٦٥ ، وأبو الفداء في تاريخه ج ٢ ص ١٥٤ وما بعدها والسبكي ص ١٣٦ وما بعدها (٤) طبعة
الحسنية بالقاهرة ج ١ ص ٢٠٦ وما بعدها) فهو ملخص شديد الاختصار لهذه الكتب . ويظهر
أن الكتاب المتأخرين اعتمدوا على الطبرى في ايرادهم لها ، لانها تبين لنا نفس الروايات المختلفة
التي تشمل عليها هذه الكتب في تاريخ الطبرى ، أى أنها تزودنا بأجزاء معينة متشابهة من هذه
الكتب (لان بعض المؤلفين الآنفى الذكر أوجزوا في ايراد هذه الكتب أكثر من غيرهم ، وأورد
آخرون كتابا أو كتابين) ولم نجد في كتابات هؤلاء المؤرخين مايعيننا على توضيح النصوص التي
ذكرها الطبرى أو تحسينها . وذلك فيما عدا القائمة الجلية التي جئناها من مقابلة كتاباتهم
على نسخة النجوم الزاهرة .

« أما بعد فإن حق الله على أئمة المسلمين وخلفائهم ، الاجتهاد في اقامة دين الله الذي است حفظهم ، وموارث النبوة التي أورثهم ، وأثر العلم الذي استودعهم ، والعمل بالحق في رعيتهم ، والتشهير لطاعة الله فيهم ، والله يسأل أمير المؤمنين أن يوفقه لعزيمة الرشد وصريحته ، والاقساط فيما ولاه الله من رعيته ، برحمته ومنته . وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشّو الرعية وسفلة العامة ، مئّن لا نظر له ولا رويّة ، ولا استدلال له بدلالة الله وهدايته ، ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق ، أهل جهالة بالله ، وعمى عنه ، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والايان به ، ونكوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله ، وقصور أن يقدرُوا الله حق قدره ، ويعرفوه كنه معرفته ، ويفرقوا بينه وبين خلقه ، لضعف آرائهم ، ونقص عقولهم ، وجفائهم عن التفكير والتذكر ، وذلك أنهم ساوَوْا بين الله تبارك وتعالى ، وبين ما أنزل من القرآن ، فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجين على أنه قديم أول ، لم يخلقه الله ، ويحدّثه ويخترعه . وقد قال الله عز وجل في مُحْكَم كتابه الذي جعله لما في الصدور شفاء ، وللمؤمنين رحمة وهدى : « إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا (١) » فكل ما جعله الله ، فقد خلقه

وقال : « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور (٢) » . وقال عز وجل : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق (٣) » . فأخبر أنه قصص لأمر أحدثه بعدها ، وتلا به متقدمها . وقال : « ألر ، كتاب أحكمت آياته ، ثم فُصِّلت من لدن حكيم خبير (٤) . وكل مُحْكَم مَفْصَّل ، فله مُحْكَم مَفْصَّل . والله مُحْكَم كتابه ومَفْصَّلُه ، فهو خالقه ومُبتدِعُه . ثم هم الذين جادلوا بالباطل ، فدَعَوْا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السئة . وفي كل فصل

(١) سورة الزخرف رقم ٤٣ آية ٢

(٢) سورة الانعام (رقم ٦) ، آية ١

(٣) سورة طه (رقم ٢٠) ، آية ٩٩

(٤) سورة هود (رقم ١١) آية ١

من كتاب الله ، قصص " من تلاوته ، مبطل قولهم ، ومكذب دعواهم ،
يرد عليهم قولهم ونحلتهم . ثم أظهروا مع ذلك أنهم أهل الحق والدين
والجماعة ، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة ، فاستطالوا بذلك
على الناس ، وغثروا به الجهال ، حتى مال قوم من أهل السمات الكاذب ،
والتخسيع لغير الله ، والتكشف لغير الدين ، الى موافقتهم عليه ، ومواطنتهم
على سيئ آرائهم ، تزيثنا بذلك عندهم ، وتخصتعا للرياسة والعدالة فيهم .
فتركوا الحق الى باطلهم ، واتخذوا دون الله (١) وليجة الى ضلالتهم ،
فقبِلت بتركيتهم لهم شهادتهم ، ونفذت أحكام الكتاب بهم ، على دغل
دينهم ، ونغل أدعهم ، وفساد نياتهم و يقينهم . وكان ذلك غايتهم التي اليها
جروا ، واياها طلبوا في متابعتهم ، والكذب على مولاهم ، وقد أخذ
عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله الا الحق ، ودرسوا ما فيه ، أولئك
الذين أصمهم الله ، فأعمى أبصارهم ، (أفلا يستدبرون القرآن أم
على قلوب أقفالها (٢))

« فرأى أمير المؤمنين ان أولئك شر الأمة ورءوس الضلالة ، المنقوصون
من التوحيد حظا والمخسوسون من الايمان نصيبا ، وأوعية الجهالة وأعلام
الكذب ولسان ابليس الناطق في أوليائه ، والهائل على أعدائه من أهل
دين الله ، وأحق من يتهم في صدقه ، وتطرح شهادته ، ولا يوثق بقوله
ولا عمله . فانه لا عمل الا بعد يقين ، ولا يقين الا بعد استكمال حقيقة
الاسلام واخلاص التوحيد . ومن عمى عن رشده وحظه من الايمان بالله
وبتوحيده ، كان عما سوى ذلك من عمله والقصد في شهادته ، أعمى وأضل
سيلا . ولعمركم أمير المؤمنين أن أحجى الناس بالكذب في قوله ، وتخصر
الباطل في شهادته ، من كذب على الله في وحيه ، ولم يعرف الله حقيقة

(١) وازن ذلك بالآية ١٦ في سورة التوبة (رقم ٩) « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين
جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون »
(٢) سورة محمد (رقم ٤٧) ، آية ٢٤ ، والآية السابقة لها « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم
وأعمى أبصارهم »

معرفته ، وأن أولاهم برد شهادته ، في حكم الله ودينه ، من رد شهادة الله على كتابه ، وبهت حق الله بباطله

« فاجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا اليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون ، وتكشيفهم عما يعتقدون ، في خلق الله القرآن واحداثه . وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته ، بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده وبقينه . فاذا أقرأوا بذلك (٢٠) ، ووافقوا أمير المؤمنين فيه ، وكانوا على سبيل الهدى والنجاة ، فمَرَّهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس ، ومسألتهم عن علمهم في القرآن ، وترك اثبات شهادة من لم يقر أنه مخلوق مُحدث ولم يره ، والامتناع من توقيعها عنده . واكتب الى أمير المؤمنين بما يأتيك عن قضاة أهل عملك في مسألتهم ، والأمر لهم بمثل ذلك ، ثم أشرف عليهم وتفقد آثارهم ، حتى لا تتنقذ أحكام الله ، الا بشهادة أهل البصائر في الدين ، والاخلاص للتوحيد ، واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون في ذلك ان شاء الله »

كتب المأمون هذا الكتاب في شهر ربيع الأول سنة ٢١٨ هـ ، قبل أن يخرج خَرَجَتَهُ الأخيرة على الحدود لغزو الروم (البيزنطيين) ، وقبل وفاته بزهاء أربعة شهور . ولا بد أن نعرف بأن الروح الغالب على هذه الوثيقة ، يكشف لنا عن رجل ، هو الى التشدد الضيق والتعصب المظلم ، أدنى منه الى الفكر الحر والعقل الطليق (٢١) . كما لا نستطيع أن نفترض أن رجلا في خلق المأمون ، يسمح بأن تُكتب له وثيقة من هذا الطراز ، وأن

(٢٠) أى بخلق القرآن

(٢١) يخلط المؤلف هنا بين أمرين : الاول مضمون الوثيقة ، والثانى سياسته في حمل الناس عليها . ولا شك أن مضمون الوثيقة يدل على التفكير الحر وعلى استخدام العقل في فهم العقائد الدينية كما لا يخفى نبل مقصد المأمون في تصحيح عقائد الناس ، ولو اقتصر على هذا لكان مصلحا مستنيرا . ولكن يؤخذ عليه ارغام الناس على الاخذ بهذه الآراء

تكون مُشَبَّعة بنزعة أو بروح مخالفة لنزعتة وروحته . كما أن كل ما يُستخلص منها من الدلائل ، يشير الى شعوره بزهو عقلي ، واكتفاء ذاتي في التفكير ، واحتقار للآراء المخالفة له . ويبدو أن الخليفة المتزدهي بنفسه المُتَمَتِّع لغيره ، قد أقنعه الملتفتون حوله ، بأنه يستطيع أن يروع أهل السنة وأن يظفر منهم بالاذعان لمذهبه والقول بمقاتلته ، وخاصة الضعيف منهم ، الذي يَرْهَبُه الوعيد ويفزعُه التعذيب ، وأنه قادر على تطهير الأرض من المعاندين ، اذا ما تَعَذَّرَ اصلاحهم واستعصت هدايتهم

٦ - بداية المحنة في البلاد الاخرى

١ - مصر :

أرسل هذا الكتاب الى كافة الولايات في الدولة الاسلامية ، وكانت النسخة التي أرسلت الى كيدر (٢٠) ، متولى امرة مصر ، مماثلة تماما لتلك التي أوردناها مترجمة . ولكنها لم تصل مصر حتى شهر جمادى الآخرة . وكان القاضى بمصر يومئذ ، هرون بن عبد الله الزهرى الذى أجاب عند امتحانه بشأن القرآن ، كما أجاب الشهود المعتَمَدون . ومن توقف منهم عن القول بخلق القرآن ، أسقطت عدالته وأبطلت شهادته (٢١) . وبدأ كيدر بامتحان الفقهاء والعلماء . ويبدو أنه لم يتخذ اجراء شديدا ، حين بلغه نعى المأمون في الشهر التالى لوصول خطابه ، الذى أمر فيه الخليفة بأخذ

(٢٠) كيدر في الاصل مكتوبة بما يدل على فتح الدال ولكنها ضبطت في كتاب الكندى، ولاية مصر وقضاتها بفتح الدال ، انظر طبعة روفن جست لهذا الكتاب المنشورة ببيروت سنة ١٩٠٨ م ص ١٦٣

(٢١) نظام الشهادة في المحاكم الاسلامية أن القضاة يعدون المسلمين الذين يتقدمون للشهادة عدولا مالم يعرف عنهم في سيرتهم أنهم يرتكبون افعالا تسقط هدايتهم

الناس بالحنة . ولما ورد عليه الخبر بموته أوقفها (٢)

ب - دمشق :

وقد أتت المصادر بأخبار بعض المحاكمات في دمشق من أجل القول بخلق القرآن . ولكن الحكومة لم تعمل - فيما يبدو - سوى القليل في انقاذ الحنة ، سواء أكان ذلك في دمشق أم في سائر المقاطعات الأخرى ، لأن الاشارات الخاصة بها يسيرة جدا ومقتضية . ويمكن أن نستخلص من طريقة أبي المحاسن (بن تغرى بردى) في روايتها أن الأمر بالحنة في الأماكن الخارجة عن ولايتى العراق ومصر من البلاد الاسلامية ، بلغها متأخرا عن تاريخ وصوله لهاتين الولاياتين . فلا بد اذا صح هذا الاستنتاج أن الزمن الذى استغرقته الحنة في هذه البلاد الاسلامية الأخرى كان قصيرا ، وأن هذا يصندق على الأقل على خلافة المأمون . كما يستخلص أيضا ، أن نجاح حملة الاضطهاد في بغداد ، قد دفعت المأمون الى أن يصدر أمرا عاما بأخذ الناس بالحنة في كافة أرجاء امبراطوريته . ففى سنة ٢١٨ هـ ، ذهب المأمون بنفسه الى دمشق ، وربما كان في طريقه وهو ذاهب الى حملته الأخيرة على آسيا الصغرى . وهناك في دمشق أشرف بنفسه على امتحان الفقهاء والعلماء في مسائل حرية الارادة ووحدانية الذات الالهية أى العدل والتوحيد ،

(٢) النجوم الزاهرة لابی المحاسن بن تغرى بردى ح ١ ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ (٢) لم يرد في الطبعة المصرية للنجوم الزاهرة ح ٢ ص ٢٢٢ وما بعدها ، القاهرة سنة ١٩٣٠ م ، ما يشير الى أن كيدر أوقف الحنة لما جاءه نعى المأمون . هذا ولم يطلع باتون على كتاب ولاية مصر وقضاتها للكندى ، الإنف الذكر ، وهو يتضمن حقائق تاريخية هامة عن الحنة في مصر ، وهى تبدأ بما جاء في ص ١٩٣ من كتابه حيث يقول : « وورد كتاب أبى اسحاق بن الرشيد على كيدر بأن يأخذ الناس بالحنة ، ورد الكتاب في جمادى الآخرة سنة ثمانى عشرة ومائتين (لوافق للرابع والعشرين من شهر يونية سنة ٨٢٣ م ، نقلا عن التوقيعات الالهامية ص ١٠٩) ، والقاضى بمصر هارون ابن عبد الله الزهرى ، فأخذه كيدر بذلك ، فأجاب ، وأخذ الشهود به ، فأجابوا ، فمن وقف منهم ، سقطت شهادته ، وأخذ بها الفقهاء والمحدثين والمؤذنين ، فكان الناس على ذلك من سنة ثمانى عشرة الى أن قام المتوكل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين »

وعنده أن عقيدة التوحيد تعد اختباراً يؤدي إلى القول بخلق القرآن (١) . وكان اسحق بن يحيى حاكم دمشق في عهد المأمون ، كما كان حاكمها في عهد خليفتيه المعتصم والواثق . وقد كتب له المعتصم ، ابان خلافته كتاباً أمره فيه بأن يمتحن الناس الذين تولى امرئتهم بعباد خلق القرآن . غير أنه ترفق بهم ، ولم يأخذهم بالشدة ، فيما يتعلق بانفاذ الأمر الذي تلقاه . وقد عينه المتوكل في سنة ٢٣٥ هـ حاكماً على مصر (٢)

ج - الكوفة :

عندما بلغ الكوفة الأمر بالمحنة ، كان بمسجدها الجامع ، جمع غفير من

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥٧١ (٢) نشره هوتسما في ليدن سنة ١٨٨٣ في مجلدين ، وفي طبعة النجف سنة ١٣٥٨ هـ في ج ٣ ص ١٩٤ والعبارة التي يشير إليها المؤلف هي : « وصار المأمون إلى دمشق سنة ٢١٨ هـ ، وامتحان الناس في العدل والتوحيد » . وقد سمي المعتزلة أنفسهم أهل التوحيد والعدل . وحجتهم على الآخر في هذا ، هي أنهم لا يقولون من جهة ، يقول أهل السنة في صفات الله وفي القرآن ، لتعارض هذا القول مع فكرة الوحدانية في الاسلام وذهبوا إلى أن الصفات ماهي إلا أسماء جوفاء ، وليست بكانات حقيقية قائمة منفصلة عن الذات ، ولكنها ابراز لنواح خاصة في جوهر الذات تدل على أن الله تعالى عالم وقادر ومريد الخ . كما أن المعتزلة أنكروا من جهة أخرى مذهب أهل السنة في القدر الإلهي ، وما كتبه الله على خلقه فيما يأتونه من أعمال وما يلقونه من مصير . لان هذا القدر يتناقض مع العدالة الإلهية المطلقة . لذلك قالوا بأن الانسان حر في ارادته وأنه خالق لأفعاله ومتحكم في مصيره . لذلك نرى أن ماسمى به المعتزلة في كتب الجدل والكلام من أنهم أهل التوحيد والعدل ، يحمل معنى خاصاً أكثر مما ظهر لنا في بداية هذه الملاحظة ، فالمعتزلة يقولون أولاً : بانكار وجود الصفات الإلهية ويذهبون إلى أنها لا تنفصل عن الذات ، ويترب على ذلك أن القرآن مخلوق ولذلك سمو بأهل التوحيد ، ثانياً يقولون بحرية الإرادة عند الانسان ولذلك سمو بأهل العدل . انظر كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٥٥ ، ٩٢ ، ١٣٣ ، وكتاب المعتزلة بقلم شتينر ص ٣٠ ، ٥٠ وهامش رقم ٣ ، والمثل والنحل للشهرستاني ترجمة هاربريكر ج ١ ص ٣٩ ، ٤٢

فاذا صح ماذهب إليه اليعقوبى ، فإن عبارة هوتسما في ص ١٠٨ من كتابه يستحق تصحيحها وهي (عبارة هولندية ترجمتها :) « أن المأمون لم يدخل الدولة في حسابه حينما أعلن عقيدته في خلق القرآن » . وكل الدلائل ترجح أن الخليفة أتى ماذكره اليعقوبى ، ولو أنا بصفة عامة لا تعتبر اليعقوبى حجة يوثق به فيما حكاه عن المحنة . ويبدو أنه تنقصه في موضوع المحنة الدقة المروضة عنه في تسجيله للحوادث

(٢) التجوم الراهرة ج ١ ص ٧١١ وما بعدها (٢) طبعة القاهرة ج ٢ ص ٢٨٣ ، سنة ١٩٢٠م وقد جاء فيها : (اسحق بن يحيى) ولى امرة دمشق في أيام المأمون ... وكان فيه رفق بالرعية وعلل وانصاف . وفق بالناس في أيام ولايته بدمشق ، عندما ورد كتاب المعتصم بامتحان الرعية بالقول بخلق القرآن

المشايع . فلما قُريء عليهم كتاب الخليفة (لم يرد اسمه في النص الذي نقلنا عنه) ، كان الشعور هو عدم الاذعان للأمر الذي اشتمل عليه . وممن شهد هذا المجلس أبو نعيم الفضل بن دُكين ، أحد مُحَدِّثي الكوفة ، المتوفى سنة ٢١٩ هـ . وقد رَوَى عنه أنه قال : « أدركت ثمانمائة شيخ ونيفاً وسبعين شيخاً ، منهم الأعمش ، فمن دونه ، فما رأيت أحداً يقول بهذه المقالة ، يعنى بخلق القرآن ، ولا تكلم أحد بها الا رُمِيَ بالزندقة (١) » . ولقد شهد أبو نعيم الفضل بن دُكين بداية المحنة في الكوفة . وهذه الحقيقة تدلنا على التاريخ التقريبي لوقوع حادث المحنة هنالك ، لأن هذا الرجل توفي سنة ٢١٩ هـ ، كما ذكرنا (٢)

نص الزعماء السبعة (*) :

ويحق لنا أن نخدس ما يمكن أن يثيره كتاب المأمون لعامله على بغداد من احساس بالمقاومة ، يذكى أكبر المحركين لها وأشدهم حماسة وهو أحمد بن حنبل (٣) . ولم يكن المأمون الى ذلك الوقت قد تجرأ على حبسه

(١) انظر في تاريخ كلمة زنديق واستعمال أهل السنة لها ، كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٧٥

(٢) المقرئ ورقة ١٣ : « وأما الحافظ أبو نعيم الفضل بن دكين ، فروى الحافظ أبو الفرج (بن الجوزي) بسنده الى محمد بن أحمد بن عمرو بن عيسى ، قال : سمعت أبا يقول : ما رأيت مجلساً أنبل من مجلس اجتمع فيه المشايخ بجامع الكوفة في وقت الامتحان فقريء عليهم الكتاب الذي فيه المحنة . فقال أبو نعيم . . (٣) العبارة السابقة التي أوردناها في المتن وهي في الاصل في الحاشية (٤) . يلاحظ أن المؤلف أضعف من رواية اليعقوبي لحوادث المحنة مع قرب عهده بها أكثر من الطبري ، اذ توفي بعد سنة ٢٧٨ هـ والطبري توفي سنة ٣١٠ هـ ولم يوضح لنا المؤلف أسباب عدم توثيقه لرواية اليعقوبي ، والراجع أن ذلك يرجع لتعارض رواية اليعقوبي مع كافة المراجع التي رجح اليها المؤلف . وكلها مما كتبه أهل السنة والحنابلة . (٤) في الاصل Citation ومعناها استدعاء أو اعلام ، وهي تؤدي معنى كلمة « نص » في اللغة العربية ففي تاج العروس ج ٤ ص ٤٤٢ « من الجاز : نص فلاناً : نصاً ، اذا استقصى مسألته عن الشيء أى أحفاه فيها ، ورفعها الى حد ماعنده من العلم حتى استخراج كل ماعنده » وقد وردت في الكتاب الاول للمأمون : « فمرهم بنص من يحضرهم من الشهود على الناس » . وترجمها باتون بكلمة Citation

(٣) أنكر أهل بغداد على المأمون في سنة ٢١٥ هـ ، وحتى قبل هذا التاريخ ، بدعته الخاصة بخلق القرآن ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٣١ (٤) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٠ م ج ٢ ص ٢٠٣ : « وفيها (أى سنة ٢١٢ هـ) أظهر المأمون القول بخلق القرآن . . واشمأزت النفوس منه »

واعتقاله . وتكشف لنا خطوته التالية التي أدخلها في حسابه وتديره عن مدى سلامة الاجراء الذي اتخذه ، لحمل رعيته على الانقياد لآرائه والقول بمذهبه

٧ - الكتاب الثاني للمأمون

كتب المأمون كتابا ثانيا الى اسحق بن ابراهيم ، حاكم العراق ، يأمره فيه بأن يُشخّص اليه سبعة من وجوه المحدثين ببغداد ، حتى يتولى امتحانهم بنفسه . وكانت هذه الحركة من جانبه ، تدل على حذقه وبراعته ، اذا نظرنا اليها من وجهة الهدف الذي كان يسعى اليه . اذ أن توقف هؤلاء المحدثين عن الاجابة ، يكون أعسر عليهم وأشق ، بدرجة كبيرة ، عما لو جرى امتحانهم ببغداد ، حيث يلقون مؤازرة أدبية وتأيدا معنويا من زملائهم عامة المحدثين والفقهاء هنالك ، فضلا عن أنهم سيكونون في حضرة الخليفة وجها لوجه أمام أعوانه ، ورجال بلاطه وجلائديه ، فيدخل الخليفة في روعهم ، ما قد يجثره غضبه من نِقَم وأهوال ، تحقيق بهم لو أنهم جنحوا الى التمرد والخلاف . واذا ما ظفر الخليفة بانقياد هؤلاء الزعماء ومتابعيهم لرأيه ، لم يكن هناك ما يخشاه ممن كان من المحدثين والفقهاء أقل شأنا وأدنى منزلة . وفي البداية كان اسم أحمد بن حنبل ، مثيرا بين أسماء أولئك السبعة المشار اليهم آنفا . ولكن أحمد بن أبي دُوَاد أمر بحجوه — وعلى الأقل فان هذا هو ما زعمه قاضي القضاة

وهؤلاء الذين أشخصوا (١) لحاشية المأمون هم : محمد بن سعد ، كاتب الواقدي ، وأبو مسلم ، مُستَمَلِي يزيد بن هرون ، ويعحي بن مَعِين ، وزهير بن حَرَب أبو خيثمة ، واسماعيل بن داود ، واسماعيل بن أبي مسعود ، وأحمد بن ابراهيم الدورقي . وقد أجاب هؤلاء السبعة جميعا ، بفضل ما استخدمه الخليفة من وسائل الاكراه والضغط عليهم . وبعد أن

(١) تاريخ الطبري ص ١١١٦ (من الطبعة الاوربية) ولم يأت الطبري بنص الكتاب الثاني

نال بعيته من اجابتهم ، ركدهم الى عامله اسحق بن ابراهيم ببغداد ، حيث أمره أن يَشْهَر أمرهم وقولهم ، وأن يجيبوا بما أجابوا به الخليفة ، في حضرة الفقهاء والمشايخ من أهل الحديث (١)

٨ - أثر الكتاب الثاني للمأمون

كان تنكب هؤلاء السبعة جادة السنة مما أساء كثيرا الى أحمد بن حنبل وأحزنه . وكان يرى أنهم لو ثبتوا وتوقفوا ، لانتقطع أمر المحنة ، ولما سمع بها أحد في بغداد ، ولكف المأمون عن محاشنتهم ولهاب ابداءهم ، لأنهم أقطاب المدينة وأعلامها . ولكنهم لما ضعفوا لم يتردد الخليفة في امتحان غيرهم . (روى المقرئ (٢) قال (أحمد بن حنبل) : « فأجابوا ، ولو كانوا صبروا ، وقاموا لله ، لكان انتقطع الأمر ، وحذرهم الرجل ، يعنى المأمون . ولكن لما أجابوا ، وهم غني البلد ، اجتراً على غيرهم » . وكان أبو عبد الله ، اذا ذكرهم يَغْتَم ، ويقول : « هم أول من تَلَم هذه الثلمة » .) وقد اعتذروا بأنهم انما أجابوا تقيّة (أى تحكلاً من أحكام الدين اذا كان في مراعاتها خطر على الحياة) . ولكن الباعث الحقيقي لاجابتهم ، هو خوفهم من القتل ، فيما اذا خالفوا . وهذا هو ما أقر به يحيى بن معين ، مستغنيا نادماً ، (اذا ما ذكر المحنة (٣)) . قائلاً بأن

(١) تاريخ الطبرى ص ١١١٦ وما بعدها (٢) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١٠ ص ٢٨٦ وقد ترجم ابن خلكان في كتابه وفيات الاميان لحمد بن سعد ، رقم ٦٥٦ ، كما ترجم النووى في تهذيبه ليحيى بن معين ص ٦٢٨ (٣) طبعة مير بالقاهرة ح ٢ ص ١٥٦ . ورجم الذهبى في كسابه لتذكرة الحفاظ لكل من احمد بن ابراهيم الدورى ، الطبقة ٨ رقم ٩٨ ، ولزهر بن حرب في نفس الطبقة رقم ٢٣ ، ولم استطع أن اعثر على تراجم الثلاثة الآخرين (من هؤلاء الثلاثة : اسماعيل بن داود ، ذكره الذهبى في كتابه ميزان الاعتدال ح ١ ص ١٠٥ ، وذكر أنه من المحدثين الضعفاء ولعله هذا

(٢) المغنى ورقة ٤

(٣) السبكي ورقة ١٣٧ (٢) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ٢٠٧ : وسبب طلبهم ، انهم توقفوا أولاً ثم أجابوه تقيّة ، وكتب (المأمون) الى اسحق بن ابراهيم بأن يحضر الفقهاء ومشايخ الحديث ، ويخبرهم بما أجاب به هؤلاء السبعة ، ففعل ذلك ، فأجاب طائفة وامتنع آخرون ، فكان يحيى بن معين (وغيره) وهذه الكلمة زيادة من تاريخ الخلفاء للسيوطى) يقول : أجبنا خوفاً من السيف

هذا هو السبب في اجابته . وقد كان من سوء الحظ ، ما أظهره هؤلاء الزعماء السبعة من ضعف وخور . لأنه ليس من المستبعد أن المأمون كان يجد في حزمهم وصلابتهم ، زاجرا له عن المضي في سياسته ، وهي حمل الناس قسرا على اتباع مذهبه . كما أنه لم يكن من المحتمل آنذاك أن تستأنف المحنة بعد موته ، وأن يعمد من وليه من الخلفاء الى احياء محاكمة تحقيقية كهذه ، سبق أن عدل عنها

٩ - الكتاب الثالث للمأمون

ثم أرسل الخليفة المأمون كتابا ثالثا الى اسحق بن ابراهيم ، عامله على بغداد ، ونصه فيما يلي : (١) : (أما بعد) فان من حق الله على خلفائه في أرضه ، وأمنائه على عبادته ، الذين ارتضاهم لاقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وامضاء حكمه وسننه ، والائتمام بعدله في بريته ، أن يجهدوا لله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقللدهم ، ويدلوا عليه ، تبارك اسمه وتعالى ، بفضل العلم الذي أودعهم ، والمعرفة التي جعلها فيهم ، ويهدوا اليه من زاع عنه ، ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ، ويقفوه على حدود إيمانهم ، وسبيل فوزهم وعصمتهم ، ويكشفوا لهم عن منغنيات أمورهم ومشتبهاتها عليهم ، بما يدفعون الريب عنهم ، ويعود بالضياء والبينة على كافتهم ، وأن يؤثروا ذلك من ارشادهم وتبصيرهم . اذ كان جامعا لقنون مضانهم ، ومنتظما لحظوظ عاجلتهم وآجلتهم . ويتذكروا (أى الخلفاء) ما الله مَرصِد من مساءلتهم عما حُمِّلُوهُ ، ومجازاتهم بما أسلفوه ، وقدموا عنده ، وما توفيق أمير المؤمنين الا بالله وحده ، وحسنه الله ، وكفى به

ومما بيّنه أمير المؤمنين برويته ، وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره ، وجليل ما يرجع في الدين من وكفه وضرره ، ما ينال المسلمون بينهم من

(١) الطبرى ح ٢ ص ١١١٧ وما بعدها (٢) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١٠ ص ٢٨٦

وما بعدها

القول في القرآن ، الذي جعله الله اماما لهم ، وأثرا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفيته محمد صلى الله عليه وسلم ، باقيا لهم ، واشتباهاه (أى القرآن) على كثير منهم حتى حسّن عندهم ، وتزيّن في عقولهم ألا يكون مخلوقا ، فتعرضوا بذلك ، لدفع خلق الله ، الذي بآن عن خلقه ، وتفرّد بجلالته ، من ابتداع الأشياء كلها بحكمته ، وانشائها بقدرته ، والتقدم عليها بأوليئته ، التي لا يبلّغ أولاهها ، ولا يدرك مداها ، وكان كل شيء دونه ، خلقا من خلقه ، وحداثا هو المحدث له (٢) ، وان كان القرآن ناطقا به ، ودالا عليه ، وقاطعا للاختلاف فيه ، وضاهوا به قول النصارى ، في ادعائهم في عيسى بن مريم ، أنه ليس بمخلوق ، اذ كان كلمة الله (١) ، والله عز وجل يقول : « انا جعلناه قرآنا عربيا » (٣) . وتأويل ذلك انا خلقناه ، كما قال جل جلاله : « وجعل منها زوجها ليسكن اليها » (٤) وقال : « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا » (٥) . « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (٦) . فسوى عز وجل بين القرآن وبين هذه الخلائق التي ذكرها في شية الصنعة ، وأخبر أنه جاعله وحده ، فقال : « بل هو قرآن مجيد » في لوح محفوظ (٧) . فقال ذلك ، على احاطة اللوح بالقرآن ، ولا يحاط الا بمخلوق (٨) . وقال لنبىه صلى الله عليه وسلم :

(٢) أى هذه الفكرة الباطلة التي يذهبون اليها (٢) العبارة السابقة اوردها المؤلف بين قوسين في الاصل ، لشرح سياق كتاب المأمون في ترجمته له

(١) وازن ذلك بما في سورة الاخلاص رقم ١١٢ ، وبما في كتاب المعتزلة بنلم شتير من ٩٠ وهامشها

(٢) سورة الزخرف رقم ٤٣ آية ٣

(٣) سورة الاعراف رقم ٧ آية ١٨٩

(٤) سورة النبأ رقم ٧٨ آية ١٠ ، ١١

(٥) سورة الانبياء رقم ٢١ آية ٢٠

(٦) سورة البروج رقم ٨٥ آية ٢١ ، ٢٢

(٧) وازن ذلك بما جاء في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ترجمة هاربريكر ح ١

«لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ بِهِ (١)». وقال : «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ (٢)؟». وقال : «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ (٣)» . وأخبر عن قوم ذمهم بكذبهم أنهم قالوا : «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ (٤)». ثم كذبهم على لسان رسوله ، فقال لرسوله : «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى (٥)». فسمي الله تعالى القرآن قرآنًا ، وذكري وإيمانا ونورا وهدي ومباركا وعربيا وقصصا ، فقال : «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ (٦)». وقال : «قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ (٧)؟». وقال : «قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلَهُ مُتَقَاتِرَاتٍ (٨)». وقال : «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ (٩)» . فجعل له أولا وآخرا ، ودل عليه أنه محدود مخلوق

وقد عظم هؤلاء الجهلة ، بقولهم في القرآن التلثم في دينهم ، والخرج في أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الاسلام ، واعترفوا بالتبديل والاحاد على قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله وفعله ، بالصفة التي هي لله وحده ، وشبهوه به . والأشياء أولى بخلقه . وليس يرى أمير المؤمنين ، لمن قال بهذه المقالة ، حظا في الدين ، ولا نصيبا من الايمان واليقين . ولا يرى من يحل أحدا منهم محل الثقة في أمانة ولا عدالة ولا شهادة ، ولا صدق في قول ، ولا حكاية ، ولا تولية لشيء من أمر الرعية ، وان ظهر قصد

(١) سورة القيامة رقم ٧٥ آية ١٦ (والآية التي تليها : ١٧ : ان علينا جمعه وقرآنه)

(٢) سورة الانبياء رقم ٢١ آية ٢

(٣) سورة الانعام رقم ٦ آية ٩١

(٤) سورة الانعام رقم ٦ آية ٩١

(٥) نفس الآية السابقة

(٦) سورة يوسف رقم ١٢ آية ٣

(٧) سورة الاسراء رقم ١٧ آية ٨٨

(٨) سورة هود رقم ١١ آية ١٣

(٩) سورة فصلت رقم ٤١ آية ٤٢

بعضهم ، وعُرف بالسداد مُستد فيهم . فان الفروع مردودة الى أصولها ، ومحمولة في الحمد والذم عليها . ومن كان جاهلا بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته ، فهو بما سواه أعظم جهلا ، وعن الرشد في غيره أعمى وأضل سبيلا

فاقرأ على جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن اسحق القاضي ، كتاب أمير المؤمنين ، بما كتب به اليك ، وأتصصنهما عن علمهما في القرآن . وأعلمهما أن أمير المؤمنين لا يستعين على شيء من أمور المسلمين ، الا بمن وثق باخلاصه وتوحيده ، وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق . فان قالوا بقول أمير المؤمنين في ذلك ، فتقدم اليهما في امتحان من يحضر مجالسهما بالشهادات على الحقوق، ونصّهم (١) عن قولهم في القرآن . فمن لم يقل منهم : انه مخلوق ، أبطلا شهادته ، ولم يقطعا حكما بقوله . وان ثبتت عفاقه بالقصد والسداد في أمره . وافعل ذلك بمن في سائر عمالك من القضاة ، وأشرف عليهم اشرافا ، يزيد الله به ذا البصيرة في بصيرته ، ويمنع المرتاب من اغفال دينه . واكتب الى أمير المؤمنين بما يكون منك في ذلك ، (ان شاء الله)

١٠ - نص العلماء في بغداد

وقد نفذ اسحق بن ابراهيم الأوامر التي تلقاها في كتاب المأمون ، فأحضر جماعة من الفقهاء والعلماء والمحدثين (١) . فمنهم أحضرهم ، أحمد بن حنبل ، وبشر بن الوليد الكندي ، وأبا حسان الزياتي ، وعلى بن أبي مقاتل ، والحسن بن حماد السجادة (٢) ، والذئبال بن الهيثم ، وقتيبة بن سعيد

(١) سبق لنا أن شرحنا معنى كلمة نص أي استقصاء المسألة عن الشيء

(١) تاريخ الطبري ح ٣ ص ١١٢١ وما بعدها ، وقد تابعته في هذه القطعة بطولها (٢) طبعة

الحسينية بالقاهرة ح ١٠ ص ٢٨٧ وما بعدها

(٢) النجوم الزاهرة ح ١ ص ٦٣٨ (٣) طبعة القاهرة ح ٢ ص ٢٢٠ والمقريزي ورقة ٤٤ حيث

يقول : الحسن بن حماد المعروف بسجادة

الذى يبدو أنه كان وقت ذاك في بغداد بصفة مؤقتة ، وسعدويه ، سعيد بن سليمان أبو عثمان الواسطي^(١) ، واسحق بن أبي إسرائيل ، وابن الهيرش^(٢) ، وابن عليّة الأكبر ، ومحمد بن نوح المضرّوب العجلى^(٣) ، ويحيى ابن عبد الرحمن العمري ، وأبا نصر التمار ، وأبا معمر القطيعي ، ومحمد بن حاتم بن ميمون ، وشيخ من ولد عمر بن الخطاب ، كان قاضي الرقة ، وابن الفرخان ، والنضر بن شميل ، وعبد الرحمن بن اسحق ، وابن البكاء الأكبر ، وأحمد بن يزيد بن العوام ، أبو العوام البزاز ، وابن شجاع ، ومحمد بن الحسن بن علي بن عاصم . وقد ذكرت أسماء أخرى تتبينها في التحقيق التالي

١ - بشر بن الوليد الكندي :

لما أشخص هؤلاء القوم الى اسحق بن ابراهيم ، قرأ عليهم كتاب المأمون مرتين حتى وقفوا على معناه . ثم سألهم الاجابة للمذهب الذى دعا اليه الخليفة . ففى البداية حاولوا الادلاء بحجج تحايلوا بها مغالطة وتوحيها ، ولا يفهم منها اذا كانوا يوقنون بخلق القرآن أو ينكرون أنه مخلوق . وكان أول من امتحنه اسحق بن ابراهيم ، بشر بن الوليد (الكندى) . سأله : ما تقول فى القرآن ؟ فرد بشر قائلا : قد عرفت مقاتلى لأمر المؤمنين غير مرة . فقال اسحق : فقد تجدد من كتاب أمير المؤمنين ما قد ترى . فرد بشر : أقول القرآن كلام الله . فقال اسحق : لم أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟ فقال بشر : الله خالق كل شيء . قال اسحق : ما القرآن شيء ؟ قال : بشر :

(١) أورد أبو المحاسن بن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة ح ١ ص ٦٦٥ (٢) طبعة القاهرة ح ٢ ص ٢٤٣) اسمه : « سعيد بن سليمان ، سعدويه وكنيته أبو عثمان الواسطي (٣) فى الاصل بفتح الهاء وصحتها بكسرها (٢) النجوم الزاهرة ح ١ ص ٦٤٨ (٣) طبعة القاهرة ح ٢ ص ٢٢٠ ، ويضيف السبكي ورقة ١٣٨ ، الى اسمه كلمة المضرّوب (٣) لا توجد كلمة المضرّوب فى طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ٢٠٧ ، وقد أورد الخطيب فى تاريخ بغداد ح ٣ ص ٣٢٢ وتم ١٤٢٥ ، اسمه : محمد بن نوح ابن ميمون ... العجلى المعروف والده بالمضرّوب

هو شيء . فسأله اسحق : فمخلوق ؟ فرد بشر : ليس بخالق . قال اسحق : ليس أسألك عن هذا ، أمخلوق هو ؟

فأقر بشر حينذاك بأنه قد سلّم الى أقصى مدى يستطيع أن يسلم به ، فضلا عن أن الخليفة قد احلّه من الافصاح عن رأيه في هذا الموضوع . وعندئذ أخذ اسحق رقعة كانت بين يديه ، فقرأها على بشر ووقفه عليها . ثم قال لبشر : أشهد ألا اله الا الله ، أحد فرد ، لم يكن قبله شيء ولا بعده شيء ، ولا يشبهه شيء من خلقه في معنى من المعاني ولا وجه من الوجوه (١) . فقال بشر : نعم ، وقد كنت أضرب الناس على دون هذا . ثم التفت اسحق للكاتب وقال له : أكتب ما قال

ب - على بن أبي مقاتل :

ثم قال اسحق لعلي بن أبي مقاتل : (ما تقول يا علي ؟) سائلا إياه عن معتقده . فقال علي : قد سمعت كلامي لأمير المؤمنين في هذا غير مرة ، وما عندي غير ما سمع . فامتنحه اسحق بالرقعة التي قرئت عليه فأدلى على بالاقرار المطلوب . ثم قال اسحق : القرآن مخلوق ؟ فرد علي : القرآن كلام الله . فأجابه اسحق بما أجاب به بشر ، بأنه لم يسأله عن هذا . فرد علي : هو كلام الله ، وإن أمرنا أمير المؤمنين بشيء سمعنا وأطعنا . وقد أمر الكاتب مرة أخرى بتسجيل ما قاله

ثم قال للذيّال نحوا من مقالته لعلي بن أبي مقاتل ، فقال له : مثل ذلك

ح - ابو حسان الزيدى :

وانا نلاحظ فيما أجاب به أبو حسان الزيدى معنى من معاني الخضوع

(١) يبدو أن هوتسما في كتابه : المنازعات الاعتقادية الخ ص ١٠٨ فهم من هذه العقيدة المكتوبة التي كان على من وضعت لهم أن يسلموا بها ويوقعوا عليها ، أنها تتضمن اعترافا بأن القرآن مخلوق . والموضوع كما عرضه الطبري في تاريخه يوضح أن الوثيقة اقتضت فحسب الاقرار بوحداية الله . ومن الواضح أن الغرض منها تأييد الاختيار الشفهي المنفصل ، فيما يتعلق بالقرآن . ويظهر أنه لم يتحرج فقيه واحد من هؤلاء الفقهاء عن الاقرار بما جاء في الاختيار المكتوب ، بيد أنهم ودوا تجنب الاختيار الشفوي الآخر ، لو كان ذلك ميسورا لهم

الساذج . فقد قال بأن القرآن كلام الله ، والله خالق كل شيء ، وما دون الله مخلوق . ولكن أمير المؤمنين امامنا ، وبسببه سمعنا عامة العلم ، وقد سمع ما لم نسمع ، وعلم ما لم نعلم . وقد قلّده الله أمرنا ، فصار يقيم حجنا وصلاتنا ، ونؤدى اليه زكاة أموالنا ، ونجاهد معه ونرى امامته امامة . فان أمرنا ائتمرنا وان نهانا انتهينا وان دعانا أجبنا . (قال اسحق : القرآن مخلوق هو ؟ فأعاد عليه أبو حسان مقالته) ، قال اسحق : ان هذه مقالة أمير المؤمنين . فرد أبو حسان : قد تكون مقالة أمير المؤمنين ، ولا يأمر بها الناس ولا يدعوهم اليها . وان أخبرتنى أن أمير المؤمنين أمرك أن أقول ، قلت ما أمرتنى به . فانك الثقة المأمون عليه ، فيما أبلغتنى عنه من شيء . فان أبلغتنى عنه بشيء صرت اليه . فرد اسحق قائلاً : ما أمرنى أن أبلغك شيئاً . فقال له أبو حسان : ما عندي الا السمع والطاعة فمرّنى أأتمر . فقال اسحق : ما أمرنى أن أمرك وانما أمرنى أن أمتحنك . وهنا ينتهى امتحان أبي حسان

د - احمد بن حنبل :

وفى حالة أحمد بن حنبل (عندما جاء دور امتحانه) ، اقترح ابن البكاء الأصغر على اسحق بن ابراهيم أن يسأل أحمد بن حنبل عن معنى : « وهو السميع البصير » التى وردت فى اقراره . فأجاب أحمد بما يتفق مع مبادئ الطبقة التى ينتمى اليها (وهى رجال الحديث) فقال : هو كما وصف نفسه . ولما شدد عليه بعد ذلك لتوضيح معانى هذه الكلمات قال : لا أدري هو كما وصف نفسه . وقد كان أحمد حازماً ثابتاً فى التمسك باقراره أن القرآن كلام الله ، ولم يزد شيئاً للتقريب بين الرايين وللتسليم بمذهب الخليفة

أما أولئك الذين امتحنوا بعد ذلك ، فقد اقتدوا بأحمد بن حنبل ، فيما عدا قتيبة ، وعبيد الله بن محمد بن الحسن ، وابن علية الأكبر ، وابن البكاء ، وعبد المنعم بن ادريس بن بنت وهب بن مئبّه ، والمظفر بن مَرْجِيّ ، ورجلا (ضريراً) ليس من أهل الفقه ولا يُعرف بشيء منه ، الا

أنه دُئس في ذلك الموضع (٢)، وابن الأهر، ورجلا من ولد عمر بن الخطاب، قاضى الرقة . ولم تزودنا مصادرنا بما رد به هؤلاء نفر . ولكن يبدو أن ردودهم تضمنت التوفيق بين آرائهم وما حَمَلوا على القول به . وفي هذه المناسبة حين علم أحمد بن حنبل ، باجابة أقرانه من الفقهاء والمحدثين ، لما أجرى عليهم الامتحان ، غضب غضبا شديدا

قال أبو ثَعِينَم (١) : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، حدثني أبو مَعْمَر القطيعي قال : لما أَحْضَرْنَا فِي دَارِ السُّلْطَانِ ، أَيَّامَ الْمُحَنَّةِ ، وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ قَدْ أَحْضَرَ . فَلَمَّا رَأَى النَّاسَ يُجِيبُونَ ، وَكَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ رَجُلًا لِينًا .. اتَّفَخْتُ أَوْدَاجَهُ ، وَاحْمَرَّتْ عَيْنَاهُ . وَذَهَبَ ذَلِكَ اللَّيْلُ الَّذِي كَانَ فِيهِ . فَقُلْتُ : إِنَّهُ قَدْ غَضِبَ اللَّهُ . قَالَ أَبُو مَعْمَرٍ : فَلَمَّا رَأَيْتَ مَا بِهِ قُلْتُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَبْشِرْ

هـ - ابن البكاء الأكبر :

وقد أجاب ابن البكاء الأكبر . ولكن لم تكن اجابة كاملة ، بل كان فيها أكثر كياسة مما كان في اجابة بعض زملائه . لأنه استمسك بنصوص الآيات القرآنية ، في صياغة ما أقر به من الحجج التي أسفر عنها الامتحان . فمما أمضاه وسلّم به ، من جهة قوله بأن القرآن مجعول ، ومن جهة أخرى بأن القرآن مُحَدَّث . ففي موقفه الأول أشار للآية القرآنية التي احتج بها ، وهي الآية التي استشهد بها الخليفة ليثبت أن القرآن مخلوق ، وهي الآية الثانية من سورة الزخرف رقم ٤٣ : « انا جعلناه قرآنا عربيا »

وفي موقفه الثاني ، استند للآية القرآنية التي استشهد بها الخليفة أيضا للتدليل على صحة مذهبه ، وهي الآية الثانية من سورة الأنبياء رقم ٢١ : « ما يأتيهم من ذكر من ربهم مُحَدَّثٌ » . وقد سأل اسحق ابن البكاء عما اذا كانت كلمة «مجعول» تفيد معنى كلمة «مخلوق» ، فأجاب ابن البكاء

(٢) في الاصل : تصادف حضوره أو اتفق وجوده ، وقد آثرنا اثبات نص العبارة التي أوردها

الطبري في تاريخه طبعة التجارية بالقاهرة سنة ١٩٢٩ م ح ٧ ص ٢٠١

(١) حلية الاولياء ورقة ١٤٦ ب (٢) طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٩٤

بالإيجاب . فقال حاكم بغداد : اذن فالقرآن مخلوق ؟ فقال ابن البكاء : لا أقول مخلوق ولكنه مجعول . (فكتب مقالته)

فلما فرغ اسحق من امتحان جميع الفقهاء الآخرين ، اعترض ابن البكاء الأصغر مشيراً الى وجوب امتحان القاضيين اللذين نفترض أنهما عبدالرحمن ابن اسحق ، وجعفر بن عيسى . فقال حاكم بغداد انهما يدينان بمقالة أمير المؤمنين . فاقترح ابن البكاء الأصغر قائلاً بأنهما لو أمرا بالافصاح عن رأيهما ، لتيسر ابلاغ أمير المؤمنين مقالتهما نيابة عنهما . غير أن حاكم بغداد، كان قد اعتزم فيما يبدو الامتناع عن امتحان القاضيين ، لكي يجنب أحدهما (عبد الرحمن بن اسحق) الذي أرجح أنه كان ولده ، ما عسى أن يتعرض له عند امتحانه من فضول ومهانة . فلم يزد اسحق على قوله للسائل المعترض بأنه ان شهد عندهما بشهادة فسيعلم مقالتهما

١١ - الكتاب الرابع للمأمون

ثم كتب اسحق بن ابراهيم للمأمون كتاباً فصلّ فيه ردود القوم وما أجابوا به . وبعد انقضاء تسعة أيام ، دعا اسحق الفقهاء لسمعهم رد الخليفة . وفيما يلي نسخته (١) :

(بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد) ، فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك ، جواب كتابه ، كان اليك فيما ذهب اليه متّصّة أهل القبلة ، وملتسو الرئاسة فيما ليسوا له بأهل ، من أهل الملة ، من القول في القرآن ، وأمرّك به أمير المؤمنين من امتحانهم ، وتكشيف أحوالهم ، واحلالهم محالّهم ، تذكر احضارك جعفر بن عيسى ، وعبد الرحمن بن اسحق ، عند ورود كتاب أمير المؤمنين ، مع من أخضرت ، ممن كان ينسب الى الفقه ، ويتعرف بالجلوس للحديث ، وينتصب نفسه للفتيا بمدينة السلام (بغداد) ، وقراءتك عليهم جميعاً كتاب أمير المؤمنين ، ومسألتك اياهم عن اعتقادهم

(١) تاريخ الطبري - ٣ ص ١١٢٥ وما بعدها (*) طبعة الحسينية - ١٠ ص ٢٨٩ وما بعدها)

في القرآن ، والدلالة لهم على حظهم ، واطباقهم على نفى التشبيه ، واختلافهم في القرآن وأمرك مَنْ لم يَقْتُلْ منهم انه مخلوق ، بالامساك عن الحديث ، والفتوى في السر والعلانية ، وتقدمك الى السُّنْدِي ، وعباس مولى أمير المؤمنين ، بما تَقَدَّمت به فيهم الى القاضيين ، بمثل ما مثل لك أمير المؤمنين من امتحان من يحضر مجالسهما من الشهود ، وبث الكتب الى القضاة في النواحي من عملك ، بالقدوم عليك ، لتحملهم وتمتحنهم على ما حَكَّه أمير المؤمنين ، وتثبيتك في آخر الكتاب أسماء من حَضَرَ ومقالاتهم . وفهم أمير المؤمنين ما اقتصصت . وأمير المؤمنين يَحْمَدُ الله كثيرا ، كما هو أهله ، ويسأله أن يُصَلِّيَ على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم . ويرغب الى الله في التوفيق لطاعته ، وحسن المعونة على صالح نيته برحمته

وقد تَدَبَّرَ أمير المؤمنين ما كتبت به من أسماء من سَأَلْتَ عن القرآن ، وما رجع اليك فيه كل امرئ منهم ، وما شرحت من مقالاتهم . فأما ما قال المغرور بشر بن الوليد ، في نفى التشبيه ، وما أمسك عنه من أن القرآن مخلوق ، وادعى من تركه الكلام في ذلك ، واستعجاده أمير المؤمنين ، فقد كَذَبَ بِشْرٍ في ذلك وَكَفَرَ ، وقال الزور والمنكر ، ولم يكن جرى بين أمير المؤمنين وبينه في ذلك ، ولا في غيره عَهْدٌ ولا نظر ، أكثر من اخباره أمير المؤمنين من اعتقاده كلمة الاخلاص (١) ، والقول بأن القرآن مخلوق . فادعُ بِهِ اليك ، وأَعْلِمْنَاهُ ما أَعْلَمَكَ به أمير المؤمنين من ذلك ، وأنصصه عن قوله في القرآن ، واستتببته منه . فان أمير المؤمنين يرى أن تستتیب من قال بمقالته ، اذ كانت تلك المقالة ، الكفر الصَّراح ، والشُّرْك المحض عند أمير المؤمنين . فان تاب منها ، فأشهر أمره ، وأمسك عنه . وان أَصَرَ على شِرْكه ، ودفع أن يكون القرآن مخلوقاً ، بِكُفْرِهِ والحادة ، فاضرب عنقه ، وابعث الى أمير المؤمنين برأسه (٢)

(١) أى الايمان بوحداية الله

(٢) انظر كتاب : دراسات اسلامية بقلم جولدسيهر ح ٢ ص ٢١٦ عن عقاب المرتدين بالقتل

وكذلك ابراهيم بن المهدي ، فامتحنه بمثل ما تمتحن به بشرا ، فان كان يقول بقوله ، وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ . فان قال : ان القرآن مخلوق ، فأشهر أمره واكشفه ، والا فاضرب عنقه ، وابعث الى أمير المؤمنين برأسه

وأما علي بن أبي مقاتل ، فقل له : ألست القائل لأمر المؤمنين أنك تحلل وتحرم ، والمكلم له بمثل ما كلمته به ، مما لم يذهب عنه ذكره . وأما الذئال بن الهيثم ، فأعلمه أنه كان في الطعام الذي كان يسرقه في الأنبار ، وفيما يستولى عليه من أمر مدينة أمير المؤمنين أبي العباس (١) ، ما يشغله . وانه لو كان مقتنيا آثار سلفه ، وسالكا مناهجهم ومحتذيا سبلهم لما خرج الى الشرك بعد إيمانه

وأما أحمد بن يزيد المعروف بأبي العوام ، وقوله أنه لا يحسن الجواب في القرآن ، فأعلمه أنه صبي في عقله لا في سنه ، جاهل ، وانه ان كان لا يحسن الجواب في القرآن ، فسيعينه إذا أخذه التأديب ، ثم ان لم يفعل ، كان السيف من وراء ذلك ان شاء الله (٢)

وأما أحمد بن حنبل ، وما تكتب عنه ، فأعلمه أن أمير المؤمنين قد عرف فحوى تلك المقالة وسيله فيها . واستدل على جهله وآفته بها . وأما الفضل بن غانم ، فأعلمه انه لم يخف على أمير المؤمنين ما كان منه عصر ، وما اكتسب من الأموال في أقل من سنة ، وما شجر بينه وبين المطلب بن عبد الله في ذلك . فانه من كان شأنه شأنه ، وكانت رغبته في الدينار والدرهم رغبته ، فليس يستنكر أن يبيع إيمانه طمعا فيهما ، وإيثارا لعاجل نفعهما . وأنه مع ذلك ، القائل لعلي بن هشام ، ما قال ، والمخالف له فيما خالفه . فما الذي حال عن ذلك ونقله الى غيره ؟

وأما الزيادي فأعلمه أنه كان منتحلا لأول دعي كان في الاسلام ،

(١) وازن ذلك بما جاء في تاريخ الطبري ح ٣ ص ٨٠ ، ح ١ ص ١٨ وما بعدها ، والمجلد السابع من المكتبة الجغرافية العربية (تحقيق دي خوى) ص ٢٣٧ س ٥ وما بعدها
(٢) لم يثبت المؤلف عبارة « ان شاء الله » في كتب الامون وآثرنا اثباتها نقلا من تاريخ الطبري

خولف فيه حكتم رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢٠). وكان جديرا أن يسلك مسلكه (ولكن أنكر أبو حسان أن يكون مولى لزياد ، أو يكون مولى لأحد من الناس ، وذكر أنه إنما تسبب الى زياد (بن أبيه) لأمر من الأمور (٢١). وأما المعروف بأبى نصر التمار ، فان أمير المؤمنين ، شبهه خَساسة عقله ، بخساسة متجره . وأما المفضل بن الفَرَّخَان ، فأَعْلِمَ أنه حاول بالقول الذى قاله فى القرآن ، أخذَ الودائع التى أودعها إياه ، عبد الرحمن بن اسحق وغيره ، تربصا بمن استودعه ، وطمعا فى الاستكثار لما صار فى يده ، ولا سبيل عليه عن تقادم عهده ، وتطاول الأيام به . فقل لعبد الرحمن بن اسحق : لاجزاك الله خيرا عن تقويتك مثل هذا ، وإيمانك إياه ، وهو مُعْتَقِدٌ للشِّرك ، مُتَنَسِّلٌ من التوحيد

وأما محمد بن حاتم ، وابن نوح ، والمعروف بأبى مَعْنَر ، فأَعْلِمَهم أنهم مشاغل بأكُل الرِّبا ، عن الوقوف على التوحيد ، وأن أمير المؤمنين ، لو لم يستحل محاربتهم فى الله ، ومجاهدتهم الا لاربائهم ، وما نزل به كتاب الله فى أمثالهم ، لاستحل ذلك . فكيف بهم وقد جمعوا مع الارباء شركا وصاروا للنصارى مَثَلا ؟

وأما أحمد بن شجاع ، فأَعْلِمَ أنه أنك صاحبُه بالامس ، والمستخرج منه ما استخرجته من المال الذى كان استحلّه من مال على بن هشام ، وأنه مِمَّن الدِّينار والدرهم دينه . وأما سَعْدُوِيهِ الواسطى ، فقتل له : قَبَّحَ الله رجلا ، بلغ به التصنع للحديث ، والتزيُّن به ، والحرص على طلب

(٢٠) أراد المأمون ان أبا حسان الزبائى منسوبه الى زياد بن أبيه ، المجهول النسب ، والذى كان عاملا على العراق لمعاوية . وقد استلحقه معاوية وعده أخا له من أبيه أبى سفيان الذى اتصل بسمية أم زياد . وحكم النبى عليه السلام فى ابناء الزنا هو أن الولد للفراش وللماهر الحجر ولذلك عد استلحاق معاوية لزياد أول حادثة خولف فيها حكم الاسلام (٢١) الكلام الواقع بين القوسين المستديرين شرح ورد فى تاريخ الطبرى ح ٣ ص ١١٢٨ وفى ح ٢ ص ٦ : ٨ ، سطر ٧ ، اقرأ ذكر (فعل ماض) بدلا من ذكر (بالبناء للمجهول ، وهذه مصححة فى طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١٠ ص ٢٩٠ — وأرجح أن العبارة المحصورة بين القوسين لم ترد أصلا فى كتابه المأمون مع أن الطبرى أوردها فى تاريخه

الرياسة فيه ، أن يتمنى وقت المحنة ، فيقول بالتقرب بها منى ، يمتَحَن ،
فيجلس للحديث

وأما المعروف بسَجَّادة ، وانكاره أن يكون سمع ممن كان يجالس من
أهل الحديث وأهل الفقه ، القول بأن القرآن مخلوق ، فأَعْلِمَ أنه في
شُعْلِهِ بأعداد النوى (٢) ، وَحَكَّهُ لاصلاح سجادته (١) ، وبالودائع التي
دفعها إليه ، على بن يحيى وغيره ، ما أذهله عن التوحيد وألهاه . ثم سلكه
عما كان يوسف بن أبي يوسف ، ومحمد بن الحسن يقولانه ، ان كان
شاهدهما وجالسهما

وأما القواريرى ، ففيما تَكشَّفَ من أحواله وقبوله الرشا والمصانعات ،
ما أبان عن مذهبه ، وسوء طريقته ، وسخافة عقله ودينه . وقد انتهى الى
أمير المؤمنين انه يتولى لجعفر بن عيسى الحسينى مسائله . فتقدم الى جعفر
ابن عيسى في رفضه وترك الثقة به والاستئمان اليه . وأما يحيى
ابن عبد الرحمن العُمَرى ، فان كان من ولد عمر بن الخطاب ، فجوابه
معروف (٣) . وأما محمد بن الحسن بن على بن عاصم ، فانه لو كان
مُتَقَدِّمًا ، بمن مضى من سَلَفِهِ ، لم ينتحل النحلة التي حَكَّيت عنه (٤) .
وأنه بَعْدَ صَبْرِي يحتاج الى تَعَلُّم

وقد كان أمير المؤمنين ، وجه اليك المعروف بأبى مُسْنَهَر (٥) ، بعد أن
نَصَّه أمير المؤمنين عن محنته في القرآن . فَجَمَعَمَ عنها وِجْلَجَ فيها ،
حتى دعا له أمير المؤمنين بالسيف ، فأقر ذميما . فأَتَصِصَ عن أقراره .

(٢) النوى جمع نواة والمقصود به نوى التمر

(١) هي قطعة جاسئة من الجلد ، تكون في الجبهة من كثرة السجود ، هذا اذا كان صاحبها
يكثر حقا من السجود ، اما المراءون بالتقوى والورع فانهم يحدثونها بأن يحكوا جلد
جباههم

(٣) أى أنه سيجيب

(٤) تاريخ الطبرى ح ٢ ص ١١٢٠ (٥) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١٠ ص ٢٩١

(٦) توفى أبو مسهر سنة ٢١٨ هـ ، راجع طبقات الذهبى الطبقة ٧ رقم ٦٢ (٧) صحتها ٦٥
وكتاب الذهبى هذا قريب من تذكرة الحفاظ ، راجع حيدر آباد سنة ١٢٢٢ هـ ح ١ ص

فان كان مقيماً عليه ، فأشهر ذلك وأظهره (ان شاء الله)
ومن لم يرجع عن شركه ممن سميت لأمر المؤمنين في كتابك ، وذكره
أمير المؤمنين لك ، أو أمسك عن ذكره في كتابه هذا ، ولم يقل ان القرآن
مخلوق ، بعد بشر بن الوليد ، و ابراهيم بن المهدي ، فاحملهم أجمعين
مؤثقين الى عسكر أمير المؤمنين ، مع من يقوم بحفظهم وحراستهم في
طريقهم ، حتى يؤديهم الى عسكر أمير المؤمنين ، ويسلمهم الى من
يؤمن (*) بتسليمهم اليه. لينصهم أمير المؤمنين. فان لم يرجعوا ويتوبوا ،
حملهم جميعاً على السيف (ان شاء الله ولا قوة الا بالله)

وقد أنفذ أمير المؤمنين كتابه هذا ، في خريطة (**) بستدارية ، ولم ينظر
به اجتماع الكتب الخرائطية ، متعجلاً به ، تقريباً الى الله عز وجل ، بما
أصدر من الحكم ، ورجاء ما اعتمد ، وادراك ما أمّل من جزيل ثواب الله
عليه . فأتفد لما أتاك من أمر أمير المؤمنين ، وعجل اجابة أمير المؤمنين ،
بما يكون منك في خريطة بستدارية ، متفردة عن سائر الخرائط ، لتعرف
أمير المؤمنين ما يعلمونه (ان شاء الله وكتب سنة ٢١٨ هـ .)

١٢ - اجابة الفقهاء

ولما قرئ هذا الكتاب ، أجاب كافة الفقهاء الذين ورد ذكرهم فيه ،
ما عدا أحمد بن حنبل ، وسجادة ، والقواريري ، ومحمد بن نوح المضراب.
فأودع هؤلاء الأربعة مصفدين في الأغلال. وفي اليوم التالي ، أشخصوا
مرة أخرى الى حاكم بغداد ، وأعطوا الفرصة للاجابة (الى خلق القرآن).

(*) في رواية : « يؤمرون » وهي التي اعتمدها في الترجمة (أي ترجمة كتاب المأمون .
ولكننا آثرنا كلمة يؤمن لأنها أقرب الى مراد المأمون ، فضلاً عن أنها وردت في طبعة الحسينية
بالقاهرة لتاريخ الطبري حـ ١٠ ص ٢٩١)

(**) الخريطة شبه كيس يسرج من اديم وخرق والجمع خرائط وهي اجربة أو اكياس توضع
الكتب فيها وتختم بختم الرسل منه وتحمل الى الرسل اليه والخريطة البندارية هي برید
سريع

وقد انتفع سَجَّادَة بها فأجاب وأطلق سراحه (١) . ثم أحضروا أيضا من السجن في اليوم التالي . وأتيحت لهم فرصة أخرى للاذعان والتسليم ، فاتتهزها عبيد الله بن عمر القواريري ، فظفر بفكاكه وحرثته . ومن ثم لم يَثْبُت على عقيدته بين من أشخَصُوا وأنصَحُوا سوى أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح . وكان أحمد يلتبس دائما لهم العُذر استنادا على مبدأ التقيَّة الذي أيَّده القرآن (٢) في الآية ١٠٦ بسورة النحل رقم ١٦ : « الا مَنْ أَكْرَهَ وقلْبُهُ مَظْمُونٌ بِالْإِيمَانِ » . (قال المقرئ (٣) : وكان أبو عبد الله رحمه الله ، يقيم عذرهما ، ويقول : أليس قد حَبَسَا وقيِّدَا ؟ قال الله تعالى : (الآية السابقة) . ثم قال أبو عبد الله رحمه الله : القيد كرهه والحبس كرهه والضرب كرهه . فأما إذا لم يَنْكَلْ بِمَكْرُوهِه ، فلا عذر له)

١٣ - امتناع أحمد ومحمد بن نوح عن الإجابة واشخاصهما الى الخليفة في طرطوس

فكتب اسحق حاكم بغداد كتابا الى المأمون ، ينبؤه بنتائج امتحان الفقهاء (٤) . وبعد قليل ، أمر المأمون اسحق بن ابراهيم بأن يَشْنَخُ اليه في طرسوس أحمد بن حنبل ، ومحمد بن نوح ، موثقين في الأغلال . ولما وصلا في طريقهما الى قرب الأنبار ، عبر أبو جعفر الأنباري نهر الفرات ، ليرى أحمد في الخان الذي وضع فيه . فذكره بمسئوليته كعلَّم متقدم ينظر اليه الناس جميعا للاقتداء به . فان أجاب اجابة موافقة لرغبة الحكومة ، فسيجيب الناس جميعا الى القول بهذه المقالة . ولكنه لو رفض التسليم بها . فجلبهم ان لم يكن كلهم سيتوقعون عن الاجابة . كما أخبره بأن يذكر بأن الموت سيأتيه شأن كل حي ، وأوصاه فيما قال بالحرص على سلامة دينه وصحة معتقده

(١) النجوم الزاهرة ح ١ ص ٧٢٨ (٢) طبعة القاهرة ح ٢ ص ٣٠٦) ويقول أبو الحسن بن تفرى بردى في سجادة ، انه ثبت على السنة

(٢) المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسا ص ٦٩ وهامشها

(٣) المقفى ورقة رقم ٤

(٤) تاريخ الطبرى ح ٣ ص ١١٢١ (٥) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١٠ ص ٢٩٢

جاء في الْمُتَقَيِّ لِلْمَقْرِيزِي (١) : ثم ورد كتاب المأمون الى اسحق بن ابراهيم ، بحمل أبي عبد الله ، ومحمد بن نوح ، اليه ببلاد الروم ، فحُمِلَا.. وأورد السبكي في طبقات الشافعية : وذكر ابن الجوزي بسنده الى أبي جعفر الأنباري (٢) أنه قال : لما حُمِلَ أحمد الى المأمون ، أُخْبِرْتُ ، فعبرت الفرات . فاذا هو جالس ، فسَلَّمْتُ عليه

فقال : يا أبا جعفر ، تَعَتَّيْتُ . فقلت : ليس في هذا عناء . وقلت له : أنت اليوم رأس ، والناس يقتدون بك . فوالله لئن أَجَبْتُ الى خلق القرآن ، ليجيبنَ باجابتك خلق من خلق الله . وان أنت لم تُجِبْ ، ليمتنعن خلق من الناس كثير . ومع هذا فان الرجل ، يعنى المأمون ، ان لم يقتلك تموت . ولا بد من الموت . فثِقْ بالله ولا تُجِبْنَهُم الى شيء . قال : فجعل أبو عبد الله يبكي ويقول : ما شاء الله ، ما شاء الله

وانفاذاً لأمر الخليفة ، حُمِلَ الفقيهان الممتنعان عن الاجابة ، على الابل . وأرسلا اليه من بغداد . وكان رفيق أحمد في الراحلة رجل يدعى أحمد بن غسان . فلما كانا في طريقهما ، قال أحمد (بن حنبل) لرفيقه انه يعتقد أن رجاء الحِضْراري رسول الخليفة سيوافيهما تلك الليلة ، وأن أمر ملاحظة السجينين سينتقل الى رجاء هذا

بيد أن أحمد بن غسان لم يتح له المضي طويلا في أداء مهمته ، اذ وافاه نعى المأمون ، فأعفاه ذلك من التزامه اشخاصهما الى الخليفة في طرسوس . فانه لما صار بهما الى « أذنة » ، وكان على وشك أن يمضي الليل معهما ، لقيهم رجل على باب البلدة ، يحمل اليهم نبأ وفاة الخليفة المأمون على نهر البَذْتَدُون في آسية الصغرى . بعد أن ترك لحلفه في آخر ما أوصاه به ، أن ينهض بأمر المحنة ، وأن يحمل الناس عليها في عنف وشدة

(١) ورقة ٤

(٢) في السبكي ورقة ١٣٦ : الابيارى وصحته ما اتيناه

جاء في أبي ثَعَيْنِم (١) - وقد أتى السبكي (٢) والمقرئزي (٣) بتفصيلات أوفى - : قال أحمد بن غسان : حُمِلْتُ أنا وأحمد بن حنبل في محمَلٍ على جملٍ يتراد بنا المأمون . فلما صرنا قرب « عانة » ، قال لى أحمد : قلبى يَحْسُ أن رجاء الحِضَارَى يأتى فى هذه الليلة . فان أتى وأنا نائم ، أيقظتُك ... فلم يكن بأسرع أن خرج علينا رجاء الحضارى ، فقال : أين هؤلاء الأشقياء ؟ فقال أحمد (بن حنبل) : ياعدو الله ، أنت تقول القرآن مخلوق ، ونكون نحن الأشقياء ؟ قال (أحمد بن غسان) : فأُنزلنا من المحامل وصيّرنا فى خيمة ... قال : والله ما مضى الثلث الأول من الليل ، الا ونحن بصيحة وضجة . واذا رجاء الحضارى قد أقبل علينا ، فقال : صدقت يا أبا عبد الله ، القرآن كلام الله غير مخلوق . قد مات والله أمير المؤمنين . (وسبق أن دعا أحمد ربه أن يسدد خطاه وأن يهديه الى سواء السبيل)

ومضى أبو نعيم فيما جاء فى كتابه : فلما صرنا الى « أذنة » ، ورحلنا منها . وذلك فى جوف الليل . فتفتح لنا بابها ، فلقينا رجلا ، ونحن خارجون من الباب ، وهو داخل . فقال : البُشْرَى ، قد مات الرجل . قال أبى : وكنت أدعو الله ألا أراه . قال أبو الفضل صالح : فصار أبى ، ومحمد بن نوح الى طرسوس . وجاء نعى المأمون من البذندون ، فرُدا فى اقيادهما الى الرقة . وأخرجنا من الرقة فى سفينة مع قوم مُحَبَّسِينَ . فلما صاروا « بعانات » ، توفى محمد بن نوح رحمه الله ، وتقدم أبى فَصَلَّى عليه . ثم صار أبى الى بغداد ، وهو متقيّد . فمكث بالياسرية أياما . ثم صيّر الى الحبس فى دار اكتريت عند دار عمارة ، ثم ثقل بعد ذلك الى حبس العامة ، فى درب الموصلية . فمكث فى الحبس منذ أخذ وحمل ، الى أن ضرب وخلّى عنه ، ثمانية وعشرين شهرا . قال أبى : فكنت أصلّى بهم ، وأنا متقيّد . وكنت أرى بوران ، يحمل له فى زورق

(١) الحلية ورقة ١٤٧ ، ب (١٤) طبعة القاهرة - ٦ ص ١٩٥ (١٩٥)

(٢) السبكي ورقة ١٣٦ (١٤) طبعة الحسينية بالقاهرة - ١ ص ٢٠٩ (٢٠٩)

(٣) المقرئزي فى القفى ورقة ٤

ماء باردا ، فيذهب به اليه الى السجن

١٤ - انكار المأمون دعوى التقية تعلل بها الفقهاء

وفي غضون ذلك كان المأمون (قبل وفاته) قد تسلم كتاباً بأن أولئك الذين أجابوا (الى خلق القرآن) ، برروا اقدامهم على الاجابة بدعوى التقية ، استنادا على تلك الرخصة التي أجازها القرآن لمن أكثره على الاقرار بعقيدة باطلة ، بينما يظل قلبه مستمسكا بعثرا العقيدة الصحيحة (١) . ويفهم بطبيعة الحال من هذه التقية أن ما آمن به الخليفة ودعا الناس الى اعتناقه ، انما هو الكفر والضلال . وهى نتيجة لم يقبلها المأمون بأى حال . ولذا فانه عاود الكتابة الى اسحق بن ابراهيم ، ليخبر بشر بن الوليد وزملاءه الآخرين الذين احتجوا بأن قضيتهم مماثلة لقضية عمّار بن ياسر ، التى أجزت فيها رخصة القرآن للمكترهين ، بأنه لا توجد أية مشابهة بين الحالتين . فعمّار أظهر الشرك بينما كان فى قلبه مؤمنا . أما هم فقد أظهروا الايمان ، بينما اعتقدوا فى قلوبهم ما يعد شركا (٢) .

١٥ - امر المأمون باشخاص الفقهاء اليه

وحسناً لهذه المشكلة ، كان من المحتم اشخاص المتحنيين جميعاً الى طرسوس ، حيث ينتظرون الى الوقت الذى يغادر فيه الخليفة آسيا الصغرى . ولذا فانه قد أرسل فى اثر أحمد ورفاقه ، نفر التالى وهم بشر بن الوليد ، والفضل بن غانم ، وعلى بن أبى مقاتل ، والذئبال بن الهيثم ، ويحيى بن عبد الرحمن العمري ، وعلى بن الجعد ، وأبو العوام ، وسجادة ،

(١) تاريخ الطبرى ح ٣ ص ١١٣١ (٢) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١٠ ص ٢٩٢ ، والشذور العربية التاريخية بقلم دى خوى ح ٢ ص ٤٦٥ وما بعدها ، وتاريخ أبى الفداء ح ٢ ص ١٥٥

(٣) لما أعدت ترجمة عبارة المؤلف وجدتها بعيدة عن نص كتاب المأمون بشأن التقية الذى أورده الطبرى ، ولذا فانى قد آثرت اثباته فيما يلى : « وكتب (اسحق الى المأمون) كتابا مفردا بتقويل القوم فيما أجابوا اليه ، فمكتوا اياما . ثم دعا بهم . فاذا كتاب قد ورد من المأمون على اسحق بن ابراهيم : أن قد فهم أمير المؤمنين ما أجاب القوم اليه مطمئن بالايمان . وقد أخطأ التأويل ، انما عنى الله عز وجل بهذه الآية من كان معتقد الايمان مظهر الشرك . فاما من كان معتقد الشرك مظهر الايمان ، فليس هذه له . »

والقواريري ، وابن الحسن بن علي بن عاصم ، واسحق بن أبي إسرائيل ، والنضر بن شميل ، وأبو نصر التمار ، وسعدويه الواسطي ، ومحمد ابن حاتم بن ميمون ، وأبو معمر ، وابن الهرثي ، وابن الفرخان ، وأحمد ابن شجاع ، وأبو هرون بن البكاء

١٦ - وفاة المأمون ونتائجها

فلما صاروا الى الرقة ، بلغتهم وفاة المأمون . فأمر عنبسة بن اسحق والى الرقة باحتجازهم بها ، حتى يعادوا الى بغداد في حراسة الرسول نفسه الذي كان قد توجه بهم الى المأمون . فلما صاروا الى بغداد ، أمرهم حاكمها اسحق بن ابراهيم ، بأن يلزموا دورهم (١) . ولكنه خفف فيما بعد من أوامره المشددة لهم ، وأباح لهم الخروج . غير أن فريقاً ممن تبعهم ، تجاسروا على مغادرة الرقة والتوجه الى بغداد من غير أن يؤذن لهم . وقد لاقوا جزاء جرأتهم ، كما هو المنتظر ، اذ عاقبهم اسحق وأذاهم لما عادوا الى بغداد . فكان ممن جلب على نفسه الضرر في ذلك : بشر بن الوليد ، والذبال وأبو العوام ، وعلى بن أبي مقاتل

١٧ - إعادة أحمد ، وابن نوح الى بغداد ، ووفاة ابن نوح في الطريق

ولبعد الآن الى أحمد ورفيقه محمد بن نوح . فقد أعيد هذان الى الرقة ، حيث ظلّا في السجن ، الى أن أخذت البيعة للخليفة المعتصم . ثم أخذوا بعد هذا الحادث في زورق ، وأخذوا من الرقة الى عانات ، حيث مات محمد ابن نوح . فصلى عليه أحمد ودفنه ، ثم أعيد أحمد وحده مقيداً الى بغداد (٢) . وقد سجن في مبدأ الأمر ، على ما يظهر ، في شارع الياسرية لعدة أيام . ثم نُقل الى دار الشرشير ، بجوار دار عمارة . ثم وُضع في حظيرة جياذ

(١) انظر كتاب : دراسات اسلامية بقلم جولدسيهر ح ٢ ص ٩٤ في موضوع ارغام المحدثين والفقهاء على لزوم بيوتهم

(٢) يقول هوتسم في كتابه : المنازعات الامتقادية ص ١٠٦ ، ان المعتصم قد ضرب محمد بن نوح كما ضرب أحمد بن حنبل . وفي الحق أن محمد بن نوح لم يظهر قط أمام الخليفة

لحمد بن ابراهيم ، أخى اسحق بن ابراهيم ، وقد استؤجر ليكون مقر اعتقاله . وكان المكان بالغ الضيق ، بيد أن اقامته به كانت قصيرة . فقد مرض في رمضان . ولذا فانه ثقل الى سجن العامة في درب الموصلية جاء في طبقات الشافعية (١) : قال صالح : صار أبى الى بغداد مقيّدا . فمكث بالياسرية أياما ، ثم حبس بدار الشرشير عند دار عمارة . ثم ثقل بعد ذلك الى حبس العامة في درب الموصلية (في هامش المخطوط : المفضل) ... وأما حنبل بن اسحق ، فقال : حبس أبو عبد الله في دار عمارة ببغداد في اصطبل لمحمد بن ابراهيم ، أخى اسحق بن ابراهيم . وكان في حبس ضيق . ومرض في رمضان . فحبس في ذلك الحبس قليلا . ثم حوّل الى سجن العامة . فمكث في السجن نحو من ثلاثين شهرا . فكنا نأتيه . وقرأ على كتاب الارزاء وغيره في الحبس . فرأيت أنه يصلى بأهل الحبس وعليه القيد . وكان يُخرج رجله من حلقة القيد وقت الصلاة والنوم

١٨ - المتنوعون عن الإجابة

١ - عفان بن مسلم :

وممن ثبت على عقيدته في الامتحان ، ابان خلافة المأمون ، ولكن اسمه لم يكن قد عُرف بعد الى ذلك الوقت : عفان بن مسلم أبو عثمان ، الذي قطع عنه كل من المأمون ، واسحق بن ابراهيم ، عامله على العراق ، الرزق الذي أجراه عليه كل واحد منها . وذلك عقاباً له لأنه توقف عن الإجابة في المحنة . ولما سئل عما كان عليه أن يقول ، رداً على ما طُلب منه ، تلا سورة الاخلاص (رقم ١١٢) ، واستفسر عما اذا كانت هذه السورة مخلوقة . وقد غضب منه أهل بيته ، لأنه حرمهم (بعناده) مما يقيم أودهم ، اذ كان يعول أربعين نفساً . ولكن جاءه في ذات اليوم الذي قطع فيه رزقه ، رجل غريب . ووصله بكيس فيه ألف درهم . (وكان

(١) لابن السبكي ورقة ١٢٩ (٤) الحسينية بالقاهرة ج ١ ص ٢١٠ . وفي هذه الطبعة « دار التريب » . بدلا من دار الشرشير ولعله تصحيف

رزقه من المأمون خمسمائة درهم ، كل شهر) . وقد وعده بأنه سيتسلم مثل هذا المبلغ كل شهر ، من نفس واهبه . ومات عفان ببغداد سنة ٢٢٠ هـ . وكان في حياته من الأعلام البارزين في بغداد ، وكان من أصحاب أحمد المقرئين اليه النافذى الكلمة عنده

قال المقرئى (١) : وأما عفان بن مسلم ، فقال حنبل بن اسحق : كنت حاضرا عند عفان ، بعد أن امتحن . فسأله يحيى بن معين ، بحضور أبى عبد الله أحمد بن حنبل ، ونحن معه . فقال : يا أبا عثمان ، أخبرتنا بما قال لك اسحق بن ابراهيم ، فى المحنة . وما رددت عليه ؟ فقال عفان لابن معين : يا أبا زكريا ، لم أسود وجهك ولا وجوه أصحابك . يعنى أنه لم يوجب الى القول بخلق القرآن

فقال له : فكيف كان ؟ فقال : دعانى اسحق بن ابراهيم ، فلما دخلت عليه ، قرأ الكتاب الذى كتبه المأمون من أرض الجزيرة الى الرقة ، فاذا فيه : امتحن عفان وادعته الى أن يقول : القرآن كذا وكذا . فان قال ذلك فأقره على أمره . وان لم تجيبك ، فاقطع عنه الذى يجرى عليه . وكان المأمون يجزى عليه فى كل شهر خمسمائة درهم . قال عفان : فكما قرأ على الكتاب ، قال لى : ما تقول ؟ فقرأت عليه : قل هو الله أحد ، الى آخرها . وقلت : مخلوق هذا ؟

فقال لى اسحق : ان أمير المؤمنين أمر ان لم تجيبه ، يقطع عنك ما تجزى عليك ، وان قطع عنك أمير المؤمنين ، قطعنا عنك نحن أيضا . فقلت له : قال الله تعالى «وفى السماء رزقكم وما توعدون» . فسكت عنى اسحق ، وانصرفت فسر أبو عبد الله ، ويحيى ، ومن كان حاضرا . فلما رجع الى داره ، عذله أهل بيته ، وكانوا أربعين نفسا . فبعد قليل ، دق عليه الباب انسان . فدخل ومعه كيس فيه ألف درهم . فقال : يا أبا عثمان ، تبتك الله كما تبت الدين ، وهذا لك فى كل شهر

ب - أبو نعيم الفضل بن دكين :

وممن أجريت عليهم المحنة في عهد هذه الخلافة ولم يُجِب ، أبو ثَعِينَم الفضل بن دكين ، الكوفي . ولما بلغ كتاب المأمون الكوفة ، سئل عن فحواه ، فقال : إنما هو ضرب الأسواط . ثم أمسك بزر ثوبه وقال : رأسي أهون علي من هذا . ولم تأت لنا مصادرنا بشيء من أخبار محاكمته . ولكن كيفما كان الأمر ، يبدو أنه لم يمت موتاً عنيفاً . وقد توفي سنة ٢١٩ هـ (١)

كان علي بن المديني من أولئك الفقهاء الذين أذعنوا وأجابوا في المحنة . وقد حدث ذلك - فيما يبدو - في نحو بداية أمرها . ومع ذلك . فإنه قد ندم كثيراً على ضعفه . بيد أنه عاد إلى عقيدة أهل السنة ، إلى أشد ما يكون اعتصامه بها . وذلك قبل وفاته سنة ٢٣٤ هـ

قال ابن السبكي (٢) : وكان علي بن المديني ممن أجاب إلى القول بخلق القرآن في المحنة . فتقِم ذلك عليه ، وزيدَ عليه في القول . والصحيح عندنا أنه إنما أجاب خشية السيف ... وقال محمد بن عثمان بن أبي شيبة : سمعت علي بن المديني يقول قبل موته بشهرين : القرآن كلام الله غير مخلوق . ومن قال مخلوق ، فهو كافر

١٩ - أحمد بن حنبل في السجن

اعتقل أحمد بن حنبل في سجن العامة مدة طويلة . وقد بلغت منذ اعتقاله حتى إطلاقه ، بعد أن ضربه المعتصم ، ثمانية وعشرين شهراً . وقد كان في حبسه يُصَلِّي بأهل السجن . كما كان يشتغل بدراسة الكتب التي كان يزوده بها أصحابه . وقد آثره صديقه الطيب « بوران » بعطفه

(١) جاء في المقتنى للمقريزي ورقة ١٣ « وقال الإمام أبو بكر بن أبي شيبة : لما جاءت المحنة إلى الكوفة ، قال لي أحمد بن يونس : القى أبا نعيم ، فقل له . فلقينه ، فقلت له . فقال : إنما هو ضرب الأسواط ، ثم أخذ زر ثوبه ، وقال : رأسي أهون علي من هذا » وقد ذهب الشهرستاني في كتابه الملل والنحل إلى أن أبا نعيم الفضل بن دكين ، كان شيعياً ، انظر ترجمة هاربريكر ح ١ ص ٢١٨

(٢) طبقات التنافية ورقة ١٨٥ (٥) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ٢٦٧

ورعايته ، بما كان يبعث به اليه من ماء مثْلَج ، في الزورق كل يوم

وابان الفترة الأولى من حبسه ، كلَّم عمَّه اسحق بن حنبل ، عمال حاكم العراق ورجاله الملتفين حوله ، في أمر اطلاق ابن أخيه من الحبس . ولكن لما خابت مساعيه ، التجأ الى اسحق بن ابراهيم بن نفسه . ونظرا لأن اسحق بن ابراهيم كان يطمع في أن يعدل أحمد بن حنبل عن موقفه ، فقد أرسل حاجبه مع عم الامام أحمد الى السجن ، وأمره أن يبلغه بكل ما يدور بين أحمد وعمه . فلما وافيا السجن ، ألح اسحق بن حنبل على ابن أخيه ، أن يجيب ويعلن اعتناقه للمذهب الذي فُرض عليه . وذكره بأن أصحابه قد أجابوا على ضعف أعذارهم . وأبدى تبريره لمسلكتهم ، لأنهم أجابوا تقيّة . فلم لا يجيب مثلهم ؟

وبعد أن طال النقاش بينهم على غير جدوى ، صمما (أى الحاجب وعم الامام أحمد) على تركه في الحبس . ولكنه مضى يقول بأنه لا يكثرث للحبس ، ولا يهمه الحبس في شيء ، لأنه لا فرق بين بيته والسجن . كما أن قتله بالسيف يعده من الأمور التي لا تسبب له مزيدا من القلق والجزع . والأمر الوحيد الذي يخشاه ، انما هو الضرب ، فانه ان حل به هذا ، فقد لا يثبت على احتماله ، فيفتتن . وعند ذاك بدد مخاوفه أحد السجناء . فقد ذكره انه عند الضرب ، سوف لا يدرى ما عسى أن يحل به ، اذا ما تلقى ضربتين بالسوط . وقد أزال هذا التوكيد ما ظل باقيا لدى أحمد من خوف واضطراب وبدده تماما

« قال (١) اسحق بن حنبل ، عم الامام أحمد : كنت أتكلم مع أصحاب السلطان والقواد ، في خلاص أبي عبد الله . فلم يتم لى أمر . فاستأذنت على اسحق بن ابراهيم . فدخلت اليه وكلمته . فقال لحاجبه : اذهب معه الى ابن أخيه ، ولا يكلّم ابن أخيه بشيء الا أخبرتنى به . قال اسحق : فدخلت على أبي عبد الله ومعى حاجبه . فقلت : يا أبا عبد الله ، قد أجاب

أصحابك ، وقد أعذرتَ فيما بينك وبين الله ، وبقيت أنت في الحبس والضيق فقال أبو عبد الله : يا عم ، إذا أجاب العالم تقية ، والجاهل بجهل ، متى يتبين الحق ؟ قال : فأمسكت عنه

قال : فذكر أبو عبد الله ما روى في التقية من الأحاديث ، فقال : كيف تصنعون بحديث خبّاب ؟ أن من كان قبلكم يئنس أحدكم بالمنشار ، ثم لا يصده ذلك عن دينه . قال : فيئسنا منه ، ثم قال : لست أبالى بالحبس ، ما هو ومنزلى الا واحد ، ولا قتلا بالسيف . انما أخاف فتنة بالسوط ، وأخاف ألا أصبر . فسمعه بعض أهل الحبس ، وهو يقول ذلك . فقال : لا عليك يا أبا عبد الله ، ما هو الا سوطان ، ثم لا تدري أين يقع الباقي . فلما سمع ذلك شرى عنه . قال : ثم حول أبو عبد الله الى دار اسحق بن ابراهيم في شهر رمضان (ليلة سبع عشرة خلت منه (١)) سنة تسع عشرة ومائتين

٢٠ - اشخاص احمد مرة أخرى الى اسحق بن ابراهيم

وفي السابع عشر من رمضان سنة ٢١٩ هـ ، أى بعد انقضاء أربعة عشر شهرا ، منذ ايقافه ، حين كان في طريقه الى المأمون ، أخضر أحمد من سجن العامة الى دار اسحق بن ابراهيم ، وكان مقيدا ب قيد واحد في قدميه . وبينما كان معتقلا في محبسه الجديد ، كان اسحق بن ابراهيم يرسل اليه كل يوم ، رجلين يناظرانه ويناقشانه وهما : أحمد بن ربّاح ، وأبو شعيب الحجاج . وقد اعتاد هذان محاجّته . ولما كان أحمد لا يتزحزح عن موقفه ، فقد كانا عند انصرافهما عنه كل يوم ، يأمران باضافة قيد جديد يوضع في قدميه ، الى أن بلغت أخيرا الأقياد الاضافية أربعة . وتناولت احدى المناقشات مع أحمد ، موضوع « علم الله » . فاستفسر أحمد من أحد هذين المحققين عن رأيه في ذلك

فأجاب بأن علم الله مخلوق . ولما سمع أحمد قوله ، وصمه بالكفر . وعلى

(١) زيادة من الحلية لأبى نعيم ورقة ١٤٧ ب (٤) طبعة القاهرة ج ١ ص ١٩٧

الرغم من تذكيره بأنه يتنقص رسول الخليفة ويثمينه ، أبى أن يدفع التهمة عن نفسه . وكانت حجته في ذلك أن أسماء الله الدالة على صفاته قد وردت في القرآن ، وأن القرآن قدّر من علم الله الذي هو صفة من صفاته . ولذا فإن من زعم بأن القرآن مخلوق ، كفر بالله ، كما يكفر به من زعم أن أسماء الله مخلوقة . وهنا يبدو أن تسلسل الحجج والنقاش جرى هكذا : أسماء الله غير مخلوقة ، وأسماء الله تؤلف جزءا من القرآن ، فينتج إذن أن جزءا من القرآن على الأقل غير مخلوق

جاء في أبي ثعينة (١) : « حدثنا محمد بن جعفر ، وعلى بن أحمد ، والحسين بن محمد ، قالوا : حدثنا محمد بن اسماعيل ، حدثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل ، قال ، قال أبي رحمه الله : لما كان في شهر رمضان ليلة سبع عشرة خلت منه ، حوّلت من السجن الى دار اسحق بن ابراهيم . وأنا مقيّد بقيد واحد . يُوَجَّهُ النّى في كل يوم رجلان . سَمَاهما أبى . قال أبو الفضل : وهما أحمد بن رباح ، وأبو شعيب الحَجَّام (٢) . بكلماني ويناظراني . فاذا أراد الانصراف ، دُعِيَ بقيد فقيّدت به

فمكثت على هذه الحالة ثلاثة أيام ، وصار في رجلى أربعة أقياد . فقال لى أحدهما في بعض الأيام ، في كلام دار ، وسألته عن علم الله . فقال : علم الله مخلوق . فقلت له : يا كافر كَفَرْتَ . فقال لى الرسول الذي كان يحضر معهم من قبَل أبى اسحق (٣) : هذا رسول أمير المؤمنين . قال : فقلت له : ان هذا قد كَفَرَ . وكان صاحبه الذي يجيء معه خارجا . فلما دخل ، قلت له : ان هذا زعم أن علم الله مخلوق . فنظر اليه كالمُنْكَرِ عليه ما قال ، ثم انصرفا . قال أبى : وأسماء الله في القرآن ، والقرآن من علم الله ، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر ، ومن زعم أن أسماء الله مخلوقة فقد كفر »

(١) الحلية ورقة ١٤٧ ب وما بعدها (٣) طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٩٧ وما بعدها

(٢) في مخطوط الحلية : الحجاج ، وفي المقتنى للمقرئى : الحجاج

(٣) أبى اسحق هو الخليفة المعتصم

٢١ - حمل أحمد الى المعتصم

وفي الليلة الرابعة منذ أن نُقِلَ أحمد الى دار اسحق بن ابراهيم ، وصل بُعَا الكبير ، رسول الخليفة المعتصم ، بعد صلاة العشاء ، يُبَلِّغُ اسحق أمر الخليفة في حمل أحمد اليه ، ولما أحضر أحمد الى اسحق ، قبل اشخاصه الى المعتصم ، خاطبه حاكم بغداد مذكرا اياه بأن حياته هي التي تتعرض للخطر ، وأن الخليفة قد أقسم ألا يقتله بالسيف ، وأنه سوف يضربه ضربا بعد ضرب ، وأنه سيزج به في مكان مظلم لا يرى النور فيه . ثم ناظره اسحق في القرآن ، مستشهدا بالآية : « انا جعلناه قرآنا عربيا (١) » . وسأله عما اذا وُجِدَ شيء قد جُعِلَ ما لم يكن قد خُلِقَ . فرد أحمد مستشهدا بآية أخرى : « فَجَعَلْنَاهُمْ كَعْصَفٍ مَّا كُولٍ (٢) » . واستفسر من حاكم بغداد عما اذا كان يفهم من هذه الآية أنها تفيد أن شيئا قد خُلِقَ . وانحصرت المناقشة في هذه الحالة ، فيما اذا كانت كلمة « جَعَلَ » تؤدي حتما معنى كلمة « خَلَقَ »

ثم أُعِدَّتِ المعدات لحمل أحمد الى المعتصم . وقد أبدى بُعَا رسول الخليفة اهتماما بسجينه وتطلعا الى تفهم قضيته . ولكنه في اهتمامه وتطلعه لم يكشف عن قدر كبير من الذكاء . فقد استفسر من رسول اسحق بن ابراهيم ، عما يَراد بأحمد . ولما أوقف على جليلة الأمر ، أعلن جهله بهذه المسائل ، وذهب الى أن مدى ايمانه كمسلم لا يتجاوز شهادتي ألا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ، وأن أمير المؤمنين من قرابة النبي (عليه السلام)

وبعد أن ساروا في الزورق لمسافة قصيرة في نهر دجلة ، رسوا عند ستان قصر الخليفة ونزلوا عند بابه . وأخرج أحمد من الزورق ، ووضع على دابّة ، كان مهددا بخطر السقوط من فوق ظهرها ، نظرا لعجزه الناجم عن ثقل أقياده . وحُمِلَ وهو على هذه الحال الى ناحية مجاورة للقصر (٣).

(١) سورة الزخرف رقم ٤٢ آية ٢

(٢) سورة الفيل رقم ١٠٥ آية ٥

(٣) كان قصر المعتصم في الجانب الشرقي من بغداد (انظر اليعقوبي (كتاب البلدان) ح ٧ =

ثم أنزل الى دار اعتقل في احدى حجراتها ، بلا سراج يعينه على الرؤية في الليل . وفي الليل قيل بأنه رأى في منامه على بن عاصم (١) ، فأولها على أنها فال طيب يؤكد له علواً وتشريفاً وصيانة من الله وعصمة

جاء في الحلية (٢) : « قال أبى رحمه الله : فلما كانت الليلة الرابعة ، بعد العشاء الآخرة ، وجّه المعتصم ببغا الى اسحق بن ابراهيم ، يأمره بحملى . فأدخلت على اسحق . فقال لى : يا أحمد ، انها والله نفسك ، انه قد حلف ألا يقتلك بالسيف ، وأن يضربك ضرباً بعد ضرب ، وأن يلقىك في موضع لا ترى فيه الشمس . أليس قد قال الله تعالى : « اتّا جعلناه قرآناً عربياً » . أفىكون مجعولا الا وهو مخلوق ؟ قال أبى : فقلت له : قد قال الله : « فجعلهم كعصف مأكول » . أفخلقهم ؟

فقال : اذهبوا به . قال أبى رحمه الله : فأنزلت الى شاطىء دجلة ، وأحدرت الى الموضع المعروف بباب البستان ، ومعى ببغا الكبير ، ورسول من قبلى اسحق . قال : فقال ببغا لمحمد المحاربى بالفارسية : ما تريدون من هذا الرجل ؟ قال : يريدون منه أن يقول : القرآن مخلوق . فقال : ما أعرف شيئاً من هذا الا قول لا اله الا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وقرابة أمير المؤمنين من رسول الله (ﷺ) . قال أبى : فلما صرنا الى

= من المكتبة الجغرافية العربية (نشر دى خوى) ص ٢٥٥ س ١٧) ، واذا كان سجن العامة في درب الفضل (ولكن انظر ص ٨٥ هامش رقم ٢) في نفس الحى الذى تقع فيه دار اسحق ابن ابراهيم ، حاكم بغداد ، فان المسافة ليست بكبيرة بين هذه الدار والسجن . وعلى أية حال فمن الواضح ان محاكمة أحمد بن حنبل وضربه جرى كل منهما في بغداد حيث اشتهر أحمد وكثر المعجبون به . ولذا فقد قامت المظاهرات الشعبية في وجهه الخليفة حين ضربه

(١) جاء في المقتضى للمقرىزى ورقة ٤ : قال حنبل بن اسحق بن حنبل ، ابن عم الامام أحمد : سمعت أبا عبد الله يقول : لما دعيت الى المحنة ، رأيت في المنام ، على بن عاصم ، فأولتها علواً وعصمة من الله عز وجل ، والحمد لله على ذلك

(٢) أبو نعيم ورقة ١٤٧ ب (طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٩٧ ، ١٩٨)

(٣) لعل من أكثر اخبار المحنة طرافة تعليق بفا الكبير ، رسول الخليفة التركى على قضية أحمد ، ومسألة خلق القرآن ، فهو تعليق يتسم بالنظرة الواقعية ويلقى ظلاً من التهكم اللاذع على عناية الدولة بدقائق كلامية عويصة وتشقيقات اعتقادية تستدق على أنهم الشعب ولا يحتاج اليها في « تدينه »

الشط ، أخرجت من الزورق ، فجعلت على دابة ، والأقياد على ، وما
معى أحد يمسكنى ، فجعلت أكاد أخر على وجهى ، حتى انتهى بى الى
الدار ، فأدخلت ، ثم عرج بى الى حجرة ، فصيرت فى بيت منها ،
وغلق على الباب ، وأقعد عليه رجل ، وذلك فى جوف الليل ، وليس فى
البيت سراج ، فاحتججت الى الضوء ، فمكدت يدي أطلب شيئاً ، فاذا
أنا ببناء فيه ماء وطست ، فتهيأت للصلاة وقمت أصلى

٢٢ - حاكمة احمد امام المعتصم

وفى صباح اليوم التالى ، اقتيد أحمد الى القصر مُصَفَّداً فى أغلاله ،
وأشخص الى الخليفة . وكان ممن حضر فى هذه المناسبة ، مع الخليفة ،
أحمد بن أبى دؤاد وأعوانه . وقد قيل أن المعتصم لما رأى أحمد بن حنبل ،
قال لمن حوله كالمُنْكَرِ عليهم : « أليس قد زعمتم أنه حدث السن ؟ هذا
شيخ مُكْتَهَل (١) » « كان سنّه وقت ذاك أربعاً وخمسين سنة (٢) » ،
وعندما دخل الخليفة ، أمر أحمد بالدنو منه وبالجلوس . ثم استأذن أحمد فى
الكلام ، فلما أذن له ، طرح هذا السؤال : « الى ما دعا اليه رسول الله ؟
(صلى الله عليه وسلم) » . فقال الخليفة : « الى شهادة ألا اله الا الله » .
فرد أحمد قائلاً : « أنا أشهد ألا اله الا الله »

وبعد أن أعلن أحمد إيمانه بأركان الاسلام الخمسة ، أخبره الخليفة بأنه لولا
تقيده بسلفه فى الخلافة ، لما تعرض له بأى مكروه . ثم التفت الخليفة الى
عبد الرحمن بن اسحق وسأله عما اذا لم يكن قد أصدر اليه أمراً بالغاء
المحنة . ولما سمع أحمد بذلك ، طار فرحاً ، ظاناً بأن هذا هو ما يقصده
الخليفة حقاً ، لتخليص رعاياه من هذا الاختبار البغيض . ثم تبع ذلك جدل
وتقاش ، أمر فيه الخليفة ، عبد الرحمن بن اسحق أن يشترك فيه . وقد طرح
هذا الرجل سؤالاً على أحمد ، وهو : « ما تقول فى القرآن ؟ »

(١) المقفى للمقريزى ورقة هـ

(٢) زيادة من المؤلف

ولم يأت أحمد بإجابة مباشرة ، ولكنه سأل بدوره : « ما تقول في علم الله ؟ » بيد أن عبد الرحمن لم يحتر جوابا . وإبان الامتحان ، كان هذا السؤال عند أحمد حيلته المفضلة ، يستعين بها عموما لافحام خصومه وإيقاعهم في الحيرة والارتباك . وتتجلى قوة حجته في تلك الحقيقة وهي الاقرار بأن القرآن عليم من الله ، وهذا يعادل في نظر أحمد أن القرآن جزء لا ينفصل عن علم الله . فاذا قالوا بأن « هذا العلم غير مخلوق » ، فالقرآن تبعاً لذلك يجب أن يكون غير مخلوق . وهناك نقطة أخرى دفع بها عبد الرحمن ابن اسحق وهي : « أكان الله ولا قرآن » . فرد أحمد على هذا بحجة مماثلة وهي : أكان الله ولا علم (١) ؟

وفي خلال المجادلة بين عبد الرحمن بن اسحق وأحمد بن حنبل ، سأل أحمد عبد الرحمن عما يحتفظ عن أستاذه الشافعي في موضوع المسح على الخفين . فصاح أحمد بن أبي دواد في عجب زائد وقال : أنظروا رجلا هو ذا يتقدم لضرب العنق يناظر في الفقه (٢)

وكان من أولئك الحاضرين في القاعة ، رجل ساق حديث عمران بن حصين بأن الله خلق الذكر ، والذكر هو القرآن . فرد أحمد بأن هذا الحديث روى له من طرُق في رواية تقول : ان الله كتب الذكر . وفجوى هذا الحديث كما صححه أحمد ، تؤدي الى القول بأن مادة القرآن وألفاظه ليست مخلوقة ، ولكن السجل الأرضي له مخلوق . وقد أوردوا حديثا آخر ، احتجوا به عليه ، روى عن عبد الله بن مسعود ، وهو : « ما خلق الله من جنة ولا نار ، ولا سماء ولا أرض ، أعظم من آية الكرسي (٣) » . فرد

(١) جاء في المقفى للمقرئزى ورقة ٦ : فقال لى عبد الرحمن : كان الله ولا قرآن ؟ فقلت له :

أكان الله ولا علم ؟ فأمسك ولو زعم أن الله كان ولا علم ، كفر

(٢) في الحلية ورقة ١٤٤ ب (طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٨٦) : الحسن يقول : أدخل

أحمد بن حنبل على الخليفة وعنده ابن أبي دواد ، وأبو عبد الرحمن الشافعي ، فأجلس بين يدي الخليفة ، وكانوا هولوا عليه . وقد كانوا ضربوا عنق رجلين . فنظر أحمد الى أبي عبد الرحمن الشافعي ، فقال : أى شيء تحفظ عن الشافعي في المسح ؟ فقال ابن أبي دواد : انظروا ... الخ

(٣) من سورة البقرة رقم ٢ آية ٢٥٦

أحمد : « انما وقع الخلق على الجنة والنار ، والسماء والأرض ، ولم يقع على القرآن (١) » ، وهذه حجة يمكن التسليم بها

وقد استشهد آخر بالآية القرآنية : « مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ » ، وسأل قائلا : أف يكون المحدث الا مخلوقا ؟ ولكن أحمد استشهد بالآية : « وَالْقُرْآنُ ذِي الذِّكْرِ » (٢) ، واحتج بأن الذكر المعرفة تفيد القرآن ، أما كلمة ذِكْرُ الأخرى فليست بها أداة التعريف . وهنا يوضح الاحتجاج بأن كلا من الذكر والقرآن متماثلان في المعنى . ولكن « ذكر » الحالية من أداة التعريف ليست هي والقرآن أمرا واحدا . واذن فلا دليل يمكن استخلاصه من الآية لاثبات أن القرآن محدث

كما احتجوا بالآية القرآنية : « اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » ، فرد أحمد مستشهدا بالآية : « تَدْمَرُ كُلُّ شَيْءٍ » . ثم أضاف إليها : « قَدِمَتْ أَلَا مَا أَرَادَ اللَّهُ » وحجة أحمد أن عبارة « كل شيء » ، يجب أن تفهم بما يتفق وما جاء في الآيات الأخرى بين دفتي الكتاب نفسه بأن القرآن غير مخلوق

وقد قيل بأن أحمد بن أبي دواد ، عيل صبره ، ابان المناظرة ، لأن أحمد ابن حنبل أصر على التقيد بالقرآن والحديث . وكان دفاع أحمد يؤدي الى تبرير منحه في المناظرة . لأن قاضي القضاة استخرج من القرآن تأويلا لا تقبله العقول السليمة . ولما أبى الناس عليه تخريجه ، زج بهم في غياهب السجون وصفّدهم بالأغلال ، مما دعا ابن أبي دواد الى أن يتقدم الى الخليفة باستفتاء قضاته وفقهائه عما اذا كان أحمد بن حنبل ضالا مضلا مبتدعا . فلما استعلم منهم عن أمره ، أفتوا بضلاله وابتداعه . ولكن أحمد عاود شكاته للخليفة بأن خصومه لا يتقيدون بالكتاب والسنة وهما العدتان اللتان تفصلان في مثل هذه المسائل (٣)

وفي الحق لقد كان أحمد بين المتناظرين جميعا أشدهم مراسا وأقواهم

(١) المقفى للمقرئى ورقة ٦ : واحتجوا على بحديث ابن مسعود ... الخ

(٢) تقدمت مواضع هذه الآيات

(٣) راجع كتاب « الاسلام » (بالهولندية) بقلم دوزى ص ١٥٢

عارضة في الجدل والنقاش . كما أبدى ابن أبي دواد روحا حماسية مماثلة ، وذلك عندما كان يعتمد في كثير من الأحيان الى اقحام آرائه على المتناظرين .
 وحين تدخل ابن أبي دواد في المناقشة لأول مرة ، لم يرد عليه أحمد ، ولما وبَّخه الخليفة على سكوته عن الرد على ابن أبي دواد (١) قال : « لست أعرفه من أهل العلم فأكلّمه (٢) »

وعندما حان موعد اختتام هذا المجلس ، أمر الخليفة شهوده جميعا بأن يقوموا . وبعد انتهاء هذه الجلسة ، عقد الخليفة مع عبد الرحمن بن اسحق مجلسا خاصا مع أحمد بن حنبل ، ذكر فيه المعتصم العقاب الذي وقع عليه مؤدبه الخاص صالح الرشيدى ، الذى عارض الخليفة فى موضوع القرآن . كما شكّا الخليفة من أنه لم تتَّح له أية فرصة للوقوف على آراء أحمد والحجج التى يدلّل بها أحمد على صحتها . غير أن عبد الرحمن بن اسحق أبان للخليفة أنه قد عرف أحمد بن حنبل منذ ثلاثين سنة كمسلم يتصف بالورع والتقوى ، يؤدى فريضة الحج ويرى طاعة الخليفة والجهاد معه

ونظرا لما قاله عبد الرحمن للخليفة ، وما سمعه الخليفة بنفسه من اجابات أحمد ، صاح المعتصم قائلا : « حقا انه لفقّيه ، حقا انه لعالم ، وما يسرّنى أن يكون مثله معى ، يرد على أهل الملل » . ثم أبدى استعداده لأن يوقف فى الحال كافة الاجراءات التى اتخذت لامتحان أحمد ، وتأبيده بكل قوته ، اذا خفف أحمد من تشدده ولو قليلا جدا ، حتى يستطيع أن يتخذ من هذا التخفيف والتنازل مبررا لكى يطلق عنه . فرد أحمد على هذا ،

(١) المقتضى للمقريزى ورقة ٦ : قال أبو عبد الله كان القوم اذا انقطعوا عن الحجة ، عرض ابن أبي دواد ، فتكلم ، وكلمنى مرة ، فلم التفّت اليه . فقال لى المعتصم : ألا تكلمه ؟ فقلت : لست أعرفه . الخ ، قال أبو عبد الله : وكان ابن أبي دواد من اجهل (الناس) بالعلم والكلام

(٢) هذا يتنافى مع ما جاء فى ترجمة ابن أبي دواد فى تاريخ بغداد للخطيب ووفيات الاعيان لابن خلكان وغيرهما من المصادر من علو كعبه فى العلم وسعة احاطته بمعارف عصره . ولكن خطاه ينحصر فى حمل الناس بالقوة على انتحال آراء المعتزلة

ردا يتفق مع ما قاله من قبل ، ملتصقا آية من القرآن أو حديثا للنبي ، يبرر موقفه حتى يقول بقولهم

وقد ختم هذا ، اجراء اليوم الأول . وأعيد أحمد الى محبسه ، حيث زاره رجالان من أصحاب ابن أبي دُوَاد ، وهما صاحب الشافعي ، ورجل يدعى غَسَّان (أحمد بن غسان) . واشتبكا معه في مناقشته ومناظرته ، الى صباح اليوم التالي . وفي غضون ذلك أحضرت مائدة الافطار في المساء ، وتناول الزائرون منها . غير أن أحمد لم يأكل منها شيئا على الرغم مما كان يعانيه من آلام الجوع

وقبل أن ينعقد المجلس في اليوم التالي ، أحضر ابن أبي دواد بنفسه رسالة من الخليفة ، يستفسر فيها عما اذا كان أحمد بن حنبل قد غير من موقفه أم لا . كما عبّر أحمد بن أبي دواد عن أسفه الشخصي للقبض على أحمد ولما بدا بصفة خاصة من عزم الخليفة على عدم قتله بالسيف ، في حالة توقعه عن الاجابة ، ولكنه سيأخذ في ضربه حتى يذعن أو يموت تحت السياط . وقد أكد لأحمد أن الخليفة المأمون قد أدرج اسمه مع الفقهاء السبعة الأول الذين استدعوا لامتحانهم . ولكنه توسط لدى الخليفة حتى مسح اسمه . وكان أحمد بن حنبل يجيب على كافة هذه المحاولات لاقناعه واستمالته بنفس الحجة وهي ايراد دليل مقنع ، من القرآن أو الحديث ، يستند عليه في تغيير معتقده . كما أرسل اليه أحمد بن عمّار صاحب الدار التي اعتُقل فيها أحمد ، وقد بعث اليه أكثر من مرة ، ومعه رسائل من الخليفة . ولكن لم تجند معه كافة هذه المحاولات ، (ولم يترشح أحمد عن موقفه قيد شعرة) (*)

وقد أخذت وصف المحاكمة في النصوص العربية التي أدرجتها ، من كتاب حلية الأولياء لأبي ثَعِينم ، وذلك فيما عدا استثناءات قليلة أشرت

(*) زيادة لتوضيح مراد المؤلف

البها في مواضعها (١) . ومما جاء في الحلية (٢) :

« فلما أصبحت ، جاءني الرسول ، فأخذ يدي ، فأدخلني الدار . وإذا هو جالس ، وابن أبي ذؤاد حاضر . وقد جمع أصحابه ، والدار غاصّة بأهلها . فلما دنوت منه ، سلّمت . فقال لي : ادنه ادنه . فلم يزل يدنيني حتى قربت منه . ثم قال لي : اجلس . فجلست ، وقد أثقلتني الأقياد . فلما مكثت هنيهة ، قلت : تأذن في الكلام ؟ فقال : تكلم ، قلت : الام دعا اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

فقال : الى شهادة ألا اله الا الله . قال : فقلت : أنا أشهد ألا اله الا الله . ثم قلت له : ان جَدُّكَ ابن عباس ، يحكى أن وفد عبد القيس ، لما قدّموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرهم بالايان بالله ، فقال : أتدرون ما الايمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : شهادة ألا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله ، واقام الصلاة وایتاء الزكاة وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخمس من المغنم

قال أبو الفضل : حدثنا أبي ، حدثنا يحيى بن سعيد ، عن شُعْبَةَ ، قال : حدثني أبو جَمْرَةَ ، قال : سمعت ابن عباس قال : ان وفد عبد القيس ، لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أمرهم بالايان بالله فذكر الحديث . قال أبو الفضل : قال أبي : فقال لي عند ذلك (أى الخليفة المعتصم) : لولا أنى وجدتك في يد من كان قبلى ما تعرضت لك . ثم التفت الى عبد الرحمن بن اسحق ، فقال له : يا عبد الرحمن ، ألم آمرك أن

(١) راجع تاريخ أبى الفداء ج ٢ ص ١٦٨ . ويوجد في تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ (٢) في طبعة النجف سنة ١٣٥٨ هـ ج ٣ ص ١٩٨ بيان موجز متوه عن اجراءات محاكمة أحمد امام المعتصم (٣) وقد اورد المؤلف صفحات كاملة من النصوص العربية تبدأ في كتابه من ص ٩٣ الى ص ١٠٠ نقلا عن الحلية لابي نعيم ، ولم استطع ادراجها كلها في موضع واحد في الترجمة العربية ، كما صنع المؤلف في كتابه ، ولكنى قسمتها طبقا لما كتبه المؤلف في وصف أيام المحاكمة ، فذيلت وصفه لكل يوم منها بالنصوص العربية المطابقة لهذا الوصف

(٢) أبو نعيم ورقة ١٤٨ أو مابعدھا (٣) طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٩٨ وما بعدها

ترفع المحنة (*) ؟ قال أبى : فقلت فى نفسى : الله أكبر ، ان فى هذا ، لفرجا للمسلمين . قال : ثم قال : ناظروه وكلموه . ثم قال : يا عبد الرحمن كلمه . فقال لى عبد الرحمن : ما تقول فى القرآن ؟

قال : قلت له : ما تقول فى علم الله ؟ فسكت . قال أبى : فجعل يكلمنى هذا وهذا ، فأرد على هذا ، وأكلم هذا ، ثم أقول : يا أمير المؤمنين ، أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقول به ما أراه . قال : فيقول ابن أبى دواد : أنت لا تقول الا ما فى كتاب الله ، أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : فقلت له : تأولت تأويلاً ، فأنت أعلم وما تأولت ما يحبس عليه ويثقيد عليه . قال : فقال ابن أبى دواد : هو والله يا أمير المؤمنين ضال "مضل مبتدع ، وهؤلاء قضاتك والفقهاء ، فسئلهم . فيقول لهم (أى الخليفة) : ما تقولون ؟ فيقولون : يا أمير المؤمنين ، هو ضال مضل مبتدع

» قال : ولا يزالون يكلموننى . قال : وجعل صوتى يعلو على أصواتهم . فقال لى انسان منهم : قال الله : « ما يأتيهم من ذرير من ربهم محدث » . أف يكون محدث الا مخلوق ؟ فقلت له : قال الله تعالى : « ص ، والقرآن ذى الذكر (١) » ، فالذكر هو القرآن ، وتلك ليس فيها ألف ولا لام . قال :

(*) لاحظ أن المؤلف لم يناقش هذه الرواية ليعرف مدى صحتها وأرى أن سياق حوادث محاكمة أحمد بن حنبل فى سنة ٢١٩ هـ يؤكد أن المعتصم لم يأمر قط عبد الرحمن بن اسحاق أو غيره برفع المحنة ، وانما هذا من وضع المؤرخين وكتاب الطبقات الذين أرخوا لهذه الفترة فى ظل الدولة العباسية . فقد كانوا يجاملون خلفاء بنى العباس على حساب الوقائع التاريخية للتخفيف من تبعثهم والصاق أوزار المحنة برجال حاشية المعتصم من أمثال عبد الرحمن بن اسحق ، وأحمد بن أبى دواد . وما يوضح أن هذه الرواية موضوعة ومختلقة انه بعد أن سأل المعتصم عبد الرحمن بأنه أمره برفع المحنة ، يطلب من رجال حاشيته أن يناظروا أحمد بن حنبل ويكلموه

فجعل ابن سماعة (٢) لا يفهم ما أقول . قال : فجعل يقول لهم : ما يقول ؟ قال : فقالوا له : انه يقول كذا وكذا . قال : فقال لى انسان منهم حديث خَبَّاب . يا هَنَاهُ ، تَقْرَبُ الى الله بما استطعت ، فانك لن تتقرب اليه بشيء هو أَحَب اليه من كلامه . قال أبى : فقلت له : نعم هكذا هو

قال : فجعل ابن أبى دَوَاد ينظر اليه ويلحظ مُتَعَيِّظًا عليه . قال أبى : وقال بعضهم : أليس قال « الله خالق كل شيء » ؟ قال : قلت : قد قال : « تَدَمَّر كل شيء (١) » . فدَمَّرت الا ما أراد الله . قال : فقال بعضهم : فما تقول ؟ وَذَكَرَ حديث عمران بن حُصَيْن : ان الله تعالى كتب الذكر . فقال : ان الله خَلَقَ الذِّكْر . فقلت : هذا خطأ ، حدثناه غير واحد : ان الله كتب الذكر . قال أبى : فكان اذا انقطع الرجل منهم ، اعترض ابن أبى دَوَاد فتكلم . فلما قارب الزوال ، قال لهم : قوموا

« ثم اَحْتَبَسَ (أى الخليفة) عبد الرحمن بن اسحق ، فخلا بى ، وبعبد الرحمن ، فجعل يقول لى : أما تعرف صالحا الرشيدى ؟ كان مؤدبى ، وكان فى هذا الموضع جالسا . وأشار الى ناحية من الدار . قال : فتكلم وذكَّر القرآن ، فخالفتنى ، فأمرت به فسُحِبَ ووُطِئ . ثم جعل يقول : ما أعترفُكَ ، ألم تكن تأتينا ؟ فقال له عبد الرحمن : يا أمير المؤمنين ، أعترفه منذ ثلاثين سنة ، يرى طاعتك والحج والجهاد معك ، وهو مثلاًزِم لمنزله . قال : فجعل يقول : والله انه لفقيه ، وانه لعالم ، وما يسرني أن يكون مثله معى ، يَرُد على أهل الملل ، ولئن أجابنى الى شيء له فيه أدنى

(٢) هو القاضى أبو عبد الله محمد بن سماعة ، تفقه على أبى يوسف ومحمد بن الحسن ، وروى عن الليث بن سعد ، وله مصنفات واختيارات فى المذهب الحنفى ، وتوفى فى سنة ٢٣٣ هـ وقد جاوز المائة ، أى أنه كان فى نحو التسعين أو اقل منها عند محاكمة احمد ، واشترآه فى امتحان احمد بن حنبل ، مع احمد بن أبى دواد يدل على انه كان على الاقل ميالا للمعتزلة ان لم يكن من رجالهم ، راجع ترجمته فى وفيات سنة ٢٣٣ هـ فى شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ح ٢ ص ٧٨ طبعة القدسي ، القاهرة سنة ١٣٥٠ هـ

فرج ، لأُطْلِقَنَّ عنه يدي ، ولأُطَانْ عقبه ، ولأُرْكَبَنَّ اليه بجندی . قال :
ثم يلتفت الى فيقول : وينحك يا أحمد ، ما تقول ؟ قال : فأقول : يا أمير
المؤمنين ، اعطوني شيئاً من كتاب الله ، أو سنة رسول الله ، صلى الله عليه
وسلم . فلما طال بنا المجلس ، ضَجِرَ ، فقام ، فرددت الى الموضع الذي
كنت فيه

« ثم وجّهه الى رجلين سمّاهما وهما : صاحب الشافعي ، وغسان ، من
أصحاب ابن أبي دُوَادَ ، يناظراني ، فيقيمان معي ، حتى اذا حضر الافطار ،
وجّهه الينا بمائدة عليها طعام ، فجعلنا يأكلان ، وجعلت أتعَلَّلُ ، حتى ترفع
المائدة . وأقاما الى غد . وفي خلال ذلك يجيء ابن أبي دواد ، فيقول
لي : يا أحمد ، يقول لك أمير المؤمنين ما تقول ؟

فأقول له : اعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه
وسلم حتى أقول به . فقال لي ابن أبي دُوَادَ : والله لقد كتب اسمك في
السبعة ، فمحوته ، ولقد ساءني أخذهم اياك ، وانه والله ليس السيف ،
انه ضَرَبَ بعد ضرب . ثم يقول لي : ما تقول ؟ فأرد عليه نحوا مما
رددت عليه

ثم يأتيني رسوله ، فيقول : أين أحمد بن عَمَّار ، أجيب الرجل الذي
أنزَلت في حجرته . فيذهب ، ثم يعود ، فيقول لي : يقول لك أمير
المؤمنين : ما تقول ؟ فأرد عليه نحوا مما ركدت على ابن أبي دواد . فلا
تزال رسله تأتي أحمد بن عَمَّار ، وهو يختلف فيما بيني وبينه ويقول :
يقول لك أمير المؤمنين : أجبتني حتى أجيء فأطلق عنك يدي »

ب - اليوم الثلي للمحاكمة :

وفي اليوم الثاني ، اثبتت نفس الاجراءات التي اتخذت في المجلس
السابق . وكلما استشهدوا بآية قرآنية أو حديث قوى الاسناد ، أظهر أحمد
استعدادا لمناظرتهم ، ويبدو أنه كان على تمام القدرة للدفاع عن موقفه . غير
أنهم كانوا اذا اتبعوا منهجا آخر في المناقشة ، أبي اباء مطلقا أن يُسَلِّمَ

بصحة ما يصلون اليه من النتائج ، ولاذ بالصمت والعناد . وقد أحكم انفاذ هذا المنحى فى النقاش ، حتى ان خصومه شكوا الى الخليفة أنه كلما كانت الحجة فى جانبه ، سارع فى الادلاء برده ، وكلما كانت فى جانبهم اقتصر على معارضة الأدلة التى يحتجون بها . ومما أقلق أحمد بن حنبل فيما يبدو ، أن خصومه كان يجب أن يصروا على الاحتجاج بظاهر القرآن ، كما صنعوا فى بعض الأحيان . ولكى يثبت لهم أنه لاينبغى أن يتقيدوا تقيدا بالغا بالمعنى الظاهرى للقرآن ، سأل واحدا من المتناظرين عما يقوله فى الآية القرآنية: «يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِمِ لِحَظِ الْاُنْثَيَيْنِ» . فأجاب بأن الآية قد خصص الله بها المؤمنين

وعند ذاك سأل أحمد عما تكون عليه القاعدة اذا كان الرجل قاتلا أو عبدا أو يهوديا أو نصرانيا ؟ فلم يقو مناظره على الاجابة عن هذا السؤال . وقد برر أحمد استعائته بهذه الحجة لأن مناظره اتبعوا فى مجادلته أسلوبا يثير ضجره وتبرمه . ويلوح أنه كان فى هذه الحال على تمام الأهبة لمتابعة نص القرآن متابعة حرفية كلما كانت الحاجة العملية تقتضى ذلك . ولكنه سلم بالحاجة ، فى بعض الحالات الخاصة ، الى تخصيص عموم المعنى الظاهرى للقرآن، أو الى بسطه وتفصيله ، وذلك عن طريق الاستعانة بأضواء اضافية نستمدّها من بعض المصادر الأخرى . وعنده فيما يبدو أن هذه الأضواء الإضافية لا تستمد الا من الأحاديث المعتمدة الموثوق بصحتها

وفى هذا اليوم كما فى اليوم السابق ، قام أحمد بن أبى دواد بدور فعال فى المناقشة ، كلما سنحت له الفرصة بذلك . وفى أحد الاختبارات الثلاثة التى اختبر بها أحمد بن حنبل ، وربما كان ذلك فى اختباره الأول أو الثانى ، اتهم بأنه يقيم مع الله الها آخر ، أى يدين بالثنوية (١) ، وذلك حين أعلن أحمد اعتقاده بأن القرآن غير مخلوق . وقد رد على ذلك قائلا : « أحد »

(١) انظر كتاب : المعتزلة بقلم شتينر ص ٧٧ ، وراجع ص ٩٠ ومابعدها

صَمَدٌ" ، لا شبيه له ولا عدل، وهو كما وصف به نفسه (١) . وفي نهاية هذه الجلسة ، عثقت مداولة خاصة بين الخليفة ، وعبد الرحمن بن اسحق ، وأحمد بن حنبل . وقد دُعِيَ إليها أحمد بن أبي دواد فيما بعد

وفي نهايتها أعيد أحمد الى محبسه ، كما أعيد ما أجرى في الليلة السابقة . فكانت الرسل تغدو وتروح ، كما عاد الرجلان اللذان صحباه بالأمس ، ولزماء هذه الليلة . وقبل طلوع شمس اليوم التالي ، أُنذِر أحمد بأنهم سيصلون قطعا الى قرار بشأنه في الجلسة القادمة ، وقد أعد نفسه لما ينتهون اليه

جاء في الحلية (٢) : « قال : فلما كان في اليوم الثاني ، أَدْخَلَتْ عليه (أى أدخل الامام أحمد على الخليفة المعتصم) فقال : ناظروه وكلموه . قال : فجعلوا يتكلمون ، هذا من هاهنا ، وهذا من هاهنا ، فأرد على هذا وهذا . فاذا جاءوا بشيء من الكلام مما ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فيه خبر ولا أثر ، قلت : ما أدري ما هذا ؟ قال : فيقولون : يا أمير المؤمنين ، اذا توجهت له الحجة علينا وثب ، واذا كلمناه بشيء ، يقول : لا أدري ما هذا . قال : فيقول : ناظروه . ثم يقول : يا أحمد ، انى عليك شفيق ، فقال رجل منهم : أراك تذكر الحديث وتنتحله . قال : فقلت له : فما تقول في قول الله تعالى : « يوصيكم الله في أولادكم ، للذكر مثل حظ الأنثيين » ؟

فقال : خصَّ الله بها المؤمنين . قال : فقلت له : ما تقول ان كان قاتلا أو عبدا أو يهوديا أو نصرانيا ؟ فسكت . قال أبى : فانما احتججت عليهم بهذا ، لأنهم كانوا يحتجئون على بظاهر القرآن ، ولقوله أراك تنتحل

(١) المفقى للمقرئى ورقة ٤ : وكان أبو عبد الله ، اذا دعى الى القول بخلق القرآن ، وضرب بالسياط ، يقول : كلام الله غير مخاوق . فاذا قيل له : القول بذلك يؤدى الى التشبيه يقول : احد صمد ... الخ

(٢) الحلية لابى نعيم ورقة ١٤٨ وما بعدها ، طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٩٨ وما بعدها وقد حصره المؤلف في موضع واحد وراينا تفسيمه طبقا لآيام المحاكمة

الحديث . وكان اذا انقطع (٥) الرجل ، اعترض ابن أبى دؤاد ، فيقول :
والله يا أمير المؤمنين ، لئن أجابك ، لهو أحب اللى من مائة ألف دينار ومائة
ألف دينار ، فيعَدُّ ما شاء الله اليه من ذلك

« ثم أمرهم بعد ذلك ، بالقيام ، وخَلَا بى وبعبد الرحمن (بن اسحق) ،
فيدور بيننا كلام كثير ، وفى خلال ذلك يقول : تدعوا أحمد بن أبى دؤاد .
فأقول : ذلك اليك . فيتوجّه ، فيجىء فيتكلم . فلما طال بنا المجلس ،
قام ، ورددت الى الموضع الذى كنت فيه . وجاءنى الرجلان اللذان كانا
عندى بالأمس . فجعلتا يتكلمان . فدار بيننا كلام كثير . فلما كان فى وقت
الافطار ، جىء بطعام على نَحْو ما أتى به فى أول الليلة ، فأفطروا ،
وتعلّثت . وجعلت رسله تأتى أحمد بن عمّار . فيمضى اليه برسالة
على نحو ما كان فى أول ليلة

فجاء ابن أبى دؤاد ، فقال له : انه قد حلف أن يضربك ضربا بعد
ضرب ، وأن يجسك فى موضع لا ترى فيه الشمس . فقلت له : فما أصنع ؟
حتى اذا كِدْتُ أن أصبح ، قلت : لخليق أن يحدث فى هذا اليوم
من أمرى شيء . وقد كنت أخرجت تكتى من سراويلى ، فشددت بها
الأقياد ، أحملها بها ، اذا توجهت اليه . فقلت لبعض من كان معى ،
الموكل بى : أريد خيطا . فجاءنى بخيط ، فشددت بها الأقياد ، وأعدت
التكة فى سراويلى ، ولبستها كراهية أن يحدث شيء من أمرى ، فأتعري »

ح - اليوم الثالث :

وحينما جاء الرسول فى اليوم التالى ، أشخص أحمد الى قصر الخليفة ،
وتأيدت مخاوفه ، حين رأى حشدا كبيرا من الرجال المسلّحين ومظاهر
الأبهة والروعة التى أعدت فيما يظهر ، لمناسبة خاصة . وقد بدأت المحاكمة
بمجلس تناقش فيه العلماء والفقهاء مع أحمد بن حنبل ، ثم تلتها مداولة أخرى

(٥) انقطع الرجل أى لزمته الحجة فأفهم وصار لا يستطيع ردا ، ونطح المرء مناظره أى
الزمه الحجة واسكنه

خاصة ، حدث فيها كما حدث من قبل أن سأل الخليفة أحمد أن يدعن ويثجيب ، ولو اذعانا يسيرا ، حتى يرد اليه حرته ، وأكد له الخليفة أنه يضم له في مثل هذه الحال من العطف والرأفة بقدر ما يشعر به نحو ولده هرون . وكان رد أحمد لا يتغير ، وهو أنه يلتزم بعض السند من المصادر الوحيدة التي يتقرب بها كأصول يعتمد عليها ، لكي يغير معتقده . وأخيرا عيل صبر الخليفة ، حين رأى أن آماله في الظفر بما يبرر استعمال الرأفة مع سجينه ، قد تبددت وذهبت أدراج الرياح . فأمر بأن يطرّد ويضرب

٢٣ - ضرب أحمد بن حنبل

وقد حدث أن ضرب أحمد بعد ذلك . وقبل ضربه ، لوحظ وجود عقدة في كم قميصه ، فُسِّل عما يمكن أن يكون الغرض منها . فرد بأنها عقدة تحوى شعركين من شعر النبي (١) (عليه السلام) ، وعندما علم بذلك اسحق بن ابراهيم ، منع من تخريق القميص . وقد سعى الخليفة قبل توقيع الضرب ، وفي خلاله ، في أن يظفر من أحمد بالاجابة الى مذهبه . ويبدو أنه قد تأثر بدافع الرأفة به . ولكنه كان أيضا يحدوه العزم والتصميم على دفع أحمد الى الرجوع عن ابائه والاقلاع عن عناده . بيد أن ابن أبي دؤاد ومن معه من كبار الفقهاء ، لم يدخروا وسعا في حمل الخليفة على قتله . ولما أوثق أحمد في أقياده ، شكّا للخليفة من أن العقوبة التي توقع عليه ، لم يأمر بها الشرع ، لأنه روى عن النبي (عليه السلام) أنه قال : أمِرتُ بأن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا اله الا الله ، محمد رسول الله ، فإذا قالوها ، عصموا مني دماءهم وأموالهم »

ولما ظن أحمد بن أبي دؤاد أن مولاه الخليفة قد يلين اعجابا بثبات أحمد وشجاعته وتأثرا بقوة حججه ، ذكرّ المعتصم أنه لو سلّم ولان ، فسيقال حتما عن المعتصم انه ناهض مذهب المأمون ، الخليفة السابق ، وان الناس

(١) عن استعمال شعر النبي (عليه السلام) كتمائم ، انظر كتاب : دراسات اسلامية بقم

سيرون أن أحمد قد أحرز نصرا على خليفَين ، وهى نتيجة قد تحفز أحمد ابن حنبل على أن يعد نفسه زعيما ، مما يفضى بدولة الخلفاء الى أواخر العواقب

جاء فى المُقَفَّى للمقرئى (١) : « قال أبو عبد الله : وجُعِلَتْ بين العُقَابَيْنِ . فقلت : يا أمير المؤمنين ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا اله الا الله وأنى رسول الله ، الا باحدى ثلاث .. الحديث . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت بأن أقاتل الناس .. الحديث ، فبِمَ تستحل دمي ، ولم آت شيئا من هذا ؟ يا أمير المؤمنين ، اذكر وقوفك بين يدى الله عز وجل ، كوقوفى بين يديك ، يا أمير المؤمنين ، راقب الله . فلما رأى المعتصم ثبوت أبى عبد الله وتصميمه ، لأنَّ لأبى عبد الله . فخشى ابن أبى دواد من رأفته عليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ان تركته ، قيل انك تركت مذهب المأمون ، وسخطت قوله . وأنه غلب خليفَين . فهاجه ذلك ، وطلب كرسيه ، جلس عليه . وقام ابن أبى دواد وأصحابه على رأسه ، ثم قال للجلادين .. الخ »

ولما رُبط الى العقابين ، تعاقب على ضربه ، فيما قيل مائة وخمسون جلادا ، كل واحد منهم يضربه سوطين ثم يتنحى (٢) . وفى ابتداء الضرب ، كان أحمد عند كل ضربة ، يتفوه بعبارات دينية ، اختلفت الروايات فى ايراد حقيقة مدلولها (٣) . وهناك قصة موضوعة فحواها ، أن أحمد بعد أن ضرب تسعة وعشرين سوطا ، كانت سراويله على وشك السقوط ، ولكنها أعيدت الى مكانها بطريقة خارقة ، وربطت باحكام ، وذلك استجابة لدعاء دعا به أحمد . بل مضت بعض الروايات الى ما هو أبعد من هذا ، فزعمت أن

(١) ورقة ٧

(٢) ابن السبكي ورقة ١٣٧٦ (أرجأنا نصه الى مابعد أبى نعيم)

(٣) المقرئى ورقة ٨ (٤) وقد أرجأنا اثبات النص العربى الذى أورده المؤلف الى مابعد استكمال رواية أبى نعيم

يدا من ذهب رؤيت وهى تخرج من تحت ثوبه ، وتصلح ما كان مشعثا (١). ولما مضى الجلادون فى الضرب ، فقد أحمد وعيه تحت تأثير ضربات الشياط ، فنقل وهو فى حالة اغماء الى غرفة مجاورة . وفى غضون ذلك ، كانت جموع العامة المحتشدة خارج فيناء القصر ، قد ثارت ثائرتها ، حنقا وسخطا على معاملة الخليفة لأحمد

وربما كان ذلك أيضا بسبب ما ترامى اليهم من نبأ انهياره واشرافه على الهلاك . وعلى أية حال ، فانهم كانوا قد تأهبوا لمهاجمة القصر ، حينما أمر الخليفة بايقاف ضرب أحمد . ومن الراجح أن هذا الأمر كان يرجع الى خوف المعتصم من هياج العامة وثورتهم عليه أكثر مما يرجع الى سبب آخر . وتحكى احدى الروايات أن أحمد ، حتى بعد أن تحوّل الى الغرفة المجاورة متغنى عليه ، تابع متعذبوه اساءته وايداءه بركله ووطئه بأقدامهم . ولما أفاق أعطى سوقيا لكى يتقيا ، ولكنه أبى تناوله

وقد تلا هذا نقله الى دار اسحق بن ابراهيم ، حيث أطلق سراحه بعد اعتقاله لفترة قصيرة ثم عاد الى داره . وقد وقعت هذه الحوادث كلها ، فى خلال الأيام العشرة الأخيرة من شهر رمضان سنة ٢١٩ هـ ، ولو أننا لانعرف على وجه التحديد تاريخ اليوم الذى وقعت فيه (٢) . ولم يضر أحمد ، فيما يبدو ، سخطا على الخليفة لما وقع منه ، كما أنه أعلن فيما بعد ، أنه لا يَكُنْ حقدا نحو أى واحد من أولئك الذين شركوا فى ايدائه واضطهاده قال أبو نعيم فى الحلية : « فلما كان فى اليوم الثالث ، أدخلت عليه والقوم حضور ، فجعلت أدخل من دار الى دار ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم الشياط ، وغير ذلك من الزى والسلاح ، وقد حشيت الدار بالجند . ولم يكن فى اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء . حتى اذا صرّت اليه ، قال : ناظروه وكلموه . فعادوا بمثل مناظرتهم ، فدار بيننا وبينهم كلام كثير ، حتى اذا كان فى الوقت الذى كان يخلو بى فيه ، نحّانى ،

(١) انظر الهامش السابق (رقم ٢)

(٢) وفيات الاميان لابن خلكان ترجمة رقم ١٩.

ثم اجتمعوا وشاورهم ، ثم نَحَّاهم ودعاني ، فخلا بى وبعد الرحمن ، فقال لى : وينحك يا أحمد ، أنا والله عليك شفيق ، وانى لأشفق عليك ، مثل شفقتى على هرون ابنى ، فأجبنى

فقلت : يا أمير المؤمنين ، اعطونى شيئا من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما ضجر وطال المجلس قال : عليك لعنة الله ، لقد كنت طمعتُ فيك ، خذوه ، خلَّعوه ثيابه ، اسحبوه . قال : فأخذتُ فسحبتُ ثم خلَّعتُ . ثم قال : العتَّابين والسيَّاط . فجىء بعقابين (صحتها : بالعقَّابَيْن) والسيَّاط

فقال أبى : وقد كان صار اللى شَعْرَتان من شَعْر النبى صلى الله عليه وسلم ، فصَرَرَتْهُما فى كم قميصى ، فنظر اسحق بن ابراهيم الى الصُّرة فى كم قميصى . فوجَّه اللى : ما هذا مصرور فى كم قميصك ؟ (١) فقلت : شَعْرٌ من شَعْر النبى صلى الله عليه وسلم . وسعى بعضُ القوم الى القميص ليُخرِقَه فى وقت ما أقمِنت بين العتَّابين . فقال لهم : لا تُخرِقوه ، انزعوه عنه . قال أبى : فظننتُ أنه دُرِىء عن القميص الخرق لسبب الشعر الذى كان فيه

« ثم صَيَّرْتُ بين العتَّابين وشُدَّت يدى وجىء بكرسى ، فوَضَع لى ، وابن أبى دُوَاد قائم على رأسه ، والناسُ أجمعون قيام ممَّن حَضَر . فقال لى انسان ممن شَكَدنى : خذ نابىَ الخُشْبَتَيْن ييدك وشُد عليهما . فلم أفهم ما قال . قال : فَتَخَلَّعْتُ يدى لما شُدِدْتُ ولم أمسك الخُشْبَتَيْن قال أبو الفضل : ولم يزل أبى رحمه الله يتوجع منهما من الرستغ الى أن توفى . ثم قال للجلادين : تقدموا . فنظر الى السيَّاط ، فقال : اتوا بغيرها . ثم قال : تقدموا . فقال لأحدهم : ادنّه ، أوجع ، قَطَّع الله يَدَكَ . فتقدم ، فضرب سوطين ، ثم تَنَحَّى . ثم قال : ادنّه ، شُد ، قطع الله يَدَكَ . فتقدم فضربنى سوطين ثم تَنَحَّى . فلم يزل يدعوا واحدا بعد

(١) فى رواية فى هامش المخطوط : « فى تلك »

واحد ، فيضربني سوطين ثم يتنحي

ثم قام ، حتى جاءني ، وهم محدد قون به ، فقال : ويحك يا أحمد ، تقتل نفسك ؟ ويحك أجبتني ، أطلق عنك يدي . قال : فجعل بعضهم يقول لي : ويحك امامك على رأسك قائم . قال : وجعل عجبني يتنحني بقائم سيفه ويقول : تريد أن تغلب هؤلاء كلهم ؟ قال : وجعل اسحق ابن ابراهيم يقول : وينلك ، الخليفة على رأسك قائم . ثم يقول بعضهم : يا أمير المؤمنين ، دمه في عنقي . قال : ثم رجع فجلس على الكرسي ، ثم قال للجلاد : ادته ، شد ، قطع الله يدك . ثم لم يزل يدعوا جلادا بعد جلاد ، فيضربني سوطين ويتنحني وهو يقول له : شد قطع الله يدك

» ثم قام التي الثانية ، فجعل يقول : يا أحمد أجبتني . فجعل عبد الرحمن ابن اسحق يقول لي : من صنع بنفسه من أصحابك في هذا الأمر ، ما صنعت ؟ هذا يحيى بن معين ، وهذا أبو خيثمة ، وابن أبي اسرايل . وجعل يعدد علي من أجاب . وجعل هو يقول : ويحك أجبتني . قال : فجعلت أقول نحو مما كنت أقوله لهم . قال : فرجع فجلس . ثم جعل يقول للجلاد : شد قطع الله يدك . قال أبي : فذهب عقلي وما عقلت الا وأنا في حجرة مطلق عن الأقياد . فقال : انسان ممن حضر : انا كبينناك على وجهك ، وطرحنا على ظهرك باريّة ودسناك . قال أبي : فقلت : ما شعرت بذلك

قال : فجاءوني بسويق ، فقالوا لي : اشرب وتقيأ ! فقلت : لا أفطر . ثم جئ بي الى دار اسحق بن ابراهيم . قال أبي : فنودي بصلاة الظهر ، فصلينا الظهر . فقال ابن سماعة : صليت والدم يسيل من ضربك ؟ فقلت : قد صلى عمر رضى الله عنه ، وجرحه يشعب دما . فسكت . ثم خلى عنه فصار الى المنزل

» (قال) : ووجّهه التي برجل من السجن ممن يثبصر الضرب والجراحات ، ويعالج منها . فنظر اليه ، فقال : أنا والله لقد رأيت من

ضرب ألف سوط ، ما رأيتُ ضرباً أشد من هذا . لقد جثَّ عليه من خلفه ومن قدامه . ثم أدخل ميلاً في بعض تلك الجراحات ، وقال : لم ينقب . فجعل يأتيه ويعالجه . وقد كان أصاب (*) وجهه غيرُ ضربة . ثم يمكث يعالجه ما شاء الله . ثم قال له : ان هاهنا شيئاً أريد أن أقطعه . فجاء بحديدة . فجعل يعلق اللحم بها ، ويقطعه بسكين معه ، وهو صابر بذلك يحمد الله في ذلك ، فبرأ منه . ولم يزل يتوجَّع من مواضع منه . وكان أثر الضرب بينا في ظهره ، الى أن توفي رحمه الله

« قال أبو الفضل : سمعتُ أباي يقول : والله لقد أعطيتُ المجهود من نفسي ، ولوددتُ أني أنجو من هذا الأمر كهفا لا على ولا لى . قال أبو الفضل : وأخبرني أحد الرجلين اللذين كانا معه ، وقد كان هذا الرجل ، يعنى صاحب الشافعى ، صاحب حديث ، قد سمع ونظر . ثم جاءنى بعد فقال : يا ابن أخى ، رحمة الله على أبى عبد الله ، ما رأيتُ أحداً يعينى يشبهه ، لقد جعلتُ أقول له في الوقت ما يُوجَّه إلينا بالطعام : يا أبا عبد الله ، أنت صائم وأنت في موضع تقيَّة

ولقد عطش ، فقال لصاحب الشراب : ناولنى . فناوله قدحا فيه ماء وثلج . فأخذه ، فنظر إليه هنيئة ، ثم ركده عليه . قال : فجعلتُ أعجب إليه من صبره على الجوع والعطش وما هو فيه من الهول . قال أبو الفضل : وكنت ألتمس وأحتال أن أوصل إليه طعاما أو رغيفا أو رغيفين في هذه الأيام ، فلم أقدر على ذلك . وأخبرنى رجل حضَّره قال : تفقَّدته في هذه الأيام ، وهم يناظرونه ويكلمونه ، فما لحن في كلمة ، وما ظننت أن أحدا يكون مثلاً شجاعته وشدة قلبه قدس الله روحه »

وقال ابن السبكي في طبقات الشافعية (١) : « حدثنا أبو بكر

(*) مكتوبة في مخطوطة ليدن : اصحاب . وأشار المؤلف بمراجعة تاج العروس . ولكن صحتها : أصاب

(١) ورقة ١٣٦ (*) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ٢٠٥ ، وفي هذه الطبعة تحريف لاسم أبى دن فقد كتبت أبو ذر

السُّهْرَوَرْدِي بِمَكَّةَ قَالَ : رَأَيْتَ أَبَا دَنْ بَسْنَهْرَوَرْد... وَكَانَ مِمَّنْ ضَرَبَ أَحْمَدَ (بَنْ حَنْبَلٍ) بَيْنَ يَدَيْ الْمَعْتَصِمِ ، قَالَ : دُعِينَا فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَنَحْنُ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ جَلَادٌ ، أَنْ أَمَرْنَا بِضَرْبِهِ ، كُنَّا نَعْدُوا عَلَى ضَرْبِهِ وَغَرَّ ، ثُمَّ يَجِيءُ الْآخِرُ عَلَى أَثَرِهِ ثُمَّ يَضْرِبُ » (وَفِي رِوَايَةِ أَبِي ثَعْنِيمَ (١) : ثُمَّ دَعَا بِجَلَادٍ يُقَالُ لَهُ أَبُو الدَّنِّ ، فَقَالَ : فِي كَمْ تَقْتُلُهُ ؟ قَالَ : فِي خَمْسَةِ أَوْ عَشْرَةِ أَوْ خَمْسَةِ عَشَرَ أَوْ عَشْرِينَ . فَقَالَ : اقْتُلْهُ)

وَقَالَ الْمَقْرِزِيُّ فِي الْمُتَقَفَّى (٢) : « فَلَمَّا ضُرِبَ (أَحْمَدُ) سَوْطًا ، قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ . فَلَمَّا ضُرِبَ الثَّانِي قَالَ : لِأَحُولٍ وَلِأَقْوَةِ الْإِلَهِ . فَلَمَّا ضُرِبَ الثَّلَاثُ قَالَ : الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ . فَلَمَّا ضُرِبَ الرَّابِعُ قَالَ : (قَتْلٌ لِيْ يَصِيبُنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) . فَضَرْبُهُ تِسْعَةً وَعَشْرِينَ سَوْطًا . وَكَانَتْ تَكَّةُ سِرَاوِيلِهِ حَاشِيَةً ثَوْبٍ ، فَانْقَطَعَتْ . فَنَزَلَ السِّرَاوِيلُ إِلَى عَاتَتِهِ ، فَقُلْتُ : السَّاعَةَ يَنْتَهِكُ ، فَرَمَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ طَرْفَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، وَحَرَّكَ شَفْتَيْهِ ، فَمَا كَانَ بِأَسْرَعَ مِنْ أَنْ يَبْقَى السِّرَاوِيلُ ، لَمْ يَنْزِلْ . قَالَ مَيْمُونٌ : فَدَخَلْتُ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ، بَعْدَ سَبْعَةِ أَيَّامٍ ، فَقُلْتُ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، رَأَيْتُكَ يَوْمَ ضَرْبِكَ ، قَدْ انْجَلَّ سِرَاوِيلُكَ ، فَرَفَعْتَ طَرْفَكَ نَحْوَ السَّمَاءِ ، وَرَأَيْتُكَ تَحْرُكُ شَفْتَيْكَ ، فَأَيُّ شَيْءٍ قُلْتَ ؟

قَالَ : قُلْتُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الَّذِي مَلَأْتَ بِهِ الْعَرْشَ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ إِنِّي عَلَى الصَّوَابِ ، فَلَا تَهْتِكْ لِي سِتْرًا . وَرَوَى أَنَّهُ قَالَ : يَا مَنْ لَا يَعْلَمُ الْعَرْشَ مِنْهُ أَيْنَ هُوَ إِلَّا هُوَ ، إِنْ كُنْتُ عَلَى الْحَقِّ ، فَلَا تُبَدِّرْ عَوْرَتِي ، أَنْتَهَى

وَذَكَرَ الْبَيْهَقِيُّ : أَنَّهُ فِي أَوَّلِ سَوْطٍ قَالَ : بِسْمِ اللَّهِ ، وَفِي الثَّانِي قَالَ : تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَهَذَا فِي رِضَى اللَّهِ . وَفِي الثَّلَاثِ قَالَ : مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ

(١) الحلية ورقة ١٥٠ ب (٢) طبعة القاهرة ج ١ ص ٢٠٢

(٢) ورقة ٨

وفي الرابع قال : لاحول ولا قوة الا بالله . وفي الخامس قال : يا أمير المؤمنين ، انك موقوف ومساءل " عنى بين يدي رب لا يظلم ، ويأخذ للمظلوم من الظالم . وفي السادس قال : يا أمير المؤمنين ، سألتك بالله والدار الآخرة . قال وهو لا يرفع رأسه اليه . وفي السابع قال : يا أمير المؤمنين اذكر الوقوف بين يدي الله كوقوفى بين يديك ، لا تستطيع منعا ، ولا عن نفسك دفعا . فلما ضربه الثامن ، اضطرب المئزر فى وسطه . قال المروزي ، وعباس بن مسكويه الهمداني : لقد رأينا أحمد رفع رأسه الى السماء وحرك شفتيه ، فما استتم الدعاء ، حتى رأينا كفا من ذهب ، فد خرج من تحت مئزره ، فرد المئزر الى موضعه ، بقدرة الله تعالى . فضجّت العامة ، وهمّوا بالهجوم على دار السلطان . فأمر بحلّه

قال المروزي ، وابن مسكويه : فدخلنا على أبي عبد الله ، فقلنا : أى شيء كان تحريك شفتيك عند اضطراب المئزر ؟ قال : رفعت بصرى الى السماء وناديت : يا غياث المستغيثين ويارب العالمين ، ان كنت تعلم أنى قائم بحق ، فلا تهتك عورتى ، فاستجاب الله دعائى . قال : فكان اسحق ابن ابراهيم يقول : أنا والله رأيت يوم ضرب أحمد ، وقد ارتفع السراويل من بعد انخفاضه ، وانعقد من بعد انحلاله ، وما رأيت يوما كان أعظم على المعتصم من ذلك اليوم ، والله لو لم يرفع عنه الضرب ، لم يبرح من مكانه الا ميتا »

٢٤ - ما وقع بعد ضرب الامام احمد

وقد عاد أحمد بن حنبل فى داره طيب السجن الذى عاجله الى أن التأمت جراحه . غير أن ما خلفته الجراح من ندوب ظل ظاهرا فى جسمه الى يوم وفاته . ولم يبطل قط توجهه من تخلع رُسغِيته الذى حل به لأنه أهمل ما أشير عليه بأدائه عندضربه ، وهو أن يمسك بالأطراف العالية للعقابين . ولما أغفل العمل بهذه النصيحة ، صار الثقل الرئيسى لجسده معلقا من رُسغِيه . وبعد أن فرغ المعتصم من ضرب أحمد ، أخرج الى العامة عمّه

اسحق بن حنبل ، وسألهم أن يستمعوا الى شهادته التى تثبت أن الخليفة سلمهم امامهم سليما معافى لم يلحقه ضرر أو أذى فى بدنه . وقد قيل بأن الخليفة لو لم يعمد الى اجراء هذا التمويه والتضليل ، لشغب العامة وأوقدوا نار الفتنة . غير أنه بهذه الحيلة قد هدأ من ثأرتهم وتلافى العواقب الوخيمة التى تنجم عن هياجهم

وقد رأى أحمد بن أبى دواد أن من الواجب حينذاك أن يزج بأحمد بن حنبل فى السجن . ولكن المعتصم أغضبه هذا الاقتراح ، وأمر عامله اسحق ابن ابراهيم أن يطلق سراح أحمد . ومن المحتمل أنه فى هذه الحالة أيضا ، كان خوف الخليفة من قيام ثورة شعبية ، صارفا له عن أن يعضى فى اصطناع القسوة نحو سجينه . ولما انتهت الأمور الى هذا الحد ، خلع المعتصم على أحمد خِلْعاً سنّية ، وردّه الى داره كما سبق أن حكينا ، وأمر عامله اسحق أن يستفسر عن حالته كل يوم ، طالما أن أحمد كان محتبساً فى داره . غير أن أحمد باع هذه الخِلْع وتصدق بشمنها

جاء فى المقفى للمقرئزى (١) (تحت عنوان) : فصل فيما وقع له رضى الله عنه بعد انقضاء المحنة : قال ابن أبى حاتم : سمعتُ أبا زرّعة يقول : دعا المعتصم باسحق ، عم أحمد بن حنبل ، ثم قال للناس : تعرفونه ؟ قالوا : نعم . قال : فانظروا اليه . (ثم قال لاسحق) : أليس هو صحيح البدن ؟ (فقال برأسه : نعم) . ولولا أنه فعل ذلك ، لوقع شر لا يتقدر على دفعه . فلما قال : قد سلّمته اليكم صحيح البدن ، هدأ الناس وسكتوا

وكان ابن أبى دواد يبحث الخليفة على حبس أبى عبد الله وعدم اطلاقه ، ويقول : يا أمير المؤمنين احبسه ، فانه فتنة . فغضب المعتصم ، وقال لنائبه : يا اسحق (بن ابراهيم) أطلقه . قال أبو عبد الله : فلم (*) يجد بدا من

(١) ورقة ٨

(*) فى الاصل : فلا

أن يخلى عنى ، ولولا ذلك لكان قد حبسنى . وقال المعتصم لهم : ليس هذا كما وصفتم

قال البيهقى : وذلك أنهم وضعوا من قدره وقللوه وصغروه عنده ، فلما شاهده ورأى ما عنده ، عرف له فضله . وقال ميمون بن الاصبغ : أخرج أحمد بعد أن اجتمع الناس وضجوا حتى خاف السلطان ، فخرج . قال البيهقى : قال حنبل : وخلع عليه المعتصم مِثْبَئَةً وقميصا ، وطيلسانا وخنفا وقلنسوة ، وأخرج على دابة عند غروب الشمس . فصار الى منزله ومعه الناس . فدخل منزله ، ورمى بنفسه على وجهه ، وخلع ما كان خلع عليه ، فأمر به فبيع ، وأخذ ثمنه فتصدق به . وبلغنا أن أبا اسحق يعنى المعتصم ، ندم وأسقط فى يده ، وأمر(*) اسحق نائبه ، ألا يقطع عنه خبره . قال : فكان اسحق . يأتينا كل يوم يتعرف خبره ، حتى صَحَّ وبرأ بعد العلاج ، وخرج للصلاة والحمد لله »

وقد حكى أن أحمد ظل مقيما بالعسكر ستة عشر يوما فحسب . وكان طعامه ابان هذه المدة لا يتجاوز رُبْعَ سَوِيْقٍ (أى أربع حِفْنَاتٍ من دقيق الشعير) . وكان يستقى كل ليلة بِشْرَبَةِ ماء ، وَيَطْعَمُ كل ثلاثة ليال بحفنة من سَوِيْقٍ . وقد بَرَحَتْ به هذه المَحَنُ وعانى كثيرا مما لاقاه فيها ، حتى انه لم تعد اليه صحته وقواه كما كانت ، الا بعد انقضاء ستة أشهر كاملة منذ عودته الى داره

قال أبو نعيم (١) : « حدثنا أبى ، والحسين بن محمد ، قالا : حدثنا أحمد بن محمد بن عمر ، قال : سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول : مكث أبى بالعسكر عند الخليفة ستة عشر يوما ، ما ذاق شيئا الا مقدار رُبْعِ سَوِيْقٍ . كل ليلة ، كان يشرب شربة ماء ، وفى كل ثلاث ليال ، يَسْتَنْفُ حِفْنَةً حِفْنَةً من السويق . فرجع الى البيت ، ولم ترجع اليه نفسه الا بعد ستة أشهر ، ورأيت مَوقِيَه دَخَلَ فى حَدَقَتَيْهِ »

(*) فى المخطوطة : أمه تحريف

(١) الحلية ورقة ١٤٢ ب وما بعدها (طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٧٩ وما بعدها)

٢٥ - المحنة في مصر في عهد المعتصم

وقد وصل المظفر بن كيدر ، أبان ولايته القصيرة على مصر ، وكان قد خلف أباه في حكمها ، كتاب من الخليفة المعتصم (*) ، يأمره فيه بتجديد

(*) ليس صحيحا أن المعتصم أرسل كتابا الى المظفر بن كيدر يأمره فيه بتجديد المحنة . ولعل المؤلف وقع في هذا الخطأ لاعتماده على كتاب النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة لمؤلفه أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى . وقد رجع الى النسخة التى نشرها المستشرق الهولندى يونيوبول في ليدن من سنة ١٨٥١ م الى سنة ١٨٦١ م . ولكن يوجد مرجع متقدم بكثير عن ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ ، ذلكم هو العالم المصرى ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ ، صاحب كتاب ولاية مصر وقضاها ، الذى نشره روفون جست في بيروت سنة ١٩٠٨ م ، بعد أن نشر باتون رسالته عن المحنة بأكثر من عتر سنوات . ولو أنه أتبع لباتون الرجوع الى كتاب الكندى هذا ، لاعاد كتابة الفقرات الخاصة بأخبار المحنة في مصر . وسأوضح في هذا الهامش خطأين وقع فيهما المؤلف وأورد به ، لفائدة القارئ بيانات اضافية عن تاريخ المحنة في مصر ، اقتصر فيها على ما يتعلق منها بعهد كل من المأمون والمعتصم ، وأرجىء أخبار المحنة في عهد الواثق الى الموضع الذى يتكلم فيه المؤلف عن عهده . وقد يدات المحنة في مصر عندما كان المأمون لا يزال على قيد الحياة . والكتاب الخاص بالمحنة الذى أرسل الى مصر ، لم يكن هو نفس الكتاب الاول الذى أرسله المأمون لعامله على بغداد اسحق بن ابراهيم . وانما هو كتاب آخر أرسله أخو المأمون الذى تسمى فيما بعد عند توليه الخلافة باسم المعتصم . وكان اسم المعتصم آنذاك أبا اسحاق بن هرون الرشيد . وقد أورد الكندى في ص ٤٤٥ من كتابه نص هذا الكتاب . وقد أرسله أبو اسحق الى كيدر نصر بن عبد الله والى مصر من قبل المأمون . وورد هذا الكتاب على كيدر في جمادى الآخرة سنة ٢١٨ هـ (الكندى ص ١٩٣) ، أى بعد وصول كتاب المأمون الى بغداد بنحو ثلاثة أشهر (من ربيع الاول الى جمادى الآخرة) . ولا تخرج التعليمات التى وردت لوالى مصر عن نظائرها التى وردت في كتاب المأمون لحاكم بغداد وتتلخص في فصل القضاة مالم يقرؤا بأن القرآن مخلوق واسقاط عدالة اليهود في القضايا مالم يقرؤا بهذه العقيدة ، أى ابطال شهادتهم ، ومنع الفقهاء والمحدثين في المساجد من الافتاء أو رواية الحديث مالم يعلنوا ايمانهم بخلق القرآن . وقد كان كيدر واليا على مصر منذ خروج المأمون من مصر في صفر سنة ٢١٧ هـ الى أن توفى في ربيع الآخرة سنة ٢١٩ هـ أى في خلافة المعتصم التى بدأت منذ وفاة المأمون في شهر رجب سنة ٢١٨ هـ . (الكندى ص ١٩٤) . ثم ولى مصر مظفر بن كيدر الذى يشير اليه باتون ، وذلك باستخلاف أبيه له ، وقد عزله المعتصم في شعبان سنة ٢١٩ هـ . ونظرا لان ولاية مظفر بدأت من ربيع الآخر من نفس السنة ، فقد استغرقت نحو خمسة أشهر . ولم تكن هناك متاعب بسبب المحنة في عهد ولايته القصيرة كما يقول باتون ، لان الكندى يقول في ص ٥١ من كتابه : « ان أمر المحنة كان سهلا في ولاية المعتصم ، لم يكن الناس (أى في مصر) يؤخذون بها شاءوا أو أبوا ، حتى مات المعتصم وقام الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين ، فأمر أن يؤخذ الناس بها ، وورد كتابه على محمد بن أبى الليث وكأنها نار أضمرت »

المحنة . فامتحن المظفر الفقهاء ، اتفاداً للأمر الذى تلقاه . ولكن هذا العمل لم يجر منه شيئاً سوى أن زاد فى متاعبه فى خلال حكمه القصير ولا نعلم شيئاً عما أصابته المحنة من نجاح (١) . وليس لدينا بعد ولاية المظفر ، سجل متميز يشتمل على أخبار المحاكمات التى أقيمت فى مصر من أجل القرآن . غير أنه من الثابت أن البثوينطى عانى امتحاناً فى مصر فى عهد الولاى . وسوف نشير الى قضيته بعد قليل فى كتابنا هذا . وقد بعث الولاى لعماله فى سنة ٢٣١ هـ ، بكتاب يأمرهم فيه بإحياء أمر المحنة (٢) . ولا بد أن البويطى قد أشخص لاختبار عقيدته (٣) فى خلال المِحْن التى تلت هذا الكتاب

٢٦ - المعتصم والمحنة

ومن المرجح أن السبكى قد أدرك عين الصواب ، حين ذهب الى أن المعتصم ، لم يكن لديه من العلم ما يؤهله للفصل فى صحة القول بخلق القرآن أو بطلانه ، والى أن استمراره فى المحنة ، يرجع الى حد كبير الى ما ألقاه المأمون على عاتقه فى وصيته ، والى روح التحريض المنبعثة من أولئك الذين كانوا يلتفون حوله

قال السبكى (٤) : « قال المؤرخون : ومع كونه كان لايدرى شيئاً من العلم ، حمل الناس على القول بخلق القرآن . قلت : لأن أخاه المأمون أوصى اليه بذلك ، وانضم الى ذلك القاضى أحمد بن أبى دؤاد وأمثاله من فقهاء السوء ؟ ولا نسمع بعد ذلك عن عمل أتاه هذا الخليفة ، قصد به إيذاء أحمد بن حنبل أو اضطهاده . وقد توفى المعتصم فى سنة ٢٢٧ هـ

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٩٤ (طبعة القاهرة ج ٢ ص ٢٣٠)

(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٨٣ (٢) طبعة القاهرة ج ٢ ص ٢٥٩ وتاريخ الخلفاء للسيوطى

ص ٣٤٦ (طبعة منير بالقاهرة ص ٢٢٦)

(٣) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٨٦ (٢) طبعة القاهرة ج ٢ ص ٢٦٠ ، ٢٦١

(٤) طبقات الشافعية ورقة ١٤٥ (٢) طبعة الحسينية بالقاهرة ج ١ ص ٢١٩ ووازن ذلك بما

جاء فى تاريخ الخلفاء (بالألمانية) بقلم فيل ج ٢ ص ٢٢٤

٢٧ - الواثق وأحمد بن حنبل

بعد وفاة المعتصم وتقلد ولده هرون الواثق الخلافة ، صار أحمد محدثا طائر الصيت محببا الى القلوب ، فاتجه الناس اليه للأخذ عنه والتفقه عليه . وقد لحظ الحسن بن علي قاضي بغداد ، فكتب بذلك الى أحمد بن أبي دواد . بيد أن أحمد بن حنبل ، لما سمع بما صنعه القاضي ، أمسك من تلقاء نفسه عن اللقاء دروس في الحديث . وذلك قبل أن تقوم الحكومة من جانبها بإجراء صده . وقد حاول ابن أبي دواد مرة أخرى أن يحمل الواثق على إيذاء أحمد ابن حنبل واضطهاده ، ولكنه لم يوفق الى ذلك . فقد ترك الخليفة ، أحمد ابن حنبل طليقا

ولا يتضح لنا جليا اذا كان الباعث له على تركه ، الإعجاب به أو خوف توهمه من شر قد يحقق به ، لو أنه آذى رجلا على مثل هذه الدرجة من الثَّقَى والورع . وقد قيل ان الواثق كان فيما يتعلق بالمحنة ، لا يريد شخصيا أن يأخذَ الناسَ بها ، غير أن ماجأ اليه وزيره من الحث عليها والتشبت بها ، لم يدع للخليفة فرصة واسعة تتيح له التخلص من السياسة التي شغل الوزير بانتهاجها وتحمس لانفاذها

ومن المرجح كثيرا ، اذا كان الأمر يتعلق بأحمد بن حنبل ، أن الواثق كان كسلفه ، يخشى أن يقوم العامة بثورة ، لو عاودت الحكومة إيذاء الامام . لذا عمد الخليفة ، رغبة منه في ارضاء كافة الأحزاب ، الى أن يأمر أحمد بمبارحة بغداد ، وأن يسكن في مكان ناء عن الخليفة . غير أن أحمد لم يبرح موطنه ولم يتعد ، فقد اقتصر على الانزواء في شبه عزلة ظل ملازما لها طيلة الجانب الأكبر من السنوات الباقية من حياته

جاء في المقفى للمقرئزي (١) : « فلما مات المعتصم ، وولى ابنه هرون الواثق ، أكثر الناس من الأخذ عن الامام أحمد . فشق ذلك على

(١) ورقة ٨ وما بعدها ، وانظر أيضا تاريخ الخلفاء بقلم فيل - ح ٢ ص ٣٤٠ ، والنجوم

الزاهرة - ح ١ ص ٦٩١ (٢) طبعة القاهرة - ح ٢ ص ٦٧٦

أهل البِدْع . فكتب الحسن بن على الجَعْد ، قاضى بغداد الى ابن أبى دُوَاد ، أن أحمد قد انبسط فى الحديث . فلما بلغ أبا عبد الله ، أمسك عن الحديث من نفسه ، من غير أن يمتنع . واستمر ابن أبى دُوَاد يَحَسِّن للوائق امتحان الناس بخلق القرآن . ففعل ذلك . لكنه لم يتعرض للإمام أحمد . قال الحافظ أبو الفرج بن الجوزى : أمّا لما علم من صبره ، أو لأنه خاف على نفسه أن يعرض له شىء ببركته ، يعنى كما عرض لأبيه . الا أنه أرسل يقول له : لا تساكنتى بأرضى ، فاختفى الى أن مات اللوائق»

٢٨ - اللوائق يواصل المحنة

غير أن اللوائق، مع ذلك تابع سياسة أسلافه . وقد ذكرنا فيما سبق، الأمر الذى بعث به الى جميع عماله من حكام الولايات المختلفة فى أن يعاودوا تنفيذ اجراءات المحنة حتى يقول الناس بخلق القرآن . وقد أصدر هذا الأمر فى سنة ٢٣١ هـ . وقد قيل انه بعث به على الرغم من أن أباه المعتصم كان قد منع (١) من أخذ الناس بالمحنة . وليس لدينا بيان بأولئك الذين امتحنوا فى عهد اللوائق ، أكثر من خبر عن اسم أو اسمين ورد فيه أنهما أيا أن يجيبا الى القول بخلق القرآن وأنهما عانيا نتيجة امتناعهما

(١) النجوم الزاهرة ح ١ ص ٦٨٣ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٤٦ (٢) طبعة منير بالقاهرة ص ٢٢٦ . وقد غيرت عبارة المؤلف فى الاصل ، وهى : « على الرغم من أنه منع أباه المعتصم من أخذ الناس بالمحنة » . وهى عبارة أخطأ فى نقلها من كتاب النجوم الزاهرة ونصها كما وردت فى طبعة القاهرة ح ٢ ص ٢٥٩ : وفيها (أى فى سنة ٢٣١ هـ) ورد كتاب الخليفة هـرون اللوائق الى عماله بامتحان العلماء بخلق القرآن ، وكان قد منع أبوه المعتصم ذلك . ويتضح من ذلك النص أن اللوائق لم يمنع أباه، فضلا عن وجود قرينتين تؤيدان ذلك . الاولى أن المعتصم بعد ضرب الامام أحمد فى سنة ٢١٩ هـ تساهل فى أمر المحنة منذ سنة ٢١٩ الى وفاته فى سنة ٢٢٧ هـ أى لمدة ثمانى سنوات ، وقرار اللوائق الذى أصدره سنة ٢٣١ هـ بالتشديد فى أمر المحنة مخالف لسياسة المعتصم . والثانية أن منع اللوائق لأبيه لامعنى له طالما أنه ينهج سياسة مخالفة لسياسة أبيه ، بدأ بها بعد وفاة أبيه بأربع سنوات أى سنة ٢٣١ هـ

٢٩ - أحمد بن نصر الخزاعي

وأشهر من استشهد في سبيل معتقده ، في عهد هذا الخليفة ، هو أحمد ابن نصر بن مالك الخزاعي ، وهو مروزي من مدينة مرو ، ينتمي لاحدى العشائر الكبيرة في قبيلته خزاعة . ومن شيوخه مالك بن أنس . ومن تلامذته الآخذين عنه : يحيى بن معين . وقد ترك أحمد بن نصر ، في البداية ، طليقا لم يُلحَق به أذى . ولكنه اعتُقل فيما بعد لسبب سنسطة فيما يلي . وكان طبِيقاً لما ذهب اليه أحمد بن حنبل ، رجلا نبيل النفس ، ونعرف من مصادر أخرى ما كان له من حسب متميز، فقد شغل أبوه وجاهه المناصب العالية في عهد الخلفاء العباسيين . كما اشتهر في نفس الوقت بالأمانة والعدالة بين المحدثين من أهل السنة ، كما كان هو نفسه رجلا راسخ الايمان بعقيدة أهل السنة قوى التمسك بها . ولذا فانه كان يحقد حقدا شديدا على كل من الخليفة وأحمد بن أبي دواد

وقد تحداهما تحديا ظاهرا ، حين أعلن، غير هيّاب ، أن القرآن كلام الله غير مخلوق . ولما عرف أهل حى من أحياء بغداد ، يُعرَف بجى عمرو بن عطاء ، قدر أحمد بن نصر ومكاته ، وطبعه ونزعتة ، أغروه بأن يؤيدهم تأييدا أدبيا، كما التمسوا منه فيما يبدو - عونا ماديا في تدير مؤامرة ضد الخلافة . وقد دبّر المتآمرون الاستيلاء على مدينة بغداد في ليلة من الليالي . بيد أن أحد المتآمرين كان قد شرب حد الثمل ، في الليلة السابقة التى حُدِدَت لانفاذ المؤامرة . فصاح الصيحة الخاصة المتفق عليها كى يقوم الشركاء بهجومهم . فلم يلبوا جميعا نداءه

وقد ترتب على ذلك أن أمر القائم بأعمال الحاكم في بغداد ، وهو محمد ابن ابراهيم ، بالقبض على المتآمرين في الحال . وكان القبض راجعا الى قرائن ، أمكن للحكومة أن تستدل عليها ، من أحد صغار المتآمرين الذين كان لهم دور ثانوى في المؤامرة . ومن الغريب أن أحمد بن نصر، لما أشتخص الى الواثق ، لم يسأله شيئا عن الدور الذى اضطلع به في تلك الفتنة المبتدئة الغريبة . ولكنه بدلا من ذلك بدأ بسؤاله عن القرآن وعن رؤية

الله في الآخرة (١) . وربما أثر ذلك لأن الأدلة التي تدينه في موضوع القرآن والرؤية ، ترجح بكثير اتهامه في الفتنة التي غمس فيها . ولما سأله الواثق عن اعتقاده فيما يتعلق بالقرآن ، لم يجد مع ذلك ما يرد به ، سوى القول بأنه كلام الله

وهناك رواية أخرى فيها اطناب ومبالغة ، تصور لنا ابن أبي دؤاد ، وهو يحدّث الخليفة على اعطاء سجينه مهلة . لأنه شيخ هرم ، أصابته في حواسه غشية مؤقتة . وأنه سوف يثيق ويعود الى عقله ، لو أمنه ل شيئاً من الوقت . ويبدو الواثق في هذه الرواية معرضاً عن هذا الرأي ، متعلناً أن كفر ابن نصر هو الذي دفعه الى الرأي الذي ذهب اليه . وكيفما كان نصيب هذه القصة من الصدق ، فان محاكمة أحمد بن نصر ، لم تمنح طويلاً في اجراءاتها ، حين دعا الخليفة بالنطع والسيف المسمى بالصمصامة ثم طلب أن يضرب بنفسه عنق ذلك المارق العنيد ، لأنه يرجو المثوبة من الله على قتله . فأتيح له أن يحاول القضاء على الشهيد . غير أنه لما أخفق في محاولته ، هب لنجدته سيمًا دمشقي وقتل الرجل . ثم أمر الخليفة بأن ترسل رأسه الى بغداد ، حيث عثرت في الجانب الشرقي للمدينة لعدة أيام ثم عثرت مثل هذه المدة في جانبها الغربي ، أعيدت بعدها لتنصب في الجانب الشرقي بصفة دائمة . وقد حدث قتل أحمد بن نصر الخرازمي في اليوم السابق للأخير من شهر شعبان سنة ٢٣١ هـ . وظل الرأس والجذع معروضين لأنظار الناس طيلة ست سنوات ، الى أن أمر الخليفة المتوكل بانزالهما وتسليمهما الى أقرباء أحمد بن نصر لدفنهما (٢)

(١) منع الواثق رعاياه من الاقرار بأى من هاتين العقيدتين (وهما عدم خلق القرآن ، ورؤية المؤمنين لربهم في الآخرة) ، انظر كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتما ص ١٠٩
(٢) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧١٩ (٣) طبعة القاهرة ج ٢ ص ٢٩٠ وقد جاء فيها : « وفيها (اى في سنة ٢٣٧ هـ) اطلق المتوكل جميع من كان في السجن ممن امتنع من القول بخلق القرآن في أيام أبيه ، وأمر بانزال جثة أحمد بن نصر الخرازمي فدفنت الى اقاربه ودفنت »

قال المقرئ (١) في المقفى : فأما أحمد بن نصر ، فكان من أهل الدين والصلاح والأثارين بالمعروف . سمع الحديث من مالك بن أنس وغيره ، وروى عنه يحيى بن معين وغيره . دعاه الواثق الى القول بخلق القرآن ، فأبى . فأمر بضرب عنقه فضرب . وحمل رأسه الى بغداد . فنصب في الجانب الشرقى أياماً ، وفي الجانب الغربى أياماً . وأما جسده فصلب بسر من رأى . وروى الحافظ أبو الفرج بسنده الى ابراهيم بن اسماعيل ، قال : كان أحمد بن نصر خلى . فلما قتل في المحنة ، وصلب رأسه ، أخبرت أن الرأس يقرأ القرآن . فمضيت ، فبت بقرب من الرأس . وكان قد وكل به من يحفظه

فلما هدأت العيون ، سمعت الرأس يقرأ القرآن : « ألم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً ، وهم لا يفتنون (٢) » . فاقشعر جلدى . ثم رأيت بعد ذلك في المنام ، وعليه السندس والاستبرق ، وعلى رأسه تاج . فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وأدخلنى الجنة . قال المروزي : سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل ، وذكر أحمد بن نصر ، فقال :

(١) ورقة ١٠ وما بعدها . وانظر تاريخ الآراء السائدة في الاسلام (بالالمانية) بقلم فون كزيمر ، وتاريخ الخلفاء بقلم فيل (بالالمانية) ح ٢ ص ٣٤١ وما بعدها . وكتاب الاسلام (بالهولندية) بقلم دوزى ص ١٥٧٦ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٤٦ (مطبعة منير بالقاهرة ص ٢٢٦) وتاريخ اليعقوبى ح ٢ ص ٥٨٩ (*) طبعة النجف سنة ١٣٥٨ هـ ح ٣ ص ٢٠٧ وجاء فيها : « وصار أحمد بن نصر بن مالك الخزازى الى ابن أبى داود فى بعض أموره ، فرده فانصرف ذاماً له . فجعل يبسط عليه لسانه ، ويشهد عليه بالكفر . فقال اليه قوم منهم . وهم لا يشكون ان ذلك غضب للدين . فاشرايت قلوبهم للمعصية لسبب القرآن . وخرج قوم فضربوا بطبل وصاروا الى ناحية صحراء أبى السرى . فأخذوا وأقروا عليه . فكتب الواثق الى اسحق فى اشخاصه . فأشخصه اليه . فكلمه بكلام غليظ . وحضر قوم فشهدوا عليه بشهادات وامتحنه بالقرآن فأبى ان يقول انه مخلوق . وشتمه الواثق فرد عليه . ف ضرب عنقه وصلبه بسر من رأى . ووجه برأسه فنصب ببغداد فى الجانب الشرقى » . وهذه أقدم رواية لدينا أتت بتفصيلات لم تات بها المصادر المتأخرة -) وانظر أيضاً الشذور العربية التاريخية بقلم دى خوى ح ١ ص ٥٢٩ وما بعدها . وتاريخ الطبرى ح ٣ ص ١٣٤٣ وما بعدها

(٢) سورة المتكوت رقم ٢٩ آية أو ٢

رحمه الله ، ما كان أسخاه ، لقد جاد بنفسه »

وقد تنوقت قصة خرافية ، فحواها أن الرأس منذ أن تُصَبَّ إلى أن دَفِنَ كان يتلو القرآن . وتضاهيها قصة أخرى تحكى أنه بعد مقتل أحمد ابن نصر بسنين طويلة ، خرج جماعة للصيد في الصحراء ، فوجدوا رأس أحمد نصر وجسده مطمورين في الرمال ، لم يلحقهما أى أثر للبلى

جاء في طبقات الشافعية لابن السبكي (١) : « قلت ، وبلغنى وما أراه الا فى تاريخ للحاكم أن بعض الأمراء ، خرج يتصيد ، فألقاه السيئرُ على أرض نزل بها ، فعبث بعض غلمانة فى التراب ، فحفر حتى رأى مِيتَةً فى قبره طرياً . وهو فى ناحية ورأسه فى ناحية . وفى أذنه رقعة ، عليها شيء مكتوب . فأحضر من قرأه . فاذا هو : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا رأس أحمد بن نصر بن مالك ، دعاه عبد الله الامام هرون وهو الواثق بالله أمير المؤمنين ، الى القول بخلق القرآن ونفى التشبيه . فأبى الا المعاندة ، فجعله الله الى ناره (٢) . فعلموا أنه رأس أحمد الخزاعى . فدفن ورفع سنام قبره . وكان هذا فى زمن الحاكم أبى عبد الله الحافظ ، وهو على طراوته ، وكيف لا وهو شهيد ، رحمه الله ورضى عنه » (٣)

٣٠ - نعيم بن حماد

وهناك رجل آخر توقف عن الاجابة هو نعيم بن حماد. وكان رابع أربعة أصلهم من مرو . وقد ثبتوا فى المحنة واحتملوا خُطْبَها صابرين . أولهم أحمد بن حنبل ، والآخرا محمد بن نوح المضروب ، وأحمد بن نصر . وقد تلقى نعيم بن حماد ، الحديث وشغل بدراسته وقتاً طويلاً فى الحجاز والعراق . ثم رحل بعد ذلك الى مصر . وقد أحضر فى خلافة الواثق من مصر ،

(١) ورقة ١٤٢ وما بعدها (٢) طبعة الحسينية القاهرة ح ١ ص ٢١٥

(٢) زيادة عن الاصل نقلا عن طبقات الشافعية فى الموضع السابق

(٣) هذا القصص نسجه الخيال الشعبى للتعبير عن استنكار الضمير العام لقتل أحمد بن

نصر ، وتوجد قصة أخرى أوردها ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب ح ٢ ص ٧٠ سنوردها فى الحواشى فى آخر الكتاب

وامتحن . ولما لم يجِب الى ما طَلِب منه ، وهو القول بأن القرآن مخلوق ، زُجج به في السجن حيث مات (٢٠)

قال المقرئ (١) في المقفى : « وأما نعيم بن حماد ، فكان من أهل مرو ، طلب الكثير من الحديث بالحجاز والعراق . ثم نزل مصر . ثم أشخص منها في خلافة الواثق وسئل عن القرآن . فلم يوافقهم على ما أرادوه منه ، يعنى القول بخلقه . فحبس حتى مات »

٣١ - أبو يعقوب البويطى

وأما أبو يعقوب يوسف بن يحيى البوينطى ، تلميذ الامام الشافعى الذى استخلفه على حلقة طلابه بعد موته ، فانه قد سجن لأنه أبى أن يقر بأن القرآن مخلوق ، ومات في سجنه سنة ٢٣٢ هـ . وكان من أقرانه في التفقه على الشافعى ، الربيع بن سليمان (٢١) ، الذى حكى أنه رأى البويطى مصفدا في أغلاله ، وسمعه يقول : « انما خلق الله الخلق » بكن « (٢) ، فاذا كانت « كن » مخلوقة ، فكان مخلوقا خلق مخلوقا . والله لأموتن في حديدى هذا ، حتى يأتى من بعندى قوم يعلمون

(٢٠) توجد تفصيلات أخرى عن نعيم بن حماد أوردها الذهبى في كتابه تذكرة الحفاظ ح ٢ ص ٦ وما بعدها ، وجاء فيها : وكان شديد الرد على الجهمية وكان يقول : كنت جهما فلذلك عرفت كلامهم . فلما طلبت الحديث علمت أن ما لهم الى التعطيل

(١) ورقة ١١

(٢١) هو الربيع بن سليمان المرادى ، من موالى قبيلة مراد ، وهو الفقيه المصرى صاحب الشافعى ، وهو آخر من روى عن الشافعى بمصر ، ذكره ابن العماد الحنبلى في وفيات سنة ٢٧٠ هـ ، راجع شذرات الذهب ح ٣ ص ١٥٩

(٢) ان كلمة كن مستعملة هنا كمرادف لما يعتبر مظهرا من مظاهر كلمة الله (كما هو موضح فيما يلى في كتابنا) . ويبدو أن البويطى هو على تمام الاتفاق في هذا ، مع شيخه الشافعى ، كما أن الشافعى بدوره متفق مع أحمد بن حنبل ، على الأقل فيما يتعلق بالقرآن . (قارن ذلك بما جاء في ص ٤٩ من كتابنا ، وراجع كذلك كتاب النجوم الزاهرة ح ١ ص ٦٨٦) طبعة القاهرة ج ٢ ص ٢٦٠ ، ٢٦١) ، ويظهر أن البحث في لفظ « كن » في كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ١٢٩ ، يتجه نحو آراء أخرى غير تلك التى كان يلدهب اليها أهل السنة في زمن الحنة

أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم . ولئن دخلت عليه (١) (يعنى الوثائق) لأصنّف قَتْنَه . وقد كتب من سجنه الى الربيع بن سليمان يوصيه خيرا بطلابه (بأن يُصْبِرَ نفسه للغرباء) (٢) ويحسن خلقه لأهل حلقته

٣٢ - فداء الأسرى المسلمين من البيزنطيين

وقد حكّت لنا مصادرنا الجزء الباقي من تاريخ المحنة ، بصورة مقتضبة . وهو يشتمل على حادث يتفق مع روح التعصب التي أبدّاها أحمد بن أبي دؤاد ، والتي تجلّت فيما بذله من جهود لاقرار المذهب القائل بأن القرآن مخلوق . فقد اقترح في سنة ٢٣١ هـ ، فداء أربعة آلاف وستمئة أسير من المسلمين الذين وقعوا أسرى في أيدي البيزنطيين ، فأشار ابن أبي دؤاد أنه يجب ألا يُفْتَكِدَ الا أولئك الذين يُقَرِّرون بأن القرآن مخلوق . وأن من يجيب الى هذا القول ، يتحتم أن يُدفع له ديناران عند اطلاقه . وقد تم هذا العمل فعلا . بيد أن عددا قليلا من الأسرى ، لم يستطيعوا أن يحملوا ضمايرهم على اجتياز الاختبار والاجابة ، فتركوا (٣)

(١) المقي للمقريزي ورقة ١١ (**) وتكملة اقتباس المؤلف : وأما أبو يعقوب يوسف بن يحيى البويطى ، فأريد منه القول بخلق القرآن ، فامتنع ، فحبس الى أن مات سنة اثنتين وثلاثين . قال الربيع بن سليمان صاحب الشافعى : رأيت البويطى على بغل ، في عنقه غل ، وفي رجله قيد ، وبين الفل والقيد ، سلسلة حديد ، فيها طوية ، وزنها أربعون رطلا ، وهو يقول : انما خلق الله الخلق بكن ٠٠٠ الخ ، وراجع (بصدد كلمة : كن) سورة الانعام رقم ٦ آية ٧٢ (وهى : « ويوم يقول كن فيكون ») ، انظر تاريخ الادب (بالالمانية) بقلم همبرجشتول ح ٣ ص ٢٠٠ رقم ١٠٥٠ ، وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٣٥٠ (* طبعة منير بالقاهرة ص ٢٢٩) وتاريخ أبى الفداء ح ٢ ص ١٢٢ ، والفهرست لابن النديم ح ١ ص ٢١٢ (* طبعة التجارية بالقاهرة سنة ١٣٤٨ هـ ص ٢٩٨) ، والنجوم الزاهرة ح ١ ص ٦٨٦ (* طبعة القاهرة ح ٢ ص ٢٦٠ ، ٢٦١)

(٢) زيادة عن الاصل لتوضيح وصية البويطى للربيع ، مستمدة من طبقات الشافعية لابن السبكي في ترجمة البويطى

(٣) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ١٣٥١ وما بعدها (*) الحسينية بالقاهرة ج ١١ ص ١٩ وما بعدها (والشذور العربية التاريخية لدى خوى ح ٢ ص ٥٢١ ، والنجوم الزاهرة ح ١ ص ٦٨٤ ص ٦٨٤ (*) طبعة القاهرة ح ٢ ص ٢٥٩ وطبقات الشافعية لابن السبكي ورقة ١٢٦ (*) الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ٢٢٠

بما نون ذل الأسر في أيدي البيزنطيين (٢).

٣٣ - رجوع الوراق عن مذهب خلق القرآن : السبب المزعوم

يمكن القول بصفة عامة ، ان الوراق قبل موته ، كان قد أقلع عن فكرة المحنة . ويعمل رجوعه عنه ، حادث (١) قد نسلم بوقوعه ، ونعده صحيحاً في جوهره . فقد أمر ابن أبي دواد بأشخاص شيخ من أذنة إلى الخليفة ، بدعوى اتهامه بالزيف والمروق . وقد أمره الخليفة بأن ينظر ابن أبي دواد ، في موضوع خلق القرآن . غير أن الشيخ أبي مناظرته محتجاً بأن ابن أبي

(٢) فات المؤلف مرجع هام يزوده بتفصيلات عما وقع في فداء الأسرى المسلمين إبان المحنة ، وقد كان مسوراً لديه وهو يحضر هذه الرسالة التي تقدم بها لجامعة هيدلبرج سنة ١٨٩٧م . وذلك هو كتاب التنبيه والإشراف للسعودي ، وهو الجزء الثامن والآخر من مجموعة المكتبة الجغرافية العربية التي أشرف على نشرها وتحقيقها المستشرق الهولندي الكبير دي خوى ، مع أن باتون رجع إلى هذه المجموعة في بعض المواضع من رسالته . وكان كتاب التنبيه والإشراف مطبوعاً ومنشوراً في لندن سنة ١٨٩٤ م . وقد أتى السعودي ببيان مطول عن هذه الأقدية التي جرت بين المسلمين والبيزنطيين وبهمنا منها الفداء الذي جرى فيه امتحان الأسرى المسلمين بالقول بخلق القرآن . والفداء السابق له حدث في عهد الرشيد ، وكان القيم عليه ثابت بن نصر بن مالك الخراعي ، وأرجح أنه أخو أحمد بن نصر بن مالك الخراعي الذي قتله الوراق . وفداء الرشيد عده السعودي الفداء الثاني طبقاً لترقيمه لهذه الأقدية . أما فداء المحنة فهو عنده الفداء الثالث . ويقول السعودي بأنه : « فداء خاقان في خلافة الوراق باللامس في المحرم سنة ٢٣١ هـ . والملك على الروم ميخائيل بن توفيل ، وكان القيم به خاقان الخادم التركي . وعدة من فودى به من المسلمين ، في عشرة أيام ، أربعة آلاف وثلاثمائة وأثنين وستين من ذكر وأنثى . وقيل أربعة آلاف وسبعة وأربعين ، على ما في كتب الصوائف ، وقيل أقل من ذلك . » وقال السعودي فيما يتعلق بالمحنة : « وحضر هذا الفداء (أي الفداء الثالث) مع خاقان ، رجل يكنى أبا رملة ، من قبل أحمد بن أبي داود قاضي القضاة . يمتحن الأسارى وقت المفادة ، فمن قال منهم بخلق التلاوة ونفى الرؤية فودى به ، وأحسن إليه . ومن أبى ترك بأرض الروم . فاختار جماعة من الأسارى الرجوع إلى أرض النصرانية على القول بذلك . وأبى أن يسلم الاثنياد إلى ذلك . فنالته محن ومهانة إلى أن تخلص . » وهذا نص هام يمتاز بقرينه من عهد المحنة فقد كتبه السعودي كما ذكر في كتابه في سنة ٢٤٥ هـ ، وقبل وفاته بسنة واحدة ، راجع طبعة القاهرة للتنبيه والإشراف سنة ١٣٥٧ هـ ص ١٦١ ، ١٦٢

(١) انظر تاريخ الآراء السائدة في الإسلام (باللاتينية) بقلم فون كيرمر ص ٢٤٣ وما بعدها . وتاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٤٧ وما بعدها (٢) طبعة منير بالقاهرة ص ٢٢٧ وما بعدها . والنجوم الزاهرة ح ١ ص ٦٩١ وما بعدها (٣) طبعة القاهرة ح ٢ ص ٢٢٦ وما بعدها ، والمقننى للمقرئزي ورقة ٦ وما بعدها . وطبقات الشافعية لابن السبكي ورقة ١٤٣ (٤) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ٢١٦

دواد من الصائبة ، وأن آراءه بلغت من الوهن والخلل حدا لا تقوى معه على الجدل والنقاش . وهنا بدأ الواصل يشتد غضبه ويضيق صدره . ولكن الشيخ وعد بأن يعزز حججه ويثبت صحتها ، فيما لو أصغى الخليفة أصغاء تاماً لما يدور بينهما من الجدال والمناظرة

وقد بدأ الشيخ نقاشه بأن سأل ابن أبي دواد ، فيما اذا كان مذهبه في خلق القرآن أصلاً ضرورياً من أصول الايمان ، على المؤمنين أن يتقروا به . فأجاب ابن أبي دواد بأنه يجب أن ينظر اليه على هذا الاعتبار . ثم استفسر الشيخ قائلاً بأن الله بعد أن بعث محمداً ليلغ الوحي الى قومه ، هل كنتم شيئاً من الرسالة التي أبلغها ؟ فأقر ابن أبي دواد بأن محمداً بلغ الرسالة كاملة . وعند ذاك سأله مناظره ، عما اذا كان النبي (على أساس الوحي الذي كان واسطة في ابلاغه) قد دعا الناس الى الاقرار بأن القرآن مخلوق ؟ فلم يحر ابن أبي دواد جواباً . فطلب الشيخ من الواصل أن يعد هذه نقطة في جانبه تؤيد دعواه . فأقره الواصل على هذه النقطة

وكانت الخطوة الثانية في النقاش مبنية على الاستشهاد بالآية القرآنية : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً) (١) ، وذلك حين سأل الشيخ عن الكيفية التي نبرر بها استحداث فكرة مذهبية جديدة بعد نزول هذه الآية . ولم يحاول ابن أبي دواد أن يدافع عن موقفه ازاء هذا الهجوم . وطلب الشيخ أن تعد هذه نقطة ثانية في تأييد حجته . وسلم له الواصل بذلك

وفي الخطوة الثالثة من المناظرة ، سأل الشيخ عما اذا كان النبي قد عرف النحلة المذهبية التي دعى الناس اليها في ذلك الوقت ، وعما اذا كان النبي قد دعا الناس الى الاقرار بها ؟ فزعم ابن أبي دواد أنه قد علمها . ولكنه لم يجيب عما اذا كان النبي قد ألزم المسلمين الايمان بها أم لا . وهنا طلب الشيخ أن تعد هذه نقطة ثالثة وأخيرة في تأييد حجته . بيد أن الشيخ لم

يقف عند هذا الحد ، بل احتج قائلاً بأنه اذا سلمنا بأن محمدا علم بهذه النحلة كما علمها الخلفاء الأوائل ، وأنهم جميعاً قد رَضُوا بالامتناع عن حمل الناس على الاقرار بأن القرآن مخلوق ، فهل من الواجب على داعية جديد أن يشتد في القيام (٢) بما لم يقوموا به؟ ولو فرضنا بأن النبي والخلفاء قد آمنوا بما يؤمن به هذا الداعية ، أفما كان الأجدر به أن يحتفظ بهذه العقيدة على أنها مجرد رأى شخصي من آرائه الخاصة ، كما صنع السلف ، بدلاً من أن يرغموا الناس على الاقرار بها مثلما عمد هو نفسه الى ذلك ؟ وقد قال أحد رقة الخليفة المهدي الذي روى هذه القصة ، ان المهدي أحد شهود هذه المناظرة ، رجع عن مذهب خلق القرآن منذ ذلك الوقت ، وأن الواثق أمر باطلاق سراح الشيخ الأذنى في الحال . ويدو أن الواثق نفسه صار لا يؤمن بعد ذلك بتلك العقيدة المتعلقة بالقرآن . وجاء في روايات أخرى أنه غير معتقده في القرآن قبل موته . وان شهادة المهدي حيث تقع في هذا الصدد في المصادر العربية تساق للتدليل على أن الحادث الذي

(٢) محافظة منا على الاصل ، ترجمنا عبارة المؤلف في وصف هذه المناظرة ولم نثبت نصوصها كما جاءت في المصادر العربية مع ان عبارتها ابلغ من أية ترجمة أو وصف : ورغبة في افادة القارئ سنورد فيما يلي مختارات منها نقلاً عن النجوم الزاهرة : قال الشيخ (مستفهماً من أحمد بن دواد) : يا أحمد ، اخبرني عن مقالتك هذه أهى مقالة واجبة داخلية في عقد الدين ، فلا يكون الدين كاملاً حتى يقال فيه ما قلت (فقال أحمد نعم . ثم قال الشيخ : اخبرني عن رسول الله في حين بعثه الله ، هل ستر شيئاً مما أمر به؟ (لم يرد أحمد) فقال الشيخ : يا امير المؤمنين واحدة . فقال الواثق : واحدة . ثم قال الشيخ : اخبرني عن الله تعالى حين قال « اليوم اكملت لكم دينكم » أكان الله هو الصادق في اكمال دينه أم أنت الصادق في نقصانه حتى يقال مقالتك ؟ فسكت ابن ابي دواد . فقال الشيخ : ثنتان . فقال الواثق : نعم . ثم قال الشيخ : اخبرني عن مقالتك هذه ، اعلمها رسول الله (ص) أم جهلها ؟ فقال ابن دواد : علمها . قال الشيخ : قدعا الناس اليها ؟ فسكت . فقال الشيخ : يا امير المؤمنين ثلاث . فقال الواثق : نعم . ثم قال الشيخ : فأتسع لرسول الله (ص) أن علمها أن يمسك منها ولم يطالب امته بها ؟ فقال ابن ابي دواد : نعم . فقال الشيخ : واتسع لابي بكر وعمر وعثمان وعلى ذلك ؟ قال : نعم . وفي رواية أخرى قال الشيخ : ماتقول في القرآن ؟ فقال ابن ابي دواد : مخلوق . فقال الشيخ : شيء علمه رسول الله (ص) ؟ قال ابن ابي دواد : علمه . فقال الشيخ : علمه ولم يدع الناس اليه ؟ قال : نعم . قال : فوسعه ذلك ؟ قال : افلا وسعه ما وسعه ووسع الخلفاء بعده ؟ ... الخ

ذكرناه آنفاً ، كان قد جرى حوالى الفترة الأخيرة من خلافة الواثق (١)

٣٤ - نسخ المتوكل للمحنة

بدأ المتوكل خلافته فى سنة ٢٣٢ هـ ، وظلت المحنة قائمة خلال عامين من حكمه . ثم نسخت فى سنة ٢٣٤ هـ ومن ثم فإن مدتها الكاملة بدأت من السنة الأخيرة من خلافة المأمون ، وهى سنة ٢١٨ هـ ، وانتهت فى السنة الثانية أو الثالثة من خلافة المتوكل سنة ٢٣٤ هـ . وفى السنة الأخيرة ، أوقف المتوكل أخذ الناس بالمحنة . وأصدر إعلاناً عاماً فى كافة أنحاء الدولة ، نهى الناس فيه عن الاقرار بخلق القرآن ، وتهدد من يخوض فى ذلك بالقتل (٢) . فعَمَّ الناس الفرح فى كل مكان ، وأثنتوا على سجايا الخليفة ومآثره ، ونسوا شروره وذنائله . وسمع الدعاء له من كل جانب ، وذكر اسمه مع اسمى خليفتين صالحين هما أبو بكر ، وعمر بن عبد العزيز . ولم يذكر رعاياه المسلمون من مساوئه سوى أمرين ، وكلاهما وقعا فى سنة ٢٣٦ هـ : الأول أنه اذن لجنوده الترك فى سلب مدينة دمشق واستباحتها (بيد أن هذا الحادث لم يقع) . والثانى : هو هدم قبر الحسين ، وهدم ما يحيط به من المباني ، وتحويل الأرض بعد تسويتها الى حقول ومزارع (٣)

(١) يقول شتيز فى كتابه : المعتزلة ، بأن الواثق وصل بالمحنة الى ختلها . ولكنه فى الحق لم يذهب الى مدى أبعد من تغييره لرايه فيما يتعلق بالقرآن والى انتواء نسخ المحنة . وقد حال موته دون اخراج نيته الى حيز التنفيذ

(٢) فيما يتعلق بعقوبة الارتداد أو الزندقة بالقتل ، انظر كتاب دراسات اسلامية بقلم جولدتسيهر ح ٢ ص ٢١٦

(٣) راجع كتاب : الآراء السائدة فى الاسلام بقلم فون كريم ص ٢٤٥ وما بعدها ، وكتاب الاسلام (بالهولندية) بقلم دوزى ص ١٦٢ ، وكتاب وفيات الاعيان لابن خلكان ترجمة رقم ١٢٣ ، والنجوم الزاهرة ح ص ٧٠٢، ٦٦٥، ٦٦١ (٤) طبعة القاهرة ح ٢ ص ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦ وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٥٢ (٥) طبعة منير بالقاهرة ص ٢٣٠ ، وتاريخ البعقوبى ح ٢ ص ٥٩٢ ح ٣ ص ٢٠٩ من طبعة النجف وقد جاء فيها : « ونهى المتوكل الناس عن المناظرة فى القرآن واطلق من كان فى السجون من اهل البلدان ومن اخذ فى خلافة الواثق فخلاهم جميعاً وكساهم جميعاً . وكتب الى الافاق كتباً ينهى عن المناظرة والجدل ، وأمسك الناس . » ولم يذكر البعقوبى شيئاً عن هدم المتوكل لقبر الحسين ، على الرغم من عنايته بتاريخ أئمة الشيعة لانه شيعى

جاء في طبقات الشافعية (١) : « وقد طال أمر هذه الفتنة ، وطال شرها . واستمر من هذه السنة التى هى سنة ثمان عشرة ومائتين ، الى سنة أربع وثلاثين ومائتين . فرفعها المتوكل فى مجلسه ، ونهى عن القول بخلق القرآن . وكتب بذلك الى الآفاق ، وتوفر دعاء الخلق له ، وبالعوافى الثناء عليه ، والتعظيم له ، حتى قال قائلهم : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر الصديق ، يوم الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رده المظالم ، والمتوكل فى احياء السنة . وسكت الناس عن ذنوب المتوكل

وقد كانت العامة تنقم عليه شيئين : أحدهما (٢) أنه ندب لدمشق أفريدون التركى أحد مماليكه ، وصيره واليا عليها وكان ظالما فأتكا . فقدم فى سبعة آلاف فارس ، وأباح لهم المتوكل القتل والنهب ، على ما نقل إلينا ، ثلاث ساعات . فنزل بيت لهنيا ، وأراد أن يصبح البلد ، فلما أصبح ، نظر الى البلد ، وقال : يا يوم يصبحك منى . فقدمت له بغلة ، فضربته بالزوج فقتلته ، وقبره بيت لهنيا . ورد الجيش الذى معه خائبا وبلغ المتوكل ، فصكت نيتته لأهل دمشق . والثانى (٣) أنه أمر بهدم قبر الحسين وهدم ما حوله ، من الدور ، وأن يعمل مزارع ، ونزع الناس من زيارته ، وحرث وبقى صحراء . فتألم المسلمون لذلك . وكتب أهل بغداد شتمه على الحيطان والمساجد »

وقال المقرئ فى المقفى (٤) : « وقال الحافظ أبو الفرج (بن الجوزى) : وكلى المتوكل على الله سنة اثنتين وثلاثين ومائتين . فأظهر الله به السنة وكشف تلك الغمة . فشكره الناس على ما فعل . ثم ذكر بسنده الى محمد ابن خلف ، قال : كان ابراهيم بن محمد التميمى ، قاضى البصرة يقول : الخلفاء ثلاثة : أبو بكر ، قاتل أهل الردة ، حتى استجابوا له ، وعمر

(١) لابن السبكي ورقة ١٤٣ (٢) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦

(٢) النجوم الزاهرة ح ١ ص ٧١٤ (٣) طبعة القاهرة ح ٢ ص ٢٨٦

(٣) الموضوع السابق من النجوم الزاهرة والشذور العربية التاريخية لدى خوى ح ٢ ص ٥٤٦

(٤) ورقة ١٠

ابن عبد العزيز ، رد مظالم بنى أمية ، والمتوكل محم البدر وأظهر
السنة »

٣٥ - عرض عام للمحنة

إذا ألقينا نظرة عامة على المحنة (١) التي افتتح المأمون عهدها ، وسار
على نهجه فيها الخليفان اللذان وليا الخلافة بعده ، يمكننا أن نقول بأن
محاولة يتقصد بها طمس العقائد في نفوس الناس ، قسرا وارغاما ،
مقضى عليها بالفشل والحذلان منذ البداية . فقد كان يوجد في العالم
الإسلامي ، وفي الأقطار الأخرى كذلك ، شعور من الإعجاب والتأييد
الأدبي ، توليه الجمة الغالبة من الناس ، لأولئك الذين يعانون صنوف
الأذى والاضطهاد ، وهى أرزاء وخطوب قد تدفع بأناس ، هم دون مستوى
أحمد بن حنبل في الطهارة والاخلاص الى حد كبير ، الى أن يقوموا في وجه
حملة باغية من القمع والاكراه (٢)

(١) يوجد بيان موجز عن المحنة ونتائجها ، في كتاب الإسلام (بالهولندية) بقلم دوزى ص ١٥٤

وما بعدها

(٢) يبدو أن هوتسما (في كتابه : المنازعات الاعتقادية) بالهولندية) ص ١٠٦ وما بعدها
قد جعل السياسة الدينية الباعث الذى حمل فقهاء أهل السنة على معارضة خصومهم
المعتلين أصحاب العقل والنظر . فقد رأى السنيون انه : اذا أبطل المذهب القائل بأن القرآن
غير مخلوق ، فليس هناك من أمل في نشر الإسلام في كافة أنحاء العالم . ولم أجده لهذا
الباعث المعزى الى أهل السنة سندا في أى مصدر من المصادر التى رجعت اليها . بيد انى
أستطيع مع هذا أن أقرر أن هذا الباعث ثانوى ، وليس الباعث الأساسى الذى
دفع أهل السنة الى معارضة فكرة خلق القرآن) . فالباعث الاول كان شخصا بحتا . فقد
آمن أحمد ومن نهض معه في امر المحنة بعقيدة بسيطة تستعصى على التحليل والتفصيل ،
وهى عقيدتهم في أن القرآن ازلى وانه غير مخلوق . وقد ابتغوا أيضا من نضالهم المثوبة من الله ،
اذا ما لبثوا على عقيدتهم مهما كلفهم ذلك من عناء أو تضحية . كما أنهم خشوا عذاب الآخرة
لو فرطوا في عقيدتهم أو حادوا عنها . فجلالة الذات الإلهية ، ورسالة النبى التى فوضه الله
بإبلاغها ، وما تفرد به القرآن من مكانة رفيعة تجل عن الوصف ، وأخيرا ماسوف تجزى به
أرواحهم وأرواح أولئك الذين اقتدوا بهم من نعيم مقيم في الآخرة - هذه هى البواعث التى
أفصح عنها أهل السنة في تركية مذهبهم ، والدفاع عنه ، والتى أصبحت في بعض الحالات
مبررا للذب عنه حتى الموت . وان العقيدة التى يرى في القرآن انه كلام الله وانه غير مخلوق
كانت أساسا لكافة الحجج التى احتج بها أهل السنة كما كانت مبعثا للأعمال التى صدرت
عنهم في سبيل الدود عنها . وفي الشواهد التاريخية الدالة على هذه المقاومة كان العنصر الشخصى
في العقيدة هو الباعث المحرك لها اكثر مما يرجع الى أية اعتبارات تتعلق بسياسة دينية معينة

ومن الرجال الذين ارتبطوا بالمحنة ، سواء أكانوا من المضطهدين أم من المضطهدين ، يبرز لنا من صفوفهم أحمد بن حنبل ، وقد أحرز لنفسه فيها أكبر الفضل وأعظم الاعتبار ، وقد روى عن بشر بن الحارث الخافي أنه قال فيه : « ان الله أدخله الكبر ، فخرج ذهباً أحمر » . ولم يكن منهج أحمد في المناظرة ، أكثر وهنا واختلالاً من منهج خصومه (١) . فقد أعلن خصوم أحمد ، استناداً الى حجج فلسفية ، أن القرآن مخلوق ، كما أن صفات الله مخلوقة . ولكنهم حين نهضوا بمعارضته ، عملوا على ادائته بالبدعة والضلالة ، مستعينين في اتهمه بطريقته هو ، ومنهجه في الجدل والاستدلال

ويبدو أنه ظهر عليهم في تخريج معاني أغلب العبارات والاستشهادات التي أوردوها . وكانت الحجج التي أدلى بها الفريقان حججاً ضعيفة ، ولكنها لم تكن أكثر تهافتاً وضعفاً في جانبه مما كانت في جانبهم . ومما عزز مركز أحمد ، تلك الحقيقة ، وهي أنه كان عليه أن يندود عن معتقدات راسخة يدين بها ، وأن كثيرين من أولئك الذين ناهضوه ، كان السلطان قد أفرعهم وأرهبهم ، أو صانعهم بالرشا والأموال ، وذلك حتى يقفوا من أحمد موقف الخصومة والعداء . وهذا كله يقتضى منا أن نخصه بالتقدير والاحترام ،

(١) ان بيان هوتسما (في كتابه المنازعات الاعتقادية ص ١٠٦) يوحى بأن أهل السنة في حجاجهم مع خصومهم لم تكن لهم أدلة تستحق الذكر حتى يدلوا بها ، وانهم كانوا عاجزين تماماً عن مناظرة أولئك الذين وقفوا في وجوههم . واذا حكمنا على هذه المناظرات من وجهة النظر الحديثة ، فان الفريقين المتنازعين لم تكن في جانبهما حجج قوية رصينة . ولكن لو حكمنا عليها من وجهة النظر الإسلامية ، فان المجادلات التي أوردناها في هذه الصفحات ، تبين ان من الحجج القوية التي كانت في جانب أهل السنة هي كتاب الله وسنة نبيه . وقد تسنى لهم ان يستخدموا هاتين الحججتين متكافئتين مع خصومهم أو راجحين عليهم . وقد قيل بأن اسحق بن ابراهيم حاكم بغداد ، وعبد الرحمن بن اسحق ، والخليفة المعتصم ، قد تأثروا جميعاً بقوة الحجج التي أدلى بها أحمد بن حنبل ، وبطريقته في عرضها وبسطها . ويقول شتينر (في كتابه : المعتزلة ص ٨) ان المعتزلة استعانوا بآيات القرآن بعد ان عمدوا الى تأويلها تأويلاً مجازياً ، كما انهم اضافوا على حججهم طابعاً فلسفياً . ويتكلم هوتسما (في كتابه : المنازعات الاعتقادية ص ٨٠) عن المعتزلة على انهم على وجه العموم رجال تنقصهم الغيرة والاجتهاد وانهم اكبوا على التشقيقات النافهة في مجادلاتهم . (*) لم ينصف المؤلف المعتزلة بايراد هذه الملاحظات . ويبدو انه لم يوفق مع هوتسما في تقدير الخدمات التي أداها المعتزلة للاسلام وقد أوضحنا ذلك في مقدمة الترجمة ولواحق الكتاب

حين نستعرض اليوم أمام أعيننا هذا المنظر التاريخي بأكمله ، الذى كان فيه أحمد علما من أعلامه (٢٢)

وكان أحمد بن أبى دؤاد رجلا يصعب علينا أن نعهده ممن يؤمن إيمانا صادقا بالمبادئ والمعتقدات . ومن الجائز أن ننسب الى سيده الأول وهو المأمون ، أنه صدر فيما قام به عن اعتقاد بأنه كان على صواب ، وقد ترتب على ذلك أنه رغب فى كسب الناس الى جانبه وحملهم على انتحال آرائه . ولكننا لا نسى الحكم على وزيره ، اذا رأيناه رجلا متأثرا بازرائه على المتشددين ، وحقده الجامح على المتزمتين والدعاة المتحمسين للتقيد بأحكام الدين وفرائضه ، فقد بدت له نزعتهم التطهيرية ، نزعة لا تخرج عن كونها نفاقا « فريسيا » (٢٣) ورياء مموها

ولم تكن سيرته من السوء والتلطيخ بما يصوره به أشياع أحمد بن حنبل . بيد أنى لم أصادف مصدرا من المصادر التى تعرضت لذكر المحنة ، تنعت أحمد بن دؤاد بصفة غير صفة التحكم والاستبداد فى الرأى ، والتبльд وجود الحس نحو دواعي العطف والرأفة ، اللهم الا فى حالة وحيدة ، خاصة

(٢٢) بعد هذا فقرة نبا فيها المؤلف وجانب الحق فحذفناها كما أنه ينسب المأمون الى التنصب والاستبداد وقد نسى الطابع الدينى الذى انتحلته الدولة العباسية حتى تميز نفسها من الدولة الاموية كما اغفل الصلة الروحية التى قامت بين أوائل خلفاء بنى العباس وأعلام الاعتزال . مما حمل المستشرق نيبرج على القول بأن المعتزلة كانوا من العوامل الفعالة فى قيام دولة العباسيين ، انظر مادة معتزلة التى كتبها فى دائرة المعارف الاسلامية . وقد جاهد المعتزلة فى ميادين ثلاثة ١ - بث الدعاة لنشر الاسلام فى اقاصى الارض من الصين الى مراكش ٢ - الدفاع عن العقيدة الاسلامية من هجمات الثنوية والزنادقة والملاحدة والفلاسفة ٣ - محاربة المفايد الاجتماعية بالامر المعروف والنهى عن المنكر ، وتطهير الاسلام من سخافات المحدثين وخرافات العقائد الشعبية . كما أن تشدد المأمون هو تشدد رجل مثقف بثقافة واسعة يصطنع الحلم والاناة مع مخالفيه ، وكان منهم من ينزع الى الخلاف بدافع تصنع الرياسة والاشتهار بين العامة بالدود عن السنة . وكتب المأمون تؤيد إيمانه العميق بصحة الاجراء الذى اتخذه فى المحنة . وقد ادرك هذه الحقيقة كاتب متأخر هو ابن العماد الحنبلى فقال فى كتابه شذرات الذهب ح ٢ ص ٢٩ : « وقام المأمون فى هذه البلعة قيام متعبد بها »

(٢٣) نسبة الى كلمة Pharissee المأخوذة من الكلمة العبرية فاروش وكانت تطلق على فرقة يهودية قديمة كانت تشدد فى اتباع الطقوس والفرائض ، التى امرت بها الشريعة المدونة . وقد تميزوا على سائر اليهود بهذه النزعة . ثم اصبحت تطلق على المنافقين الذين يتمسكون بالاداء الشكلى للشعائر الدينية رياء وتظاهرا بالتدين وكسبا للسمعة

بحاكمة أحمد بن نصر الخزاعي المتآمر على الخلافة الذي قتله الواثق . فقد حدث آنذاك ، كما سبق أن رأينا ، أن أحمد بن أبي دواد ، لما رأى الواثق وقد اشتد غضبه على أحمد بن نصر لاستمساك الأخير بعقيدته واصراره عليها ، دافع عن السجين بأنه شيخ مختل ، لعل به عاهة أو تغير عقل يؤخر أمره ويستتاب

ويلاحظ أن هذه الرواية وردت في طبقات الشافعية لابن السبكي (في ترجمته لأحمد بن حنبل) . وقد أخذ ابن السبكي في أكثر من موضع من كتابه ، يلتمس الأعذار لابن أبي دواد فيما قام به . ولكنه صدر في كل اعتذار له عن رأى شخصي ، أكثر من استناده فيها الى روايات تاريخية يوثق بإسنادها وتؤمن صحتها . وفي المصادر القديمة ، القريبة من عصر المحنة والمتأخرة عنها ، يصور لنا فيها ابن أبي دواد ، رجلا قديرا ، يتحلى بصفات اجتماعية رفيعة ، تصحبها نزعة تعسفية اضطهادية في شئون الحكم والادارة^(١)

(١) لقد تأثر المؤلف في تقدير أحمد بن أبي دواد بالمصادر السنية التي رجع اليها ، وهي مع ذلك أوودت شيئا عن حقيقته لو أنه خص دراستها بشيء من العناية . ففي مخطوطة تاريخ بغداد التي رجع اليها المؤلف ترجمة مستفيضة لأحمد بن أبي دواد كان يمكن ان تصحح فكرة المؤلف عنه . وقد قال المؤلف بأنه لم يصادف مصدرا من المصادر العربية تمنعت ابن أبي دواد بصفة غير صفة التحكم والاستبداد وأنه لم يجد حادثة واحدة تدل على استجابته لداعى العطف والرافة سوى تدخله لانتقاذ أحمد بن نصر الخزاعي من القتل . والى القارىء ما يدحض هذا ، وما يدل على الروح الانسانية العالية عند أحمد بن أبي دواد من تاريخ بغداد للخطيب البغدادي طبعة القاهرة سنة ١٩٢١ م (في ١٤ مجلدا) ح ٤ ص ١٤٤ : ١٤٩ : (قال أحمد بن أبي دواد للمعتصم بصدد حريق وقع في حي الكرخ ببغداد لاستحاث الخليفة على اعانة المنكوبين) : « يا امير المؤمنين رعيتك في بلد آبائك ودار ملكهم نزل بهم هذا الامر فاعطف عليهم بشيء يفرق فيهم ويمسك أرواقهم ويبينون به ما انهدم عليهم ويصلحون به أحوالهم ، فلم يزل بالخليفة حتى اطلق لهم خمسة آلاف الف درهم . » فاستجاب له الخليفة . ومما يدل على ان هذه الروح الانسانية العالية عند أحمد بن دواد كانت مصحوبة بادراك عميق بوقائع الامور انه خشى الا يصل المبلغ الى المنكوبين وان ينهب القائمون بتوزيعه فقال للخليفة : « يا امير المؤمنين ان فرقها عليهم غيرى خفت الا يقسم بالسوية ، فأذن لي في تولى امرها ليكون الاجر والثناء أكثر . » قال : ذلك اليك فتقسمها على مقادير الناس ، واحتاج الى زيادة فازدادها من المعتصم وغرم من ماله في ذلك كثيرا ، فكانت هذه فضائله التي لم يكن لاحد مثلها . وقال البغدادي =

ومع أننا كنا قد ذكرنا أن المأمون رغب في انفاذ المحنة قبل الوقت الذي أنفذها فيه فعلاً ، فإنه يجب ألا يغيب عنا ، أنه كف في الواقع عنها من تلقاء نفسه ، لولا أن أحمد بن أبي دواد هو وحده الذي رجّح كفة الميزان الى الجانب الآخر ، فاستحدث عهداً استبدادياً طويلاً استغرق ستة عشر عاماً ، ولم ينته الا بعد أن تولى المتوكل الخلافة بزمان قصير . ولعلنا نذهب أيضاً الى أنه لولا أحمد بن أبي دواد ، لكانت المحنة قد انقضت عهدها قبل رفع المتوكل لها ، وذلك لقلّة الاهتمام بها والميل اليها ، أو لما يكون قد داخل المعتصم والوائق من شعور النفرة منها والاستئثار لها

وليس لدينا الكثير مما نعلق به على نصيب المعتصم في هذه الحركة . فإنه لم يكن ليلذ له البتة أن يأتي ذلك العمل الحقير ، وهو اضطهاد الناس في معتقداتهم واصطناع الأذى لهم . وقد أثبت لنا في جلاء ، وذلك في حالة أحمد بن حنبل ، أنه لولا تقيده بعهود والتزامات رآها واجبة الوفاء والرعاية

== أيضا بأن أحمد بن أبي داود مرض ذات مرة فنذر المعتصم ان هو برىء ان يتصدق بعشرة آلاف دينار ، فلما تماثل للشفاء وفي الخليفة بنذره فقال له ابن أبي دواد : اجعلها في اهل الحرمين فقد لقوا من غلاء الاسعار عنتا . فقال الخليفة : نويت ان اتصدق بها هاهنا وانا اطلق لاهل الحرمين مثلها . . » وقد قال فيه ابن التديم : « ولم يرف في أبناء جنسه أكرم منه ولا أنبل ولا اسخى » (راجع التراجم التي سقطت من طبعة فلوجل للفهرست لابن التديم ونشرت على حدة) . وكان يخص بالمطاء ذوى الحاجات افرادا وجماعات وكان يستخدم نفوذه في قضاء مصالحهم . واطنّب الشعراء مدح هذه الصفة فيه وعلى الاخص أبو تمام (راجع اخبار أبي تمام للصولي ص ١٤١ وكتاب الاغانى ح ١٥ ص ١٠٠) . وذكر باتون أن ابن أبي دواد لم يكن صاحب مبادئ والمصادر العربية تنكر هذا . فقد كان من كبره استشهاده بآيات القرآن ان قال فيه ابو العيّن : ما ارى ابن أبي دواد الا ان القرآن انما انزل عليه (المقعد الفريد ج ٢ ص ١٠٨) وروى له بيت من الشعر لابی نواس قال فيه

يا احمد المرتجى في كل نائبة قم سيدى نعص جبار السموات

فتفرع منه وجعل يستمطر اللعنات على قائله (الموشح للمرزبانى ص ١٧٠)

ولم يحاب المعتزلة بسبب انه معتزلى . فقد حاد ابن حائط المعتزلى عن عقائد الاعتزال فمات به (الانتصار للخطايط ص ١٤٩) وكان مهيبا وقورا بلغ من وقاره وتدينه انه كان ينكر أمر الطرب على الفناء وما يستفز الناس منه ويغلب على عقولهم (الاغانى ح ٩ ص ٥٢)

ومالا الجاحظ عدوه محمد بن عبد الملك الزيات الوزير الذى كان يقول : الرحمة خور في الطبيعة وملك ابن أبي دواد عقوبة الجاحظ ولكنه عفائه واكرمه . وبطول بنا القول في تعداد مآثر ابن أبي دواد وشرح مناقبه وقد حاولت رايات أهل السنة ان تطمسها وعلى البحث التاريخي أن يعيد الحق الى نصابه

لما مضى في حمل الناس على القول بخلق القرآن

أما نصيب الوراق من المحنة ، فانه قد عاد فيه الى حد كبير نوعاً الى سياسة المأمون . وكان كأسلافه خاضعاً لتأثير أحمد بن أبي دواد . وفيما اورده المصادر من قضايا القوم الذين امتحنهم الوراق في القرآن ، وهى قضايا قليلة جداً من حيث عددها ، ما يكشف عن سمة القسوة في خلق الخليفة بوجه عام ، وعن سمة الوحشية في قضية أحمد بن نصر بوجه خاص (٢) . وانا لا نجد مجال القول متسعاً في صالح أولئك الذين أجابوا في المحنة . فان موافقة السبعة الأول الذين اشخصوا الى الخليفة (واجابتهم الى ما أريد بهم أن يقولوه) كانت عاملاً حاسماً أدى الى المضي في سياسة الاضطهاد . كما انه ليس فيما بدا من الضعف والتردد الأقل نسبياً ، من أولئك الذين أجابوا فيما بعد ، ما يبرر مخاوف هؤلاء الى درجة الاذعان . فان أصدقاءهم ورفقتهم كانوا أسخياء في تطبيق مبدأ التقيّة عليهم . ولاشك أن هذا ، احتفظ لهم بقدر كبير من المكانة والتقدير في نظر الجمهور ، غير أنهم لم يشعروا في قرارة نفوسهم بأن مسلكهم كان مما يحنكدون عليه . وكم برح الأسف والندم بقوم مثل يحيى بن معين ، لأن التهديد بالسيف قد أفرعهم وأرهبهم ، فأنكروا عقيدة كانوا يوقنون بأنها عين الحق والصواب . ولا غرو فان جريرة هذا العصر الجذلى (الذى احتدمت فيه المناظرات والمناقشات) الركون الى منطق الألفاظ ، واتخاذها الى حد كبير ، أساساً تبنى عليه المذاهب الاعتقادية ، والآراء الكلامية ، بدلاً من أن تبنى على الحقائق التى لا يمكن أن تفرق عنها الأحكام الخلقية والعقلية . وقد كان هذا هو الحال في المذهب القائل بأن القرآن غير مخلوق . فالأدلة التى سقت لاثبات عدم خلقه ، كانت محض ألفاظ وكلمات . ولم يتنها لأحد أن يرى في هذه المشكلة ما رأته شخصية فذة كشخصية أحمد بن حنبل التى أدركت الجانب النظرى البحت ، لمسألة أصل القرآن من حيث العلاقات (التى تربطها

(٢) قد حدثنا فيما اوردنا في ص ١١٨ من قصة مقتل احمد بن نصر الخزاعي أشد مواضعها فظاعة وتعديبا

بأركان الاسلام (*) . وقد بدا لأحمد أن صيانة هذه الروابط هي مما عيس كيان الحياة الدينية ذاتها ويتعلق بجوهر العقيدة ، وصار التنازل عما ارتآه أمرا له خطره وجسامته . ولم يكن لدى الفقهاء الآخرين مثل هذا التصور الخطير للمشكلة ، كما كان يراها أحمد . فقد ظنوا أنها لا تعدو أن تكون نقطة من النقاط المتنازع عليها في المجادلات التي كانت تدور حولهم . فالتنازل عنها قد يكون فوزا في المناقشة لحصم من الخصوم . ولكنه يصير عظيم القيمة حين يقدم عليه المرء انقاذا لحياته (من السيف) (*)

وان من أجاب من هؤلاء الفقهاء ، فقد نظروا لعملهم فيما بعد نظرة أكثر نديرا واتزاناً . غير أن المشكلة بدت لهم في الوقت الذي ارتكبوا فيه وزر التنكر لعقيدتهم ، أنها لا تخرج عن مجرد التنازل عن نقطة اعتقادية يسيرة الخطب ، ضئيلة القدر ، ليست من النقاط الجوهرية الضرورية ، فأقروا باذعانهم وأنهم غلبوا على أمرهم ، حتى أن احتجاجهم بالتقية لا يمكن أن نعهده مما ينفي هذا التوضيح لمسلكهم

وذلك على الرغم من أن هذا الاحتجاج قد يوحى لنا بأنهم نظروا لتصرفهم على أنه عمل يوقع المرء في أكبر الكبائر، وهي الارتداد عن الاسلام ، وهي كبيرة تتصل بمبدأ التقية بصفة خاصة . واحتجاجهم هذا لم يكن سوى عذر انتحلوه وتعللوا به بقصد التأثير على عامة الناس ، ولم يكن بطبيعة الحال تفسيرا يوضح لنا كيف تهيأ لهم أن يصنعوا ما صنعوا . وقد عذرهم أحمد ابن حنبل من هذا الوجه . ولكنه بنى عذره لهم على تفكيره في الجريمة بعد اقترافها ، والتماسه الأسباب لاقالتهم من عثرتهم والصنح عنهم

ولكن هذا الاحتجاج لا يقدم لنا شرحاً لحقيقة اجابتهم وأسبابها الخفية كما لا يوضح مبلغ خطورتها . والتقية ذاتها تجعل من المتعذر علينا أن تثبت بأن عملا من الأعمال يعد ارتدادا عن الاسلام ، لأنه كثيرا ما يحتج

مرتكب هذا العمل بأن ردته مقصورة على التفوه بألفاظ الكفر ، بينما قلبه عامر بالآيمان مطمئن للدين الصحيح

وعلى الرغم مما شهد به المؤرخون من قسوة المتوكل وسفكه للدماء ، فإنه لا يمكن القول بأنه عامل أحمد بن حنبل في خشونة وغلظة ، أو أبدى نحوه ضيقاً وتبرماً . وقد كان من الجائز أن يثيره ما اتصف به أحمد بن حنبل من عبوس ومزاج مكتئب ، فيحمله هذا على الاساءة اليه ، لولا أن الخليفة لم يسمح لنفسه أن تستجيب لهذه الاثارة . بل كان بدلاً من ذلك دائم الحذب والعطف على هذا الرجل المسن ، كثير الاهتمام بتوفير وسائل الراحة والرعاية له . ويظهر أن المتوكل لم يكن متعصباً في مسائل الدين تعصب أسلافه ، وذلك اذا لم نعد مناهضته لحركات العلويين ، مناهضة ذات صبغة دينية (١)

وأرى أنه يحق لنا أن نفترض أن ما أبداه المتوكل من عناية واهتمام بمسائل الدين والعقائد ، لم يكن من قبيل التحزب النازع الى العسف والاضطهاد الذي يصدر عن حزب سياسى . ولكنها عناية رجل متدين صادق الايمان ولو أنه تجاوز بإيمانه واخلاصه الى حد التعصب والتطرف (٢) . ولم تكن علاقته بأهل السنة مبنية على باعث من البواعث السياسية لأنه كان خالياً من أية نزعة اضطهادية تدفع به الى اظهار العنف والمصارعة الى الايذاء (٣) . وفى الحق أن المتوكل كان فى مقدوره أن يثنى حركة الاضطهاد التى مضت ، بحركة اضطهاد مضادة ، لولا أن المتوكل رغب فى أن يستغل لصالحه علاقته بأهل السنة

ومن المرجح كثيراً أن موقفه بازاء مسائل العقيدة والدين ، يفسره لنا مزاجه وتغير شعوره الفجائى نحو مسلك أسلافه . حقاً لقد سبق أن أظهر أسلافه

(١) راجع فى موضوع هذه العداوة النجوم الزاهرة - ح ١ ص ٧١٢ (ب) طبعة القاهرة - ح ٢ ص ٢٨٤ وما بعدها .

(٢) توجد وجهة نظر مخالفة لهذه فى كتاب دراسات اسلامية بقلم جولد تسيهر - ح ٢ ص ٥٥٧ وكتاب الاسلام بقلم دوزى ص ١٦٣

(٣) المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ١١٣

من الأدلة القوية ما يثبت أنهم كانوا شخصياً قد ضاقوا بالمحنة واستثقلوها. ولكنهم مع ذلك ظلوا يوفقون بين آرائهم الاعتقادية وآراء الحزب القائم بحركة الاضطهاد ، الذى خضعوا لتأثيره ، وانضوا تحت لوائه . وكان المتوكل فيما يظهر شافعى المذهب (١) . وما من أحد ينكر أن موقفه من المسائل الكلامية ، قد نجم عنه أنه أوجد له أنصاراً وأصدقاء . ولكننا نعتقد مع ذلك أن المتوكل مهما تلطخت صحيفه أعماله بالفظائع والمنكرات ، ومهما تعددت أوجه مؤاخذته على ضيق تفكيره وشدة تعصبه ، فإنه لم يكن له من مقصد سوى اصلاح المساوىء الدينية كما لمسها وشاهدها (٢)

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ٢٥٩ (ج) طبعة منير بالقاهرة ص ٢٣٤

(٢) يكاد يجمع الكتاب الاوربيون على أن هذا الخليفة صدر في أعماله عن أغراض وبواعث سياسية ، وينسبون مثلها للمأمون حين بدأ اضطهاد المحنة - ويمكن أن نسلم بأن المتوكل ادرك أن مواصلة الاضطهاد هى خطة قليلة الجدوى ، مادام السواد الاعظم من رعاياه يميل الى عقائد اهل السنة . (المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ١١٢) - ولكن الحقيقة التى يبدو لنا انها ثابتة تماما هى أن المتوكل كان سنياً في عقيدته ، وهى بالإضافة الى الحقائق الاخرى التى اثرتنا اليها لم يصدر في عمله (في رفع المحنة) عن أى باعث آخر سوى باعث اختياره الشخصى للفكرة الدينية التى كان يميل اليها ، وترتب على هذا التفضيل الشخصى البحث أنه اعترم إعادة العقائد السنية الى سابق عهدها . كما أن معاداته للعلويين هى أكثر ما تكون خصومة صادرة عن رجل يمثل آراء معينة يتعصب لها وينافح عنها ، من أن تكون خطة يبتغى منها صاحبها زيادة التقرب الى السواد الاعظم من رعاياه عن طريق الخطوة التى اتخذها . يدلنا على هذا حالة الشعور العام للمسلمين حين هدم المتوكل قبر الحسين

أحمد بن حنبل والمتوكل

أحمد بن حنبل والمتوكل

- ١ - المتوكل وأحمد بن حنبل ٢ - الدعوة الأولى
- لزيارة المتوكل ، والحادثة مع اسحق بن إبراهيم في
- موضوع القرآن ٣ - اتهام أحمد بالدسائس العلوية
- ٤ - الدعوة الثانية من المتوكل ٥ - امتناع أحمد
- عن البقاء في الصكر وكفه عن التحديث ٦ - اهتمام
- المتوكل بأحمد ٧ - زيادة أحمد للقصر ٨ - مطالبة
- أحمد بتغيير موضع إقامته ٩ - مأساة أحمد من
- مظاهر الترف التي أحيط بها ١٠ - صيام أحمد
- ومرضه ١١ - سؤال أحمد عن رأيه في أحمد بن
- أبي دواد ١٢ - اقتراح شراء دار لأحمد بن حنبل
- ١٣ - حمل أحمد مرة أخرى على ملازمة الخليفة .
- ١٤ - اغفاء أحمد ١٥ - مراسلة أحمد لابنائه .
- ١٦ - وصية أحمد ١٧ - الاذن له بالعودة الى
- بغداد ١٨ - اعتراضه على الارزاق التي كانت
- تتناولها أسرته من السلطان ١٩ - اتهام أحمد مرة
- أخرى بالدسائس العلوية ٢٠ - استفسار الخليفة
- من أحمد عن رأيه في القرآن ٢١ - كتاب أحمد في
- رده على الاستفسار ٢٢ - زيارة يحيى بن خاقان
- لأحمد ٢٣ - دعوة لأحمد من محمد بن عبد الله
- ابن طاهر ٢٤ - مرض أحمد وموته ٢٥ - جنازة
- أحمد ٢٦ - المترجمون لأحمد بن حنبل

١ - المتوكل وأحمد بن حنبل

عمل دعاة السوء في السنين الأولى من خلافة المتوكل على إيذاء أحمد والايقاع بينه وبين الخليفة . وقد جاء على الأخص في إحدى هذه السعايات أن أحمد اتهم أسلاف الخليفة بالزندقة والاحاد . وهي رواية يبدو أن الخليفة لم يحلها محل الاعتبار بصفة جدية ، لأنه قيل عنه انه أمر بالرجل الذي سعى بالوقعة أن يضرب بالسياط ، لأنه حاول أن يؤذى رجلا من رعايا الخليفة الصالحين

٢ - الدعوة الاولى لزيارة المتوكل ، والمحادثة مع اسحاق بن ابراهيم في موضوع القرآن (*)

وصلت من الخليفة قبل نهاية سنة ٢٣٥ هـ ، دعوة الى أحمد ، يدعوه فيها لزيارته ، وكان رسوله اليه اسحق بن ابراهيم (٢٢٠) ، الذي سأل أحمد في هذه المناسبة ، أن يصفح عنه ، للدور الذي قام به ، في ضربه في خلافة المعتصم . وقد أكد له أحمد ، عندما أجاب سؤاله ، أنه قد أحل كل من سعى في ايدائه أو شارك فيه بطريقة من الطرق ابان تلك المحنة . ثم مضى اسحق يسأل أحمد عن القرآن ، اشباعا لرغبته الخاصة (في تجليه حقيقة هذا الموضوع) ، فرد أحمد بما كان يرد به دائما ، وهو أن القرآن كلام الله غير مخلوق . فاستوضحه اسحق الأدلة على صحة هذه الدعوى . فتلا أحمد الآية : « **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (١)** »

وأشار الى ما جاء بها من التفرقة بين الخلق والأمر . فالأمر في هذه المجادلات ، يشير الى كلام الله الأزلي السماوى ، كما هو الحال مع كلمة :

(*) العنوان ليس موجودا في الاصل كما هو الحال في سائر فصول الكتاب التى اكتفى المؤلف بترقيمها . وقد صدرنا كل فصل بجملته العناوين الجانبية التى وضعها المؤلف لل فقرات كما قمنا بترقيمها

(٢٢٠) مات كل من اسحق بن ابراهيم حاكم العراق ، واسحق بن ابراهيم الموصلى الذى كان مقربا للخلفاء في سنة واحدة وهى ٢٢٥ هـ . واسحق بن ابراهيم المشار اليه فى المتن هو بطبيعة الحال الاول اى حاكم العراق . قال فيه صاحب الشذرات ج ٢ ص ٨٤ : هو الامير اسحق بن ابراهيم بن مصعب الخزاعى ، ابن عم طاهر بن الحسين ، ولى بغداد اكثر من عشرين سنة . وكان يسمى صاحب الجسر . وكان صارما سياسيا حازما وهو الذى كان يطلب العلماء ويمتنعهم بأمر المأمون . « وقد ألف فيه أبو بكر محمد بن يحيى الصولى كتابا اسمه أخبار اسحق ابن ابراهيم ، انظر مقدمة ادب الكتاب للصولى طبع السلفية سنة ١٢٤١ هـ ص ١٤ -

(١) سورة الاعراف رقم ٧ آية ٥٤

(*) رد على هذا القاضى المعتزلى عبد الجبار بن أحمد ، المتوفى سنة ٤١٥ هـ فى كتابه : تنزيه القرآن عن المطلق ، طبع القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ ص ١٣٥ فقال : وربما سأل الحشوي (الى الذين يزعمون انهم من اهل السنة) عن قوله تعالى : **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ** . ان ذلك يدل على ان امر الله تعالى فى القرآن ليس بخلق ولا مخلوق . وجوابنا ان المراد انه له الخلق والأمر من نفس الخلق . فهو الذى يبقيه او يغييه ويتصرف فيه كيف يشاء . فلا يدل افراده بالذكر على صحة ما قالوه ، من انه لم يدخل الامر تحته . كقوله تعالى : **« ان الله يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ »** والاحسان من العدل . وذلك كثير فى الكلام »

« كُنْ » التى سبق ذكرها (١٠). فقال اسحق : « الأمر مخلوق ». فصاح أحمد : « ماذا تقول ؟ الأمر مخلوق ؟ كلا انه يخلق المخلوق ». ثم استفسر اسحق عن راوى الحديث القائل بأنه غير مخلوق . فرد أحمد بأنه جعفر ابن محمد الذى قال بأنه ليس بخالق ولا مخلوق (١١). ثم بعد الانتهاء من هذه المحادثة ، ظفر اسحق بموافقة أحمد على الذهاب الى العسكر . ولم يمض وقت طويل حتى كان فى طريقه الى هنالك . غير أنه لسبب غير مفهوم ، صدرت اليه الأوامر وهو فى طريقه الى الخليفة بأن يعود الى داره . ويترجّع كثيرا أن اشتباه الخليفة بأن أحمد له ميول علوية ، يزودنا بما يفسر هذه الاعادة . وسيوضح لنا فيما يلى أن أحمد اتهم بمثل هذه الميول مرتين أو ثلاث مرات

٣ - اتهم أحمد بالدسائس العلوية

وصل الى الخليفة فى سنة ٢٣٧ هـ ، خبر اتهم فيه أحمد بأنه أرسل واحدا من أصحابه ، ليوافي علويا كان قادما من خراسان . فلما سمع الخليفة بذلك ، كتب كتابا الى عبد الله بن اسحق ، حاكم بغداد (وهو الذى خلف أخاه محمدا وأباه اسحق بن ابراهيم فى هذا المنصب) ، يسأله أن يحقق مع أحمد فى صحة هذه التهمة التى ألصقت به ، كما أمره بتفتيش داره ، والكشف عن حقيقة هذا الموضوع . وانفاذا لهذه الأوامر ، أرسل عبد الله بن اسحق ، حاجبه مظهر . وصاحب البريد ابن الكلبي (١) ، كما أرسل معهما نساء ثد بن لفحص غرف النساء ، وقد أمروا جميعا باتخاذ التعليمات التى أبلغوها . فلما وافوا دار أحمد ، وقرأوا عليه كتاب الخليفة ، أنكر ما عثرى اليه وعد الخبر باطلا لا أساس له . وأعلن طاعته للخليفة وأنه يعد نفسه من

(*) انظر هامشه (٢) ص ١٦٧

(**) يبدو ان هذا ليس حديثا صحيحا فحسب ولكنه أوضح مساقه أهل السنة من حديث،

واظهر ما احتجوا به من دليل لتعزيز رأيهم

(١) انظر كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ، ٧١ ، فى استخدام اصحاب البريد

للقيام بهذا النوع من اعمال التجسس

كل الوجوه واحدا من رعاياه المخلصين الموالين (١) . كما أن تفتيش الدار لم يسفر عن شيء يثبت عليه التهمة

وقد أبلغت نتيجة التحقيق للخليفة . وبعد يوم أو يومين جاء كتاب من على بن الجهم (٢) الى أحمد يقول فيه ان الخليفة شعر بتمام الارتياح عندما أدرك بطلان هذه التهمة ، وأن أهل البدع لفقوها ودسوها عليه قصد ايدائه . كما أفصح كتاب على بن الجهم عن رغبة الخليفة في أن يزوره أحمد ، وأشار الى أن في الطريق رسولا يحمل اليه صلة مالية من الخليفة

جاء في حلية الأولياء (٣) : « ذكر ورود كتاب المتوكل بمحنته أولا ، ثم بجائزته له واشخاصه الى العسكر ثانياً ، رحمه الله . حدثنا محمد بن جعفر ، والحسين بن محمد ، وعلى بن أحمد ، قالوا : حدثنا محمد بن اسماعيل بن أحمد ، حدثنا أبو الفضل صالح بن أحمد بن حنبل ، قال : لما توفي اسحق ابن ابراهيم ، ومحمد ابنه ، ووكل عبد الله بن اسحق ، كتب المتوكل اليه أن وجهه الى أحمد بن حنبل أن عندك طلبه أمير المؤمنين . فوجهه بحاجبه مظفر ، وحضر معه صاحب البريد ، وكان يعرف بابن الكلبي . وكتب له أيضاً . فقال له مظفر : يقول لك الأمير : قد كتب الي أمير المؤمنين أن عندك طلبته . وقال له ابن الكلبي مثل ذلك . وكان قد نام الناس ، فدفع الباب ، وكان على أبي رحمه الله ازار . ففتح لهم الباب . وقعدوا على باريئة ، ومعهم

(١) كان أحمد قد لزم داره الى ذلك الوقت ، تنفيذاً لامر اسحق بن ابراهيم ، حاكم بغداد السابق . وفي لزوم الفقهاء دورهم ، انظر : كتاب دراسات اسلامية بقلم جولدتسهر ح ٢ ص ٩٤ ، وانظر كتاب : المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٢٦ وما بعدها ، وذلك في نظام شبیه بهذا يسمى بنظام القعدة : وانظر النجوم الزاهرة ح ١ ص ٧٣٠ (*) طبعة القاهرة ح ٢ ص ٣٠٠ وتاريخ ابى الغداء ح ٢ ص ١٩٥

(٢) نفى على بن الجهم الى خراسان وقتل هناك بأمر من الخليفة المتوكل في سنة ٢٣٩ هـ ، انظر وفيات الاعيان لابن خلكان ، ترجمة رقم ٤٧٣ (*) طبعة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م رقم ٤٢٥ ح ٣ ص ٣٩ وما بعدها

(٣) لابى نعيم ورقة ١٥٠ ب وما بعدها (*) طبعة القاهرة ح ٩ ص ٢٠٦ وما بعدها وأنا نتابع الآن هذا المصدر ، فيما عدل استثنائات قليلة نشر اليها في مواضعها

نساء (٢٠). فلما قرئ عليه الكتاب ، قال لهم أبى : ما أعرف هذا ، وانى لأرى طاعته فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره والأثرة ، وانى أتأسف على تخلفى عن الصلاة وعن حضور الجماعة (٢١) ودعوة المسلمين . وقد كان اسحق بن ابراهيم وجّه الى أبى أن ألزم بيتك ، ولا تخرج الى جمعة ولا جماعة ، والا نزل بك ما نزل فى أيام أبى اسحق . ثم قال ابن الكلبى : قد أمرنى أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته فتحلف

فقال : ان استحلقتنى حلفت* . فأخلفه بالله وبالطلاق ما عندك طلبه أمير المؤمنين . فكأنهم أشاروا الى أن عنده علوية . ثم قال : أريد أن أفكش منزلك . قال أبو الفضل : وكنت* حاضرا . فقال : ومنزل ابنك . فقام مظفر وابن الكلبى ، وامرأتان معهما ، فدخلوا ففتشوا البيت . ثم فتشت الامرأتان النساء والصبيان . قال أبو الفضل : ثم دخلوا منزلى ، ففتشوه ، ودثوا شمعة فى البئر ، فنظروا ووجّهوا بالنسوة ، ففتشوا الحرم وخرجوا

فلما كان بعد يومين ورد كتاب على بن الجهم ، أن أمير المؤمنين قد صح عنده براءتك مما قرفت به . وقد كان أهل البدع قدموا أعناقهم ، فالحمد لله الذى لم يشمتهم بك . وقد وجّه اليك أمير المؤمنين ، يعقوب المعروف بقوصرة ، ومعه جائزة ، ويأمرك بالخروج . فالحمد لله أن تستغنى أو ترد الجائزة »

٤ - الدعوة الثانية من التوكل

وفى اليوم التالى لوصول الكتاب ، جاء يعقوب قوصرة رسول الخليفة ، يحمل معه فى صورة رسمية ، الدعوة التى أشرنا إليها ، وقدم له مبلغ عشرة

(٢٠) انى استدلت من وجود نساء مع رجال الشرطة عند تفتيش دار احمد بن حنبل على انه كان يوجد فى الدولة العباسية ما يقرب من نظام البوليس النسائى فى الوقت الحاضر
(٢١) كان يعتبر تخلف اعلام المسلمين عن حضور صلاة الجماعة دليلا على انكارهم شرعية الحكومة القائمة وانبيعة الخليفة غير صحيحة وان الصلاة خلف رجال الحكومة تعد تبعا لذلك صلاة باطلة

آلاف درهم كجائزة ملكية . ثم انصرف يعقوب قائلاً لأحمد : انه سيعود في صباح اليوم التالي ، ليعرف رده على هذه الدعوة التي أرسل لابلاغها . وفي تلك الليلة أرق أحمد ، لأن جائزة المتوكل التي وكل بها أحمد ولده صالح ، قد أقلقته الى درجة بالغة ، وأقضت مضجعه

وأخيراً عزم على أن يتخلص من هذا المال كلفة . فنهض في السحر ، ودعا أشخاصاً أمرهم بأخذ أجزاء منه لتفريقها بين سلالة المهاجرين والأنصار ، وبين الفقراء عموماً ، حتى ينفذ عن آخره المبلغ الذي تسلمه . وقد أحزنه كثيراً أن يرى نفسه آنذاك وهو في أواخر حياته ، مضطراً لأن يكون صنيعته تلقى الهوان بما تنال من صلات الخليفة ومعونته ، بعد أن أفلح وقتاً طويلاً في أن يأبى قبول أى شيء من هذا القبيل . وقد سعى بكل ما أوتى من قوة في تجنب هذه العلاقة التي نجح ، بعد حادث هذه الجائزة ، في أن يتحرر منها تحرراً تاماً الى أخريات أيامه . وحين بلغ الخليفة ماصنعه أحمد ، هداً على بن الجهم من غضب سيده ، بأن أوضح له أن رجلاً كأحمد لا حاجة به الى المال ، لأن قوته لا يتجاوز رغيفاً

وبعد وقت قصير ، كان أحمد في طريقه الى الخليفة . ولم يذكر لنا عن هذه الرحلة شيء ذو أهمية خاصة ، سوى أنه أفاد من الرخصة الشرعية التي تبيح تقصير الصلاة في السفر . وقد أول ذلك بأنه عمل مندوب ، وليس مباحاً فحسب ، عندما شكاً ذات مرة ، إبان الرحلة ، من أن ولده صالحاً قد أطل كثيراً في الصلاة . ولما وصل العسكر ، أنزل أولاً في دار « إيتاخ » (١) . وأرسل الخليفة الى أبنائه بأنه أمر لهم بعشرة آلاف درهم ،

(١) وإيتاخ كان قائداً تركيا من رجال الدولة العباسية وكان في أول نشأته غلاماً طباشيراً لسلام الإبرشي واشتراه المعتصم في سنة ١٩٩ هـ ، ورقاه بفضل شجاعته الى أرفع المراتب وفي عهد المتوكل كان اليه الجيش والاموال والبريد والجبابة . وكان القتل والحبس في يده في عهد كل من المعتصم والوائق والمتوكل . ثم دس اليه المتوكل الى أن قتله في سنة ٢٢٥ هـ . راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ طبعة منير بالقاهرة سنة ١٣٥٧ هـ . وفي شذرات الذهب ج ٢ ص ٨٠ : الأمير إيتاخ التركي مقدم الجيوش وكبير الدولة . خافه المتوكل وعمل عليه بكل حيلة حتى قبض عليه نائبه على بغداد اسحق بن ابراهيم وأميت عطشاً وأخذ له المتوكل من الذهب ألف ألف دينار -

خصصت لهم بدلا من المبلغ السابق الذى فرقه أبوهم ، وفى نفس الوقت أمرُوا بصفة خاصة ألا يعلمُوا أباهم بشئ عن هذا الموضوع

ثم بعث المتوكل آنذاك بتحيته الى أحمد ، وتهنئته اياه على نجاته من محاولات أعدائه فى سبيل غمسه فى الشبهات والمؤامرات . واذا جاز لنا أن نصدق ما جاء فى هذه الرواية ، ويحتمل أن نميل الى جانب التصديق ، فإن المتوكل عبّر أيضا عن سروره لحضور أحمد ، لأنه رغب فى أن يستشيريه فى مسألة أحمد بن أبى دواد الذى سقطت منزلته وشيكا وصار مغضوبا عليه . وسرعان ما أفصح الخليفة لأحمد عن رغبته فى أن يبقى معه لكى يلقي دروسا فى الحديث ، وألا يفكر فى العودة الى بغداد . وقد طلب اليه الخليفة بصفة خاصة أن يقوم على تعليم ولده المعتز ، أحب أولاده لديه (١)

قال أبو نعيم (٢) : « قال أبو الفضل : ثم ورد من الغد يعقوب ، فدخل الى أبى ، فقال له : يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ، ويقول : قد صَحَّ نقاء ساحتك ، وقد أحبيت أن آنس بقربك وأتبرك بدعائك ، وقد وجهت اليك عشرة آلاف درهم معونة على سفرك . وأخرج بدرة فيها شرة نحو من مائتى دينار ، والباقي دراهم صحاح . فلم ينظر اليها . ثم شدها يعقوب وقال له : أعود غدا حتى أنظر على ما تعزم عليه . وقال له : يا أبا عبد الله ، الحمد لله الذى لم يثُثِمَت بك أهل البدع ، وانصرف »

« فجئت باجانة خضراء ، كبيتها على البدر . فلما كان عند المغرب ، قال : يا صالح ، خذ هذه ، صيرها عندك فصيرتها عند رأسى ، فوق البيت . فلما كان سحر ، اذ هو ينادى : يا صالح . فقامت وصعدت اليه .

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٥٧ (*) طبعة من القاهرة س ٢٣١

(٢) حلية الاولياء ورقة ١٥٠ ب (*) ج ٩ ص ٢٠٦ وما بعدها ، وقد وضع المؤلف هذه الاستشهادات من أبى نعيم فى ثمانى صفحات متواصلة ولكننا رأينا توزيعها بما يتفق مع موضوعات البنود التى كتبها المؤلف

فقال : يا صالح ، ما نمت ليلتي هذه . فقلت له : لمِ ؟ فجعل يبكي وهو يقول : سلمت من هؤلاء ، حتى اذا كان في آخر عمري ، بليت بهم . قد عزمت على أن أفرق هذا الشيء ، اذا أصبحت . فقلت : ذاك اليك . فلما أصبح ، جاءه الحسن بن البزار ، والمشايخ ، فقال : جنني يا صالح بالميزان . فقال : وجّهوا الى أبناء المهاجرين والأنصار . ثم قال : وجّه لي فلان . فلم يزل حتى فرقها كلّها ، ونقض الكيس ، ونحن في حالة الله بها عليهم . فجاء بئى له فقال : يا أبته اعطني درهما ، فنظر الّى . فأخرجت قطعة أعطيته

» وكتب صاحب البريد أنه تصدق بالدرهم من يومه ، حتى تصدق بالكيس . قال على بن الجهم ، فقلت : يا أمير المؤمنين قد تصدق بها ، وعلم الناس أنه قد قبل منك . ما يصنع أحمد بالمال ؟ وانما قوته رغيف . قال : فقال لي : صدقت يا على . قال أبو الفضل : ثم أخرج أبي ليلا ، ومعنا حراس ، معهم التفّاطات . فلما أضاء الفجر ، قال : يا صالح ، معك دراهم ؟ قلت : نعم . قال : اعطهم . فأعطيتهم درهما درهما ..

» قال أبو الفضل : وقصر أبي في خروجه الى العسكر ، وقال : تنقصر الصلاة في أربعة برد ، وهي ستة عشر فرسخا . وصليت به يوما العصر ، فقال لي : طولت بنا العصر ، تقرأ في الركعة مقدار خمس عشرة آية . وكنت أصلي به في العسكر . فلما صرنا بين الحائطين قال لنا يعقوب : أقيموا . ثم وجّه الى المتوكل بما عمل ، فدخلنا العسكر ، وأبى منكس الرأس ، ورأسه مغطى . فقال له يعقوب : اكشف رأسك يا أبا عبد الله . فكشف . ثم جاء وصيف يريد الدار . فلما نظر الى الناس وجمعهم قال : ما هؤلاء ؟ قالوا : أحمد بن حنبل . فوجّه اليه بعد ما جاز بيحيى بن هرثة ، فقال : يقرئك (أى الخليفة) السلام ، ويقول الحمد لله الذى لم يشنم بك أهل البدع . قد علمت ما كان حال ابن أبى دواد ، فينبغى أن نتكلم بما يجب لله ، ومضى يحيى

« قال أبو الفضل : أتزل أبى دار ايتاخ . فجاء على بن الجهم ، فقال : قد أمر لكم أمير المؤمنين ، بعشرة آلاف مكان التى فرقها أبوكم ، وأمركم ألا تعلم بذلك ، فيغتم . ثم جاءه محمد بن معاوية ، فقال : ان أمير المؤمنين يكثر ذكرك ويقول : تقيم ها هنا تحدث . فقال : أنا ضعيف . ثم وضع اصبعه على بعض أسنانه ، فقال : ان بعض أسناني يتحرك ، وما أخبرت بذلك ولدى »

هـ - امتناع أحمد عن البقاء في المسكر وكفه عن التحدث

وقد حاول أحمد أن يعتذر عن تلبية كافة هذه الرغبات ، بسبب عجزه وسقمه ، كما أشار الى تخلخل أسنانه وغير ذلك من امارات الضعف والشيخوخة . وقد أفصح أحمد عن اعتقاده في هذه الدعوة وما يصحبها من كرم وحفاوة ، اذ عدها كلها مراحل لمؤامرة يقصد بها تقييده والحجر عليه . فيغدو سجيناً ، بينا هو في نفس الوقت ضيف على الخليفة . وقد نذر نذراً أنه لن يحدث بحديث كامل طول حياته ، ويقول البعض : ان هذا النذر استغرق السنوات الثمانية الأخيرة من حياته ..

غير أنه اذا كان قد زار الخليفة في سنة ٢٣٧ هـ وأخذ على نفسه هذا النذر ، ليتخلص من حال الاعتقال التى كان فيها ، فان مدة تقيده بنذره تزيد قليلا على أربع سنوات . ومن الجائز أن يكون قد نذر نذره ، حين طلب منه الواثق مبارحة بغداد ، لأننا نعلم أنه كف عن القاء دروس في الحديث ، ابان الشهور الأخيرة من خلافة الواثق (١) . وفي الواقع لا يزال لدينا في هذه الفترة أكثر من ثمانى سنوات . وعلى العموم فانه يبدو من المستصوب أن نحدد تاريخ انقطاعه النهائي عن تعليم الحديث ، ابتداء من وقت زيارته هذه الى المتوكل ، وكان ، كما نعلم حقا ، رجلا يرح به ضعفه الجثمانى وأثقلته الشيخوخة

٦ - اهتمام المتوكل بأحمد

ويبدو أنه كان قد مضى بعض الوقت قبل أن يدعى أحمد الى القصر ، ولكن في غضون ذلك أظهر الخليفة اهتماما بأحمد ينم عن العطف والمودة ، وكشف عن تقديره لعلومه وفقهه ، حين طرح عليه مسائل ، أراد أن يقف على رأيه فيها وحلته لها . ومنها المسألة التالية : اذا فرضنا أن بهيمنتين تقاتلا بالانتطاح بقرونيهما ، حتى عقرت احدهما الأخرى ، ثم ذبحت البهيمة المعقورة ، أيجوز تناول لحمها ؟ فأجاز أحمد ذلك اذا أظهرت البهيمة قبل ذبحها شيئا من علائم الحياة ، كأن أطرفت بعينها أو حركت ذنبها ، واذا كان دمها لا يزال سائلا ولم يتخثر بعد (٢)

٧ - زيارة أحمد للقصر

وأخيرا أمر أحمد بأن يكون في حضرة المعتز ، ولد الخليفة . وقد آلمه مجيء يحيى بن خاقان اليه ، ليهيئ له ملابس المقابلة الخاصة بالبلاط وليعاین تجربة ارتدائه لها . وقد ألح عليه في أن يسمح بوضعها على جسده ، ولكنه اعتزم ألا يفعل . وأفضى يحيى في هذه المناسبة ، لأبناء أحمد ، بأن الخليفة قد أمر بأن يجري عليهم أربعة آلاف درهم في الشهر ، وأمرهم ألا يتعلموا أباهم بذلك . وعندما وصل أحمد القصر ، قوبل بحفاوة ، على الرغم من أنه لا توجد في مصادرنا سوى إشارة مجملة شديدة الاقتضاب لشهود هذا اللقاء في مجلس الخليفة عند مقدم أحمد ..

وبعد عودته الى مسكنه من هذه الزيارة الأولى لراعيه الجديد ، ندم على ما ظن أنه اجترحه من اثم ، لأنه ارتدى ثيابا فاخرة كان قد أجبر على ارتدائها . فخلعها وأزاحها عن نفسه في الحال ، وأمر ولده صالح بأن يبعث بها الى بغداد ، حيث تباع ويصدق بثمنها على الفقراء . وحظر على

(٢) نصها في رواية أبي نعیم في الحلیة : « ثم وجه اليه (ای الخليفة المتوكل لاحمد بن حنبل) : ما تقول في بهيمنتين انتطحتا ، فعقرت احدهما الاخرى فسقطت فذبح (ای ذبحت) ؟ فقال : ان كان أطرف بعينه وقطع بذنبه وسال دمه ، يؤكل »

أفراد أسرته أن يحتفظوا بشيء من هذه الثياب ، قصد استعمالها . غير أن صالح احتفظ مع ذلك بالقلنسوة . وفي هذا الوقت زال عن أحمد هدوء نفسه وصفاء خاطره ، وقد أزعجه كثيرا ، علاوة على ذلك ، تفكيره في زيارته المقبلة للخليفة نفسه ، وفي المهمة التي كلف بأدائها ، وهي تعليمه لولده ، لأنه يبدو أن المتوكل لم يضع موضع الاعتبار في مبدأ الأمر ، النذر الذي أخذ أحمد نفسه به ، وهو ألا يلقى حديثا من الأحاديث بتمامه

وليس من المحتمل أنه لقي المتوكل حقيقة . فليس لدينا ما يثبت على الأقل أنه مثل أمامه ، كما أنه يعوزنا أى دليل يدل على أنه كتف فعلا بتعليم ولد الخليفة . إذ لم يتجاوز سن المعتز ، عند وصول أحمد سُر من رأى ، ست سنوات ، إذ كان قد بلغ هذه السن (١)

٨ - مطالبة أحمد بتغيير موضع إقامته

وكانت الشكوى التالية لأحمد هي حين علم أن الدار التي أسكن فيها كانت ملكا لايتاخ (٢) . فلما سمع بهذا ، طلب أن تكتب رقعة لمحمد بن الجراح ، يسأله أن يستغنى له من الخليفة من أن يلتزم الإقامة بها . فأجابه الخليفة الى طلبه . ثم أمر بالبحث له عن دار أخرى ، فوجه الى قوم ليخرجوا من المنزل الذي كانوا يشغلونه ، ولكن أحمد لم يرغب في هذا الاجراء فعدل عنه . وأخيرا اكثرت له دار ملائمة بمائتي درهم

٩ - ما ساء أحمد من مظاهر الترف التي أحيط بها

وقد ساء أحمد هنا الترف الذي تجلى في أثاث هذه الدار ورياشها .

(١) ولد المعتز بن المتوكل في سنة ٢٣٢ هـ ، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٤ (٤) طبعة القاهرة

سنة ١٩٣٠ م ج ٢ ص ٢٨٠)

(٢) قتل ابتاخ التركي في سنة ٢٣٤ هـ ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٠٢ (٤) طبعة القاهرة ج ٢ ص ٢٧٦ ، وقد أوردنا ترجمة موجزة له في حاشية سابقة نقلا عن ابن الاثير ، وشدراوات الذهب ، وفي تاريخ الطبرى طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م ج ٧ ص ٣٥٠ وما بعدها بيان مفصل عنه في حوادث سنتي ٢٣٤ هـ ، ٢٤٥ هـ . وفي ابن الاثير ج ٥ ص ٢٨٢ طبعة منير انه كان غلاما حوريا ، وصحته غلاما خزريا أى من الخزر وهم جنس من الترك . وهو تصحيف

فترك الغرف التي أثثت تأثيثاً فاخراً ، وقنع باستخدام مَضْرِبَةٍ متواضعة كان قد أحضرها معه . كما ضايقه كثيراً ما كان يرسل إليه من مائدة حافلة بألوان الطعام . وهذه حادثة يمكن أن نسلم بوقوعها ، إذا علمنا أن صاحب الدار قدم لصالح بن أحمد مبلغ ثلاثة آلاف من الدراهم كل شهر للانفاق على هذه الموائد . فلم يقبل صالح . أما أولئك الأفراد من أسرة أحمد الذين رغبوا في استبقاء هذه الموائد فقد اضطروا لأن يطلبوا اجراءها عليهم ونصبها لهم في دهليز الدار ، حتى لا يراها أحمد

قال أبو ثَعْيَمٍ : « قال أبو الفضل : ثم صار إليه يحيى بن خاقان ، فقال : يا أبا عبد الله ، قد أمرنى أمير المؤمنين أن أصير اليك لتركب الى أبى عبد الله المعتز . ثم قال لى : قد أمرنى أن أقطع له سوادا وطيلسانا وقلنسوة . فأى قلنسوة يلبس ؟ فقلت له : ما رأيته لبس قلنسوة قط . فقال له : ان أمير المؤمنين قد أمرنى أن تصير لك مرتبة فى أعلا المراتب ، ويصير أبو عبد الله (أى المعتز) فى حِجْرِكَ . ثم قال لى : ان أمير المؤمنين قد أمر أن يُجْرَى عليكم وعلى قراباتكم أربعة آلاف درهم . ففرقها عليهم

ثم عاد يحيى من الغد ، فقال : يا أبا عبد الله تركب ؟ . فقال : ذاك اليكم . فقال : أستخر الله . فلبس ازاره وخَفِيَّه ، وقد كان خَفِيَّه قد أتى له عنده نحو من خمسة عشر سنة ، مرقوع برقاع عدة . فأشار يحيى إلى ، يلبس قلنسوة . فقلت له : ماله قلنسوة . قال : كيف يدخل عليه حاسرا ؟ ويحيى قائم . فطلبنا له دابة يركبها . فقال يحيى : تَصَلَّى ؟ . فجلس على التراب وقال : « منها خَلَقْنَاكُمْ وفيها نُعِيدُكُمْ (١) »

ثم ركب بغل بعض التجار ، فمضينا معه ، حتى أدخل دار المعتز ، فأجلس فى بيت الدهليز . ثم جاء يحيى ، فأخذ بيده حتى أدخله ورفع الستر ، ونحن ننظر ، وكان المعتز قاعدا على دكان فى الدار . وقد كان

يحيى تقدم اليه فقال : لا تمد يدك اليه . فلما صعد الدكان جلس . فقال له يحيى : يا أبا عبد الله ، ان أمير المؤمنين جاء بك لئيسر بقربك ، ويصير أبو عبد الله (أى المعتز) فى حِجْرِكَ ..

« وقد كانوا حدثوا أنه يخلع عليه سوادا ثم انصرف ، فلما صار الى الدار ، نزع الثياب عنه ، ثم جعل ييكى . ثم قال : قد سلمت من هؤلاء منذ ستين سنة ، حتى اذا كان فى آخر عمرى ، بليت بهم . ما أحسبني سلمت من دخولى على هذا الغلام ، فكيف بمن يجب على نصحه من وقت أن تقع عينى عليه ، الى أن أخرج من عنده . ثم قال : يا صالح ، وجه بهذه الثياب الى بغداد ، تباع ويتصدق بثمنها ، ولا يشتري أحد منكم شيئا . قال أبو الفضل : فوجهت بها الى يعقوب بن البختمان ، فباعها وفرق ثمنها ، وبقيت عندى القلنسوة . ثم أخبرناه ان الدار التى هو فيها كانت لايتاخ

فقال : اكتب رقعة الى محمد بن الجراح ، ليستغنى لى من هذه الدار ، فكتبنا رقعة ، فأمر المتوكل أن يعفى منها . ووجه الى قوم ليخرجوا من منازلهم . فسأل أن يعفى من ذلك . فاكثرت له دار بمائتى درهم ، فصار اليها . وأجرى لنا مائدة وثلج وضرب الخيش وفرش الطبرى . فلما رأى الخيش الطبرى ، نحى نفسه عن ذلك الموضع وألقى نفسه على مضربة له ..

« وجعل يتواصل ، يفطر كل ثلاث على ثمن سويق . فمكث خمس عشرة يفطر فى كل ثلاث . ثم جعل بعد ذلك يفطر ليلة ليلة ، لايفطر الا على رغيف . فكان اذا جىء بالمائدة توضع فى الدهليز ، لكى لايراها . فياكل من حضر . فكان اذا جهده الحر ، تبكل له خرقة ، فيضعها على صدره » وقطع له يحيى دراعة وطيلسانا سوادا ... وكان ربما صار اليه يحيى وهو يصلى ، فيجلس فى الدهليز حتى يفرغ ، ويحيى على بن الجهم فينزع سيفه وقلنسوته ويدخل عليه »

١٠ - صيام أحمد ومرضه

وكان أحمد يصوم أغلب الأيام ، ولا يفطر الا على قليل من السَّويق والخبز ، حتى ثَقُلَ مريضاً في آخر الأمر ، وجرى له بالطبيب الشهير ابن ماسويه ليعالجه . وقد فحص ابن ماسويه أحمد ، فأكد له أن ما يشكو منه ليس في الحقيقة مرضاً ، ولكنه لا يخرج عن ضعف وانحلال في الجسم ، نشأ عن قلة التغذية ، ووصف له زيت السمسم . فقال : انه كمسيحي اعتاد أن يصفه للزهاد من ملته اذا بلغ بهم الضعف مبلغه . ويبدو أن أحمد في هذا الوقت كان قد نال من المتوكل وحاشيته كل رعاية واهتمام ، ولو انه لا يدهشنا أن نجده أحياناً يأبى ماخص به من كرم وعطف

جاء في الحلية (١) : « وفي كل يوم يوجّه (الخليفة) اليه بابن ماسويه ، فينظر اليه ، ويقول : يا أبا عبد الله ، انما أميل اليك والى أصحابك ، وما بك من علة الا الضعف وقلة الزاد ... فقال له ابن ماسويه (٢) : انا ربما أمرنا عبّادنا بأكل دهن الحل ، فانه يُلين . وجعل يجيئه بالشيء ليشربه ، فيصبه »

١١ - سؤال أحمد عن رأيه في أحمد بن أبي دواد

وقد بذلت عدة محاولات لأن ينتزع من أحمد رأيه في أحمد بن أبي دواد،

(١) لابی نعیم فی الموضع السابق

(٢) هو يوحنا بن ماسويه النصراني السرياني ، قال أبو الفرج بن العبري في كتابه : تاريخ مختصر الدول ، تحقيق الادب صالحاني ، بيروت سنة ١٨٩٠ م انه من أطباء الرشيد وقد ولاه ترجمة الكتب الطبية القديمة . وخدم الرشيد ومن بعده الى أيام المتوكل ، وكان معظماً ببغداد جليل القدر وله تصانيف جميلة . وكان يعقد مجلساً للنظر ويجرى فيه من كل نوع من العلوم القديمة بأحسن عبارة . وكان يدرس ويجتمع اليه تلاميذ كثيرون ، ص ٢٢٧ ، كما ورد ذكره في صفحات أخرى . وانظر أيضاً كتاب طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة ج ١ ص ١٧٥ ، واخبار الحكماء للقفطي ص ٢٤٨ . هذا وقد تعلم الطب على يد جبرائيل بن بختيشوع ببغداد ، وتوفي سنة ٢٤٣ هـ

الذى ناله فيما مضى بالأذى والاضطهاد ، والذى سقطت منزلته لدى الخليفة فى ذلك الوقت وأصبح مغضوبا عليه . ولكنه لم يَبْد رأيا فى الرجل ولا فى ضياعه وأمواله وماحدث بشأنها (من مصادرة واستصفاء) ، كما أنه لم يظهر ميلا الى سماع شائعات من تقولات الناس فى خصمه القديم وما كان قد اتخذ ضده (١)

١٢ - اقتراح شراء دار لآحمد بن حنبل

ثم اقترح المتوكل ، بعد انقضاء مدة أن تشتري دار لآحمد بن حنبل ولكن آحمد أبى ، فى اصرار ، أن يوافق على هذا الاقتراح . وأمر ولده صالحا ألا يشترك فى تنفيذ مشروع كهذا . وفى النهاية استبعدت هذه الفكرة قال أبو نعيم : (قال آحمد) وأمر المتوكل أن تشتري لنا دار . فقلت يا صالح . قال : لبئيك . قلت : لئن أقررت لهم بشراء ذلك لتكونن القطيعة بينى وبينكم ، انما يريدون أن يصيروا هذا البلد لى مأوى ومسكنا . فلم يزل يدفع شراء الدار حتى اندفع »

١٣ - حمل آحمد مرة أخرى على ملازمة الخليفة

وبدأ الخليفة فى ذلك الوقت يحث آحمد على أن يجالسه ويلازمه . اذ كان فى نيته أن يبارح آحمد بغداد (ويقيم فى سامراء) . وقد اتفق على تحديد اليوم الذى كان عليه فيه أن يبدأ الرحيل فعلا . ومع ذلك فان آحمد لم يكتف أحدا مبلغ ما يشعر به من الضيق الشديد والكراهية من حمله على هذا اللقاء . كما ناشده عمه اسحق بن حنبل ، أن يذهب الى الخليفة ، وأن يبذل له خالص النصيحة والتوجيه الصالح . واستشهد بما

(١) انظر النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧١٩ (*) طبعة القاهرة ج ٢ ص ٢٠٢

صنعه اسحق بن راهويه (٢) مع ابن طاهر (١) (وقد كان عملا جزيلا
الفائدة لاسحق) . فرد أحمد بأنه لا يرضى مسلك ابن راهويه ، ولا يقبل
الخطأ التي اتتهجها ، وأنه يعتقد أن القرب من أصحاب السلطان
ومجالستهم مفسدة للدين ومحقق للضمير ، وأنه يشعر حتى مع ابتعاده عنهم
بأنه لم يسلم منهم

١٤ - اعفاء أحمد

وقد ورد بعد كل هذا ، رسالة من الخليفة ، يعفيه مما كان عليه أن
يقوم به ، وهو المثول بين يديه أو بين أيدي ولاية عهوده ، كما أعفاه من
لبس السواد ، والزى الواجب ارتداؤه في بلاط الخليفة . وأباح له أن
يلبس أردية القطن أو الصوف حسبما يشاء . ويظهر أنه أحله في الواقع
من أداء أى عمل ، مما يفرضه عليه رجال السلطان ، ويكون مما يكرهه
جاء في الحلية : «.. وصار الى صاحب المنزل ، فقال : أعطيك كل شهر
ثلاثة آلاف (درهم) مكان المائدة . فقلت : لا أفعل . وجعلت رسل
المتوكل تأتيه ، يسألونه عن خبره ، فيصيرون اليه ، ويقولون : هو
ضعيف . وفي خلال ذلك يقولون : يا أبا عبد الله لا بد له من أن يراك .
فسكت . فاذا خرجوا قال : ألا تعجب من قولهم لا بد له من أن يراك ؟
وما علمتهم أنه لا بد له من أن يراني ؟

(٢) هو أبو يعقوب اسحق بن ابراهيم بن مغلد الحنظلي الروزي ثم النيسابوري توفي
سنة ٢٣٨ هـ . وعلى الرغم مما جاء في الحلية وطبقات الشافعي لابن السبكي من انتقاد
أحمد بن حنبل له ، لاتصاله بالامير عبد الله بن طاهر الا ان كتب الطبقات الاخرى اوردت
ثناء مستفيضاً من احمد لاسحق بن راهويه ففي تذكرة الحفاظ للذهبي ج ٢ ص ٢٠ ان احمد
قال : لا أعلم لاسحق بالعراق نظيراً ، واسحق لم يلق مثله . وفي شذرات الذهب ج ٢ ص
٨٩ ان احمد قال : ما عبر الجسر (أى جسر بغداد) مثل اسحق . ولم يناقش المؤلف
تناقض هذه المصادر

(١) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين الخراساني الذي كان قائداً في عهد الخليفة المأمون
توفي في خلافة الواثق سنة ٢٣٠ هـ وكان اليه الحرب والشرطة والسواد وخراسان والري
وطبرستان وكرمان . وكان من ادب الناس وأعلمهم بأيام العرب راجع الطبري ج ٧ ص ٢٣٢
وشذرات الذهب ج ٢ ص ٢٢ ، ٣١ ، ٦٨

« وكان في هذه (الدار) حجرة صغيرة ، وفيها بيتان . فقال لى : ادخلونى تلك الحجرة ، ولا تسرجوا لى سراجا . فأدخلناه اليها . فجاءه يعقوب ، فقال : يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين ، مشتاق اليك ويقول : انظر اليوم الذى تصير التى فيه ، أى يوم هو ، حتى أعرفه . فقال : ذاك اليكم . فقال : يوم الأربعاء يوم خال . وخرج يعقوب ، فلما كان من الغد ، جاء فقال : البشرى يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول : قد أعفيتك من لبس السواد والركوب التى ، والى ولاية اليهود ، والى الدار ، فان شئت فلبس القطن ، وان شئت فلبس الصوف . فجعل يحمد الله على ذلك »

« قال (أحمد) : انى أعطى الله عهدا ، « ان العهد كان مسئولا (١) » . وقد قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود (٢) » . انى لا أحدث حديثا تماما أبدا ، حتى ألتقى الله ، ولا أستثنى منكم أحدا . فخرجنا ، وجاء على بن الجهم ، فقلنا له . قال : « اتا الله واتا اليه راجعون » (٣) وأخبر المتوكل بذلك »

وقال (أحمد) انما يريدون أن أحدث ، فيكون هذا البلد حبسى ، وانما كان سبب الذين أقاموا بهذا البلد ، لما أعطوا وأمروا فحدثوا »

« وكانوا يدخلون عليه ، فيتكلمون وهو مغمض العين ، يتعلل . وضعف ضعفا شديدا . فقالوا يخبرونه . فيتوجع لذلك وجعل يقول : والله لقد تمنيت الموت فى الأمر الذى كان ، وانى لأتحنى الموت فى هذا وذاك ، ان هذا فتنة الدنيا ، وكان ذاك فتنة الدين . ثم جعل يضم أصابع يده ، ويقول : لو كانت نفسى فى يدي لأرسلتها ، ثم يفتح أصابعه . وكان المتوكل يتوجه اليه فى كل وقت يسأله عن حاله . وكان

(١) سورة الاسراء رقم ١٧ آية ٢٤

(٢) سورة المائدة رقم ٥ آية ١

(٣) سورة البقرة آية ١٥٦

في خلال ذلك يؤمر لنا بالمال ، فيقول : يوصل اليهم ولا يعلم شيخهم ، فيغتم ما يريد منهم ، ان كان هؤلاء يريدون الدنيا فما يمنعهم ؟ وقالوا للمتوكل : انه كان لا يأكل من طعامك ، ولا يجلس على فراشك ، ويحرم الذي تشرب . فقال لهم : لو نشر المعتصم لم أقبل منه

« قال أبو الفضل : ثم انى انحدرت الى بغداد ، وخلفت عبد الله عنده ، فاذا عبد الله قد قدم ، وجاء بشيبي التي كانت عنده . فقلت : ماجاء بك ؟ قال : قال لى (أبى) : انحدر وقل لصالح : لا تخرج ، فأنتم كنتم آفتى ، والله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، ما أخرجت واحدا منكم معى ، لولا مكانكم ، لمن كان توضع هذه المائدة ، ولئن كان يفرش هذا الفرش ويجرى الاجراء ؟ »

وقال المقرئ في كتابه المقتضى (١) : « قال المروزي : سمعت اسحق بن حنبل ، عم أحمد ، ونحن بالعسكر ، يناشده ويسأله الدخول على الخليفة ليأمره وينهاه ، وقال : انه يقبل كلامك ، هذا اسحق بن راهويه ، يدخل على ابن طاهر ، فيأمره وينهاه ، فقال له أبو عبد الله : تحتج على اسحق وأنا غير راض بفعله ، ماله في رؤيتي خير ، ولا لى في رؤيته خير ، يجب على اذا رأيته أن آمره وأنهاه ، الدنو منهم فتنة والجلوس معهم فتنة ، نحن متباعدون منهم ، ما أرانا نسلم ، فكيف لو قربنا منهم ؟ »

وقد تبكّدت أخيرا مخاوف أحمد من أن يجعله رجال الخليفة واحدا من الأشخاص الملحقين بالقصر . ولذلك فان باله قد هدا وخاطره قد اطمأن من هذه الناحية . ويبدو أن شعوره نحو أقرانه من المحدثين الذين أقاموا مع رجال الحاشية ، كان شعورا ينطوى على التقريع لهم والزرابة بهم ، لأن هؤلاء المحدثين كانوا يخشون أن يصنعوا شيئا يؤدي الى حرمانهم من الأرزاق التى أجراها الخليفة عليهم ، وقد يجز عليهم فعلهم ما هو

أسوأ عاقبة من ذلك . وقد ظفر أحمد بمقصوده ، وهو ضمان اغفائه من الحضور مع رجال الحاشية . لا عن طريق الرفض المباشر لأوامر الخليفة ، ولكن بالمثابرة على بسط المعاذير له ، وإظهار الكراهية لما ينتظر من أحمد أن يفعله ، وابداء التبرم والاستياء من الترتيبات العامة التي كان المتوكل يَمر بعملها له . فكان أحمد يقف في طريق رغبات الخلافة دون أن ينكرها

١٥ - مراسلة أحمد لابنائه

وفي ذلك الوقت عاد ولدا أحمد ، صالح وعبد الله ، الى بغداد . وبعد انصرافهما ، أزيل الرياش الفاخر الذي أثّنت به الدار ، وانقطعت المائدة التي رتب الخليفة ارسالها لأهل الدار كل يوم . وأرسل أحمد لولده صالح عن طريق ولده الآخر عبد الله الذي بقى مع أبيه مدة قصيرة ، بعد رحيل أخيه صالح الى بغداد ، ينبؤ أنه لا يريد منه ولا من أخيه ، أن يقوموا على رعاية أمره ، بأي حال بعد ذلك ، لأنه عزا أغلب ما ساءه من التجارب الأليمة التي عاناها ، الى عدم تأييدهما له في الموقف الذي اتخذته ، والى نقص رعايتهما النفعالية لمبادئه . وأن رضاهما باستضافة الخليفة لهما ، فيما لو عادا ، سوف يجر له الفضيحة وسوء الذكر عند الناس ، كما أنه عد قبولهما لصلات الخليفة وأرزاقه ، بما يناقض رغبته المعروفة وشعوره بالواجب ، عقوقا منهما له ، وتفريطا فيما تستوجه له طاعة البنوة ، وأن لهما أن يذهبا حيث شاءا ، فسيتبعهما دعاؤهما لهما ، ولكنه رغب اليهما في ألا يثقلا عليه بحضورهما . وقد كان هذا مضمون كتابيه الأولين لولده صالح ، بيد أنه أخذ على ولديه في كتاب ثالث ، تقاعدهما عن السعي لاطلاقه مما عده حبا ثقيلا منكرا . ثم نصحهما أن يلتزما داريهما ، وعبر عن رجائه في أن الله (سبحانه وتعالى) سيهيء له طريق الفرج ويمنحه الهداية والسداد

« جاء في الخلية : قال أبو الفضل : فكتبت اليه أعلمه ما قال لي

عبد الله ، فكتب التي بخطه : بسم الله الرحمن الرحيم ، أحسن الله عاقبتك ، ودفع عنك كل مكروه ومحدور ، الذي حملني على الكتاب اليك ، والذي قلت لعبد الله ، لا يأتيني أحد منكم ، رجاء أن ينقطع ذكرى ويخمل ، فإنكم اذا كنتم ها هنا ، فشا ذكرى . وكان يجتمع اليك قوم ينقلون أخبارنا ، ولم يكن الا خيرا . واعلم يا بني أنك ان أقمت فلا تأتيني أنت ولا أخوك ، فهو رضائي ، فلا تجعل في نفسك الا خيرا ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

« قال أبو الفضل : ثم ورد التي كتاب آخر بخطه يذكر فيه : بسم الله الرحمن الرحيم : أحسن الله عاقبتك ودفع عنك السوء برحمته ، كتابي اليك ، وأنا في نِعَمِ الله متظاهرة ، وأسأله اتمامها ، والعون على أداء شكرها ، قد انفكت عنا عتقد ، انما كان حبس من هاهنا ، لما أعطوا ، فقبلوا ، وأجرى عليهم فصاروا في الحد الذي صاروا اليه ، وحدثوا ودخلوا عليهم ، فهذه كانت قيودهم ، فمسأل الله أن يعيدنا من شرهم ويخلصنا . فقد كان ينبغي لكم ، لو قد فديتموني بأموالكم وأهليكم ، لهان ذلك عليكم للذي أنا فيه ، فلا يكبر عليكم ما أكتب به اليكم . فالزموا بيوتكم ، فلعل الله أن يخلصني . والسلام عليكم ورحمة الله »

« ثم ورد غير كتاب التي بخطه ، بنحو من هذا ، فلما خرجنا من العسكر ، رفعت المائدة والفرش وكل ما أقيم لنا »

١٦ - وصية أحمد (*)

ولما كان أحمد بالعسكر ، كتب وصيته ، وفيما يلي نصها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به أحمد بن حنبل ، أوصى أنه يشهد ألا اله الا الله ، وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون (١) » .

(*) أورد المؤلف النص العربي لوصية أحمد نقلا عن حلية الاولياء لابي نعيم ، ثم ترجمها وقد أثبتنا الأصل

(١) سورة التوبة رقم ٩ آية ٣٣ ، وكذلك سورة الصف رقم ٦١ آية ٩

وأوصى من أطاعه من أهله وقرابته ، أن يعبدوا الله في العابدين ، ويحمدوه في الحامدين ، وأن ينصحوا لجماعة المسلمين ، وأوصى أنى قد رضيت بالله رباً ، وبالاسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ، وأوصى أن لعبد الله بن محمد ، المعروف ببوران ، على نحو من خمسين ديناراً ، وهو مُصَدَّق فيما قال ، فيَقْضَى ماله على ، من غلّة الدار ان شاء الله . فاذا استوفى ، أعطى ولد صالح وعبد الله ، ابنا أحمد بن حنبل ، كل ذكر وأثنى عشرة دراهم ، بعد وفاء مال أبى محمد . شهد أبو يوسف وصالح وعبد الله ابنا أحمد بن محمد بن حنبل «

١٧ - الإذن له بالعودة الى بغداد

ولم يمض وقت طويل حتى التمس أحمد مرة أخرى تغيير موضع إقامته . وقد لبى الخليفة رجاءه في كثير من العطف والرعاية . ولم يَتَّح له فحسب السكنى في دار أخرى ، بل أرسل إليه ألف دينار ليفرقها على الفقراء والمساكين . كما أذن له في نفس الوقت في العودة الى داره ، وأمر بأن تتعد له حُرَاقَة (*) لتعود به الى بغداد . غير أن أحمد رفض هذه المنّة الأخيرة ، مفضلاً السفر براً لا نهراً ، لأن صحته تتعرض للخطر بسبب البرودة في رحلة النهر . ولما رحل لداره ، أمر المتوكل بكتابة كتاب الى محمد بن عبد الله حاكم بغداد ، يأمره فيه بالترفق به والحذب عليه ، وأن يتخذ نحوه كل رعاية واهتمام

« قال أبو الفضل (١) : ثم سأل أبى رحمه الله أن يَحُول من الدار التي اكثرت له . فأكرى هو داراً ، وتحول اليها . فسأل المتوكل عنه . فقيل : انه عليل . فقال : كنت أحب أن يكون في قربى ، فقد أذنت له ، يا عبّيد الله ، احمل اليه ألف دينار ، يَقسِمها . وقال لسعيد : تهياً

(*) في الاصل : pleasure harge أى سغينة للنزهة وهى ترجمة المؤلف لكلمة :

حُرَاقَة ، نقلاً عن المصدر الذى رجع اليه وهو كتاب الحلية لابى نعيم

(١) الحلية لابى نعيم ورقة ١٥٢ ١ (*) طبعة القاهرة ج ٩ ص ٢١٣ واني الآن أتابع هذا

المصدر لفترة من الوقت ، فيما أبسط من البيان

له حَرَاقة ينحدر فيها . فجاءه على بن الجهم في جوف الليل ، فأخبره . ثم جاء عُبَيْدُ الله ، ومعه ألف دينار ، فقال : ان أمير المؤمنين قد أذن لك ، وقد أمر لك بهذه الألف دينار ، فقال : قد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره . فردها وقال : أنا رقيق على البرد ، والظَّهْرُ أرفق بي ، فكتب له جواز . فكتب الى محمد بن عبد الله في بره وتعاذه «

١٨ - اعتراضه على الأرزاق التي تتناولها أسرته من السلطان

ومنذ عودة أحمد الى بغداد ، أصبح الباقي من قصة سيرته لا يتجاوز سوى القليل من أخبار الخلافات بينه وبين أسرته ، وعلى الأخص بينه وبين ولديه : صالح وعبد الله ، وكذلك بينه وبين عمه اسحق بن حنبل ، وكانت هذه الخلافات تدور على الأرزاق والهدايا التي كان الخليفة ينفحهم بها من وقت لآخر . فكان يعمد الى سد الأبواب بينه وبين دور ولديه ، اذا ما أفصحوا عن عزمهم على قبول هذه العطايا التي كانوا بحاجة اليها لاعالة أسرهم

وكانوا يخالفون رأيه مخالفة شديدة حين يذهب الى أن موقفهم مماثل لموقفه ، وأن ما يصلح له يصلح لهم . وقد ينقطع عن ولديه مدة شهرين أو ثلاثة . ولا يتصلان به ، فيما يبدو ، الا حين يذهب أبناؤهما خلال لعبهم الى دار جدهم ، فيثيرون فيه شعور العطف والرحمة ، أو حين يقوم صديقه الوفي بثوران (عبد الله بن محمد) بالوساطة للتوفيق بين الفريقين وفي الحق ان عمه اسحق بن حنبل لم يقم نحو أحمد بالدور الذي كان يليق به أن يؤديه . فقد تظاهر بالمودة الخالصة والرعاية التامة لرغبات ابن أخيه من حيث وجوب الكف عن تناول المال من الخليفة ، بينما كان في نفس الوقت يأخذه مع الباقيين . ولما كشف أحمد عن هذا النفاق والمواربة ، غضب غضبا شديدا . ولم تجتد نفعا محاولة اسحق في الاعتذار والتصل بدعوى أنه كان يأخذ هذا المال لكي يتصدق به ، لأنه كان يعلم كما علم أحمد ، أنه لم يتصدق بشيء . ثم كف أحمد عن الصلاة في المسجد الذي كان

يصلى فيه ولداه وعمته . فكان يؤدي الفرائض في مسجد آخر يبعد عن الحى الذى كان يعيش فيه

قال أبو نعيم (١) : « فقَدِم (أحمد) علينا فيما بين الظهر والعصر . فلما انحدر الى بغداد ، ومكث قليلا ، قال لى : يا صالح . قلت : لبئيك . قال : أحب أن تدع هذا الرزق ، فلا تأخذه ، ولا تؤكل فيه أحدا ، فقد علمت أنكم إنما تأخذونه بسببى . فسكت . فقال : مالك ؟ فقلت : أكره أن أعطيك شيئا بلسانى ، وأخالف الى غيره ، فأكون قد كذبتك وناقشتك ، وليس فى القوم أكثر عيالا منى ولا أعذر ، وقد كنت أشكو اليك ، فتقول : أمرك مَنَعَقِدَ بأمرى ، ولعل الله أن يحل عنى هذه العقدة . ثم قلت له : وقد كنت تدعو لى ، فأرجو أن يكون الله استجاب لك . قال : ولا تفعل . قلت : لا . فقال : قم ، فعل الله بك وفعل . فأمر بسد الباب بينى وبينه ، فتلقانى عبد الله ، فسألنى فأخبرته ، فقال : ما أقول أنا ؟ قلت : ذاك اليك . فقال له مثل ما قال لى . فقال : لا أفعل . فكان منه اليه نحو ما كان منه لى . فلقينا عمته فقال : لو أردتم أن تقولوا له ، وما علمه اذا أخذتم شيئا ؟ فدخل عليه فقال : يا أبا عبد الله لست آخذ شيئا من هذا . فقال : الحمد لله . وهَجَرْنَا وسد الأبواب بيننا وبينه وتحامى منزلنا أن يدخل منه الى منزله شىء

« قال أبو الفضل : فلما مضى نحو شهرين ، كتب لنا بشىء ، فجئى به الينا ، فأول من جاء عمته ، فأخذ ، فأخبر ، فجاء الى الباب الذى كان سده بينى وبينه . وقد فتح الصبيان كوة . فقال : ادعوا لى صالحا ، فجاء الرسول ، وقلت له : قل له لست أجيب . فوجّه لى : لِمَ قلت لا تجيب ؟ فقلت : قل له : هذا الرزق ترتقه جماعة كثيرة ، وإنما أنا واحد منهم ، وليس فيهم أعذر منى ، واذا كان توبيخ ، خصصت

(١) لقد بسط أبو نعيم فى اسهاب ، المنازعات التى وقعت بين احمد وافراد أسرته بشأن الصلات والارزاق التى اجراها الخليفة عليهم . ولكن الباقي من قصتها ليست له أهمية خاصة ولا يختلف اختلافا يسيرا عن هذا الاقتباس الذى أوردناه .

به أنا . فلما نادى عمته بالأذان ، خرج . فلما خرج ، قيل لى : انه قد خرج الى المسجد . فجئت حتى صرت فى موضع أسمع فيه كلامه . فلما فرغ من الصلاة ، التفت الى عمه ، ثم قال له : فافقتنى وكذبتنى ، وكان غيرك أعذر منك ، زعمت أنك لاتأخذ من هذا شيئا ، ثم أخذته ، وأنت تستغل مائتى درهم ، وعمدت الى طريق المسلمين تستغله ، انما أشفق عليك أن تطوق يوم القيامة سبع أرضين ، أخذت هذا الشيء بغير حقه . فقال : قد تصدقت . فقال : تصدقت بنصف درهم ؟ ثم هجره وترك الصلاة فى المسجد ، وخرج الى مسجد خارج يصلى فيه »

وقد أجمع أفراد أسرة أحمد على أن يكفوا عن تناول صلات الخليفة مرة أو مرتين ، وذلك حين أضجرتهم معارضة أحمد وأنهكتهم . غير أنهم بعد أن كفوا مدة من الزمن عن هذه الصلات ، وجدوا أن الحاجات الضرورية لأسرهم قد أرهقتهم وحملتهم على اطراح التجميل وانكار الذات ، فعادوا للمطالبة بأرزاقهم . وأخيرا اضطر أحمد الى أن ينتهى به الأمر الى الكتابة الى يحيى بن خاقان ، ليخبره بأنه اعتزم المطالبة بإيقاف تلك الصلات المنتظمة التى توهب لأسرته . غير أن صالحا كان قد سبق أباه ، فأنبأ العامل الذى كان يشرف على هذا القسم من بغداد ، الذى كانت تقطنه أسرة أحمد ، برغبته فى مواصلة اجراء الأرزاق ، فأفلح بذلك فى أن يجعل كتاب أبيه عديم الأثر ، لايحقق الغاية التى كتب من أجلها . ولذا ظلت المساعدة المالية مبذولة . بل لم يقتصر الأمر على هذا ، اذ دفع لأبنائه مبلغ أربعين ألف درهم ، وهو جملة الأرزاق المتأخرة المستحقة لأسرة أحمد لمدة عشرة أشهر ، التى لم تكن الأسرة قد سحبتها . وقد أخبر صالح أباه بأمر هذا المال ، مع أن الخليفة أمر عماله ألا يعلنوا أحمد به . بيد أن الشيخ حين سمع بهذه الرسالة ، لاذ بالصمت والتفكير برهة ، ثم صاح قائلا : « ماحيلتى اذا أردت أمرا وأراد الله أمرا ؟ »

جاء فى الحلية (١) : « قال أبو الفضل : ثم كتب أبى رحمه الله الى يحيى

ابن خاقان ، يسأله ويعزم عليه ألا يعيننا على شيء من أرزاقنا ، ولا يتكلم فيها . فبلغني . فوجهت الى القيم لنا وهو : أبو غالب بن بنت معاوية ابن عمرو ، وقد كنت قلت له : يا أبتِ انه يكبر عليك ، وقد عزمت اذا حدث أمر ، أخبرتك به . فلما وصل رسوله بالكتاب الى يحيى ، أخذه صاحب الخبر . فأخذ نُسخته . ووصلت الى المتوكل . فقال لعبيد الله : كم من شهر لولد أحمد بن حنبل ؟ فقال : عشرة أشهر . قال : يُحمل اليهم الساعة أربعون ألف درهم من بيت المال ، صِباح ، ولا يُعلم هو بها . قال : فقال يحيى للقيّم : أنا أكتب الى صالح وأعلمه . فورد على كتابه . فوجهت الى أبي ، أعلمه . فقال الذي أخبره : انه سكت قليلا وضرب بذقنه ساعة ثم رفع رأسه ، فقال : ما حيلتي اذا .. الخ »

١٩ - اتهام أحمد مرة أخرى بالدسائس العلوية

بعد عودة أحمد الى بغداد (ولا نعلم متى عاد) رفع أحد الوشاة ، للمتوكل تلك السعاية القديمة وهي أن أحمد كان يأوى أحد العلويين فأنبأ الخليفة أحمد بهذا الخبر ، وأعلمه أنه حبس الساعى به الى أن يكشف أحمد عن حقيقة هذه الدعوى ، ويشير بما يصنعه الخليفة مع الرجل . فأجاب أحمد بأنه يجهل المسألة كلها ، ونصح بوجوب اطلاق سراح الرجل ، وأن قتله قد يجر المصائب على كثيرين ممن لم يشاركوا في جرمه

« قال أبو الفضل (١) : وجاء رسول المتوكل الى أبي يقول : لو سلم أحد من الناس ، سلمت . رفع رجل الى في وقت كذا ، أن علويًا قدّم من خراسان ، وأنت وجهت اليه بمن يلقاه . وقد حبست الرجل ، وأردت ضربته ، وكرهت أن تغتم ، فمّر فيه . فقال : هذا باطل ويخلى سبيله »

وقد روى رجل يدعى أبو جعفر بن ذريح العكنبرى أنه قصد أحمد

(١) الموضع السابق

في سنة ٢٣٦ هـ ، ليسأله في مسألة من مسائل الدين (ويظهر أن هناك خطأ في تحديد هذه السنة ، لأن الظروف تدل على أن ذلك كان وقت اتهام أحمد للمرة الثانية بأنه استضاف علويا وآواه . وقد حدث هذا الاتهام بعد عودة أحمد من زيارته للعسكر في سنة ٢٣٧ هـ) ، غير أنه قيل للعكبري عند دار أحمد انه خرج للصلاة ، بعيدا عن هذا الحى من المدينة . ولذا فإن أبا جعفر جلس على باب الدرب انتظارا لعودة أحمد ، وفي هذه اللحظة جاء شيخ طويل أسمر ، خضب شعر رأسه ولحيته ، فصحه الزائر داخل الدرب . وفي نهاية الدرب ، فتح هذا الشيخ وهو أحمد بن حنبل ، الباب ، ودخل ، ثم أغلقه بعد أن أمر رفيقه بالانصراف . وفي تلك الفترة ، لمح الزائر عند الباب مسجدا ، وكان الناس يصلون فيه ، ويؤمهم شيخ مخضوب الشعر . ولما فرغ هذا الامام من صلاته ، سأل أبو جعفر العكبري أحد المصلين ، عن أحمد بن حنبل ، وعن سبب امتناعه عن الرد عليه . فأجاب بأن أحمد قد اتهم بأنه استضاف علويا ، وأن رئيس الشرطة قد عمد بناء على هذا ، على بث رجاله للاحاطة بدار أحمد . ثم مضى بعد ذلك في تفتيشها فتجافى أحمد لهذا السبب الكلام مع الناس . غير أن الشرطة لم تجد مع ذلك شيئا يؤيد التهمة التي رمى بها أحمد . فسأل أبو جعفر حينئذ عمن كان يؤم المصلين في المسجد ، فلما أجيب بأنه اسحق بن حنبل عم أحمد ، استفسر عما منع أحمد بن حنبل من الصلاة خلف عمه في هذا المسجد القريب من داره . فرد ذلك الذي سئل بأن أحمد لا يصلى مع عمه ولا يصلى حتى مع ولديه . كما أنه لا يكلم أحدا منهم لأنهم قبلوا صلات الخليفة وعطاياه

قال أبو ثَعِينَم (١) : « حدثنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن مالك ، حدثنا أبو جعفر بن ذريح العكبري ، قال : طلبت أحمد بن حنبل في سنة ست وثلاثين لأسأله عن مسألة . فسألت عنه ، فقالوا : خرج يصلى خارجا . فجلست له على باب الدرب ، حتى جاء ، فقمت فسلمت عليه . فرد على

(١) الحلية ورقة ١٤٢ ١ (٢) طبعة القاهرة ج ٩ ص ١٧٦

السلام . وكان شيخاً مخضوباً طوالاً ، أسمر شديد السُمرة . فدخل الزقاق ، وأنا معه أماشيهِ خطوة بخطوة . فلما بلغنا آخر الدرب ، اذا باب يفرج دفعه ، وصار خلفه ، وقال : اذهب عافاك الله . فثبت عليه ، فقال : اذهب عافاك الله . قال : فالتفت ، فاذا مسجد على الباب ، وشيخ مخضوب قائم يصلي بالناس . فجلست حتى سلم الامام . فخرج وجل ، فسألته عن أحمد بن حنبل ، وعن تخلفه عن كلامي ، فقال : ادعى عليه عند السلطان أن عنده علوياء ، فجاء محمد بن نصر ، فأحاط بالمحنة ففتشت ، فلم يوجد فيها شيء مما ذكر . فأعجم عن كلام العامة . فقلت : هذا الشيخ من هو ؟ قال : عمته اسحق . قلت : فما له لا يصلي خلفه ؟ قال : ليس يكلم ذا ولا بنيه ، لأنهم أخذوا جائزة السلطان»

٢٠ - استفسار الخليفة من أحمد عن رأيه في القرآن

لم يكف المتوكل قط عن اظهار عطفه على أحمد واهتمامه براحته . وكانت هذه العناية مما يكرهه أحمد وينفر منه أشد النفور ، لسبب يتعذر علينا أن تبينه أو نحدسه . وقد أعلن أنه يؤثر الموت على أن يعيش في رعاية دائمة لا تنقطع من جانب الخليفة

قال (أبو الفضل) (١) : وكان رسول المتوكل يأتي أبي يبلغه السلام ويسأله عن حاله ، فنسّر نحن بذلك ، فتأخذه نغضة حتى ثدثره ، يقول : والله لو أن نفسي في يدي لأرسلتها ، ويضم أصابعه ثم يفتحها «

ومن شواهد اهتمام الخليفة بأحمد ، الكتاب الذي كتبه عبيد الله بن يحيى على لسان الخليفة ، يطلب فيه من أحمد أن يكتب له برأيه في القرآن ، لا لينتبت من مطابقته لرأى السلطان وإنما لمجرد اطلاع أمير المؤمنين وتبصرته . وقد أملى أحمد رده على ولده في كتاب بعث به الى عبيد الله ابن يحيى

(١) الحلية لأبي نعيم الموضع السابق

٢١ - كتاب احمد في رده على هذا الاستفسار

« حدثنا (١) سليمان بن أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل رحمه الله ، وحدثنا محمد وعلى والحسين قالوا : حدثنا محمد بن اسماعيل ، حدثنا صالح بن أحمد بن حنبل قال : كتب عبيد الله بن يحيى الى أبى ، رحمه الله ، يخبره أن أمير المؤمنين أمرنى أن أكتب اليك أسألك عن أمر القرآن ، لا مسألة امتحان ، ولكن مسألة معرفة وبصيرة ، فأملى على أبى رحمه الله ، الى عبيد الله بن يحيى ، وحدى ما معى أحد

بسم الله الرحمن الرحيم ، أحسن الله عاقبتك أبا الحسن فى الأمور كلها ، ودفع عنك مكاره الدنيا والآخرة برحمته . قد كتبت اليك ، رضى الله عنك ، بالذى سأل عنه أمير المؤمنين ، بأمر القرآن بما حضرنى ، وانى أسأل الله تعالى أن يديم توفيق أمير المؤمنين ، فقد كان الناس فى خوض من الباطل ، واختلاف شديد ينغمسون فيه ، حتى أفضت الخلافة الى أمير المؤمنين ، فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة ، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس ، فصرف الله ذلك كله .. وذهب به أمير المؤمنين ، فوقع ذلك من المسلمين موقعا عظيما ، ودعوا الله لأمر المؤمنين . فأسأل الله أن يستجيب فى أمير المؤمنين صالح الدعاء ، وأن يتم ذلك لأمر المؤمنين ، وأن يزيد فى نيته ، ويعينه على ما هو عليه

فقد ذكر عن عبد الله بن عباس رضى الله عنه أنه قال : لا تضربوا كتاب الله ، بعضه ببعض ، فان ذلك يثوق الشك فى قلوبكم . وذكر عن عبد الله ابن عمر ، رضى الله عنه ، أن نفرا كانوا جلوسا بباب النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟ وقال بعضهم : ألم يقل الله كذا ؟

قال : فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخرج كأنما فقيء فى وجهه حب الرمان . فقال : أفبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله

(١) حلية الاولياء لابی نعيم ورقة ١٥٣ ب (٢) طبعة القاهرة ج ٩ ص ٢١٦

بعضه ببعض ؟ انما ضلّت الأمم قبلكم في مثل هذا ، انكم لستم مما هاهنا في شيء . انظروا الذى أمرتم به فاعملوا به ، وانظروا الذى نهيتهم عنه فاتتهوا عنه . وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «مراء» في القرآن كفر . وروى عن أبى جُهم ، رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : لا تمأروا في القرآن ، فان مراء فيه كفر

« وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنه : قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجل . فجعل عمر يسأل عن الناس فقال : يا أمير المؤمنين ، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا . فقال ابن عباس : فقلت : والله ما أحب أن يتسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة . قال : فزبرنى عمر وقال : مه . فانطلقت الى منزلى مكتئبا حزينا (١) . فبينما أنا كذلك ، اذ أتانى رجل فقال : أجب أمير المؤمنين ، فخرجت فاذا هو بالباب ينتظرنى . فأخذ ييدى فخلا بى ، وقال : ما الذى كرهت مما قال الرجل آنفا ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين متى يتسارعوا هذه المسارعة يَحْتَقُوا (٢) ، ومتى ما يَحْتَقُوا يَخْتَصِمُوا ، ومتى ما يَخْتَصِمُوا يَخْتَلِفُوا . ومتى ما يَخْتَلِفُوا يَمُتُّوا . قال : لله أبوك ، والله ان كنت لأكتمها الناس حتى جئت بها

« وروى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يعرض نفسه على الناس بالموقف ، فيقول : هل من رجل

(١) وذلك لان عمر قاوم تحمس ابن عباس للقرآن

(٢) في الاصل المخطوط في ليدن ، من كتاب الحلية الذى نقل عنه المؤلف : « يَحْتَقُوا » من الاختفاء أى عدم الظهور . ولكن المؤلف عندما ترجم نص كتاب ابن حنبل الى الانجليزية قال : They read with mumbling voice أى يقرأون القرآن فى همس وتممة ، وأقرب هذه المعانى للشكل الاصلى للكلمة فى النص هو « يَخْفَتُوا » . وفى الطبعة القاهرية للحلية : يَحْتَقُوا . وبما أن كلمة : يَخْتَلِفُوا وردت فى النص فيما بعد فأنى أرجح أن الخطوة السابقة على الاختصاص هى الاحتقاق يقال حاقت صاحبى فحققته أحقه : خاصته . واحتقوا فى الدين : اخصموا

يحملنى الى قومه ؟ فان قريشاً قد منعونى أن أبْلَغَ كلام ربى . وروى عن جبير بن نفير ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انكم لن ترجعوا الى الله بشيء أفضل مما خرج منه . يعنى القرآن . وروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال : جَرَدُوا القرآن ، ولا تكتبوا فيه شيئاً الا كلام الله . وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : هذا القرآن كلام الله ، فضعوه مواضعه

» (و) قال رجل للحسن البصري : يا أبا سعيد ، انى اذا قرأت كتاب الله وتدبرته ، كِدْتَ أن آيس وينقطع رجائى . قال : فقال الحسن : ان القرآن كلام الله ، (و) أعمال بنى آدم الى الضعف والتقصير ، فاعمل وأبشر . وقال فروة بن نوفل الأشجعي : كنت جارا لخبَّاب وهو من أصحاب النبی صلى الله عليه وسلم ، فخرجت معه يوماً من المسجد ، وهو آخذ بيدي ، فقال : يا هناء ، تقرب الى الله بما استطعت ، فانك لن تقرب الله بشيء أحب اليه من كلامه . وقال رجل للحكَم بن عيينة : ما حمل أهل الأهواء (٢) على هذا ؟ قال : الخصومات . وقال معاوية

(٢) ترجم المؤلف عبارة « أهل الأهواء » بكلمة The Sceptics أى الشكاك . ان هذه الكلمة وهى شكاك لا تمثل معنى العبارة الاصلية وهى : « أهل الأهواء » . وقد كان هؤلاء طائفة من الناس ليسوا على استعداد لاعتناق المذاهب الدينية التى يدين بها غيرهم . الا اذا هداهم استدلالهم وتفكيرهم الى تثبيتهم فى الموقف الذى اتخذوه . ومن ثم فهم فى موقفهم الاول شكاك ، ثم أنهم يمددون بعد الشك الى انتقاء ما يوافق آراءهم من هذه المذاهب أو العقائد المختلفة أو ما يرغبون فيه منها . ولذا ينطبق عليهم ما سَمَوْا به وهو أهل الأهواء أى أهل الرغبات ، انظر الملل والنحل للشهرستاني ترجمة هاربريكر حراس أو هامشها . وكتاب المعتزلة بقلم شئيز ص ٦

ويقول مترجم الكتاب الى العربية أن ترجمة عبارة أهل الأهواء بكلمة Sceptics أى شكاك تبعد بها كثيراً عن معناها العربى ، والاقترب اليها كلمة Prejudice أى الهوى أو الميل . وقد أنكر هذه الترجمة لما استشرق جولدسيهر فى نقده لكتاب ياتون اذ قال : « وفى ص ١٦١ فسر المؤلف عبارة أهل الأهواء بأنهم الشكاك الذين يأبون التسليم بما يسلم به غيرهم من العقائد الدينية . ولكنها تطلق أيضاً على المنتمين الى الاحزاب الدينية والسياسية فيقال مثلاً : يهوى هوى ابن الزبير ويدعو اليه ويهوى هوى بنى أمية ، راجع مجلة المستشرقين الألمانية المجلد ٥٢ ص ١٥٩ سنة ١٨٩٨ »

ابن قرة ، وكان أبوه ممن أتى النبی صلی الله علیه وسلم : ایاکم وهذه الخصومات فانها تحبیط الأعمال

وقال أبو قلابة - وكان قد أدرك غیر واحد من أصحاب رسول الله صلی الله علیه وسلم - : لا تُجَالِسُوا أصحاب الأهواء ، أو قال أصحاب الخصومات ، فانی لا آمَنُ أن یَغْمِسُواکُم فی ضلالتهم ویلبسوا علیکم بعض ما تعرفون . ودخل رجلان من أصحاب الأهواء علی محمد بن سيرین ، فقالا : یا أبا بکر نحدثک بحديث . فقال : لا . فقالا : فنقرأ علیک آية من کتاب الله . قال : لا ، لتقومان عنی أو لأقومنّه . قال : فقام الرجلان ، فخرجا . فقال بعض القوم : یا أبا بکر ، وما علیک أن نقرأ علیک آية من کتاب الله ؟ فقال له ابن سيرین : انی خَشِيتُ أن یقرأ علیّ آية فيحرفانها ، فيقر ذلك قلبی . وقال محمد : لو أعلم أنى أكون مثلی الساعة لترکتھما

» وقال رجل من أهل البدع لأیوب السخثیانی : یا أبا بکر أسألك عن كلمة . فولّی وهو یقول بیده : ولا نصف كلمة . وقال طاووس بن طاووس لابن له ، وتکلم رجل من أهل البدع : یا بنی أدخل أصبعیک فی أذنیك ، حتی لا تسمع ما یقول . ثم قال : اشدّد اشدّد . وقال عمر ابن عبد العزیز : من جعل دینه غرضاً للخصومات ، أكثر التثقل

» قال أبو الفضل : وجدت فی کتاب أبی بخطه : حدثنا اسماعیل عن یونس ، قال : ثبّنت أن عمر بن عبد العزیز قال : من جعل دینه غرضاً للخصومات أكثر التثقل . وقال ابراهیم النخعی : ان القوم لم یتدخروا عنهم شیء حتی لکم لفضل عندکم . وكان الحسن یقول : شر داء خالط قلبا ، یعنی الأهواء (٢) . وقال حذيفة بن الیمان رضی الله عنه ، وكان من أصحاب رسول الله صلی الله علیه وسلم : اتقوا الله معشر القراء ، وخذوا طریق من كان قبلکم ، والله لئن استبقتهم لقد سبقتهم سبقا

(٢) ای شرداء خالط قلبا هو داء أصحاب الاهواء

بعيدا ، ولئن تركتموه يمينا وشمالا ، لقد ضللتهم ضلالا بعيدا أوقال : مينا . قال أبى : وانما تركت ذكر الأسانيد لما تقدم من اليمين التي حلفت بها (١) مما قد علمه أمير المؤمنين ، (و) لولا ذاك (ل) ذكرتها بأسانيدها . وقد قال الله تعالى : « وان أحد من المشركين استجارك فأجره ، حتى يسمع كلام الله (٢) » . وقال : « ألا له الخلق والأمر (٣) » . فأخبر بالخلق ثم قال : والأمر . فأخبر أن الأمر غير الخلق . وقال تعالى : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الإنسان ، علمه البيان (٤) » . فأخبر تعالى أن القرآن من علمه . وقال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملثهم ، قل ان هدى الله هو الهدى ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ، مالأك من الله من ولى » ولا نصير (٥) »

وقال : ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ، ما تبعوا قبلتك ، وما أنت بتابع قبلتهم ، وما بعضهم بتابع قبلة بعض ، ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم ، انك اذا لمن الظالمين (٦) . وقال : « وكذلك أنزلناه حكما عربيا ، ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالأك من الله من ولى ولا ولى » . فالقرآن من علم الله . وفي هذه الآيات دليل على أن الذى جاءه صلى الله عليه وسلم ، هو القرآن ، لقوله : (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم (٧)) . وقد روى

(*) يريد أن أحمد بن حنبل كان قد أقسم الا يحدث حديثا بتمامه

(١) سورة التوبة رقم ٩ آية

(٢) سورة الاعراف رقم ٧ آية ٥٤

(٣) سورة الرحمن رقم ٥٥ آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤

(٤) سورة البقرة رقم ٢ آية ١٢٠

(٥) سورة البقرة رقم ٢ آية ١٤٥

(٦) سورة الرعد رقم ١٣ آية ٣٧

(٧) أهواء Passions فى هذه الايات ، تمثل نظيرتها فى عبارة « أهل الاهواء » وعلى ذلك فانه يجب أن يفهم معنى أهواء فى هذه الايات على أنه انكار لتحكيم العقل فى المسائل الاعتقادية (يقول مترجم الكتاب : عاود المؤلف اصراره على اعتبار أن أهل الاهواء يحكمون العقل فى المسائل الاعتقادية وقد رددت على ذلك فى حاشية سابقة ويؤيد ماذهب اليه ماجاء فى تأويل هذه الآية فى تفسير الطبرى ح ٢ ص ١٥ : « ولئن اتبعت أهواءهم (أى) ولئن التمسيت يا محمد رضى هؤلاء اليهود والنصارى

عن غير واحد ممن مضى من سَلَفِنَا أنهم كانوا يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وهو الذى أذهب اليه ، لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام فى شيء من هذا الأمر ، الا ما كان فى كتاب الله أو فى حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو عن أصحابه أو عن التابعين ، فأما غير ذلك ، فان الكلام فيه غير محمود »

٢٢ - زيارة يحيى بن خاقان لآحمد

وقد حدث ذات مرة ، حين نزل المتوكل الشماسية فى طريقه الى المدائن ، أنه كان من المنتظر أن يخف أحمد وأفراد أسرته لاستقباله ، أو يبعثوا بمن يؤدى عنهم واجب الاحترام والولاء للخليفة . ولكن حدث أن أحمد لم يذهب هو بنفسه ولم يأذن لولده صالح بالذهاب ، خوفا من أن يثير انتباه الخليفة اليه . وقد ترتب على ذلك أن يحيى بن خاقان جاء فى اليوم التالى فى موكب عظيم لزيارة أحمد وإبلاغه تحيات الخليفة واستفساره الودى عن أحواله ، كما سأله الدعاء لأمير المؤمنين

وقد أكد أحمد ليحيى فيما يتعلق بهذا الأمر الأخير أنه يدعو لمولاه كل يوم . ثم أعطاه يحيى ألف دينار ليوزعها على الفقراء . بيد أن أحمد أبى أخذها ملتصقا اعفائه كما صنع فى غير ذلك من المناسبات ، بحجة أن الخليفة قد أباح له الاعتذار عن القيام بأى عمل يشعر نحوه بغضاضة فى نفسه ، ويشير فيه نفورا واستثقالا . وأخيرا أعطى المال لولدى أحمد

جاء فى الحلية (١) : قال أبو الفضل : وقدم المتوكل ، فنزل الشماسية يريد المدائن . فقال لى أبى : يا صالح أحب ألا تذهب اليهم ولا تنبّه على . فلما كان بعد يوم وأنا قاعد خارجا ، وكان يوما مطيرا ، اذا يحيى ابن خاقان قد جاء والمطر عليه فى موكب عظيم ، فقال : سبحان الله لم نصر الينا حتى تبلىغ أمير المؤمنين السلام عن شيخك ، حتى وجّه بى ،

(١) أبو نعيم ورقة ١١٥٥ (٢) طبعة القاهرة ج ٦ من ٢١٩

ثم نزل خارج الزقاق . فجهدت به أن يدخل على الدابة ، فلم يفعل . فجعل يخوض المطر ..

فلما صار الى الباب ، نزع جُرمُوثه وكان على خفه ، ودخل وأبى فى الزاوية قاعد ، عليه كساء مربع وعمامة ، والستر الذى على الباب خيش . فسَلَّم عليه ، وقَبَّلَ جبهته وسأله عن حاله ، وقال : أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول : كيف أنت فى نفسك ؟ وكيف حالك ؟ وقد أنسنت بقربك ، ويسألك أن تدعو له . فقال : ما يأتى علىَّ يوم إلا وأنا أدعو له . ثم قال : قد وجَّه معى ألف دينار لك تفرقها على أهل الحاجة . فقال لى : يا أبا زكريا ، أنا فى البيت منقطع عن الناس ، وقد أعفانى من كل ما أكره ، وهذا مما أكره . فقال : يا أبا عبد الله ، الخلفاء لا يحتملون هذا . فقال : يا أبا زكريا تلتطف فى ذلك . فدعا له ، ثم قام . فلما صار الى الدار ، رجع وقال : هكذا لو وجَّه اليك بعض اخوانك ، كنت تفعل ؟ قال : نعم . فلما صرنا الى الدهليز ، قال : قد أمرنى أمير المؤمنين أن أدفعها اليك وتفرقها . فقلت : تكون عندك الى أن تمضى هذه الأيام »

٢٢ - دعوة لاحمد من محمد بن عبد الله بن طاهر

وفى مناسبة أخرى ، حدث أن محمد بن عبد الله بن طاهر ، رجا أحمد أن يزوره ، وألح كثيرا فى الرجاء . غير أن أحمد عاود رفضه ، معتذرا باعفاء الخليفة له . وبعد هذه الحوادث ، أخذ نفسه أخذا شديدا بمتابعة الصوم ، امتنع فيه عن تناول أى طعام دسم ، ويبدو أنه كف عن تناول اللحم ، لأن مصدرنا يقرر بأن أحمد كان قد زود قبل هذا التاريخ من اللحم بما يساوى درهما واحدا وأنه ظل يأكل منه شهرا !

« قال أبو نعيم فى الحلية : قال أبو الفضل : وقد كان وجَّه محمد ابن عبد الله بن طاهر الى أبى فى وقت قدومه مع العسكر : أحب أن تصير الى ، وتعلمنى اليوم الذى تعزم عليه ، حتى لا يكون عندى

أحد . فوجّهه إليه : أنا رجل لم أخالط السلطان ، وقد أعفاني أمير المؤمنين مما أكره ، وهذا مما أكره . فجهد أن يصير إليه ، فأبى . وكان قد أدام الصوم لما قدم ، وجعل لا يأكل الدسم . وكان قبل ذلك يشتري له لحم بدرهم ، ويأكل منه شهرا . فترك أكل الشحم ، وأدام الصوم والعمل ، فتوهمت أنه كان قد جعل على نفسه أن سليم أن يفعل ذلك . وكان حُمِلَ إلى المتوكل سنة سبع وثلاثين ومائتين ، ثم مكث إلى سنة إحدى وأربعين . وقل يوم كان يمضي ، ألا ورسول المتوكل يأتيه »

٢٤ - مرض أحمد وموته

والآن يبلغ بنا مجرى الحوادث إلى سنة ٢٤١ هـ . ففي غرة ربيع الأول من هذه السنة ، أصيب أحمد بالحمى ، وصحبها صعوبة في التنفس . وقد ضعف حتى صارت رجلاه لا تقويان على حمله . وعاده طبيب ، فأمر ، لكي يبرأ من مرضه ، بأن تشنوى له قرعة ثم يشرب ماءها . فرجا أحمد بصفة خاصة ألا تشنوى في بيوت ولديته . وسرعان ما تسامع الناس بخبر مرضه ، حتى أقبلوا عليه يعودونه وكانوا كثيرا حتى اضطروا إلى إغلاق باب الدرب . ولما علم حاكم بغداد باحتشاد هذه الجموع ، وضع الحراس على باب الدرب ، بينا وضعت أسرته أيضا حراسا على باب الدار . ولم يؤذن بالدخول عليه إلا للأطباء ولمن يرغب أحمد نفسه في رؤيته . ومن سُمح له بالدخول عليه ليعوده جار له ، وهو شيخ مخضوب شعر الرأس واللحية . ولما وقع نظر أحمد عليه فرح به وابتهج لمقدمه ، ونبه إليه أولئك الذين يحيطون به ، لأنه ممن يحيى سنة النبي (عليه السلام)

وكانت أخبار مرضه ترسل يوميا من بغداد إلى الخليفة بالعسكر ، بيد أنها لم تكن أخبارا تقوى الأمل في برئه ، لأن حالة أحمد كانت تسوء تدريجا يوما بعد يوم إلى أن توفي . وقد احتمل فيما يبدو أوجاع علة في ثبات وصبر عظيمين ، أقامه عليهما حديث روى عن طاوس ، أنه كان يكره الأنين في المرض ، لأنه يعادل الشكوى من قضاء الله وقدره . ولذا

لم يسمع لأحمد أنين قط الا في اليوم الذي مات فيه . وقبل موته بيومين أو ثلاثة سأل عن كيس دراهمه ، وطلب من ولده صالح أن يخبره بما فيه . ففتحه صالح ولم يجد به الا درهما واحدا ، فأوصاه أبوه بما يصنع بهذا الدرهم ، وبشيء من غلة داره يجمعها من مستأجريها ، وأن يشتري بكل هذا تمرا يتصدق به ، ليكفر عنه كفارة يمين . وقد نفَّذ صالح الأمر الذي تلقاه . وأعاد لأبيه ثلث درهم . فلما تسلمه أبوه ، فرح أملا في أن يستقبل الموت فقيرا كما عاش فقيرا

ولم تطل مدة مرضه . وأعلن الطبيب أن ما عرض له من الهموم والأحزان ، وما اتسمت به حياته من زهد وحرمان ، قد أتلَف أعضاء جسمه الداخلية وقوضها وجعل الرجاء في برئه ضئيلا . ومن الحوادث التي تسترعى النظر، ما وقع له حين أعين على الوضوء لأداء صلاته الأخيرة ، فقد كان لا يقوى على الكلام ، بيد أنه ظل شديد الاستمسك بترجيه وتسنيته في أداء الفرائض وأحكام الدين ، فكان يشير الى ولديه أن يخللا في الوضوء بين أصابعه وأن يغسلا ظاهرها وباطنها . فلما فرغا من أداء وضوئه ، قيل بأنه ظل هادئا برهة الى أن فاضت روحه

وقد كان يؤدي فرائض الصلاة حتى اللحظة الأخيرة من حياته . وكان ولداه يعينانه على أداء ركعاته . ومن وصاياه الأخيرة ، أن شعرات النبي الثلاث التي كانت في حوزته ، أوصى عند موته ، بأن توضع في كل عين من عينيه شعرة واحدة ، وأن توضع الثالثة في فمه . وقد أتقذ ولداه ما أوصى به (١) . وهكذا قضى أحمد

والتاريخ الذي حدثت فيه الوفاة هو يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٢٤١ هـ . وعمره يوم وفاته يزيد أو ينقص قليلا بأيام ، وربما بساعات عن سبع وسبعين سنة

(١) راجع كتاب جولدسيهر : دراسات اسلامية ج ٢ ص ٢٥٨

جاء في المتَّقَى للمقريزي (١) : « فصل في ذكر مرضه ووفاته : قال صالح : لما كان في أول يوم من شهر ربيع الأول سنة احدى وأربعين ومائتين ، حُم أبى ، فدخلت عليه وهو محموم ، فتنفس نفسا شديدا . فقلت : علام أفطرت البارحة ؟ فقال : على ماء باقلاء . ثم أراد القيام . فقال : خذ يدي . فأخذت ييده . فلما صار الى الخلاء ، صغفت رجلاه ، حتى توكأ على . وكان يختلف اليه غير متطبب ، كلهم مسلمون . فوصف له متطبب قرعة تشنوى ويُسقى ماءها . فقال : يا صالح . قلت : لبيك . قال : لا تشنوى في منزلك ولا في منزل عبد الله أخيك . وأتى الفتح بن سهل ، وعلى بن الجعد ، فحجبتهما . وكثر الناس . قال : فأى شيء ترى ؟ قلت : تأذن لهم ، فيدعون لك . فأذنت لهم . فجعلوا يدخلون عليه أفواجا ، حتى تمتلىء الدار . وكثر الناس ، وامتأ الشارح ، وأغلقت باب الزقاق

وجاء رجل من جيرانا ، قد خضب . فقال : انى لأرى الرجل يحنى شيئا من السنة فأفرح به . فجعل الرجل يدعو له ، فيقول أبى : ولجميع المسلمين . ثم قال : اقبض من السكائن دراهم واشتر قمرا ، وكفر عنى كفارة عيين . فاشترت وكفرت . وأخبرته . فقال : الحمد لله

قلت (٢) : وزاد الدينورى في كتاب المجالسة : أن الامام أحمد قال : فانى حنيت في دهرى في يمين واحدة . ثم قال لى : أحضر الوصية وقرأها . وكان كتبها قبل ذلك . فقرأتها ، فأقرأها على ما هى عليه ..

« قال : واشتدت به العلة يوم الخميس ، فلما كان يوم الجمعة ، اجتمع الناس حتى ملأوا السكك والشوارع . قال حنبل : وكان عنده ثلاث شعرات من شعر النبى صلى الله عليه وسلم . فأوصى عند موته أن يجعل على لسانه شعرة وعلى كل عين شعرة . ففعل به ذلك عند موته .

(١) ورقة ١٥ ، والمصادر التى استخدمها الآن فيما يلى هى : المقريزي وابن السبكي

وأبو نعيم

(٢) القائل هنا هو المقريزي مؤلف كتاب المقفى

قال ولده عبد الله : قال لى أبى فى مرضه الذى توفى فيه : أخرج نى كتاب عبد الله بن ادريس . فأخرجت الكتاب . فقال لى : أخرج أحاديث لىث بن أبى سئيم ، فأخرجتها . فقال لى : اقرأ علىّ حديث لىث . قلت لطلحة : ان طاووسا كان يكره الأئمين فى المرض . فما سمع له أنين حتى مات رحمه الله . فقرأت ذلك على أبى ، فما سمعته أن فى مرضه الى أن توفى ..

« وسئل عبد الله : هل عقل أبوك عند الموت المعاينة ؟ قال : نعم ، كنا نوضئه ، فجعل يشير بيده ، فقال لى صالح : أى شىء يقول ؟ فقلت : هو يقول : خلّوا أصابعى ، فخلّلتنا أصابعه ، ثم ترك الإشارة ، فمات من ساعته ، تغمّده الله برحمته ، وذلك لائتنى عشرة ليلة خلّت من ربيع الأول ، سنة احدى وأربعين ومائتين ، وهو ابن سبع وسبعين سنة » وروى ابن السبكي (١) قصة مرضه فيما يلى : قال المروزي رضى الله عنه : مرض أبو عبد الله ليلة الأربعاء لليتين خلّتنا من ربيع الأول ، ومرض تسعة أيام . وكان ربما أذن للناس ، فيدخلون عليه أفواجا ، يسلمون عليه ويرد عليهم . وتسامع الناس وكثروا ، وسمع السلطان بكثرة الناس ، فوكل ببابه وبياب الزقاق الرابطة وأصحاب الأخبار ، ثم أغلق باب الزقاق ، فكان الناس فى الشوارع والمساجد ، حتى تعطّس بعض الباعة ، وحيل بينهم وبين البيع والشراء

وكان الرجل اذا أراد أن يدخل اليه ، ربما دخل من بعض الدور وطور الحالة (٢) ، ربما تسلق ، وجاء أصحاب الأخبار ، فقعدوا على الأبواب ، وجاء حاجب ابن طاهر ، فقال : ان الأمير يقرئك السلام ، وهو يشتهى أن يراك . فقال : هذا مما أكره ، وأمير المؤمنين أعفانى مما أكره . وأصحاب الخبر يكتبون بخبره الى العسكر ، والبرّد تختلف كل يوم

(١) طبقات التسافمية ورقة ١٢٤ وما بعدها (٢) طبعة الحسينية بالقاهرة ح ١ من ٢٠٢

(٢) هكذا فى النص العربى ولم تهتد لوجه الصواب فيه

« وجاء بنو هاشم ، فدخلوا عليه . وجعلوا يبكون عليه . وجاء قوم من القضاة وغيرهم ، فلم يؤذن لهم . ودخل عليه شيخ ، فقال : اذكر وقوفك بين يدي الله ، فشهِق أبو عبد الله ، وسالت الدموع على خديه . فلما كان قبل وفاته بيوم أو يومين ، قال : ادعوا لى الصبيان ، بلسان ثقيل ، فجعلوا ينضمون اليه ، وجعل يشمهم ويمسح بيده على رؤوسهم ، وعينته تدمع . وأدخلت الطشت تحته ، فرأيت بوله دماً عيطاً ليس فيه بول . فقلت للطبيب فقال : هذا رجل قد فتت الحزن والغم جوفه .. »

وجاء فى الحلية (١) : وكنت أنام بالليل الى جنبه . فاذا أراد حاجة ، حركنى ، فأناوله . وجعل يحرك لسانه ، ولم يئن الا فى الليلة التى توفى فيها . ولم يزل يصلى قائماً ، أمسكه فيركع ويسجد ، وأرفعه فى ركوعه . واجتمعت عليه أوجاع الحصر وغير ذلك . ولم يزل عقله ثابتاً . فلما كان يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول لساعتين من النهار توفى رحمة الله عليه ومغفرته ورضوانه «

٢٥ - جنازة أحمد

لقد خيم على مدينة بغداد عند وفاة أحمد بن حنبل أشد مظاهر الحزن والأسى ، بل عم شعور الأسف لفقده أماكن بعيدة ، عندما بلغ أهلها نبأ وفاته . وكان مشهد جنازته بعد ظهر اليوم الذى مات فيه ، من المشاهد التى قلما تقع العين عليها فى أى مكان آخر . وتضاربت الأقوال فى تقدير عدد مشيعيه . فمن قائل انه شهد الصلاة عليه ستماية ألف نسمة . وذهب آخرون الى أنهم بلغوا ألفى ألف وخمسماية ألف . وبين هذين الرقمين قدرت تقديرات أخرى (٢)

(١) لابی نعيم رقة ١٥٥ (٢) طبعة القاهرة ح ٩ ص ٢٢٠

(٢) وازن ذلك بما جاء فى ابن خلكان رقم ١٩ (٣) جاء فيها فى طبعة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م ح ١ ص ٤٨ : ٥ وحزر من حضر جنازته من الرجال فكانوا ثمانماية ألف ومن النساء ستين ألفاً . وقيل انه أسلم يوم مات عشرون ألفاً من النصارى واليهود والمجوس « -

وعند موته اعتنق الاسلام فيما قيل عشرة آلاف شخص بل يذهب آخرون الى أنه قد اعتنقه عشرون ألفا ممن كانوا يدينون بديانات أخرى . ولكن نظرا لأن أفراد أسرة أحمد وغيرهم ممن يهتمون اهتماما خاصا بأخبار أحمد وأحواله ، لم يعرفوا شيئا عن تقديرات كهذه ، فقد شك الذهبى شيخ تاج الدين بن السبكى فى هذا الخبر ، وعد هذه الأرقام لغوا باطلا . وأيّد حكمهم (٢) بما ذهب اليه من أنه لو أسلم عشرة فحسب لكان هذا أقرب الى الصواب

وقد رغب الأمير ابن طاهر فى تجهيز أحمد وتكفينه ، ولكن صالح أبى قبول شيء من هذا ، لأنه علم أن أباه لما كان على قيد الحياة لم يقبل أية صلة من الأمير . وإن الرعاية البنوية التى أحس بها صالح نحو رغبات أبيه المتوفى ، من حيث رفض الصلات أو صنوف العناية التى يبدىها رجال السلطان ، قد اتخذت شكلا بلغ درجة كبيرة من العزم والتصميم . فعن طريق القوة وحدها استطاع أصحاب صالح أن يشوه عما اعتزمه من تنحية ابن طاهر عن امامة الناس فى صلاة الجنازة على أبيه (١) . وفى الحق أن الناس لم يعلموا أن ابن طاهر صلى على أحمد الا فى اليوم التالى لدفنه ..

فلما علموا بذلك تقاطروا جماعات الى قبره فى مقبرة باب حرب (٢) .

(*) هكذا فى الاصل بعد ادراج المؤلف لعبارة سقطت عند الطبع . ولعل الصواب : أن الذهبى أبد رأيه أو حكمه ..

(١) مروج الذهب للمسمودى طبعة باريس ح ٧ ص ٢٢٩ (*) طبعة بولاق سنة ١٢٨٣ هـ ٢ ص ٢٩٧ وجاء فيها : « وصلى عليه محمد بن طاهر »

(٢) انظر ابن خلكان فى الترجمة رقم ١٩ (وفيات الاميان طبع النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م ح ١ ص ٤٨ ، ونص عبارة ابن خلكان : « ودفن بمقبرة باب حرب ، وباب حرب منسوب الى حرب بن عبد الله أحد أصحاب أبى جعفر المنصور ، وإلى حرب هذا تنسب الحلة المعروفة بالعربية وقبر أحمد بن حنبل مشهور بها يزار » وقد استخلص المؤلف من عبارة ابن خلكان الاخيرة أن قبر أحمد بن حنبل كان الى عهد ابن خلكان معروفا وأن الناس كانوا يقصدونه بالزيارة . هذا وقد ولد ابن خلكان فى سنة ٦٠٨ هـ وتوفى فى سنة ٦٨١ هـ . وسيتضح من تحقيقنا فى حاشية تالية أن الناس قبل زمن ابن خلكان وبمده كانوا يخلطون بين قبر أحمد وقبر ولده عبد الله

وقد اشتد الزحام في الطريق اليه ، حتى أن رجلا ممن شيّعه أعلن أنه ظل أسبوعا قبل أن يتمكن من زيارة قبره . وقد صلي أيضا على أحمد أفراد أسرته وبنو هاشم ، في داخل الأحياء التي كانوا يسكنونها ، وذلك في مساء اليوم الذي مات فيه (١) . وإلى زمن ابن خلكان كان قبر أحمد في مقبرة باب حرب معروفا ذائع الصيت . وكثيرا ما كان يقصده الناس بالزيارة (٢) . وفي وقت متأخر عن هذا ، تهدم ما أقيم على القبر من شواهد وأبنية (٣) ، وسوى القبر بسطح الأرض ، لما ظهر من الغلو في تقديسه والتبرك به

جاء في كتاب المتقّي للمقريزي : فصل في غسله وتكفينه والصلاة عليه وعدد من أسلم يوم موته . قال ولده صالح : لما توفي

(١) ابن خلكان ترجمة رقم ١٩ (٣) لا يوجد في ترجمة أحمد التي أوردها ابن خلكان ما يشير إليه المؤلف ولعله سهو منه

(٢) ابن خلكان ترجمة رقم ١٩ وانظر أيضا تهذيب النووي ص ١٤٦ (٣) طبعة منير بالقاهرة ح ١ ص ١١٢ وقد جاء فيها : وقبره مشهور معروف يشترك به رحمه الله

(٣) يقول مترجم الكتاب في تحقيق موقع قبر الامام أحمد أن أحمد دفن في مقبرة الشهداء عند باب حرب وهي تقع على الضفة الغربية لهر دجلة شمالي مدينة بغداد في مكان يقع خارج الخندق الطاهري بعيدا عن باب حرب في الطريق المؤدى الى الكاظمية . ولم يذكر ياقوت في معجم البلدان لم سميت هذه المقابر بمقابر الشهداء . وذكر المقدسي الجعفي قبر أحمد ، وذلك في كتابه أحسن التقاسيم الذي كتبه حوالي سنة ٣٧٥ هـ ، كما تكلم عنه الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد فقال في ح ١ ص ١٢١ طبعة القاهرة سنة ١٩٣١ م : « ومقبرة باب حرب خارج المدينة (أي بغداد) وراء الخندق مما يلي طريق قطربل (بضم الفاء وتسكين الطاء وفتح المراء وتشديد الباء) معروفة بأهل الصلاح والخير وفيها قبر أحمد بن حنبل ، وبشر « الحارث الحاق » . وقد أصبح قبر أحمد مزارا كما عد من الأولياء الذين يحرسون بغداد من الآفات وقال الخطيب في نفس الموضع من كتابه : ضاق صدر أحد الزهاد مرة مما شهده ببغداد من المفاصد ، فخرج خوف أن يخسف بها . فلقية رجل يدعى أحمد بن العباس فقال له ارجع ولا تخف فان فيها قبور أربعة من أولياء الله هم حصن الهم من جميع البلايا . قلت : من هم ؟ قال الامام أحمد بن حنبل ومعروف الكرخي وبشر الحاق ومنصور بن عمار . فرجع هذا الزاهد وزار القبور ولم يخرج تلك السنة . . . (وقيل) : لما مات أحمد رأى رجل في منامه كأن على كل قبر قنديلا . فقال : ماهذا ؟ فقيل له . . انه نور لاهل القبور قبورهم ينزل هذا الرجل بين أظهرهم . قد كان فيهم من يعذب فرحم (ص ١٢٢) . « وقد صار قبر أحمد الواسطي يعني نظام الملك بقصيدة منها :

زرت المشاهد زورة مشهورة أرضت مضاجع من بها مدفون

أبى ، كان المتوكل غائبا ، فوجّه الأمير ابن طاهر ، حاجبه ومعه غلامان ،
معهما مناديل فيها ثياب وطيب . وقالوا : الأمير يقرئك السلام ويقول
لك : قد فعلت ما لو كان أمير المؤمنين حاضرا لفعله . فقلت له : أقرئه
منى السلام وقل له : ان أمير المؤمنين قد كان أعفاه في حياته مما كان
يكره ، ولا أحب أن أتبعه بعد موته بما كان يكرهه في حياته ، فعاد
وقال : يكون شعاره ولا يكون دثاره . فأعدت عليه مثل ذلك ورددته
عليه . وكفّته في ثلاث لفائف ..

قال المروزي : لما أردت أن أغسله ، جاء بنو هاشم ، واجتمع في الدار
خلقت كثير . فأدخلته البيت وغطيته بثوب وأرخت الستر حتى فرغت
من أمره . فلما أردت تكفينه غلبنا عليه بنو هاشم ، وأخذوا في البكاء
عليه ، وجعل أولادهم ينكبّون عليه ، ويقبلونه . قال صالح : وأرسل
إلى ابن طاهر يقول : من يصلّى على أبيك ؟ قلت : أنا . فلما صرنا

فكانك الفيث استهل بتربها فازت فداحك بالتوات وانجحت
وكانها بك روضة ومعين ولك الاله على النجاح ضمين

هذا وقد تخرب قبر أحمد بسبب فيضان نهر دجلة الذي وقع في سنة ٤٦٦ هـ ، ذكر ابن
الجوزى في كتابه المنتظم طبع حيدر اباد سنة ١٣٥٩ هـ ح ٨ ص ٢٨٦ :
وغرقت مقبرة الامام أحمد وغيرها من الاماكن والمقابر وانخفضت القبور وخرج
الموتى على رأس الماء . وقد حدث غرق آخر في سنة ٦١٤ هـ ، ذكر ابن الاثير في حوادث هذه
السنة (ح ٩ ص ٢١٩٠ من طبعة التجارية بالقاهرة) : « وفيها زادت دجلة زيادة عظيمة
لم يشاهد في قديم الزمان مثلها واشرفت بغداد على الفرق .. وغرق كثير من الجانب الشرقى
وغرق مشهد أبى حنيفة .. وأما الجانب الغربى فتهدم ... ومشهد باب التبن ومقبرة أحمد
بن حنبل » وذكر ياقوت في سنة ٦٢٣ هـ وذكر صاحب مرصد الاطلاع في سنة ٧٠٠ هـ أن قبر
أحمد يقع عند باب حرب كما ذكر ذلك ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ولا ننسى أن المسعودى
الذى فرغ من تدوين كتابه مروج الذهب في سنة ٣٣٦ هـ كما قال في ص ٤٢٧ ح ٢ من طبعة
بولاق أن أحمد دفن بباب حرب في الجانب الغربى (أى لبغداد) ح ٢ ص ٢٩٧ . وقد زاد
ابن بطوطة الرحالة المغربى ببغداد في سنة ٧٣٧ هـ وقال ان أهل بغداد يقدسون قبر أحمد
ويتبركون به وأنه حول بناء قبة على القبر ولكنها كانت تهدم بقدرة الله تعالى . جاء في مهلب
رحلته التى طبعتها وزارة المعارف بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م ح ١ ص ١٧٦ ، ١٧٧ : « وبالقرب
من الرصافة قبر أبى عبد الله أحمد بن حنبل رضى الله عنه ولاقبه عليه . ويذكر أنها بنيت
على قبره مرارا فتهدمت بقدرة الله تعالى . وقبره عند أهل بغداد معظم وأكثرهم على مذهبه .

الى الصحراء ، وجدنا ابن طاهر . فخطنا اليها خطوات وعزانا . فلما وضع السرير ، تقدمت للصلاة . فجاءني ابن طالوت ، ومحمد بن نصر ، وقبضا على يدي ، وقالوا : الأمير . فمانعتهم ، فغلبوا عليّ وصلّي . ولم يعلم أكثر الناس بتقدمه . فلما كان من الغد ، وعلموا بذلك ، صاروا يأتون القبر أفواجا ، فيصلّون عليه . ومكثوا على ذلك أياما

» قال ولده عبد الله : وكنا نحن والهاشميين صلّينا عليه داخل الدار . قال الخلال : سمعت عبد الوهاب الوراق يقول : ما بلغنا أن جمعا كان في الجاهلية والاسلام مثله ، حتى أن المواضع التي وقف الناس فيها مسحّت وحُزرت ، فاذا هي نحو ألف ألف ، وحزرتنا على السور نحوا

وبالقرب منه قبر أبي بكر السبلي من أئمة المتصوفة وقبر سري السقطي وقبر بشر الحافي وقبر داود الطائي وقبر أبي القاسم الجنيد رضي الله عنهم أجمعين . وأهل بغداد لهم يوم ، في كل جمعة لزيارة شيخ من هؤلاء المشايخ ويوم لشيخ آخر يليه وهكذا الى آخر الاسبوع » . وأرى أن ابن بطوطة خلط بين الجانب الشرقي لبغداد والجانب الغربي لأن الرصافة تقع على الضفة الشرقية لدجلة وفيها قبر أبي حنيفة . وقد سبقه في هذا الخلط الرحالة ابن جبير المتسوف بالاسكندرية سنة ٦١٤ هـ والذي زار بغداد في سنة ٥٨٠ هـ فقد قال في رحلته طبعة القاهرة سنة ١٩٠٨ م ص ٢٠٥ : « وبالرصافة كان باب الطاق المشهور على الشط وفي تلك المحلة مشهد حفييل البنيان له قبة بيضاء سامية في الهواء فيه قبر الامام أبي حنيفة رضي الله عنه . . وبالقرب من تلك المحلة قبر الامام أحمد بن حنبل رضي الله عنه » . وقد يرجع هذا الخلط الى خطأ في مخطوطة رحلة ابن جبير كما ذهب الى ذلك المستشرق جى لوسترانج Guy Le Strange في كتابه : بغداد في عهد الخلافة العباسية (بالانجليزية) الطبعة الثانية بالكسفورد سنة ١٩٢٤ م ص ١٦٠ ، وربما خلط ابن جبير بين قبر أحمد بن حنبل في باب حرب ، وقبر ابنه عبدالله الذي كان يقع أيضا على الضفة الغربية قريبا من قطيعة « الزبيدية » بجوار شاطئ دجلة . وذكر حمد الله مستوفى في كتابه باللغة الفارسية : « كوزيدة » الذي كتبه في نحو سنة ٧٤٠ هـ أن قبر الامام أحمد يقع الى الشمال من قبر أبي حنيفة ، مما يدل أيضا على أنه خلط بين قبر أحمد وقبر ولده عبد الله . لأن قبر عبد الله يقع في مقابر قريش قرب باب التبن ، ولم يدفن بجوار أبيه لرواية مشهورة أثرت عنه ، جاء فيها : لما مرض عبد الله قيل له : ابن تحب أن تدفن ؟ قال : صح عندي أن بالقطيعة نبيا مدفونا ولأن أكون في جوار نبي أحب الى من أن أكون في جوار أبي . فدفن في مقابر باب التبن سنة ٢٩٠ هـ ، ولا يفهم من هذا على أنه عقوق منه لابيه ، وإنما يرجع الى شدة ورعه وتقواه . وقد حدث الخليط بين القبرين لما تهدم حتى الحرية وفيه قبر الامام أحمد ، وبقي قبر ولده عبد الله قريبا من باب التبن . وذكرستانج نقلًا عن ميرخوند المؤرخ الفارسي أن تيمور لما احتل بغداد سنة ٦٩٥ هـ أصدر أمرا بترميم قبر الامام أحمد بعد أن هدمته فيضانات نهر دجلة المتكررة . غير أن قول ميرخوند بأن القبر يقع

من ستين ألف امرأة . وقال أبو زرعة : بلغني أن المتوكل أمر أن يمسح
الموضع الذي وقف الناس فيه للصلاة على أحمد بن حنبل ، فبلغ مقام
ألفي ألف وخمسمائة ألف ، وفتح الناس أبواب المنازل في الشوارع
والبيوت والدروب ، وصاروا ينادون : من أراد الوضوء . وقال أحمد
ابن الحسن المقائعي : كنت ببغداد وأنا في بستان لصديق لي ، فإذا بشيخ
وشاب وعليهما طمران ، فسلمت عليهما ، وقلت : أراكما من غير هذا
البلد ؟ قالوا : نعم ، نحن من جبل التلثام ، حضرنا جنازة أحمد بن حنبل ،
وما بقي أحد من الأولياء ، الا حضرها

وقال عبد الوهاب الوراق : أظهر الناس في جنازة أحمد بن حنبل السنة
والطعن على أهل البدع (٢) . قال جعفر بن محمد النسوي : شهدت
الناس في جنازة أحمد بن حنبل ، يلعنون بشرا المريسي والكرائيسي بأصوات
عالية . وأقام الناس أياما يزدهجون على القبر ، حتى قال أبو الحسن التميمي :

قريبا من شاطئ دجلة يدل على أنه يشير الى موقع قبر عبد الله وليس قبر الامام أحمد .
ويعمل سترانج هذا الاضطراب بأن عبد الله كان يسمى بابن حنبل كما كان يسمى أبوه باسم
جده . راجع كتاب سترانج : بغداد في عهد الخلافة العباسية ص ١٦٦ . وعنده أنه قر في
الاذهان بتناول الازمنة ، أن قبر عبد الله هو قبر الامام أحمد . وقد وقع في هذا الخطأ في
العصور الحديثة الرحالة الدنمركي نيبوهر Niebuhr الذي زار بغداد حوالي سنة
١٧٥٠ م وذكر أن قبر أحمد بن حنبل يقع على شاطئ دجلة مقابلا لقبر أبي حنيفة الواقع
شرقي بغداد . بيد أن الفرضيات المتعاقبة لدجلة هدمت من معالم قبور الاعلام في بغداد فلم
يبق في يومنا هذا أي أثر لقبر أحمد او لقبر ولده . ولعل الفيرة على دراسة المعالم الاثرية
العظيمة

(٢) قال المسعودي في وصف جنازة أحمد : « وحضر جنازته خلق من الناس لم ير مثل ذلك
اليوم والاجتماع في جنازة من سلف قبله . وكان للامة فيه كلام كثير جرى بينهم بالعكس
والضد في الامور ، منها أن رجلا منهم كان ينادي : العنوا الواقف عند الشبهات ، وهذا بالضد
عما جاء عن صاحب الشريعة عليه السلام في ذلك . وكان عظيم من عظمائهم ومقدم فيهم يقف
موقفا بعد موقف امام الجنازة وينادي بأعلى صوته :

وأظلمت الدنيا لفقيد محمد وأظلمت الدنيا لفقيد ابن حنبل
يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد عليه السلام وأنها أظلمت عند موت
ابن حنبل كظلمتها عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم » . مروج الذهب ج ٢
ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ . ويتضح من هذا النص دهشة المسعودي من النداءات المتناقضة التي حدثت
في الجنازة فالوقوف عند الشبهات هو مما أمر به النبي عليه السلام والتداء بلعن الواقفين
عندها هو من يحسم أنصار أحمد الذي انتقد في حياته الواقفين في مسألة خلق القرآن مثل
الكرائيسي وهذا يدل على أن الحركة الحنبلية حينما أزرها العامة في بغداد اصطبغت بصبغة
ديماغوجية نقر منها فقهاء الحنابلة أنفسهم فيما بعد وقد اقترنت هذه الديماغوجية بالظاهرة
النفسية المعروفة بعبادة الابطال

مكثت أياما رجاء أن أصل الى القبر ، فلم أصل اليه الا بعد أسبوع »
 وروى ابن السبكي (١) : قال موسى بن هرون الحافظ : يقال ان أحمد
 لما مات مسح الأرض المبسوطة التي وقف الناس للصلاة عليها .
 فحصر مقادير الناس بالمساحة ستمائة ألف وأكثر ، سوى ما كان في
 الأطراف والأماكن المتفرقة . قلت : وقيل في عدد المصلين عليه كثير ؟
 قيل : كانوا ألف ألف وثلثمائة ألف ، سوى من كان في السفن في الماء .
 كذا رواه خشنار بن سعيد

وقال ابن أبي حاتم : سمعت أبا زرعة يقول : بلغني أن المتوكل أمر
 أن يمسح الموضع الذي وقف عليه الناس حيث صُلِّي على أحمد ، فبلغ
 المقام ألفي ألف وخمسمائة (٢) . وعن الوركاني (٣) وهو رجل كان يسكن
 الى جوار الامام أحمد ، قال : أسلم يوم مات أحمد من اليهود والنصارى
 والمجوس عشرون ألفا ، وفي لفظ عشرة آلاف . قال شيخنا الذهبي :
 وهي حكاية منكرة تفرد بها الوركاني والراوى عنه . قال : والعقل
 يحيل أن يقع مثل هذا الحادث في بغداد ، ولا يرويه جماعة تتوفر دواعيهم
 على نقل ما هو دونه بكثير (٤) ، وكيف يقع مثل هذا الأمر ولا يذكره
 المروزي ولا صالح بن أحمد ، ولا عبد الله ، ولا حنبل الذين حكوا من

(١) طبقات الشافعية ورقة ١٣٤ وما بعدها (٢) طبعة لحنينية بالقاهرة ح ١ ص ٢٠٤

(٣) المراد « ألفي ألف وخمسمائة ألف »

(٤) فند الذهبي رواية الوركاني وعلل تفنيده بقوله : ثم انكشف لي كذب الحكاية بأن أبا
 زرعة قال : كان الوركاني ، يعنى محمد بن جعفر ، جار أحمد بن حنبل ، وكان يرضاه . وقال
 ابن سعد وعبد الله بن أحمد ، وموسى بن هرون : مات الوركاني في رمضان سنة ثمان وعشرين
 ومائتين . فظهر لك بهذا أنه مات قبل أحمد بدهر . فكيف يحكى يوم جنازة أحمد رحمه الله ؟
 انظر ترجمة أحمد التي استخرجها الشيخ أحمد شاكر من تاريخ الاسلام للذهبي وصدروها
 الجزء الاول من طبعته الجديدة للمسند ، القاهرة سنة ١٩٤٦ ص ١٣١

(٥) نصر عبارة الذهبي « ولا ينقله جماعة تعتقد همهم ودواعيهم على نقل ما هو دون ذلك
 بكثير » وان تشكك الذهبي في هذه الرواية يعد مثالا بارزا يوضح لنا كيف أن فقيها سنيامتشدا
 لم يعقه ايمانه وورعه عن استخدام عقله في نقد الروايات المأثورة ورفض ماعارض فيها مع
 نظره وتفكيره . مع انه بسبب ورعه قد يكون أقرب الى مجارة العامة في نزعتها الى تصديق
 كل ما من شأنه يرفع من أقدار أئمة الدين وهداته

أخبار أبي عبد الله جزئيات كثيرة ؟ قال : قالوا : فوالله لو أسلم يوم موته عشرة أنفس ، لكان عظيما ينبغي أن يرويه نحو من عشرة أنفس »

٢٦ - المترجمون لأحمد بن حنبل

ومن أولئك الذين قيل انهم كتبوا في مناقب أحمد ، أبو الحسن بن المنادى (١) ، والحافظ ابن منته (٢) ، والبيهقي (٣) ، وأبو اسماعيل الأنصاري ، والفقير أبو علي بن البتا شارح الحزقي ، والحافظ ابن ناصر،

(١) الفهرست لابن النديم ح ١ ص ٣٨ وما بعدها (٢) لم أعثر عليه في طبعة القاهرة للفهرست - وطبقات الحفاظ للذهبي طبعة ١١ رقم ٦٥٥ () إذ كان كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي الذي طبع في حيدر أباد مرتين والثانية سنة ١٣٣٤ هـ هو نفس كتاب طبقات الحفاظ الذي يشير اليه المؤلف ، فالمنادى هو من حفاظ الطبقة ١١ ولكنه رقم ٥٧ ، راجع التذكرة ح ٣ ص ٦٤ ، وصحة اسمه هو : أبو الحسين أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله بن المنادى البغدادي ، ولم أجد في ترجمة الذهبي له ما يشير الى أنه ألف كتابا في مناقب أحمد بن حنبل

(٢) طبقات الذهبي ، الطبقة ١٣ رقم ٢٩ (٢) في تذكرة الحفاظ طبعة ١٣ رقم ٢٩ كما ذكر المؤلف ، ومنته كما ضبطها ابن خلكان بفتح الميم والذال المهملة بينهما نون ساكنة وفي الآخر هاء ساكنة أيضا . وقد أنجبت أسرة ابن منته اعلاما كثيرين ترجم ابن خلكان لاثنتين منهم الاول : محمد بن يحيى بن منته صاحب تاريخ أصبهان الموفى سنة ٣٠١ هـ ، (وفیات الاعيان طبعة النهضة ترجمة رقم ٥٩٢ ح ٣ ص ٤١٦) وحفيده يحيى بن عبد الوهاب بن منته المحدث المتوفى بأصبهان سنة ٥١٢ هـ . (ترجمة رقم ٧٦٦ ح ٥ ص ٢١٧) . أما ابن منته الذي يشير اليه المؤلف فهو علم آخر من اعلام هذه الأسرة واسمه : محمد بن اسحق بن محمد بن أبي زكريا يحيى بن منته ، أطرى الذهبي حفظه وضبطه للرواية في عبارات قوية بل انتقد تحامل أبي نعيم على ابن منته اذ كانا متعاصرين واشتدت العداوة بينهما وتقاذفا الاتهانات . وقد جرح أبو نعيم صاحب الحلية ، ابن منته في الكتاب الذي كتبه أبو نعيم في تاريخ أصبهان الذي طبع في لندن سنة ١٩٣١ م في مجلدين . وقد أفرد الذهبي كتابا في تراجم آل منته لم أفد عليه . غير ان الذهبي في ترجمته لابن منته هذا في تذكرة الحفاظ لم يشر الى أن ابن منته ألف كتابا في مناقب أحمد كما قال المؤلف -

(٣) ابن خلكان ترجمة رقم ٢٧ (٢) طبعة النهضة ح ١ ص ٥٧ ، واسمه أحمد بن الحسين البيهقي من كبار الحفاظ صاحب السنن توفي سنة ٤٥٨ هـ ألف كتابا في مناقب الشافعي وآخر في مناقب أحمد بن حنبل (وطبقات الحفاظ للذهبي طبعة ١٤ رقم ١٣) تذكرة الحفاظ طبعة حيدر اباد ح ٣ ص ٣١٠)

والحافظ أبو الفرج بن الجوزى (١) ، وعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازى ،
والحسن بن محمد الخلال (٢) . قال المقرئى فى كتابه المقفى : وقد أفرد
جماعة من الأئمة مناقبه بالتصنيف كالامام أبى حسن بن المتكادى .. وغيرهم
رضى الله عنهم أجمعين انتهى »

(١) فى كتابه «الجرح والتعديل» فى الفصل الخامس بمناقب أحمد بن حنبل وانظر أيضا معجم
تراجم النووى ص ١٤٣ / (٢) المعروف بتهذيب الاسماء واللغات طبعة منير بالقاهرة ح ١ ص ١١٢)
وراجع فيما يختص بابن الجوزى كتاب دراسات اسلامية بقلم جولدتسيهر ح ٢ ص ١٨٦
وهامش رقم ٢ (٣) نسى المؤلف كتابا كبيرا ألفه ابن الجوزى فى مناقب الامام أحمد ، ظل مخطوطا
الى أن نشره الخانجى بالقاهرة لأول مرة سنة ١٣٤٩ هـ ويقع فى ٥٤٤ صحيفة من القطع الكبير،
ولو كان قد أطلع عليه باتون لزوده بتفصيلات أوفى عند اعداد بحثه . وقد اختصره زكى الدين
عبد الله بن محمد الخزرجى الحنبلى ، وسمى مختصره : مجمل الرغائب فيما للامام أحمد بن
حنبل من المناقب ، توجد منه نسخة مخطوطة فى دار الكتب المصرية بالقاهرة تحت رقم ٥١٧٤
تاريخ -

(٢) طبقات الذهبى طبعة ١٣ رقم ٦٨ (٣) تذكرة الحفاظ ح ٣ ص ٢٨٩ وما بعدها ، أما
الاسماء الاخرى فلم أستطع تتبعها فيما تيسر لدى من المصادر وقد حاولنا ذلك فى التذييلات التى
الحقناها بالكتاب وفى جريدة المصادر الاضافية التى فات المؤلف أن يطلع عليها

الفصل الرابع

صفة أحمد بن حنبل

صفة أحمد بن حنبل (*)

١ - أسرته ٢ - الشواهد الدالة على مكانته
٣ - أحمد كفقيه ٤ - عاداته في معيشته ٥ - صفاته
وما تميز به ٦ - طابعه الدينى ٧ - مظهره الشخصى

١ - أسرته

لم تكن ذرية أحمد التى أعقبته مباشرة ، نابهة الشأن فى زمنها ، وذلك فيما عدا ولديه : صالح ، وعبد الله ، اللذين كان كل منهما من فضلاء عصرهما البارزين . وابنه الأكبر صالح الذى يكتنى بأبى الفضل ، ولد فى سنة ٢٠٣ هـ ، وقد روى الحديث عن أبيه ، وعن أبى الوليد الطيالسى (١) ، وعلى بن المدنى . وكان من تلامذته ، ولده زهير بن صالح الذى توفى فى سنة ٣٠٣ هـ ، والبعوى ، ومحمد بن مخلد . وقد تقلد صالح قضاء أصبهان ، وأمه العباسة بنت الفضل . وقد توفى صالح فى سنة ٢٦٥ هـ (٢) . وأما ولد أحمد الثانى ، عبد الله ، ويكنى بأبى عبد الرحمن (٣) ، فقد درس مادة وفيرة من الحديث على أبيه ، كما أخذ

(*) لا يوجد هذا العنوان فى الاصل

وقد جمعنا هنا العناوين الجانبية التى وضعها المؤلف بجانب فقرات كتابه ، بعد أن رقمناها تيسرا للمراجعة

(١) هو هشام بن عبد الملك البصرى أبو الوليد الطيالسى من اعلام المحدثين حدث عن عكرمة وشعبة ، وحدث عنه البخارى وأبو داود ، توفى سنة ٢٢٧ هـ عن اربع وتسعين سنة . راجع الطبقة السابعة رقم ٦٦ من تذكرة الحفاظ للذهبي ح ١ ص ٣٤٦ طبعة حيدر اباد سنة ١٣٣٣ هـ . وهو غير حافظ آخر من حفاظ الحديث اسمه أبو داود الطيالسى سليمان بن داود ، توفى سنة ٢٠٤ هـ وله مسند فى الحديث طبع فى حيدر اباد ، راجع تذكرة الذهبى ح ١ ص ٣٢٠ ومابعدها ، وترجم له صاحب شذرات الذهب ح ٢ ص ١٢ كما ترجم لأبى الوليد الطيالسى فى ص ٦٢ من نفس الجزء

(٢) يقول ابن خلكان فى الترجمة رقم ١٩ انه توفى فى رمضان سنة ٢٦٦ هـ

(٣) النجوم الزاهرة ح ٢ ص ١٣٦ (ح ٢ ص ٢٠٦ من طبعة القاهرة) ، وازن ذلك بعلاقته بمسند

أبيه ص ٢٤

عن عبد الأعلى بن حمّاد ويحيى بن معين ، وأبى بكر بن أبى شينة ، وكثيرين غيرهم
 وكان راسخ العلم بالحديث وعلمه (٢) . بيد أنه انفرد بميزة خاصة
 اشتهر بها ، وهى أنه كان أوسع الناس خبرة بالأحاديث التى أخرجها
 أبوه . وقد روى عنه أنه حين كان فى مرض الموت ، طلب أن يُدفن
 فى القطيعة التى كانت تسمى عادة بقطيعة الحربية ، فسأله أولئك الذين
 شهدوه عما اذا كان من الأفضل أن يدفن مع أبيه فى مقبرة باب حرب .
 ولكنه قال بأنه يؤثر أن يُدفن فى جوار نبى . وقد مات فى السابعة
 والسبعين من العمر

وكانت وفاته فى سنة ٢٩٠ هـ (١) . وللإمام أحمد ولد ثالث اسمه
 سعيد ، من سريّة يقال لها حسن ، وقد كبر هذا الولد الى أن ولى
 قضاء الكوفة . وكان له من هذه أيضا ، ولدان هما : محمد والحسن ،
 وبنت هى زينب ، كما ولدت له توأمين : الحسن والحسين ، وقد ماتا
 بعد ولادتهما ، ثم ولدت له بنتا أخرى اسمها فاطمة (٢) . وهذا هو كل
 ما نعرفه عن أسرة أحمد بن حنبل

(٢) ترجم المؤلف كلمة علل بأنها حجج Arguments وهى ترجمة غير صحيحة اذ المقصود من
 علل الاحاديث ضعفها . وفى الرسالة للشافعى المقصود بعلل الحديث ليس فيما يتعلق بتصحيح
 اسناده انما هو فى قيام شرعية العمل بالحديث اى فيما اذا كان الحديث ناسخا ام منسوجا ،
 راجع الرسالة طبعة القاهرة سنة ١٣١٢ هـ ومقالة جولديسهر فى نقد كتاب باتون فى مجلة
 المستشرقين الالمانية مجلد ٥٢ سنة ١٨٩٨ م ص ١٥٩

وفد وضع المؤلف بين قوسين بعد كلمة القطيعة جملة ترجمتها : « حى المدينة أو قطعة
 الارض التى يوجد فيها منزله » ووضع فى آخرها علامة استفهام تدل على انه غير متأكد من
 هذا الشرح ، ولا ادرى كيف فهم المؤلف ان قطيعة الحربية كان يوجد فيها منزل عبد الله بن
 احمد بن حنبل . وقد آثرنا اغفال هذا الشرح . والمعروف فى تاريخ العرب فى مصر الامصار ،
 وانشاء المدن ان القطيعة قسم من أقسام البلد ومنها قطائع ابن طولون فى مصر

(١) يقول ابن خلكان فى الترجمة رقم ١٩ أنه توفى لثمان بقين من جمادى الاولى ويقول آخرون
 من جمادى الثانية

(٢) وازن ذلك بما جاء فى أبى نعيم ورقة ١٥٢ ب (٢) ص ٩١ من طبعة القاهرة : قال
 ابو الفضل صالح : تم كتب لنا بشئ الى بادوريا ، فبلغه ، فجاء الى الكوة التى فى الباب فقال :
 يا صالح انظر ماكان للحسن وأم على فاذهب به الخ . وأم على التى أشير اليها هنا قد تكون زينب
 أو فاطمة المذكورتين آنفا .

قال المقرئ في كتابه المتقنى (١) : وأما أولاده فأكبرهم صالح وكنيته أبو الفضل ، ولد سنة ثلاث ومائتين . وروى عن أبيه وأبي الوليد الطيالسي ، وعلى بن المديني . وروى عنه ابنه زهير ، والبغوي ، ومحمد ابن مخلد ، وولى قضاء أصبهان . وهو من زوجته عباسية بنت الفضل ، توفي سنة خمس وستين ومائتين . وعبد الله وكنيته أبو عبد الرحمن سمع من أبيه وأكثر عنه ، ومن عبد الأعلى بن حماد ، ويحيى بن معين ، ومن أبي بكر بن أبي شيبة ، وخلق كثير

قال الذهبي : كان اماماً خيراً بالحديث وعلمه متقدماً فيه . ولما مرض قال : ادفنوني بالقضية . فقيل له : ألا تدفن عند أبيك ؟ يعنى بمقبرة باب حرب . فقال : صح عندي أن بالقضية نبيا مدفونا ، ولأن أكون في جوار نبى ، أحب لى من أن أكون في جوار أبى . وكانت وفاته في سنة تسعين ومائتين وسننه سبع وسبعون سنة كآبيه . وللإمام أحمد ولد اسمه سعيد من سرية يقال لها حسن ، ولى قضاء الكوفة ، وله منها ولد اسمه محمد وآخر اسمه الحسن ، وله منها بنت اسمها زينب ، وله منها ولدان توأمان أحدهما الحسن والآخر الحسين وماتا بالقرب من ولادتهما وله بنت اسمها فاطمة والله أعلم »

٢ - الشواهد الدالة على مكانته

ان قليلا من الشواهد الدالة على مكانة أحمد التي نظر اليه بها ، تعييننا على أن نضعه في المنزلة التي كان يشغلها حقا في تقدير معاصريه وتقدير الأجيال التالية . فقد قال تلميذه أبو زرعة بأنه لم ير قط رجلا اجتمع له من العلم والزهد والفقه والمعرفة ما اجتمع لشيخه

قال أبو نعيم (٢) : أخبرنا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد : حدثنا عبد الله بن محمد بن عبد الكريم قال : سمعت أبا زرعة يقول : ما رأيت

(١) ورقة ٣

(٢) الحلية ورقة ١٢٩ (٤) طبعة القاهرة ح ٩ ص ١٦٤

عيني مثل أحمد بن حنبل . فقلت له : في العلم ؟ فقال : في العلم والزهد والفقہ والمعرفة وكل خير ، ما رأت عيني مثله »

وهذا رأى في أحمد من آراء أخرى كثيرة مماثلة ، كلها تنطق في لهجة قوية بمناقب أحمد ، بيد أنها لا تزال تزودنا بأدلة راسخة توضح المنزلة الرفيعة التي بلغها أحمد في نظر القوم الذين عاش بين ظهرائهم ..

فهناك من الروايات المأثورة الكثيرة ما يجعله في صف واحد مع أعظم فقهاء الاسلام الذين ظهوروا في الأزمنة التي سبقت عصره ، كسفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ، والليث بن سعد ، وعبد الله بن عباس . كما يتجلى لنا منزلة أحمد في طريقة المؤلفين المسلمين عندما يستشهدون برأيه في فقهاء عصره . كما صنع النووي مثلاً فيما أورد من التراجم لعلی بن المدینی ، ویزید بن هرون ، ويحيى بن سعيد القطان ، ويحيى بن معين . وكما صنع ابن خلكان في ترجمته لكل من أبي ثور ، واسحق بن راهويه . وقد أكثر الذهبي أيضاً في كتابه الطبقات من ترديد آراء أحمد في رجالات عصره ، وشفعها بما يدل على توثيقه إياها وشدة احترامه لها . وقد كان من المسلم به لو أن أحمد جرح شخصاً ، فإن هذا الجرح لا يعدم أن يغض من شأنه وأن يزرى به في نظر الناس عامة

جاء في الخلية (١) : قال عمر بن الحسن القاضي : سمعت أبا يحيى الناقد يقول : كنا عند ابراهيم بن عرعة فذكروا على بن عاصم ، فقال رجل : أحمد بن حنبل يُضَعِّفُه . فقال رجل : وما يضره من ذلك إذا كان ثقة ؟ فقال ابراهيم بن عرعة : والله لو تكلم أحمد بن حنبل ، في علقمة ، والأسود لضرهما (٢) »

(١) ورقة ١٤٠ (٢) طبعة القاهرة ج ٩ ص ١٦٨

(٢) هذه العبارة واضحة في دلالتها وقوتها ، انظر في ترجمة علقمة بن قيس طبقات الذهبي ، الطبقة ٢ - التذكرة ج ١ ص ٤٥ ، فقيه العراق توفي سنة ٦٢ هـ . وترجمة الاسود النخعي في طبقات الذهبي ، نفس الطبقة رقم ٦ (التذكرة ج ١ ص ٤٨ ، فقيه الكوفة وهو ابن أخى علقمة توفي سنة ٧٥ هـ) وانظر النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٨٠ (٢) ج ١ ص ١٥٧ من طبعة القاهرة

ومما هو جدير بالذكر تزكية لأحمد ، رويت عن الحسين بن علي بن يزيد الكرايسى ، وهو فقيه لم يرض أحمد كثيرا عن آرائه الكلامية ، ومع ذلك فقد قال فيه : « مَثَلُ الذين يذكرون أحمد بن حنبل (بسوء) مثل قوم يجيئون الى (جبل) أبي قُبَيْس يريدون أن يهدموه بنعالهم (١) »

٣ - أحمد كَفِيهِ

كانت لأحمد شهرة واسعة في الفقه بين أصحابه وغيرهم من رجال عصره والعصور التالية . وكان ذكره نابها في بغداد في زمن أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، يدلنا على ذلك غضب أهل بغداد على الطبري لأنه أغفل ذكر أحمد بن حنبل في كتابه : « اختلاف الفقهاء (٢) » . وقد علل الطبري (٣) ذلك بأن أحمد لم يكن فقيها وإنما

(١) الجلية لابی نعيم ورقة ١٤١ (٢) ح ٩ ص ١٧٢ من طبعة القاهرة (٣) نثر قطعة القاهرة من هذا المخطوط المستشرق الألماني فريدريك كيرن Kern القاهرة سنة ١٣٢٠ هـ - ١٩٠٢ م ووجدت قطعة أخرى منه في استنبول نشرها المستشرق الألماني يوسف شاخت Schacht في ليدن سنة ١٩٢٢ م ، انظر كتاب : نشأة الفقه الاسلامي (بالانجليزية) بقلم يوسف شاخت ، لندن سنة ١٩٥٠ م ص ٣٢٨ ، وراجع جولدسيهر لقطعة القاهرة في كتابه : مذاهب التفسير الاسلامي (بالألمانية) ، ليدن سنة ١٩٢٠ م وترجمه الى العربية الدكتور عبد الحليم النجار ، القاهرة سنة ١٩٥٥ م ونقع الاشارة الى كتاب اختلاف الفقهاء للطبري بتحقيق كيرن في ص ١٢٣ ، ١٢٤ من الترجمة العربية

(٣) ذكر ابن الاثير في كتابه الكامل في التاريخ (ح ٦ ص ١٧٠ وما بعدها طبعة مئير بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ) في حوادث سنة ٢١٠ هـ ماحدث من عامة بغداد عند وفاة الطبري ومنعت من دفنه نهارا ونقل المؤلف عن ابن مسكويه أن سبب عداوة العامة للطبري أنهم ادعوا عليه الرفض والالحاد ولكنه استبرك على ذلك قائلا : « وأما مادكره (اي ابن مسكويه) من تعصب العامة فليس الامر كذلك . وإنما بعض الحنابلة تعصبوا عليه ووقعوا فيه فتبعهم غيرهم ولذلك سبب وهو ان الطبري جمع كتابا ذكر فيه اختلاف الفقهاء ، لم يصنف مثله . ولم يذكر فيه احمد بن حنبل ، ففيل له في ذلك . فعال : لم يكن فقيها وإنما كان محدثا . فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة شغبوا عليه وقالوا ما أرادوه . » وقال ابن الاثير في موضع آخر بأن الحنابلة كانت تمنع طلاب العلم من الاخذ عن الطبري والاستماع اليه . وتوجد تفصيلات أوفى في الترجمة المستفيضة التي أوردتها ياقوت عن الطبري في كتابه معجم الادباء (ح ١٨ طبع رفاعة بالقاهرة سنة ١٩٢٧ م) وقد اعتمد فيها على كتاب مفقود ألفه ابن الطبري في سيرة أبيه . وقد جاء في ترجمة ياقوت للطبري ح ١٨ ص ٥٨٥٧ بان الحنابلة قصدوا الطبري في الجامع يوم الجمعة وسأوه عن احمد ابن حنبل وحديث الجلوس على العرش فقال ابو جعفر : اما احمد ابن حنبل فلا يعد خلافة (أي ان رأيه ليس بحجة) فقالوا له لقد ذكره العلماء في الاختلاف فقال : ما رأيته روى عنه ولا رأيت له أصحابا يعمل عليهم . وأما حديث الجلوس على العرش فمحال . فلما سمع الحنابلة ذلك منه ، وثبوا ورموه بمجابرهم وقيل كانت ألوف . فقام ابو جعفر فدخل داره فرموا بالحجارة حتى صارت على بابه كالتل العظيم . وركب «نازوك» صاحب الشرطة في عشرات الألوف من الجند يمنع عنه العامة ووقف على بابه يوما الى الليل وأمر برفع الحجارة عنه . وهذه الفضة تدل على ان الحنابلة في بغداد كانوا منذ السنوات الاخيرة في حياة احمد الى سنة ٢١٠ وما بعدها حكومة في داخل حكومة انتحلوا فيها لانفسهم من السلطة مايفرضون بها آراءهم على الناس

كان محدثاً (١). وقد قيل عن أحمد في زمنه انه أفقه من علي بن المديني (٢) ، وتكلم أحد المحدثين عن مكانة أحمد في الحديث ، فذهب الى أن أحمد اذا وافقه في حديث ما ، فهو لا يسألي بمن يخالفه فيه (٣) . وقد عرف الناس له مقدرته الفائقة على التمييز بين الأحاديث الصحيحة والأحاديث الموضوعة . والأثر العام الذي قد يحدث في نفوسنا بعد الاطلاع بتفصيلات سيرته التي ألفنا فيما بينها في كتابنا هذا ، والوقوف على الملاحظات الأدنى أهمية ، وهي ملاحظات لم نر من المناسب ادراجها في قصتنا ، ذلك أن آراء أحمد في مسائل الفقه ، تتسم بطابع الجد والوقار وكثيرا ما تدل على الحذق والبراعة ولكن يغلب عليها دائماً التقيد وضيق الأفق

(ولا يمكن أن يعد اعتماده بصفة عامة على الكتاب والسنة في استنباط الأحكام) مما يعيب طريقته من وجهة النظر الاسلامية . فمنهجه من وجهة النظر هذه ، يعد أكثر سلامة وأمناً من أى منهج آخر ، يطرح جانباً هذين المصدرين ، مؤثراً عليهما الرأي الشخصي (٤) . غير أن مبدأه في التقيد الحرفي بالنصوص والتزامه التزاماً تاماً بما لا يخرج عنها ، وطريقته التحكيمية المعتسفة التي تستعصى على الاصلاح في تأويل أدلته وتخريجها ، كان مما يبطل دعواه في ارشاد الناس الى أن يتخذوا لأنفسهم موقفاً سليماً ثابتاً في المسائل الاعتقادية . فقد كان من المتعذر عليهم اتخاذ هذا الموقف لو أنهم اتبعوا منهجه . اذ أن الاعتقاد المبني على حرفية الألفاظ

(١) راجع كتاب الظاهرية بقلم جولدسيهر ص ٤ وتاريخ أبى الفداء ح ٢ ص ٣٤٤

(٢) تهذيب النووي ص ١٤٤ () طبعة بالقاهرة ح ١ ص ١١١ وجاء فيها : وسئل أبو حاتم عن احمد بن حنبل ، وعلى بن المديني فقال : كانا في الحفظ متقاربين وكان احمد افقه ، ولا تنيد هذه العبارة ان احمد كان عالماً بالفقه وانما تفيد ان احمد كان اكثر فهماً للأحاديث التي يحفظها

(٣) المصدر السابق (٤) وجاء فيه : قال عمر بن احمد الناقد : اذا وافقني أحمد على حديث

لا ابالي من خالفني

(٤) راجع كتاب المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما ص ٩٥

فى تعاليم دين ما ، اعتقاد ضيق متشدد ، ينزع الى التحكم والجدل ..
والجدل ..

والحياة التى يتقيد فيها الناس بالنصوص الحرفية فى مسلكهم ونهجهم ليست الا حياة عسيرة شاذة فى طابعها ، اذا وصفت بالقسط والعدالة فانه ينقصها الأنس والبهجة . وان تنزهت عن شوائب اللوم والمؤاخذة فهى حياة منفرة غير جذابة . والرأى فيها أنها جادة مغلصة ، وقضاياها سليمة صحيحة ، ولكنها مع ذلك بنيت على أسس خاطئة وما شيد عليها من بناء يبدو فاقدا لكل رونق وبهاء

٤ - عاداته فى معيشتة

ولنلحق بهذا قدرا يسيرا من الملاحظات المتعلقة بأخلاق أحمد بن حنبل وعاداته المعيشية ، مع اضافة اشارة عابرة الى مظهره الشخصى . فقد كان متقشفا زاهدا الى الدرجة القصوى ، حتى ان حياته فى الواقع لتوصف بأنها كانت صياما متواصلا . وقد قيل عنه انه لم يشتر قط فى حياته رمانا ولا سفرجلا (١) ، ولا أى نوع آخر من أنواع الفاكهة ، ما لم يكن ذلك بطيخا أو عنبا كان يتناوله بالخبز . وكثيرا ما كان يستغنى عن الحل عندما يأكل خبزا

وكثيرا ما كان أبناؤه يشترون أشياء يرون أنها مباحة بل هى ضرورية ولكنها معدودة فى نظره من مظاهر الترف والتنعيم فى العيش ، فكانوا يخفون عنه هذه الأشياء اخفاء تاما حتى يتجنبوا تشدده . وقد قيل : انه لما أشخص الى اسحق بن ابراهيم فى سنة ٢١٩ هـ ، بعد أن سجن فترة طويلة ، نظر اسحق فى السلة الصغيرة التى كانت مع أحمد ، فوجد أن مئونة طعامه لا تتعدى رغيفين ، وقدرا من القثاء والملح

(١) تهذيب النووى ص ١٤٥ (ب) ح ١ ص ١١٢ من طبعة منير بالقاهرة وجاء فيها : «قال(أى) صالح بن احمد) : وما رأيت أبى قط اشترى رمانا ولا سفرجلا ولا شيئا من الفاكهة الا أن يشتري بطيخة فيأكلها بخبز او عنب او تمر . قال : وكثيرا ما كان يأتمم بالحل »

جاء في المقرئى (١) : « فبعث اسحق بن ابراهيم ، فأخذ الزبيل الذى فيه افطار أبى عبد الله ، فنظر اليه ، فاذا فيه رغيفان ، وشيء من قثاء وملح . فعجب اسحق من ذلك »

وكان أحمد يكره كراهة شديدة أن يتناول من أحد صلة مالية . وكان يبذل أدنى قدر من الجهد ليؤثر نفسه بشيء من المال . وكانت أسعد أوقات حياته ، هى تلك التى يخلو منها كيسه من أية قطعة مسكوكة من قطع العملة (٢) . وكانت حاجاته قليلة ، ونفقاته تكاد تكون معدومة (٣) . ولقد مر بنا فى تضاعيف قصتنا الأمثلة الوافرة الدالة على زهده وإثاره للفقر ، وفى مقدورنا أن نثورد ما يزيد عليها من الوقائع المماثلة ، بدرجة أوفى وأكثر ، لو رأينا ذلك مما يستساغ سوقه ويستصوب إirاده

هـ - صفاته وما تميز به

وكان مسلكه مسلك الرجل المنصرف عن شواغل الحياة العادية . ولو أنه كان فى مسائل العلم ، يبدى نحوها دائماً أقصى درجات الاهتمام جاء فى الخلية لأبى نعيم (٤) : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد ابن محمد القاضى ، قال : سمعت أبا داود السجستانى يقول : لقيت مائتين من مشايخ العلم ، فما رأيت مثل أحمد بن حنبل ، لم يكن يخوض فى شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا ، فاذا ذكر العلم تكلم « وكان رجلاً رقيق الشعور لين الجانب . ولكنه قابل للثارة حتى تغلب عليه الحدة والعنف ، وذلك اذا ما شهد ظلماً يلحق بالناس أو أذى أوقع بهم ، أو ضلالة فى حق الدين جهر بها مبتدع

(١) المقتنى ورقة هـ

(٢) النووى ص ١٤٥ (*) فى نسخة تهذيب التى طبعها منير بالقاهرة فى ترجمة أحمد ح ١ ص

١٠ لا يوجد بها ما يشير اليه المؤلف ولعله استقى هذا البيان من مصدر آخر ،

(٣) النووى ص ١٤٤ (ليس فى طبعة القاهرة من تهذيب النووى ما يدل على هذا أيضاً)

(٤) ورقة ١٣٨ ب (*) > ٩ ص ١٦٤ من طبعة القاهرة

وكان أحمد معروفًا بعدالته وتحرزه في أحكامه ، حتى بين غير المسلمين ، والأمثلة على ذلك كثيرة . حسبنا منها ما قد روى من أن امرأتين مجوسيتين اختصمتا على ميراث لهما أمام قاض من قضاة المسلمين ، ولما صدر الحكم ، قالت المرأة التي كان الحكم في غير مصلحتها : « ان كنت قضيت علّى بقضاء أحمد بن حنبل رضيت ، والا فانى لا أرضى » . ورأى صاحب القصة أنها مثل على نزاهة أحمد وسمو مناقبه ، بلغ من الوضوح والقوة ما حمّله على أن يحدث بهذه القصة القريب والبعيد ممن كان يلقاها من الناس (١)

وعُرف عن أحمد كراهته للخفة والمزاح ، وخاصة إذا صدر هذا عن الفقهاء ورجال العلم . وقد حدث في مناسبة معينة أن استرسل يزيد بن هرون في مازحة مستملية ، فتنحج أحد الحضور في المجلس . ولما استفسر يزيد عن يكون ذلك الذى أبدى تلك العلامة الظاهرة من علامات الاستهجان ، قيل له بأنه أحمد بن حنبل ، فما لبث يزيد أن ضرب يده على جبينه ، والتفت الى أدنى الناس اليه ، سائلا إياهم في لهجة من اللوم والتأنيب ، لِمَ لم يخبروه بوجود أحمد في المجلس ، حتى يتخذ السميت والوقار أمامه

روى أبو نعيم (٢) هذه القصة فقال : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا

(١) أبو نعيم ورقة ١٤١ (٢) ح ٩ ص ١٧٣ من طبعة القاهرة حدثنا أبي حدثنا أبو الحسن حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل ، حدثني نوح بن حبيب القومى ، قال : كان عندنا يعنى بلدهم امرأتان مجوسيتان فاخصمتا في موارث لهن الى رجل من المسلمين ، فضى لواحدة منهن على الأخرى . فقالت : ان كنت . . . الخ ، قال نوح : فحدثت به أهل طرسوس والشامات (٢) يقول مترجم الكتاب أن هذه القصة التى أوردتها أبو نعيم في الجلية من الراجح أن تكون قصة موضوعة قصد بها التزديدون أن يؤكدوا تحرز أحمد في أحكامه وهى من قصص الكرامات المعروفة في اللغات الاجنبية باسم Hagiography وأحمد بن حنبل ليس في حاجة الى هذا فوقائع سيرته فغنى عنه ولو انه استشير فيما وضع من القصص لتمجيد واضفاء صفات البطولة عليه لرفضها رفضا باتا . ومن هذه المبالغات ما حاوله بعض كتاب سيرته من ايجاد تماثل بين حركة البردة في عهد أبى بكر ، والمنحة في عهد المأمون والمعتمد والواثق ، وأن الاولى قام فيها أبو بكر والثانية قام فيها أحمد بن حنبل ، والفرق شاسع بين الحركتين من وجوه كثيرة (١٠) الحلية ورقة ١٤٠ (٢) ح ٩ ص ١٦٩ من طبعة القاهرة

الحسن بن على المعمرى قال : سمعت خلف بن سالم يقول : قال : كنا في مجلس يزيد بن هرون ، فمزح يزيد مع مستمليه ، فتنحج أحمد بن حنبل ، وكان في المجلس ، فقال يزيد : من المتنحج ؟ فقليل له : أحمد بن حنبل . فضرب يزيد بيده على جبينه وقال : ألا أعلمتموني أن أحمد هاهنا ، حتى لا أمزح »

وكان من عادة الناس أن يقولوا بأن أحمد بن حنبل نفسه يعد اختبارا يختبر به المرء ، ومحنة يمتحن بها . وروى عن ابن أعين أحد ناظمي الشعر عدة أبيات في هذا الصدد

قال أبو جعفر محمد بن دينار الموصلى (١) : أنشدني بن أعين في الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه :

أضحى ابن حنبل محنة مأمونة وبعب أحمد يعرف المتنسك
واذا رأيت لأحمد متنقضا فاعلم بأن ستوره ستهتك

٦ - طابعه الدينى

لدينا دلالة توضح لنا خلق أحمد وشخصيته من وجهة النظر الدينية ، نلمسها في الأبيات التالية التى قيل انها من نظمه ، والتى تزودنا بما يمكن أن نهتدى اليه من أثر وحيد يدل على موهبته الشعرية

روى أبو نعيم (٢) : حدثنا أبو على عيسى بن محمد الحريجى ، حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب النحوى ، قال : كنت أحب أن أرى أحمد بن حنبل ، فدخلت عليه فقال : فيم تنظر ؟ فقلت له فى النحو والعريضة والشعر ، فأشددنى أحمد بن حنبل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل خلوت ، ولكن قل على رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ما مضى وان الذى تخفى عليه يغيب

(١) طبقات الشافعية لابن السكيت ص ١٢٤ (٢) طبعة القاهرة ج ١ ص ٢٠٢

(٢) العلوية ورقة ١٥٥ أ (٢) ج ١ ص ٢٢٠ من طبعة القاهرة

لهونا عن الأيام حتى تتابعت ذنوب" على آثارهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ويأذن لى فى توبة فأتوب (٢)
وقد قيل بأنه اعتاد أن يصلى كل يوم ثلاثمائة ركعة . وأنه حتى بعد
أن ضرب وبرح به الضعف ، بلغ عدد الركعات التى كان يصليها كل يوم
مائة وخمسين ركعة . وكان يختم تلاوة القرآن مرة كل سبعة أيام . وكان
من عادته فى الليل ، أنه بعد صلاة العشاء ، ينام لفترة قصيرة ، ثم ينهض
ليصلى فرضا أو نفلا حتى الصباح

جاء فى الحلية (١) : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد
ابن حنبل قال : كان أبى يصلى فى كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة ، فلما
مرض من تلك الأسواط أضعفته

وكان يصلى فى كل يوم وليلة مائة وخمسين ركعة . وقد كان قرب من
الثمانين . حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال :
كان أبى يقرأ فى كل يوم سبعا ، يختم فى كل سبعة أيام . وكانت له
ختمة فى كل سبع ليال سوى صلاة النهار . وكان ساعة يصلى عشاء
الآخرة ، ينام نومة خفيفة ، ثم يقوم الى الصباح يصلى ويدعو »

ولما كان مقيما ببغداد ، قيل بأنه ثابر على ملازمة داره ، لا يبرحها ،
حتى ان أحدا لم يكن ليراه ، ما لم يخرج لأداء صلاة الجماعة ، أولتشييع
جنازة أو لعيادة مريض . وكان حريصا على العمل بما جاء فى الأحاديث
النبوية وملاحظة دقائق العبادات والتزام أدائها . وقد سبق لنا أن ذكرنا
معاونة أبنائه اياه على الوضوء ، وذلك قبيل موته . فكان على الرغم من

(٢) هذه الإبيات القوية فى معناها أوردها الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين منسوبة الى
صالح بن عبد القدوس وهو شاعر من شعراء الدولة العباسية اتهمه المهدي بالزندقة وقتله
فى سنة ١٦٧ هـ ، راجع اعمال مؤتمر المستشرقين المنعقد فى لندن سنة ١٨٩٣ م ج٢ ص ١١٨
نقلا عن جولد تسيهر فى مقاله المذكور آنفا ، بمجلة المستشرقين الالمانية مجلد ٥٢ سنة ١٨٩٨ م
ص ١٦٠

(١) ورقة ١٤٣ أ (٢) ج٩ ص ١٨١ من طبعة القاهرة

عجزه عن الكلام ، يشير اليهم أن يخللوا الماء بين أصابعه ، وأن يغسلوا باطنها وظاهرها

قال أبو نعيم (١) : قال عبد الله : وكان أبى أصبر الناس على الوحدة ، لم يره أحد الا فى مسجد أو حضور جنازة أو عيادة مريض ، وكان يكره المشى فى الأسواق .. حدثنا أبى ، حدثنا أحمد ، حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل ، قال : خرج أبى الى طرسوس ماشيا ، وخرج الى اليمن ماشيا ، وحج خمس حجج ، ثلاثا منهن ماشيا (٢). ولا يمكن لأحد أن يقول انه رأى أبى فى هذه النواحي يوما ، الا خرج الى الجمعة ، وكان أصبر الناس على الوحدة . ويشتر (٣) رحمه الله ، فيما كان فيه ، لم يكن يصبر على الوحدة . فكان يخرج الى ذا ساعة والى ذا ساعة »

٧ - مظهره الشخصى

كان أحمد فى مظهره الشخصى حسن الحلقة ربعة (٤) وكان يخضب رأسه ولحيته بالحِنَّاء والكَتَم خضابا ليس بالقانى ، لأنه كانت تثرى فى لحيته شعيرات سود . وقد بدأ خضاب رأسه ولحيته حين بلغ الثالثة والستين من عمره . ثم واصل ذلك اقتداء بسنة النبى (٥) (عليه السلام)

(١) الحلية ورقة ١٤٣ ب (*) ح ٩ ص ١٨٣ من طبعة القاهرة (*) فى تهذيب النووى طبعة منير بالقاهرة ح ١١١ ، ١١٢ : « قال صالح بن حنبل : قال أبى : حججت خمس حجج ثلاثا منهن راجلا ، انفتت فى احداهن ثلاثين درهما (*) هو بشر بن الحارث بن عبد الرحمن ، المعروف بالحافى من كبار الصالحين فى بغداد ، وكان معاصرا لأحمد بن حنبل وتوفى سنة ٢٢٦ هـ أو ٢٢٧ هـ ، ترجم له ابن خلكان رقم ١١١ ، ج ١ ص ٢٤٨ وما بعدها (النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م) ، وله ترجمات مطولة فى كتب طبقات الصوفية مثل حلية الاولياء لأبى نعيم ، واقواله فى الورع والزهد منتورة فى كتب الادب والتاريخ أورد القسرى جانبا منها فى رسالته فى التصوف . وترجم له صاحب شذرات الذهب ح ٢ ص ٦٠ : ٦٢ . ويحاول المترجمون لاعلام الصوفية فى القرن الثالث الهجرى أن يخففوا من حدة المنازعات التى بدأت تحدث بين رجال الحديث والفقهاء من جانب والصوفية من جانب آخر والثى بلغت ذروتها فى العصور التالية . وقد عرفنا فى سيرة أحمد بن حنبل ما وقع بينه وبين الحارث بن أسد المحاسبى من خلاف . فقد نصح أحمد أتباعه ألا يحضروا مجلس المحاسبى ولا يقرأوا كتابه : الرعاية لحقوق الله (* *) فى الاصل ما معناه « متوسط الطسول » والربعة يفتح الراء وسكون الباء هو الوسيط القائمة الذى ليس بالطويل ولا القصير . وقد ورد فى مصدر آخر أن أحمد كان طويلا ففى ترجمة الذهبى لأحمد فى كتابه تاريخ الاسلام أن ابا جعفر بن ذريح العكبرى قال : كان (أحمد) شيخا مخضوبا طويلا أسمر شديد السمرة . (ص ٦٠ من مقدمة المسند لأحمد شاکر)

(٢) ابن خلكان ترجمة رقم ١٩ ، والحلية لأبى نعيم ورقة ١٣٨ ب (ح ٩ ص ١٦٢ من طبعة القاهرة) وقد جاء فيها : قال عبد الله : وخضب أبى رأسه ولحيته بالحِنَّاء والكَتَم وهو ابن ثلاث وستين سنة

آراء أحمد بن حنبل

آراء أحمد بن حنبل (١)

- ١ - آراؤه ٢ - المصادر ٣ - القرآن ٤ - وحدانية الله ٥ - صفات التجسيم والتشبيه ٦ - تأويل القرآن ٧ - المصادر الشرعية الزائدة على القرآن ٨ - تأويل الحديث ٩ - سبب انتهاج هذه الطريقة واتباعه لهذا الأسلوب في حياته ١٠ - تقديس المخلقات ١١ - سيق القضاء بالحوادث ١٢ - مذهب أحمد في الإيمان ١٣ - موقف أحمد من رعاية السلطان ١٤ - كراهية أحمد للعقائد الكلامية المنسقة ونتائجها

١ - آراؤه

كان أحمد بن حنبل رجلاً هَيَّأَ مزاجه الطبيعي الخاص ، ليس فحسب لهذا الطراز من الحياة التي عاشها ، وقد كانت حياة عنيفة في تدقيقها وتحريزها ، صادقة في زهداها وتقلُّلها ، ضارية في استنكارها لكل تحرر (عن أصول الدين الثابتة) (٢) ، ولكنها نزعَت به أيضا الى تلك الآراء والمعتقدات التي كانت ، الى حد ما ، مبعث القوة والحركة لحياة كهذه (٣) ولم تكن عقائده خالية تماما من أية محاولة من جانبه للتوفيق والملاءمة بينها وبين ظروف العصر الذي عاش فيه . ولكن مدى هذه الملاءمة كان أدنى قدر مستطاع ، أمكن لأحمد أن يقوم به . وفي الحق ، اذا وجَّهنا نظرنا أينما شئنا في سيرته ، فلن نجد البتة من عناصر التقريب والتوفيق ما صدر فيه أحمد عن رغبته واختياره . وان وجدَ شيء منها فدرجتها تعد أقل درجة ممكنة

(١) هذا العنوان كالعناوين السابقة ليس موجودا في الاصل

(٢) زيادة عن الاصل لتوضيح مراد المؤلف

(٣) دوى أبو نعيم في الحلية ورقة ١٥٣ ب (ج ٩ ص ٢١٥ من طبعة القاهرة) : « فدخلت اليه ، فأكببت عليه وقلت له : يا أبة ، تدخل على نفسك الغم ؟ فقال : يا بني ياتيني مالا أمسكه »

٢ - المصدر

وانا لنرمي الى القاء نظرة عامة نستند فيها على البحث الذي قمنا به ، وعلى ما تيسّر لنا من المصادر القليلة الأخرى ، وذلك لكي نصل - اذا كان هذا في مقدورنا - الى تكوين فكرة صحيحة صادقة عن الآراء أو المبادئ الاعتقادية الرئيسية التي استعان بها أحمد بن حنبل ليجعل منها نهجا يوجه حياته على مقتضاه . وان وصيئته التي أوردناها في الصفحات السابقة (١) ، لهي وثيقة عديمة اللون والطابع . اذ لا تزودنا بأية فكرة عن معتقداته الخاصة التي تتم عن شخصيته

ويتألف الاعتراف الذي تشتمل عليه من عبارات متداولة شائعة ، يمكن أن تصدر عن أى مسلم آخر ، مهما كان الضرب الذي ينتمى اليه أو الشخصية التي ينفرد بها . أما كتاب أحمد بن حنبل الى عبيد الله بن يحيى الذي رد فيه على استفسار الخليفة عن موضوع القرآن ، فانه يحوى من السمات المميّزة الكثيرة ما يحملنا على اعتباره صورة مُجَمَّلَة تمثل عقيدة أحمد (٢) أصدق تمثيل ، وتعبّر عنها أدق تعبير . كما أن المحادثة التي دارت بين أحمد واسحق بن ابراهيم عن القرآن ، تتفق اتفاقا تاما مع الروح الغالبة على مبادئ أحمد ونمط حياته ، وتزودنا بعرض شيق لمذهب أحمد في القرآن (٣) . فضلا عن أن المحاكمات التي جرت لأحمد أمام اسحق بن ابراهيم والمعتصم ، وما صاحبها من محادثات ومناقشات ، تهيئ لنا مادة تلقى كثيرا من الضياء على آراء أحمد ، وتكشف لنا عما تحتويه من عناصر شخصية ، وسمات فردية (٤)

(١) ص ١٤٧ بالاصل

(٢) ص ١٥٥ بالاصل

(٣) ص ١٢٩ بالاصل

(٤) وما بعدها بالاصل

٣ - القرآن

ولنبداً بمذهب أحد في القرآن (١) . فقد أقر فيه بأنه كلام الله ، وقصد بذلك أنه التعبير عن علم الله ، وأنه باعتباره تعبيراً يجب أن تتصور أنه قائم بصفة أزلية في الذات الالهية . أو اذا كان علينا أن نعيد صوغ هذه الفكرة فلنا أن نقول انه ما دام هناك من أمر موضوعي بالنسبة لذاته تعالى ، قام كلامه تعالى متعبراً عن علمه . وقبل أن يظهر الموضوعي في عالم الوجود ، فكلام الله تعالى قائم في ذاته وليس كلاماً واقعاً (٢) وهذا يؤدي بنا الى اثبات أزلية كلام الله . ومن ثم اذا تعذر علينا أن نتصور العلم الالهي قائماً على صورة مجردة من التعبير الرمزي الذي يلزمه ملازمة أزلية ، واذا نظرنا الى كلام كهذا ، على اعتبار أنه ملكة تعبر عن نفسها كطاقة وليست خلقاً ، فانه يترتب على ذلك أن كلام الله تعالى ليس أزلياً فحسب ، ولكنه أيضاً غير مخلوق . وقد يعترض على ذلك بأن النقطة المتنازع عليها ، لا تنحصر في كلمة الله ، ولكن في القرآن على اعتبار أنه كلام الله (٣) المعروف للناس . ومع ذلك فان علينا أن نلاحظ الفرق الواضح بين القرآن المكتوب أو المتلو ، وكلام الله الضروري

(١) ص ١٠١ وما بعدها ، ووازن ذلك بما جاء في كتاب الظاهرية بقلم جولدسبير ص ١٢٨ وما بعدها . وقد ذهب بعض فقهاء أهل السنة الى أن كلام الله صفة من صفاته ، انظر كتاب المنازعات الكلامية بقلم هوتسا ص ١٠٣ وما بعدها . ووازن ذلك بما جاء في كتاب الملك والنحل للشهرستاني ، ومع ذلك فان كافة الشواهد والادلة الموجودة لدينا تدل على ان عقيدة الامام احمد بن حنبل هي كما بسطانها

(٢) هذه العبارة في الاصل هي :

As long as there has been present to God that which is objective to Himself, so long has there been a Word of God as the expression of this knowledge, before the objectives came to existence the Word of God was potential in him and not actual

ولعل في ايراد نص عبارة المؤلف ما يعين على توضيح مراده

(٣) في الاصل استعمل المؤلف اداة التكرير مع عبارة : كلمة الله A Word of God واكد الإداة بحرف طباعة خاصة . اما عبارته الاخرى « كلام الله » فهي في الاصل : الكلمة الالهية : A Word of God مع توكيد اداة التمرير بحرف طباعة خاصة للمقابلة بينها وبين كلمة الله .

الساوى (١)

ولم يوضح هذا أيضا بين المتجادلين (في موضوع خلق القرآن) (*) لمحض الرغبة في الجدل وسعيا وراء الظفر في المناظرة وقطع الخصوم . مع أن هذه التفرقة تمثل في نظرنا اعتقادا في مدى الشقة القائمة بين كلام الله الظاهر وكلامه الخفى . فإن كافة الكلمات التى كلم الله بها موسى هى

(١) راجع كتاب : تاريخ الآراء السائدة في الاسلام (بالمائة) بقلم فون كريمير ص ٢٢٧ ، وكتاب : المعتزلة بقلم شتينر ص ٣٨ وما بعدها . وما جاء في هذين الكتابين عن نظرية أهل السنة في القرآن يختلف عما استخلصت من رأى أحمد بن حنبل في هذا الموضوع . ولم يتفرد أحمد ، فيما يبدو بهذا الرأى في القرآن ، بل شايسته جمهرة كبيرة من الناس سواء منهم المتعلمون والعوام ممن كانوا يميلون الى افكاره ومذهبه . وإن غالبية أولئك الذين بسطوا نظرية أهل السنة واشاعوها يدركون الفرق بين القرآن الظاهر والقرآن الخفى . بيد انهم لا يدهبون الى أبعد من هذا . وعلى ذلك فهم يجعلون الكتاب بالصورة التى يعرفه الناس بها مماثلا لنظيره المحفوظ في السموات . والتفرقة الكبيرة التى ننبه اليها انما تقع بين القرآن الظاهر وبين الكلام الخفى لله تعالى . والاخير ليس معادلا للقرآن ولكنه غير متناه في سعته ورحابته . وإن الصلة القائمة بين هذه الفكرة وبين مذهب الكلمة (اللوغوس) Logos الذى يقول به مسيحيو الشام (هوسا ص ١٠١ هامش رقم ١) لتؤيد عرضنا للمذهب القرآنى كما أوردناه في متن كتابنا . فإن تجلى الكلمة (اللوغوس) في عيسى المسيح يجب أن يقابل بالكلمة السماوية غير المخلوقة القائمة في ذات الاب

(يقول مترجم الكتاب ان المؤلف يعقد هنا موازنة بين عقيدة المسيحيين القائلة بأن كلمة الله غير مخلوقة ، ومذهب أهل السنة الإسلامية القائل بأن القرآن غير مخلوق . وإن اثبات عقيدة المسيحيين في أن كلمة الله غير مخلوقة من الأمور المسورة في اللاهوت المسيحى لأن المسيحيين يقولون بألوهية عيسى ، وقد نبه الى هذه الخليفة المأمون في كتابه الاول الخاص بالحنة . ولم تتعرض عقيدة المسيحيين في الكلمة لاي شك من جانب الفرق الدينية التى ظهرت في تاريخ المسيحية ، وذلك فيما عدا فرقة آريوس Arius . اما « اللوح المحفوظ » الذى ورد ذكره في القرآن في سورة البروج ٨٥ آية ٢٢ (وأذن ذلك بما جاء في كتاب المعتزلة بقلم شتينر ص ٣٩ وهامش رقم ٥ وبما ورد من بيان سابق في هذه الصفحات ص ٦٧) فهو في الحق الاصل الاول للقرآن الظاهر المعروف لنا . وهو اصل محفوظ في السموات . ومع ذلك فإن هذا الاصل السماوى ذاته ليس مساويا في سعته وامتداده لكلام الله الازلى غير المخلوق الذى يعد اللوح المحفوظ احدى مظاهره التى توضحه وتكشف عنه . ومن ثم فانا نعتقد أن أهل السنة في عصر أحمد بن حنبل ذهبوا في عقيدتهم في القرآن الى مذهب يتألف من ثلاثة عناصر هى : ١ - القرآن الظاهر (المنزل) ، ٢ - القرآن السماوى ، ٣ - كلام الله الازلى

(*) زيادة عن الاصل لتوضيح مراد المؤلف

كلام الله (١) . وهى حقا لا تتعلق بالقرآن المعروف لنا ، ولكنها تتعلق بكلام الله الأزلى . وكلمات الله جميعا لمحمد (عليه السلام) ولسائر الأنبياء هى كلام الله ، كما أن كافة تلك الكلمات التى كلم الله تعالى بها عيسى ابن مريم هى أيضا كلام الله

وقد استعان المتناظرون (المسلمون) فى جدلهم بالكلمات التى خوطب بها هؤلاء الرسل المختلفون ، لكى يبرهنوا على أن القرآن المعروف لنا أزلى غير مخلوق ، ولو أن هذه الكلمات لا تؤلف جزءا من القرآن . ذلك لأنها مضافا إليها مادة القرآن ، هى مما أنزل من كلام الله الأزلى وأوحى به . ولكن هذا التنزيل ليس مستغرقا لكلام الله الأزلى وإنما هو جزء منه . وهذا يؤدى بنا الى المذهب القائل بأن كلام الله تعالى وحدة ، كما أنه أزلى غير مخلوق (٢)

ولا يمكن أن يعد هذا الكلام وحدة ، اذا اقتصرنا فى الاستدلال على كلمات الله الظاهرة . ولكن اذا اعتبرنا هذه الكلمات ونظرنا اليها كملكة للتعبير ، كامنة أو فاعلة ، متعلقة بالذات الالهية ، فانا قد نرى كيف عُد كلام الله وحدة متصلة مستمرة ، أو نراه على أنه وحدة فى حاضر أزلى ، اذا تهيأ لنا أن نحسن التعبير عن حقيقة تتعلق بالذات الالهية المنزهة عن الحوادث وعن أى تعاقب زمنى . وكلام الله هذا ، سواء اذا نظرنا اليه على اعتبار أنه أفكار وعبارات ، هو بالضرورة صادق معصوم مبرا عن أية شائبة (٣) . ومن ثم فكلام الله تعالى أزلى غير مخلوق ، وهو وحدة متصلة ، منزهة معصومة . وهذا هو ما نعتقد أنه كان مذهب أحمد بن حنبل فى القرآن ، ومذهب من كان على غرار من الفقهاء والمحدثين . وقد استعنا بالطرائق العصرية فى التعبير لتوضيح آرائه . ومع ذلك فهذه الآراء

(١) ص ٣٨

(٢) وازن ذلك بما جاء فى كتاب الظاهرية بقلم جولد تسيهر ص ١٣٨ وما بعدها ، وكتاب

المنازعات الكلامية بقلم هرتسما ص ١٢٩

(٣) راجع كتاب المنازعات الكلامية بقلم هرتسما ص ١٠١

ليست مما نتحلله لأنفسنا وإنما هي آراء أحمد بن حنبل

والقرآن من حيث علاقة البشر به في الحياة الدنيا (١) ، يجب أن ينظر إليه كبيان عن كلام الله الواحد (٢) الذي يتألف منه وحى الديانة الكاملة ، كما أنه الوسيلة المثلى للخلاص (من عذاب الآخرة) (٣) والهداية الصادقة للناس (في حياتهم الدنيوية) (٤) . وهو في كافة أشكاله القائمة بين الناس ، سواء أكان مكتوباً أو متلوّاً أو محفوظاً في الذاكرة ، كذا مادته وألفاظه غير المنطوق بها ، مما يتضمن قول الله تعالى وفكره ، هو قرآن أزلى غير مخلوق (٥) . وهو الحق المعصوم المنزه عن الخطأ . وأفعال البشر من حيث علاقتها بمادة القرآن وألفاظه ، كما نرى تلك المادة والألفاظ متصلتين بالأفعال البشرية (من حيث تلاوة القرآن وكتابته وحفظه الى غير ذلك) (٥) إنما هي أفعال محدثة مخلوقة غير معصومة ، هذا هو مذهب القائلين « بلفظ القرآن »

٤ - وحدانية الله

لعلنا قد تأهبنا الآن لبحث مبدأ الوحدانية . ولقد كان أحمد بن حنبل راسخ الاعتقاد في وحدانية الله . وإذا وضعنا نصب أعيننا ذلك الرأي في القرآن الذي نعتقد أنه ذهب إليه ، فمن السهل أن ندرك كيف ناضل في عنف وشدة ، محاولة خصومه في أن يلصقوا به تهمة الشرك . ويمكن

(١) كتاب الظاهرية بقلم جولدسيهر كما في هامش رقم ٢ ص ١٨٥ وعلى الاخص ١٤١ ، راجع

أيضاً كتابنا هذا ص ٣٢ وما بعدها

(٢) الواحد هنا صفة للكلام كما في الاصل :

As a manifestation of the One Word of God

(٣) الخلاص هنا ترجمة لكلمة Saviour وهي كلمة لها دلالة خاصة في المسيحية لاتصالها

بمقيدة المخلص Salvation وقد قيدنا هذه الدلالة بإضافة عبارة : « من عذاب الآخرة » .

التي ليست موجودة في الاصل

(٤) زيادة عن الاصل لتوضيح مراد المؤلف

(٥) راجع كتاب المنازعات الكلامية بقلم هوتسما ص ١١٧ وما بعدها

(٥) هذه الجملة في الاصل هي :

and proceeding to manifestation at the coming into being of objective Existence

أن نشير بهذه المناسبة الى اعتقاده في أزلية صفات الله . وقد أوردت المصادر التي أمكننى الرجوع اليها ، مجمل رأيه في صفات الله ، ولكنها لم تفصله وتبسط القول فيه . وذلك فيما عدا رأيه في قدرة الله وعلمه ، وهما الصفتان اللتان أفاضت فيهما مصادرنا لتعلقهما بموضوع أصل القرآن (٢). فلدينا عنهما من البيانات ما يكفى لتكوين فكرة عن آرائه في الصفات

وقد بين أحمد في تثبت ويقين أننا لا يمكن أن نتصور وجود الله دون وجود علمه . وعلى الرغم من أن خصومه أعلنوا أن اعتبار أى شئ أزلى غير مخلوق ، مفترقا ومباينا في التصور عن فكرة الألوهية المجردة ، هو بمثابة اشراك آلهة أخرى مع الله ، عددها بقدر عدد هذه الأشياء (١) ، فإن أحمد لم يستطع ، وهو ينحو نحو تصور حسي ، صادر عن عقل غير فلسفى ، أن يتخيل الذات المطلقة إلا بما تقتضيه الذات المتناهية من كافة صفات الكمال أو بما يكملها . ولم يقنو على تصور الذات المتناهية إلا اذا كان لها صفات . فالمطلق عنده هو غير المتناهى ، المقابل والمائل للكمال المتناهى (٢).

٥ - صفات التجسيم والتشبيه

ومن الواضح أن هذا الاعتقاد نفسه ، كان أصلا من أصول القاعدة التي

(٢) لم يطلع المؤلف على كتاب صغير للإمام أحمد بن حنبل اسمه : الرد على الجهمية والزنادقة ، نشره الحلبي بالقاهرة وليس عليه تاريخ الطبع ، وقد أوضح فيه الإمام أحمد آراءه في المسائل الاعتقادية ، كما أن هذه الآراء منشورة في كتب أخرى مثل كتاب مسائل الإمام أحمد للسجستاني ، نشر رشيد رضا في القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ وكتاب السنة لولد الإمام أحمد وهو عبد الله بن أحمد بن حنبل الذي نشر في مكة سنة ١٣٤٩ هـ

(١) فيما يتعلق برأى المعتزلة في صفات الله ، انظر كتاب المعتزلة بقلم شتينر ص ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، وكتاب المنازعات الكلامية بقلم هوتسمان ص ١٠٣ ، ١٢٤ ، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني في ترجمة هاربريكر ج ١ ص ٧١

(٢) يحاول المؤلف هنا أن يصوغ آراء الإمام أحمد الاعتقادية في قالب فلسفى ، ويظن انها لو عرضت عليه بهذه الصيغة لما قبلها !

ابننئ عليها ايمان اأحمد بن حنبل بصفات التشبيه (فيما يبدو للمؤلف) وهى الصفات التى وصفت بها الذات الالهية فى القرآن (١) . ولما حيرته احتجاجات خصومه الفلسفية ، أقر بعجز عقله غير المدرب عن الرد على هذه الاعتراضات الفلسفية ، وذلك على الرغم من أنه استند على قياس الكمال الالهى بالكمال البشرى . وقد استمسك بهذا القياس استمسكا شديدا ، على اعتبار أنه دعامة واضحة لا يتطرق اليها الشك والغموض ، تشرح ما جاء فى القرآن من آيات التشبيه والتجسيم

وقد أفصح لخصومه عن عجزه عن الرد على حججهم الفلسفية بقوله : « لا أدرى ، هو كما وصف نفسه ، لا أزيد على ذلك شيئا (٢) » وقد كان المبدأ (٣) الذى بنى عليه أحمد فكرته فى الذات الالهية مبدأ سليما فى جوهره ، وهو أن : « المطلق هو الكمال غير المتناهى للكمال

(١) وازن ذلك بما جاء فى كتاب دراسات اسلامية بقلم جولدتسيهر ح ٢ ص ١٨٦ ، وكتاب تاريخ الاراء السائدة فى الاسلام بقلم فون كريم ص ١١ وما بعدها (وهو يتضمن وجهة نظر أكثر وضعية)

(٢) راجع كتاب تاريخ الديانة الاسلامية (بالهولندية) بقلم دوزى ص ١٣٦ (وتوجد ترجمة فرنسية لهذا الكتاب) . وقد أورد الشهري شيئا مما احتج به الصغانية ، انظر الملل والنحل ترجمة هاربريكر (الى الالمانية) ج ١ ص ٩٥

(٣) راجع كتاب الظاهرية بقلم جولدتسيهر ص ١٢٣ . ومن العسير ان ندرى ما يسمى بالموقف السلبي لكل من مالك بن أنس وابن حنبل فى هذا الصدد (انظر الملل والنحل للشهرستاني ترجمة هاربريكر ج ١ ص ٩٧ ، و ص ١١٤ وما بعدها) ، فان رفض قبول التأويل المجازى لآيات التشبيه والاصرار مع ذلك على التمسك بالمعنى الحقيقى لهذه الآيات ذاتها ، كما صنع أحمد دون ريب ، لما يحملنا على هذا التساؤل وهو : كيف نستطيع أن نتصور وجود السلبية فى عقول كهذه (ان الاصرار على المعانى الوضعية مع عدم تبين الدلوات النوعية للفاظ الآيات ، ثم انكار صرف المعنى الى تأويلات مجازية ، لا يعد الا افغالا لمسألة التشبيه وتركها لها على حالها .

(٤) المؤلف غير موفق فى هذا التعبير لان دعوة محمد للاسلام لم تكن مصوغة طبقا لمصطلحات المتكلمين فى العصر العباسى : والآيات التى يقال بأن فيها تشبيها هى اقرب الى افهام الناس وقلوبهم من دقائق الحجج الكلامية وصيغها الجامدة ، ويؤيد هذه الدهوى فرغ من فروع الدراسات النفسية الحديثة يسمى بعلم النفس الدينى والمراجع الاجنبية التى ألفت منه فى الخمسين سنة الاخيرة هى مما يخطئه الحصر ، وقد عالجه قديما بصورة اولية الامام الغزالى فى القسم الخاص بعجائب القلب من كتابه القيم : احياء علوم الدين

المتناهي». ولكن خصومه اعترضوا بحق على نسبة الحوادث ، وعوارض الطبيعة البشرية ، التي قد توجد أو قد تنعدم ، اذا تغيرت ظروف الكائن البشرى وأحواله ، الى الذات الالهية ، التي عُد الحديث بشأنها ، حديثا متصلا بالعوارض والحوادث ، وهما وتناقضا

وحقيقة المسألة من حيث علاقتها بصفات التشبيه هذه ، هي أن أحمد ابن حنبل قد نصب نفسه محاميا ومدافعا ، لا عن نفسه فحسب ، وإنما عن القرآن وسنة النبي أيضا ، وقد أدرك أنه يقوم بهذا الدفاع — هكذا فيما يبدو لنا على الأقل — ولو أن أحمد كان يعتقد شيئا مخالفا للقرآن ومباينا لسنة محمد (عليه السلام) الذي أنزل عليه الكتاب (٢) ، لصارت القضية بالنسبة اليه شاقة عسيرة الاحتمال . غير أن التشبيه كان شائعا في بيئات الطبقات العالية

وكان على أحمد أن يناضل عن كلام الله وعن نزعه الاعتقادية الخاصة ، فنهض بأحسن دفاع ، أمكن القيام به في هذه الظروف . فقد بين أن الله تعالى وصف نفسه ، فمن يعلم عنه تعالى أكثر أو أفضل مما وصف به نفسه ؟ ليس هناك من رد مباشر على حجة كهذه

٦ - تأويل القرآن

واذا ما انتقلنا بعد ذلك الى البحث في مذهب أحمد في تأويل القرآن ، فانا لا نبتعد كثيرا ولا نكون قد خطونا خطوة كبيرة (١) . فقد اعتقد

(٢) في الاصل بدلا من العبارة التي أثبتتها وهي: الذي أنزل عليه الكتاب ، عبارة أخرى تفيد بأن النبي مؤلف القرآن ، ارجو ان يعذرني القارئ في اسقاطها . وليس غريبا ان تجرى امثال هذه التعبيرات على اقلام المستشرقين على اعتبار انهم غير مسلمين ، مع ان منهج البحث العلمى في دراسة علم الاديان المقارن يقتضى التقيد بمتون هذه الديانات (واثبات وجهة نظر معتنقها دون ابداء الراى في مبلغ ما عليه هذه العقائد من صحة أو بطلان .

(١) راجع مواضع استشهاد أحمد بالآيات القرآنية واستعائته بها في ص ٧٢ وص ٩٠ وما بعدها وص ١٠١ وما بعدها وص ١٠٦ وص ١٣٩ وص ١٦٢ وما بعدها وفيما يتعلق بالمنهج الاعتزالى الاوسع من هذا حربة ، انظر كتاب المعتزلة بقلم شتيبز ص ٧٩

أحمد أن من الواجب أن تفسر القرآن تفسيراً حرفياً (أى بما يقتضيه المعنى الظاهر للألفاظ) (*) ، اللهم الا فى الحالات التى أشار فيها الكتاب ذاته ، الى ضرورة توضيح نطاق هذه الطريقة أو تعديلها ، فضلاً عن الحالات الأخرى التى تجعل هذا الضرب من التفسير الظاهرى مستحيلاً استحالة عملية ، وتقول استحالة عملية لأن أحمد كان ينفر من اقرار أية ضرورة نظرية مجردة ، على اعتبار أنها مبدأ من المبادئ الضابطة للتفسير . وتوجد أمثلة قليلة عمد فيها أحمد الى التأويل المجازى ، بيد أنها من الندرة بحيث يمكن القول بأن منحاه العام فى التفسير قد قيّده فى معالجة الآيات ، التى قد يبدو للبعض أن معانيها مصروفة الى الاستعارة والمجاز . ومما حدد لأحمد تطبيق منهجه الظاهرى الحرفى ، أو اتباع منهج آخر فى تفسير مثل هذه الآيات ، ما اشتمل عليه القرآن ذاته من الاشارات ، فضلاً عما اقتضته الضرورة العملية (من الالتجاء الى التأويل المجازى) (*) ، بيد أنه فى كافة الحالات التى اضطرّ فيها الى اطّراح المنهج الظاهرى الحرفى ، ارتضى أحمد التأويلات المتواترة التى تناقلها رواة الحديث النبوى

٧ - المصادر الدينية الزائدة على القرآن

ومما يتصل اتصالاً وثيقاً بتأويل القرآن ، مسألة المصدر القطعى الذى تستمد منه أحكام الدين فى العبادات والمعاملات ، وذلك فى الحالات التى لم يرد فيها فى القرآن ، نصوص مفصلة وتوجيهات واضحة وضوحاً كافياً . وينحصر هذا المصدر عند أحمد بن حنبل فى الحديث النبوى الذى اورد لنا ما قاله النبى أو فعله ، أو ما رواه الصحابة عن النبى ، أو ما تناقله الجيل الأول أو الثانى من التابعين ، كما بيّن ما انعقد عليه اجماع الأمة الاسلامية فى القول والعمل

وعلى العموم فقد كانت الاستعانة بالقياس أو الرأى (فى استنباط أحكام الدين) موضع المعارضة . ولكن كان يؤخذ بهما اذا لم يوجد

(*) زيادة عن الاصل لتوضيح مراد المؤلف

عون آخر يَفَضِّلُهما (١). وقد كان هدف أحمد ، الذي أفصح عنه والذي كان يرمى اليه من وضع مؤلفه الكبير المسمى بالمسند ، المشتغل على مجموعة ضخمة من الأحاديث ، هو أن يهيئ لكافة الحالات التي يمكن تصورها ، حججا صحيحة من الحديث ، ترشد أولئك الذين قد يرجعون الى مسنده . فتخريج هذه الأحاديث ، وما علّقه عليها من أهمية ، بين لنا أن تلك المادة الحديثية ، كانت عنده بعد كتاب الله ، الصخرة الكبرى الثابتة ، التي كان يركن اليها ويتشبث بها . ولدينا شواهد كثيرة تدل على

(١) دراسات اسلامية بقلم جولد تسيهر ح ٢ ص ٢١٧ هامش رقم ٤ ، وكتاب : في التاريخ القديم للشريعة الاسلامية بقلم سخاو Soehnu (بالالمانية) ص ١٧ ، والمنوعات الكلامية بقلم هوتسما ص ٩١ وما بعدها . وراجع ايضا كتاب الظاهرية بقلم جولد تسيهر ص ٢٠ هامش رقم ١ ، ويبدو ان عبارات هوتسما في ص ٩٢ من كتابه تؤيد كثيرا آراء المعتزلة . ونلاحظ ان تأويل المعتزلة للقرآن ، وذلك فيما يتعلق بصفات الله وآيات التشبيه والتجسيم والقضاء والقدر ، هو في عمومها تأويل مجازي . وانا نعلم الحيز الكبير الذي شغلته هذه الموضوعات في الحرب الجدلية التي اثارها المعتزلة . وان تسميتهم بالعقلين او المفكرين الاحرار لهي تسمية تصدق عليهم ، فهي تفيد ان القرآن عندهم مصدر قطعي ، لا على اطلاق قطعيته أو طبقا للقدر الذي تبيحه الحاجات العملية . ولكنه قطعي فحسب الى الحد الذي تقتضيه المطالب العقلية للحياة البشرية ورفاهيتها وما تسمح به المتقتضيات الظاهرة الجلية للفكر الانساني

(*) يقول مترجم الكتاب ان نزعة القرن التاسع عشر في أوروبا نحو النظم الحرة حملت المستشرقين على الامجاب بالمعتزلة فوصفهم بالعقلين والمفكرين الاحرار وكتاب شتينر عنهم الذي نشره بالالمانية في ليبترج سنة ١٨٦٥ م يحمل هذا العنوان . واخيرا كتاب جالان المنشور في باريس سنة ١٩٠٦ م بنفس العنوان أيضا . ولكن أخذ المستشرقون في القرن العشرين ينكرون عليهم هذه الصفة ومنهم جولد تسيهر في كتابه العقيدة والشريعة في الاسلام الذي نشر بالالمانية في هيدلبرج سنة ١٩١٠ م (راجع الترجمة العربية بالقاهرة سنة ١٩٤٦ ص ١٠٣) ولا منس Lammens في كتابه الاسلام (الطبعة الثانية بالفرنسية ، بيروت سنة ١٩٤١ ص ٣٠٢) الذي قال بان تسميتهم بالعقلين انما هي تسمية اسى اختيارها . وكذلك نيبرج Nyberg المسشرق السويدي في مادة معتزلة بدائرة المعارف الاسلامية وفي نقده سنة ١٩٢٩ م لكتاب جويدي Gudi في مجلة الادب الشرقي الالمانية O.L.Z. مجلد ٣٢ ص ٤٢٧ وآخرهم و . مونجومي وات Watt في كتابه : حرية الارادة والجبر في الاسلام القديم (بالانجليزية) لندن سنة ١٩٤٨ م ص ٦٤ ، ٦٩ وتتلخص اعتراضاتهم على تسميتهم بالعقلين والمفكرين الاحرار فيما يلي :

(أ) اضطهادهم لمخالفهم ابان المحنة ووصفهم بضيق الفكر وهذا رأى جولد تسيهر =

أنه كان أشد استمساكا بالحديث من أى فقيه آخر من فقهاء عصره (١) .
اذ نجد أنه حين صفح عن مضطهديه ، انما استند فى هذا الصفح على حديث
يفسر آية من آى القرآن

جاء فى الحلية (٢) : قال أبو الفضل : دخلت على أبى يوما ، فقلت
له : بلغنى أن رجلا جاء الى فضل الأنطاطى ، فقال له : اجعلنى فى
حل ، اذ لم أقم بنصرتك . فقال فضل : لاجعلت أحدا فى حل .
فتبسّم أبى وسكّت . فلما كان بعد أيام ، قال لى : مررت بهذه
الآية : «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَح فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ» (٣) . فنظرت فى تفسيرها ،
فاذا هو ماحدثنى به هاشم بن القاسم : حدثنا ابن المبارك ، حدثنى من
سمع الحسن يقول : اذا جئْت الأمم بين يدى رب العالمين يوم القيامة ،
نودوا : ليقم من أجره على الله ، فلا يقوم الا من عفا فى الدنيا . قال أبى :
فجعلت الميت فى حل من ضربه اياى . ثم جعل يقول : وما على رجل ألا
يَعْتَذِرَ اللهُ بسببه أحدا «

وحين يروى مؤلف الحلية أن أحمد غضب من أولئك الذين ضعفوا فى
المحنة أيام المأمون ، يشفع الحادث برواية عن بعض أصحاب النبى ، أثّر
عنهم فيها ، أنهم كانوا يغضبون غضبا شديدا ، اذا طُلِبَ منهم أن يَتَخَلَّوْا
عن أمر من أمور دينهم . روى أبو ثَعِينَم (٤) : « حدثنا محمد بن
قُضَيْل بن غزوان ، عن الوليد بن عبد الله بن جَمِينَع ، عن أبى سَلَمَةَ

(ب) ان تشددهم فى آرائهم الكلامية وتفانيهم فى الدعاية للاسلام جعل منهم دعاة ولا هويتين
متعصبين وهذا رأى نيجرج

(ج) ان من الصعب ان نعرف مدى ايمانهم بالعقل لانهم قلما يذكرونه . وفى مذهبيهم ما يناقضه
(١) مقدمة ابن خلدون (*) الترجمة الفرنسية بقلم ده سلان ح ٣ ص ٦ ، وكتاب الظاهرية
بقلم جولدسيهر ص ٢٢ ، وكتاب : فى التاريخ القديم للشريعة الاسلامية بقلم سخاو Sachau
ص ١٥

(٢) ورقة ١٥٠ (*) ح ٩ ص ٢٠٣ من طبعة القاهرة

(٣) سورة الشورى رقم ٤٢ آية ٤٠

(٤) الحلية ورقة ١٤٧ أ (*) ح ٩ ص ١٩٤ من طبعة القاهرة

ابن عبد الرحمن بن عوف ، قال : كان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، مَنْ اذا أريد على شيء من أمر دينه ، رأيت حاليق عينيه في رأسه تدور كأنه مجنون » . وقد قصد مؤلف الحلية من إيراد هذه الرواية الحديثية في موضعها هذا ، أن يشير الى وجه الشبه بين موقف أحمد ، وموقف الصحابة الذين استشهد بهم ، وأن يبرر مسلك أحمد قياسا على ما صنعه أصحاب النبي (عليه السلام) . وقد يكون مراد أبي نعيم أيضا أن يلمح الى أن أحمد بن حنبل صنع ما صنع ، وهو يعلم بهذه السابقة التي حفزته الى أن يحس بما أحس به

٨ - تأويل الأحاديث

وان تأويل أحمد بن حنبل للأحاديث ، قد نزع به أيضا الى أشد وجهات النظر تصلبا واستمساكا ، وغالبا ما كان يحتم التماس مخرج من المخارج في الحالات الشاذة ، حتى في المواضع التي يأبى فيها من تخصصهم هذه الحالات أن ينتفعوا بهذا التخريج ، أو اذا لم تتفق تلك الحالات في تفصيلها مع المقصود به أصلا في متن الحديث . ومن ثم فإن ما قصد به أن يكون تيسيرا وتخفيفا ، قد أصبح بدلا من ذلك عبئا (١) (ثقيلًا وقيدًا مرهقا) (٢)

(١) توجد أمثلة توضح تشدد أحمد في تأويل الأحاديث في كتاب الظاهرية بقلم جولدسيهر في ص ٨٧ ، ٨٨ وما بعدها وكذلك ص ١٠٣ ، وازن ذلك بما جاء في ص ١٤١ ، وانظر أيضا كتابا آخر لجولدسيهر وهو دراسات اسلامية - ٢ ص ٢٥٠

(٢) زيادة من الاصل لتوضيح مراد المؤلف

٩ - سبب انتهاج هذه الطريقة واتباع هذا الأسلوب في الحياة

ان ما ذهب اليه أحمد من اعتقاد في قيمة الأعمال (١) ، بلغ من الرسوخ والقوة ، حداً حمله على التشدد في تفسير القرآن والحديث ، مما يعد أمراً طبيعياً يتوقع صدوره من أحمد . وهذا الاعتقاد ذاته ، يفسر لنا أخذه لنفسه بأقصى ضروب الزهد والحرمان ، وقضائه حياته في صوم متواصل (٢) . كما أن تعشقه لحياة الزهد ، يلقي بدوره ضوءاً على الجانب الغامض من ورعه وتقواه فضلاً عن إيمانه بالأحلام

جاء في المتقنى (٣) : وثقل عن كثير من السلف أنهم رأوا الله تعالى في المنام كالامام أبى حنيفة ، والامام أحمد بن حنبل رضي الله عنهما ، فالعزلة والجوع وانعدام وسائل الراحة والرفاهية في معيشة أحمد ، هذه كلها جعلت الحياة الذاتية تبدو له أنها أكثر واقعية من الحياة الموضوعية ، مما حدا بأحمد أن يتحس بالبغض والكراهية لذلك النمط من الحياة التي يعيشها غيره من الناس ، لأن حياة كهذه مما يحياها هؤلاء ، تنبذ فيها حقيقة العالم الباطني ، تلك التي أخذ أحمد بها نفسه ، كما يفارقها ذلك

(١) يقول هوتسما في ص ٨٥ من كتابه : المنازعات الكلامية : أن تقيد أهل السنة بظاهر معاني القرآن ، واستمسكهم الوثيق بهذا الظاهر ، احيا نهجا متشددا في الحياة كذلك الذي نجده على الاخص بين الحنابلة ، ولكننا تلفت النظر الى تلك الحقيقة وهي أنه كان في هذا العصر تيار قوى للعاطفة الشعبية ، يحيد حياة دينية أكثر تشددا وتديقا وهذه النزعة القوية في حياة الافراد والمجتمع عموما ، أنصحت عن نفسها وتجلت معالمها في تعظيم القرآن والتشدد في تأويل تعاليمه وأحكامه . وهذه النظرة الى القرآن الأكثر تشددا وتديقا ، ترتب عليها رجوع في الحياة الاجتماعية ، اذ هيأ للامة الاسلامية وافراده المجتمع الاسلامي ، نهجا محدودا ونزعة معينة للحياة ، فهذا التصور للحياة ونهجها هو الذي اثر في فهم القرآن والنظر اليه ، وهو الكتاب الذي اتخذ المسلمون دستورا للعمل بأحكامه في حياتهم ، وليس فهم القرآن هو الذي اثر في نهج الحياة وتصورها . هذه هي طريقتي في قراءة حوادث هذا العصر وادراك حقيقتها . غير ان ما ادلى به هوتسما من تعليل وتفسير ، سيجد ايضا انصارا كثيرين يتابعونه عليه ويقتنعون به

(٢) راجع ابن تيمى بردي في كتابه : النجوم الزاهرة ح ١ ص ٣٦٤ (*) ح ٢ ص ٢٠٥ من طبعة القاهرة) عند ذكره لوفاة يزيد بن ابي يزيد الأزدي وهي تشير الى أنه كان زاهدا في حياته مقتديا بأحمد بن حنبل

(٣) للمقرئ ورقة ١٨

التصوف (٢) ، مع ما يصحبه من الرؤى والتصورات الدينية السارة جاء في الحلية (١) : « قال بوران أبو محمد لأبى : عندى خنف ، أبعث به اليك ، فسكت . فلما عاد اليه أبو محمد ، قال : يا أبا محمد ، لا تبعث بالخنف ، فقد شغل قلبى على »

١٠ - تقديس المخلفات

وهذا المظهر الزاهد المتصوف فى خُلُق أحمد ، يشتمل على تقديس المخلفات . وقد عرفنا منه مثالا أو مثالين فى خلال ما مضى من ترجمته . روى أبو نعيم (٢) : ... ورأيت أبى يأخذ شَعْرَةً من شَعْرِ النبى صلى الله عليه وسلم ، فيضعها على فيه ، يَقْبَلُهَا ، وأحسب أنى رأيته يضعها على عينيه ، ويغمسها فى الماء ، ثم يشربه ، يستشفى بها ، ورأيته قد أخذ قصعة النبى صلى الله عليه وسلم ، فغسلها فى حَب الماء ، ثم شرب فيها . ورأيته غير مرة ، يشرب ماء زمزم ، يستشفى به ، ويمسح به يديه ووجهه »

(*) فى الاصل : Mysticism ومعناها : تصوف . بيد أن أحمد لم يكن متصوفا ، وإنما كان زاهدا . وشتان بين الزهد والتصوف فالزهد كف اختيارى عن متع الحياة التى يألفها الناس عادة ، والتصوف قد ينطوى على زهد ولكنه مصحوب دائما بحياة وجدانية خاصة وتأملات فكرية أوضحها الصوفيون فى مصطلحاتهم . وفى تاريخ التصوف الإسلامى نرى مرحلتين متميزتين : أولاهما اتجاهات الزهد القديمة عند بعض الصحابة والتابعين ، وقد استغرقت القرنين الأول والثانى بعد الهجرة والثانية مآحدث من تطور لاتجاهات الزهد فى أواسط القرن الثالث الهجرى ، بتفصيل الحالات النفسية ومراتبها وبيان المواجه والمقامات والاحوال والاستغراق فى التأملات والمراقبة والرياضة الروحية . وقد عاصر أحمد جانبا من هذه التطورات وألم بها . ولكنه اعتبرها من البدع الدخيلة على الإسلام ، فتهى الناس عنها وحذر أتباعه منها . ويتجلى لنا ذلك فى موقفه من الصوفى الكبير الحارث بن أسد المحاسبى ، « الذى هجره أحمد لأجل الكلام ، فاخفى لتعصب العامة لأحمد ، فلم يصل على الحارث عند وفاته سنة ٢٤٣ هـ الا أربعة نفر » - الكامل لابن الاثير ح ٧ ص ٥٥ وانظر أيضا طبقات الشافعية لابن السبكي ح ٢ ص ٣٩ ، والنقد من الضلال للغزالى ص ٤٥ ، ٤٦)

(١) أبو نعيم ورقة ١٤٢ / (*) ح ٩ ص ١٧٨ من طبعة القاهرة

(٢) الحلية ورقة ١٤٤ / (*) ح ٩ ص ١٨٢ من طبعة القاهرة

١١ - سبق القضاء بالحوادث

ان الاعتقاد بنظام للحياة ، سبق تقديره والقضاء به ، وذلك عند رجل يقول بالآراء التى بسطناها ، لهو التفسير الوحيد لأفعال البشر، وللأحداث التى تلم بهم . ويظهر أن أحمد كان يرى أنه لا توجد طوارئ أو عوارض تعرض للناس ، سواء لما يصدر عنهم من أفعال أو لما يُلِمُّ بهم من أحداث (١)

١٢ - مذهب أحمد فى الإيمان

لقد أوضح محمد بن أسلم ، صديق أحمد بن حنبل ، مذهبه فى الإيمان . ويبدو أن هذا مما كان يقول به أحمد بن حنبل أيضا . وهو أن الإيمان فى القلب ، يشهد به اللسان ، وتعمل به الجوارح . ويؤيد رأيه هذا ، قوله ان البلاء والمحنة يزيدان فى الإيمان . فقد روى عنه أنه قال (٢) : « وكنت فى السجن آكل ، وذلك عندى زيادة فى إيمانى »

١٣ - موقف أحمد من رعاية السلطان (*)

كان موقف أحمد من رعاية السلطان وأعوانه ، وما يتغذقونه على المقربين اليهم من منَح وصِلات ، وما يؤثرونهم به من حُظوة وجاه ، هو موقف المتطرف فى التحذير من غوائلهم ، غير أنه لاريب فى أن نظريته الرفيعة فى شرف مهمته كمحدث ، يعمل على بث تعاليم السنة الصحيحة ،

(١) هامش رقم ٢ من ص ١٠٦ وكذلك ص ١٥١ بالاصل

(٢) المغنى للمقرئى ورقة ١٢ ، هذا وان إيمان أحمد الذى زاد إبان محنته ، يبدو أنه كان رياضة نفسية باطنية

(*) يقصد بالسلطان مايسمى فى اللغة الحديثة بالحكومة . وقد وردت فى الكتب العربية القديمة الخاصة بنظم الحكم مثل الاحكام السلطانية للماوردي ومثله لابن يعلى الفراء وسراج الملوك للطرطوشى على اعتبار أنها اسم معنى وليست اسم ذات . ثم أطلقت من باب التسمية بالمصدر على حكام الدول المتتابعة التركية وصارت لقبا لهم

هى التى أبعدته عن كل محاولة للتقريب والتوفيق (١) (بينه وبين رجال السلطان) . وقد قال : بأن مدينة « سر من رأى (س) » ، سوف تغدو سجنا له ، لو أنه حُمل على الإقامة بها للتحديث فيها ، بينا هو فى نفس الوقت يتناول مرتبا معلوما من الخليفة . وقد أعلن أنه لو رأى اسحق بن راهويه (س) لأنهى عليه باللائمة لانضوائه تحت لواء الأمير عبد الله بن طاهر

(١) راجع موقف مالك بن أنس من هرون الرشيد فى كتاب : تاريخ الادب العربى بقلم فون هامر (برجستول ، وهو بالالمانية) ح ٣ ص ١٠١ ، ١٠٢ (س) يقول مترجم الكتاب : كان برجستول المستشرق النمساوى من رواد الدراسات الاسلامية فى النصف الاول من القرن التاسع عشر وكان متحمسا لها أكثر مما كان باحثا مدققا ولكنه وضع تقاليد المدرسة النمساوية فى الاستشراق التى أنجبت العلامة الكبير فون كريبير فيما بعد . وموقف الامام مالك من الرشيد يتضح من رسالته الوعظية له التى طبعت فى بولاق سنة ١٣١١ هـ . وقد عانى مالك من من العباسيين فى عهد المنصور لانه أفتى ببطان الايمان التى أقسم بها المسلمون على البيعة تحت الضغط والاكراه ، راجع ذلك فى ترجمته فى ابن خلكان وبها فقرات منقولة بتمامها من الفهرست لابن النديم) . وفيات الاعيان ترجمة رقم ٥٢٢ ح ٣ ص ٢٨٤ من طبعة النهضة بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م والفهرست لابن النديم طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ من ٢٨٠ ، ٢٨١ (س) مدينة أنشأها المعتصم شمالى بغداد لتكون مقرا له ولعساكره التركية بعد أن أسقط العرب من ديوان الجند وكان بناؤها سنة ٢٢٠ هـ ، ٢٢١ هـ - راجع تاريخ الطبرى ح ٧ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ من طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩ م والبلدان لليقوبى ومعجم البلدان لياقوت . (س) هو اسحق بن ابراهيم التميمى الحنظلى المروزى ، المعروف بابن راهويه ، من كبار حفاظ الحديث . وقد روى ابن السبكي فى كتابه طبقات الشافعية قصة نقد أحمد بن حنبل له لاتصاله بالامير عبد الله بن طاهر ، ولكن لم يأت بها الذهبى فى ترجمته لابن راهويه ، راجع تذكرة الحفاظ ، الطبقة الثامنة رقم ٢٢ ح ٢ ص ١٩ وما بعدها . ولكنه أورد قصة أخرى وقعت فى مجلس الامير تدل على أن ابن راهويه كان من المشبهة . وروى الذهبى ما يدل على تقدير أحمد له اذ روى عن أحمد أنه قال : لا أعلم لاسحق بالعراق نظيرا . وذكر ابن النديم أنه كان من جلة أصحاب أحمد بن حنبل وان له مؤلفات فى الفقه والتفسير ، راجع كتاب الفهرست طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ ص ٣٢١ . وقد ذكره ابن الاثير فى وفيات سنة ٢٣٨ هـ وقال فيه : كان اماما عالما ، وجرى له مع الشافعى مناظرة فى بيوت مكة - الكامل ح ٥ ص ٢٩٣ من طبعة منير بالقاهرة . كما ذكره ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب ، وفى وفيات سنة ٢٣٨ هـ . وبعد أن أشاد بعلمه وفضله ، أورد رواية ابن الاهل التى تدل على أنه كان شافعيا أو من أصحاب الشافعى وليس من أصحاب أحمد اذ قال : وناظر الشافعى فى بيع دور مكة . فلما عرف فضله صحبه وصار من أصحاب الشافعى رضى الله عنه . « شذرات الذهب طبع القدسي بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ ج ٢ ص ٨٩ . وهذا يدل على أنه فى أوائل قيام المذاهب الاربعة كان الفقهاء يصحبون أكثر من امام من أئمتها

ولا ريب أن صلابة أحمد ، وشدة مراسه كان مما قوّى من معارضته في أن يشغل مركزاً في حاشية الخليفة . فقد كان رئيس حلقة في التحديث بمدينة بغداد ، يلقي الحديث في مجلسه على طريقته الخاصة التي كان يميل إليها . غير أنه كان من المتعذر عليه أن يحتفظ بهذه الصدارة في بلاط الخليفة . ثم صادفته عقبة رئيسية صرفته عن البقاء في الحاشية ، وكانت على رأس هذه الصعاب كلها ، ألا وهي كراهيته الحقيقية ومقته الشديد للحياة اللينة المترفة ، ولجالس المنادمة ، بحجة مخالفتها لأحكام الدين ومناقضتها لآدابه (١)

١٤ - كراهية أحمد للعقائد الكلامية ونتائجها

إن شخصية أحمد كمحدث ، وكراهيته للتعميم والقياس ، عاقاه عن أن يتخلف مذهباً فكرياً متسقاً . وقد تقوم عنه في أيامنا هذه ، فنصوغ له آراءه وأفكاره ، وأن نهض بتشكيلها . ولكنه لم يكن ميالاً إلى القيام بهذا الترتيب والتنظيم . ومن ثم أوهن أحجامه وتقاعده من تأثير المدرسة الحنبلية (٢) . إذ أن تعاليم إمام الحنابلة لم تكن منسقة مبوبة ،

(١) راجع هذا الموضوع بحدافيه في كتاب دراسات إسلامية بقلم جولدسيهر ح ٢ ص ٢٩ (٢) هذه الفقرة القصيرة التي ختم بها المؤلف كتابه والتي أشار فيها إلى تأثير المدرسة الحنبلية كان ينبغي أن يفرد لها فصلاً خاصاً في دراسته ، أن لم نقل أنها تستحق كتاباً آخر قائماً بذاته . ويمكن تقسيم تأثير هذه المدرسة الفكرية إلى ثلاث نواح : الأولى تأثيرها الاجتماعي وخاصة في عامة أهل بغداد الذين أصبحوا منذ أواسط القرن الثالث الهجري قوة ديماجوجية عبارة عن حكومة في داخل حكومة وارتكبوا أعمالاً يبرأ منها الإمام أحمد الذي ينتسبون إليه وقد عني بتسجيل الفتن التي أثاروها مؤرخو الحواريات مثل أبي الأثير في كتابه الكامل ، ومؤلفو كتب الطبقات وعلى الأخص طبقات الحنابلة كابن يعلى الفراء وابن رجب الحنبلي ، وابن مفلح والعلمي ، وعني بهذه الناحية المستشرق المجري جولدسيهر في بحث موجز له في ٢٨ صحيفة باللغة الألمانية نشر سنة ١٩٠٨ م في مجلة المستشرقين الألمانية . ولكن المادة الخاصة بهذا الموضوع في المصادر التي ذكرتها تشتمل على تفصيلات أوفى بكثير مما ذكره جولدسيهر في بحثه . وقد أخرجت هذه الفتن من انتصار مذهب الأشاعرة . والناحية الثانية هي أثر المذهب الحنبلي في الحركة العامة للدراسة الفقه الإسلامية وتحديد ما يميز به بالنسبة للمذاهب الأخرى وقد حاول ذلك الأستاذ محمد أبو زهرة في كتابه : ابن حنبل : حياته وعصره - آراؤه وفقهه ، القاهرة سنة ١٩٤٧ م . والناحية الثالثة هي أثر المدرسة الحنبلية في حركات الإصلاح الإسلامي ، وقد مرت في مرحلتين الأولى ظهور الفقيه الحراني الكبير تقي الدين أحمد بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨هـ وتلميذه ابن القيم الجوزية وجهادهما في محاربة البدع الدخيلة على الإسلام وما كتباه من المؤلفات والرسائل الكثيرة . والثانية ما قدر لآراء ابن تيمية وابن القيم من بحث جديد منذ القرن الثاني عشر الهجري والثامن عشر الميلادي على يد محمد بن عبد الوهاب وآل سعود بقيام الدولة الوهابية الأولى والثانية . وقد عني بهذا الموضوع المستشرق الفرنسي الكبير هنري لاوست Leoust في مؤلفه الضخم النفيس : بحث في الآراء الاجتماعية والسياسية لتقي الدين أحمد بن تيمية (بالفرنسية) في ٧٥٥ من القطع الكبير ، القاهرة سنة ١٩٢٩ م نشر المعهد الفرنسي للآثار الشرقية .

ففقدها الخنابلة فراغا كبيرا ، قبل أن يتمكنوا من أن يكشفوا للعالم عن مكنون روحها وخصائص مبادئها ، وذلك على صورة تحقق لها رجحانا ظاهرا وتأثيرا قويا ..

بيد أن شخصية أحمد كانت في حياته وبعد موته ، قوة زاخرة كبرى في العالم الاسلامى . ويبدو أنه لا يزال لها من القوة وثقاؤ التأثير ما يعادل قوة آراء أحمد وأفكاره ، التى أفصح عنها ودعا إليها ، وذلك على الرغم من أن أتباعه ومقلدى مذهبه ، لم يكونوا قط جمهرة غفيرة ، اذا ما قورنوا بعدد التابعين لأئمة المذاهب الثلاثة الأخرى عند أهل السنة

تذييل

بقلم المترجم

لم يختم المؤلف كتابه بثبت للكتب التى رجع اليها فى اعداد بحثه ، مكتفيا بما ذكر فى مقدمته من المخطوطات التى اعتمد عليها ، وبما أشار اليه من الكتب فى هوامش كتابه . ورأيت لفائدة القارئ العربى ، أن أورد فيما يلى ثبوتا بمراجع المؤلف ، رتبها طبقا لما عقد لها من القيمة والأهمية فى نظره ، على أن أذيل هذا الثبت بثبت آخر يشمل المؤلفات التى فاتته الرجوع اليها أو التى ظهرت بعد اعداد بحثه ويمكن تقسيم مراجع پاتون الى قسمين : مراجع عربية ، ودراسات افرنجية محدثة . ومراجع العربية نوردها فيما يلى :

١ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ ، مخطوطة ليدن ، وتشتمل على ترجمة مطولة للإمام أحمد بن حنبل . وقد طبعت الحلية فى القاهرة فى عشرة أجزاء من سنة ١٩٣٢ م الى سنة ١٩٣٨ م . وتقع ترجمة أحمد فيها فى الجزء التاسع من ص ١٦١ الى ص ٢٣٣ ، وصحة رقم الترجمة هو ٤١٦ وليس ٤٤٥ . وقد وازنت بين النصوص العربية التى أوردتها پاتون نقلا عن مخطوطة الحلية وبين نظائرها فى طبعة القاهرة ، فوجدت بالأخيرة عددا غير قليل من الأخطاء . منها على سبيل المثال ما جاء فى ص ٢١٠ : « ثم أخبرناه أن الدار التى هو فيها كانت لأيتام » . وصحتها : كانت لايتاخ (القائد التركى)

٢ - طبقات الشافعية لابن السبكي ، مخطوطة ليدن ، وقد طبعت بالقاهرة بعد ظهور كتاب پاتون ، وذلك فى سنة ١٣٢٤ هـ ، وقد ظهرت فى ستة أجزاء بعنوان طبقات الشافعية الكبرى ، تميزا لها عن نسخ أخرى للمؤلف نفسه تتفاوت فى درجة اختصارها بالنسبة لكتابه المطول ، منها

الطبقات الوسطى والطبقات الصغرى ، والمؤلف أبو نصر تاج الدين عبد الوهاب ، المتوفى سنة ٧٧١ هـ ، يعد هو وأبوه تقي الدين السبكي المتوفى سنة ٧٥٦ هـ من أعلام فقهاء مصر، ترجم لهما ولمن أنجبته أسرتهما ، محمد الصادق حسين فى كتابه : البيت السبكي (القاهرة سنة ١٩٤٨ م) . ويشيد المستشرق جولدتسيهر بكتاب طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين ابن السبكي ، اذ وصفه بأنه : « ذخريين ، أربى فى نفاسته على الغاية ، لاشتماله على تاريخ الحركات الفقهية والكلامية فى الاسلام » . (مجلة المستشرقين الألمانية مجلد ٥٢ ص ١٥٧)

وتقع ترجمة أحمد وأخبار المحنة فى الجزء الأول من ص ١٩٩ الى ص ٢٢٢ . ولم ألاحظ خلافا يذكر بين هذا الفصل فى طبعة القاهرة ، وبين ما نقله ياتون عن مخطوطة الطبقات بليدن

٣ - ترجمة الامام أحمد بن حنبل فى كتاب المقفى للمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، وهو مخطوط بليدن . ولم أجد هذه الترجمة فى المخطوطة المصورة بدار الكتب بالقاهرة ، لأنها صورت عن قطعة أخرى من المقفى ، محفوظة فى المكتبة الأهلية بباريس . وحبذا لو عنى صديقنا الدكتور جمال الدين الشيال ، المعروف باهتمامه بنشر مؤلفات المقريزى ، باخراج طبعة علمية محققة لكتاب المقفى

٤ - ترجمة أحمد فى كتاب تاريخ بغداد للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، وهو مخطوط بليدن . وقد طبع طبعا كاملا بالقاهرة فى سنة ١٩٣١ م فى ١٤ مجلد ، وتقع ترجمة الامام أحمد فى ج ٤ من ص ٤١٢ الى ص ٤٢٣ ، وهى رقم ٢٣١٧

٥ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ . وقد رجع ياتون الى الجزئين الأول والثانى اللذين نشرهما المستشرق الهولندى يوينبول فى ليدن (١٨٥١ م : ١٨٦١ م) . وتقع أخبار المحنة فى طبعة القاهرة من كتاب النجوم الزاهرة فى ج ٢ (سنة ١٩٣٠ م) ص ٢١٨ وما بعدها

٦ - تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ هـ طبعة ليدن . وقد رجعت الى طبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ . وتقع أخبار المحنة ابتداء من حوادث سنة ٢١٨ هـ في ج ١٠ ص ٢٨٤ وما بعدها ، ثم في ج ١١ ، وتيسر لى تحقيق كتب المأمون بموازنة نصوصها فى هذه الطبعة بما أورده پاتون نقلا عن طبعة ليدن

٧ - مروج الذهب للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، وقد رجع پاتون الى طبعة باريس التى أخرجها المستشرقان باثيه دى كورتى ، وباربيه دى مينار فى سنة ١٨٧٢ م فى ٩ مجلدات مع ترجمة الى الفرنسية . ويخيل الى أن پاتون لم يلق بالا الى ما أورده المسعودى عما حدث فى جنازة الامام أحمد حيث قال : « وكان للعامة فيه كلام كثير ، جرى بينهم بالعكس والضد فى الأمور ، منها أن رجلا منهم كان ينادى : العنوا الواقف عند الشبهات . وهذا بالضد عما جاء عن صاحب الشريعة عليه السلام فى ذلك . وكان عظيم من عظمائهم ومقدم فيهم ، يقف موقفا بعد موقف أمام الجنازة ، وينادى بأعلى صوته :

وأظلمت الدنيا لفقد محمد وأظلمت الدنيا لفقد ابن حنبل »

ويشرح المسعودى ذلك قائلا : « يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد عليه السلام ، وأنها أظلمت عند موت ابن حنبل ، كظلمتها عند موت الرسول صلى الله عليه وسلم » . (مروج الذهب طبعة بولاق سنة ١٢٨٣ هـ ، ج ١ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨) . وهذا الخبر على ايجازه يدل على تضارب مشاعر الغوغاء فى بغداد عند وفاة الامام أحمد

٨ - تاريخ اليعقوبى ، المتوفى سنة ٢٧٨ هـ ، طبعة هوتسما فى ليدن سنة ١٨٨٣ م فى مجلدين . وقد رجعت الى طبعة النجف فى ثلاثة أجزاء سنة ١٣٥٨ هـ . ولم يحقق پاتون ما زعمه اليعقوبى من اجابة الامام أحمد فى المحنة . وتقع أخبار المحنة فى طبعة النجف فى ج ٣ من ص ١٩٤ الى ص ٢٠٧

٩ - ترجمة أحمد في تهذيب الأسماء واللغات للنووى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ ، طبعة فستفلد ، وقد رجعت الى طبعة منير بالقاهرة (مجهولة التاريخ) ، وتقع ترجمة أحمد في هذه الطبعة في ج ١ ص ١١٠ الى ص ١١٢

١٠ - طبقات الحفاظ للذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، اقتطفه مؤلفه من تاريخه الكبير ، ثم اختصره السيوطي ، ونشر المستشرق فستفلد هذا المختصر في جوتنجن سنة ١٨٣٣ م في ثلاثة أجزاء . ويبدو أن باتون في اشارته الى طبقات الحفاظ للذهبي ، يقصد هذا المختصر الذي لم يتسن لي الرجوع اليه . ولكنني رجعت الى كتاب آخر للذهبي هو تذكرة الحفاظ الذي طبع في حيدر آباد في أربعة مجلدات سنة ١٣٣٣ هـ وتقع ترجمة أحمد في ج ٢ ص ١٧ الى ص ١٩ رقم ٢٠ وقد أدرجه الذهبي في أعلام الطبقة الثامنة . وفي تراجم الحفاظ في كتاب الذهبي أخبار كثيرة عن المحنة ، تتعلق بمعاصري أحمد ، لو أن باتون كان قد اطلع عليها ، لافادته كثيرا في بحثه . فقد أجاب عدد من المحدثين في المحنة ، ولا ندرى مدى تأثير هذه الاجابة في سمعتهم كرواة للحديث ، نذكر منهم على بن المديني المتوفى سنة ٢٣٤ هـ ، الذي قال فيه الذهبي : « ان مناقب هذا الامام حجة لولا ما كدرها بتعلقه بشيء من مسألة القرآن ، وتردده الى أحمد بن أبي دواد ، الا أنه تنصل وندم ، وكفر من يقول بخلق القرآن ، فالله يرحمه ويعقر له » . (تذكرة ج ٢ ص ١٥) . ونذكر أيضا أبا معمر الهذلي المتوفى سنة ٢٣٦ هـ ، الذي بلغ من شدة ادلاله بالسنة أنه كان يقول : « لو تكلمت بغلتي لقاتل انها سنية » ، ومع ذلك فانه لما أخذ في المحنة أجاب ، ولما خرج منها اعتذر قائلا : كهرنا وخرجنا . (تذكرة ج ٢ ص ٥٢) . وفي تراجم هذه الطبقة ما يدل على قيام المناظرات بين المعتزلة ورجال الحديث . فقد اجتمع اسحق بن راهويه المتوفى سنة ٢٣٨ هـ مع ابن أبي صالح المعتزلي في مجلس الأمير عبد الله ابن طاهر ، فسأل الأمير ، اسحق بن راهويه عن أخبار النزول ، فسردها ،

فقال له ابن أبى صالح : « كبرت برب ينزل من سماء الى سماء ، فقال اسحق : آمنت برب يفعل ما يشاء » . (تذكرة ج ٢ ص ٢١) . بل كانت روح المعارضة لفكرة خلق القرآن قوية ، قبل اصطناع المأمون لسياسة المحنة بعشرات السنين . ففى ترجمة عبد الرحمن بن مهدي المتوفى سنة ١٩٨ هـ ، وكان من شيوخ أحمد ، أنه قال : « لو كان لى سلطان لألقيت من يقول ان القرآن مخلوق فى دجلة بعد أن أضرب عنقه » . (تذكرة ج ١ ص ٣٠٢) . وهكذا نرى أنه لا حد لليانات الكثيرة الخاصة بالمحنة فى كتاب تذكرة الحفاظ للذهبي

١١ — وفیات الأعيان لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، طبعة ده سلان ، ورجعنا لطبعة الميمنية بالقاهرة سنة ١٣١٠ هـ . وقد رجع پاتون لترجمة ابن خلكان ، للامام أحمد ، ولأحمد بن أبى دواد . وقد أساء پاتون فهم نص فى ترجمة الأخير ، صححناه ونبها عليه فى موضعه

١٢ — الملل والنحل للشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ، وقد رجع فيه پاتون الى الترجمة الألمانية التى قام بها هاربريكر ونشرها فى هالة سنة ١٨٥٠ م . وكان أولى به أن يرجع الى النص العربى الذى نشره كيورتن بلندن سنة ١٨٤٥ م . وقد أتيح لنا نص محقق تحقيقا علميا لهذا الكتاب ، قام به الشيخ محمد فتح الله بدران ، ونشرته مطبعة الأزهر بالقاهرة فى مجلدين سنة ١٩٤٧ م . ويبدو أن پاتون لم يستفد كثيرا من كتاب الشهرستانى ، لأنه لم يتوغل كثيرا فى المباحث الكلامية المتعلقة بموضوع المحنة . وبالتالي لم يتطلع الى كتب أخرى مماثلة فى تاريخ الفرق وعلم الكلام ، كمؤلفات ابن قتيبة والأشعرى والباقلانى والبغدادى والاسفراينى والجوينى الخ

١٣ — المختصر فى أخبار البشر لأبى الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ ، وقد رجع فيه پاتون الى النسخة التى نشرها ريسكى فى هافنيا فى خمسة مجلدات مع الترجمة اللاتينية (من سنة ١٧٨٩ م الى سنة ١٧٩٤ م) . وقد

رجعنا الى طبعة الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٥ هـ فى أربعة أجزاء . وليس فيما اشتملت عليه من أخبار المحنة أى جديد

١٤ - الفهرست لابن النديم المتوفى نحو سنة ٣٨٥ هـ ، رجع فيه پاتون الى طبعة فلوجل بليدن سنة ١٨٧١ م . ولكن لم يطلع پاتون على قطعة سقطت من هذا الكتاب ، عثر عليها ونشرت فى مجلة ألمانية خاصة بالمشرقیات سنة ١٨٨٩ م ، وتشتمل على تراجم طائفة من علماء الكلام ، منهم بعض معاصرى الامام أحمد كالجاحظ وابن أبى دواد والعلاف والنظام وثامة . وقد نشر الفهرست مع هذه القطعة فى طبعة القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ التى رجعنا اليها

١٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وقد رجعنا الى طبعة منير بالقاهرة سنة ١٣٥١ هـ

١٦ - كشف الظنون لحاجى خليفة المتوفى سنة ١٠٦٨ هـ ، فى طبعة فلوجل بليزج وليدن فى سبعة مجلدات مع ترجمة لاتينية (من سنة ١٨٣٥ م الى سنة ١٨٥٨ م)

١٧ - معجم البلدان لياقوت المتوفى سنة ٦٣٦ هـ ، طبعة ليزج فى أربعة مجلدات (من سنة ١٨٦٦ م الى سنة ١٨٧٠ م) . وقد اعتمد عليه پاتون فى تحقيق بعض المواضع الجغرافية . وقد رجعنا الى طبعة القاهرة لمعجم البلدان التى ظهرت فى سنة ١٩٠٦ م فى ٨ مجلدات



أما الدراسات الحديثة للمستشرقين التى رجع اليها پاتون فى اعداد بحثه ، فانا نوردھا فيما يلى طبقا لأهميتها فى نظره ، وذلك تبعا لاشاراته اليها فى حواشى كتابه :

(١) دراسات اسلامية بقلم اجناس جولدسيهر ، نشر فى هالة فى مجلدين سنة ١٨٨٩ م ، ١٨٩٠ م . (بالألمانية)

(٢) « مواد جديدة فى مؤلفات الحديث عند المسلمين » ، مقال بالألمانية

بقلم جولدتسيهر، نشر سنة ١٨٩٦ م بالمجلد الخمسين من مجلة المستشرقين الألمانية من ص ٤٦٥ الى ص ٥٠٦ ، يتناول مسند الامام أحمد بمناسبة نشر الطبعة الأولى للمسند التي ظهرت في سنة ١٣١٣ هـ - ١٨٩٦ م بالقاهرة في ستة مجلدات كبيرة

(٣) المنازعات الاعتقادية بقلم هوتسما (باللغة الهولندية) ، ليدن سنة ١٨٧٥ م

(٤) الظاهرية فقها وتاريخها (بالألمانية) بقلم جولدتسيهر، ليزج سنة ١٨٨٤ م

(٥) المعتزلة : المفكرون الأحرار في الاسلام (بالألمانية) بقلم هيريش شتينر ، نشر بليزج سنة ١٨٦٥ م .

(٦) تاريخ الآراء السائدة في الاسلام (بالألمانية) بقلم ألفريد فون كريم ، نشر بليزج سنة ١٨٦٨ م . وقد ترجم المرحوم صلاح الدين خودا بخش الأستاذ السابق للتاريخ الاسلامي بجامعة كلكتا ، جانباً منه الى الانجليزية بعنوان : « السياسة في الاسلام » ، ونشر في كلكتا ، ولا أذكر تاريخ الطبع . ولفون كريم كتاب آخر بالألمانية عنوانه : « الغزوات الثقافية على البلاد الاسلامية » ليزج سنة ١٨٧٣ م . ترجمة بخش الى الانجليزية ، ونشره مع مقالات أخرى مؤلفة و مترجمة ، في كتاب بالانجليزية عنوانه : « اضافات لتاريخ الحضارة الاسلامية » في مجلدين نشرا بكلكتا سنة ١٩٠٥ م ، وظهرت لهما طبعة ثانية في سنة ١٩٢٩ م ، ١٩٣٠ م . وعن هذه الترجمة الانجليزية ، ترجم الدكتور مصطفى طه بدر الفصول الخاصة بكتاب الغزوات الثقافية لكريم الى العربية ، ونشرت في كتيب بالقاهرة سنة ١٩٤٧ م بعنوان : الحضارة الاسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية

(٧) محمد عليه السلام (بالألمانية) بقلم المستشرق الألماني جوستاف فيل المتوفى سنة ١٨٨٩ م

- (٨) تاريخ الخلفاء (بالألمانية) بقلم جوستاف ثيل في ثلاثة مجلدات
- (٩) بحث في تاريخ الديانة الاسلامية (بالهولندية) بقلم رينهارت دوزي ، وترجمه الى الفرنسية فيكتور شوفان ، ليدن سنة ١٨٧٩ م
- (١٠) مقال للمستشرق الهولندي دي خوى في مجلة المستشرقين الألمانية ، المجلد ٤٧ ، ولم يذكر باتون عنوانه
- (١١) شروح وتعليقات على المكتبة الجغرافية العربية التي نشرها دي خوى بليدن في ٨ مجلدات من سنة ١٨٨٨ م الى سنة ١٨٩٣ م وتشمل مؤلفات عدد من الجغرافيين العرب وهم ابن خرداذبة ، وقدامة ، وابن الفقيه ، وابن رسته ، واليعقوبى ، والاصطخرى ، وابن حوقل ، والمقدسى ، والمسعودى . وكتاب المسعودى الذى أدرج فى هذه المجموعة اسمه : التنبيه والاشراف ، واتضح لى أن باتون لم يرجع اليه ، لأنه يشتمل على بيانات كثيرة عن فداء الأسرى بين المسلمين والبيزنطيين ، ومنها توقف الخلفاء العباسيين الذين ساروا على سياسة المحنة ، عن فكاك الأسرى المسلمين ما لم يقرؤا بأن القرآن مخلوق ، وهى بيانات لم يستفد منها باتون فى بحثه

(١٢) المختارات العربية التاريخية ، جمع دي خوى

- (١٣) تاريخ الأدب العربى (بالألمانية) بقلم المستشرق النمساوى هامربرجشتول المتوفى سنة ١٨٥٦ م ، ونشر فى فيينا فى سبعة مجلدات من سنة ١٨٥٤ م الى سنة ١٨٥٦ م



هذه هى المؤلفات العربية والدراسات الأفرنجية المحدثه التى رجع اليها باتون . ومن الواضح أن مصادره العربية لا تقى مطلقا بالاحاطة بتوضوع بحثه ، كما أن دراسات المستشرقين التى اعتمد عليها ، فقد بعضها قيمته العلمية ولا سيما مؤلفات ثيل ودوزي وهامربرجشتول . وقد استند على هذه الدراسات فى بحث الجانب الكلامى لموضوع المحنة ،

دون الرجوع الى المصادر العربية الخاصة بالفرق الاسلامية والمسائل الكلامية التي رجع اليها هؤلاء في دراساتهم . وقد كان هذا الجانب الكلامي وحده يكفي لأن يقصر عليه موضوع رسالته . وأن يجعل من المحنة الذروة التي وصلت اليها حركة المعتزلة ، من الناحية السياسية على الأقل ، أى أن يتخذ المحنة ذريعة لكى يؤرخ عن طريقها لحركة الاعتزال . كما صنع المستشرق الفرنسى ماسينيون عندما اتخذ من دراسته للحلاج وقتله في سنة ٣٠٩ هـ ، وسيلة لدراسة حركة التصوف الاسلامي حتى أوائل القرن الرابع الهجرى ، وذلك فى مؤلفه الضخم القيم : « استشهاد الحلاج » (باريس سنة ١٩٢٢ م فى مجلدين)

بيد أن پاتون لم يفرد فى بحثه بابا لتاريخ العقائد الاعتزالية التى انتهت الى سياسة المحنة ، كما لم يوضح مدى الصلة التى كانت قائمة بين المعتزلة وأوائل خلفاء بنى العباس . ويتصل بموضوع المحنة آراء الامام أحمد نفسه التى دونها فى رسائله القصيرة المنسوبة اليه ، وفيما نقله عنه أبناؤه وتلاميذه وأتباعه . كما لم يستقص پاتون فى بحثه منهج أحمد كمحدث ومنهجه كفقيه ، ولم يعقد فصلا خاصا بشخصيته وأثره فى المدرسة الحنبلية المنتسبة اليه ، وتحقيق مدى أثره فى حوادث الشغب التى قام بها أتباعه فى بغداد طيلة قرنين من الزمان ، مما أدى الى تأخر انتشار مذهب الأشاعرة ، حتى قيام الدولة السلجوقية فى القرن الخامس الهجرى . وأخيرا لم يحقق موقع قبر الامام أحمد ، وأثر فيضانات نهر دجلة فى ازالة معالمه . ولم يضع خريطة جغرافية عليها المواقع التاريخية ، التى تتصل بموضوع دراسته

وعلى ضوء هذه الملاحظات سأشير فيما يلى الى ما فات پاتون أن يرجع اليه من المصادر العربية ، ثم أورد بعد ذلك ثبوتا بدراسات المستشرقين التى نشرت بعد صدور كتابه فى سنة ١٨٩٧ م

١ - ان آراء الامام أحمد ، نلتسمها فى رسائله القصيرة ، وعناوينها لا تتفق فى جميع الحالات مع مذكره منها ابن النديم فى كتابه الفهرست .

ومنها : التفسير ، والتاريخ ، والناسخ والمنسوخ ، والمقدم والمؤخر في كتاب الله ، وجوابات القرآن ، وفضائل الصحابة ، والمناسك ، والزهد ، ولعل الأخير هو كتاب الورع الذى نشر بالقاهرة سنة ١٣٤٠ هـ في ١٢٦ صحيفة

٢ - ولعل أهمها رسالة قصيرة عنوانها : الرد على الجهمية والزنادقة تقع في ٣٢ صحيفة يليها ملخص لكتاب السنة للإمام أحمد أيضا ويقع في ٨ صفحات ، وقد نشرهما عيسى الحلبي بالقاهرة وليس عليهما تاريخ الطبع . وتوجد نسخة مخطوطة من كتاب أحمد : الرد على الجهمية والزنادقة ، بمكتبة الأزهر تحت رقم ١٤٠٤

٣ - وقد أوضح آراء أحمد ، أبو داود السجستاني صاحب السنن المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، في كتاب عنوانه : مسائل الامام أحمد ، نشره رشيد رضا في القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ ويقع في ٣٢٨ صحيفة

٤ - مسائل عبد الله بن الامام أحمد بن حنبل لوالده الامام أحمد رضى الله عنهما ، مخطوطة مصورة من المجمع العلمى العربى بدمشق ، وتقع في ثلاثة أقسام ، جملة لوحات الصفحات فيها تبلغ ٤٠٥ صحيفة ، وتوجد بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٠٧٥٤ ب

٥ - كتاب المسائل عن امامى أهل الحديث وفقهى أهل السنة ، أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى ، وأبى يعقوب اسحق بن ابراهيم ابن راهويه الحنبلى رضى الله عنهما ، ألفه ورواه عنهما اسحق بن منصور المروزي الحافظ . في قسمين مصورين يشتملان على ١١٣ لوحة أى ٢٢٦ صحيفة ، بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم : ٢٠٧٥٥ ب

٦ - مسائل صالح بن الامام أحمد في مائة لوحة مصورة عن نسخة مخطوطة صفحاتها ١٩٧ صحيفة . بدارالكتب بالقاهرة تحت رقم ٢١٦٨١ ب وقد أثر عن الامام أحمد انه كان لايجيز لعن يزيد بن معاوية ، ولكن ذكر ابن الجوزى في كتابه دفع شبهة التشبيه أن الخنابلة يجيزون لعن

يزيد ، وردد هذه الدعوى الحصنى فى كتابه دفع شبه من شبه وتمرد ، وفى كتاب الأب لامنس عن خلافة يزيد فصل عن ذكرى يزيد ختم به كتابه ، وتعرض لهذا الموضوع ، وقال بأنه عثر على رسالة مخطوطة لابن الجوزى فى مكتبة ليدن ، عنوانها : رسالة فى جواز اللعن على يزيد . ولكنه أورد رأى جولدتسيهر فى الحنابلة الذى ذهب فيه الى أن المذهب الحنبلى على وجه العموم لا يعادى ذكرى الأمويين على اعتبار أنهم يمثلون مواصلة العمل بالسنة الاسلامية ، ولذا فإن الحنابلة يمتنعون عن الاساءة ليزيد بن معاوية

وقد أشار لامنس (فى ص ٤٨٨ من كتابه خلافة يزيد ، ببيروت سنة ١٩٢١ م) الى أن الامام أحمد يبغضه الشيعة ، اذ أخرج فى مسنده أحاديث مروية عن السيدة فاطمة استغرقت صحيفتين فقط ، بينا أورد فى المسند ما يزيد على ٢٣٠ صحيفة من مرويات السيدة عائشة . وذكر ما أورده ابن الجوزى فى المنتظم من أن شيعيا سمع حديثا روى عن الامام أحمد فى تركية على بن أبى طالب ، فصاح قائلاً : « قد أخرجت نصف ما كان فى قلبى على أحمد بن حنبل من البغض » . وانا لا نرى بطبيعة الحال أى وجه لبقاء هذه العداوة بين الحنابلة والشيعة فى الوقت الحاضر ، فإن أحمد كان يجلب على بن أبى طالب ، ويضعه فى التقدمة والتفضيل من حيث ترتيبه فى الخلافة ، بل ألف كتابا فى مناقبه كما جاء فى ص ٤ ج ١ من كتاب الرياض النضرة فى مناقب العشرة للمحب الطبرى (طبعة مصر سنة ١٣٢٧ هـ)

٧ - كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٩٠ هـ ، طبع مكة سنة ١٣٤٩ هـ فى جزئين جملة صفحاتهما ٢٥٦ صحيفة

وقد ذهب ابن تيمية فى كتابه الايمان (ص ١٢٨) الى أن أوفى كتاب فى شرح آراء الامام أحمد بن حنبل فى المسائل الاعتقادية ، ويسمىها : الأصول الدينية ، هو كتاب السنة الذى نشر مختصر له مع كتاب الرد على

الجهمية وكلاهما للامام أحمد ، غير أنى أعتقد أن رأى ابن تيمية هذا ينطبق أيضا على كتاب ولده عبد الله بن أحمد الذى ذكرناه آنفا ، والذى يتضمن آراء أبيه . وعند ابن تيمية أيضا أن كتاب العلم للامام أحمد يشرح آراءه فى الأصول الفقهية

٨ — بيد أن آراء الامام أحمد فى المسائل الاعتقادية قد لحصها الصوفى عبد القادر الجيلى المتوفى فى سنة ٥٦١ هـ فى كتابه الغنية لطالبى طريق الحق ، طبعة القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ ج ١ من ص ٥٦ الى ص ٩٠ ، وعلى الأخص الفصل الخاص بالقرآن فى ص ٦٥

٩ — وذكر ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ جانبا من هذه الآراء فى كتابه : الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية ، طبعة الآداب بالقاهرة سنة ١٣١٧ هـ من ص ١٥٥ الى ص ٢٩٣ ومن المراجع الخاصة بالمسند :

١٠ — خصائص المسند لأبى موسى المدينى المتوفى سنة ٥٨١ هـ ويقع فى تسع صفحات ، نشره أحمد محمد شاكر فى مقدمة طبعته الجديدة للمسند (ج ١ من ص ١٩ الى ص ٢٧ ، القاهرة سنة ١٩٤٦ م) . ونشر جولدسيهر مقتطفات منه فى مقاله عن المسند فى مجلة المستشرقين الألمانية

١١ — المصعد الأحمد فى ختم مسند الامام أحمد ، لابن الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ هـ ، نشره أحمد محمد شاكر فى مقدمة طبعته الجديدة للمسند (ج ١ من ص ٢٨ الى ص ٥٦)

١٢ — وتوجد اشارات عن المسند فى كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكي المتوفى سنة ٣٨٦ هـ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٢ م ٤ أجزاء فى مواضع مختلفة ، أهمها ما جاء فى ج ٢ ص ٦٤ موضعا لطريقة الامام أحمد فى تخريج مسنده ، اذ قال المكي : وفى المسند أحاديث كثيرة يعلم الثقات أنها ضعيفة ، والامام أحمد أعلم بضعفها منهم ، ولكنه أدخلها فى مسنده ، « لأنه أراد تخريج المسند ولم يقصد تصحيح السند ، فاستجاز رواياتها كما سمعها »

١٣ - وجاء في صييد الخاطر لأبى الفرج بن الجوزى طبعة القاهرة سنة ١٩٢٧ م أن أحمد روى في مسنده ما اشتهر ولم يقصد الصحيح ولا السقيم . (ص ٢٤٥ ، ٢٤٦)

١٤ - القول المسدد في الذب عن المسند للإمام أحمد ، لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ طبع حيدر آباد سنة ١٣١٩ هـ في ١٠٤ صحيفة

١٥ - اختصار علوم الحديث المسمى بالباعث الحثيث في معرفة علوم الحديث لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ ، تحقيق أحمد محمد شاكر، ويتضمن اشارات كثيرة عن مسند الامام أحمد ومن المصادر التاريخية :

١٦ - اشارة معاصرة للمحنة في كتاب المتجبر لمحمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ هـ طبع حيدر آباد سنة ١٣٦١ هـ

١٧ - رسالة الجاحظ في خلق القرآن من جملة رسائل الجاحظ المنشورة على هامش الكامل للمبرد ، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ . وقد أوردنا جانباً منها في المقدمة

١٨ - ذكر محنة أحمد بقلم حنبل بن اسحق بن حنبل المتوفى سنة ٢٧٣ هـ ، وهى مخطوطة من مخطوطات المكتبة التيمورية تحت رقم ٢٠٠٠ تاريخ ، فى أربعين صحيفة

١٩ - كتاب بغداد وهو الجزء السادس ، لأحمد بن طاهر بن طيفور المتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، نشره المستشرق كيلر فى ليزج سنة ١٩٠٨ م ، ثم نشره زاهد الكوثرى بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م . ويتضمن بيانات كثيرة عن المأمون وأوائل حركة المحنة ، مما لا نجد نظيراً له فى تاريخ الطبرى . فضلاً عن أنه متقدم عن الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ

وتوجد أصداء عن المحنة فى كتب الأدب والشعر نذكر منها :

٢٠ - أخبار أبى تمام للصولى المتوفى سنة ٣٣٥ ، طبع لجنة التأليف بالقاهرة سنة ١٩٣٦ م

- ٢١ - الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء للمرزباني المتوفى سنة ٣٨٤ هـ ، طبع السلفية بالقاهرة سنة ١٣٤٣ هـ
- ٢٢ - ديوان البحترى ، طبع البرقوقى بالقاهرة سنة ١٩١١ م ،
والآبيات الخاصة بالحنة نشرت محرقة
- ومن الكتب الخاصة بالفرق وعلم الكلام :
- ٢٣ - الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة لابن قتيبة
المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ
- ٢٤ - تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ، مطبعة كردستان العلمية
بالقاهرة سنة ١٣٢٦ هـ
- ٢٥ - كتاب المعارف لابن قتيبة ، تحقيق محمد اسماعيل الصاوى ،
القاهرة سنة ١٩٣٤ هـ . وفى ص ١٧٢ اشارة الى قتل الواثق لأحمد
ابن نصر الخزاعى فى محنة خلق القرآن ، حيث قال ابن قتيبة : « وقتل
(أى الواثق) أحمد بن نصر بالحنة » ، ولكن كلمة المحنة صحتها محقق
الكتاب فظنها المحنة بالجيم وكتب فى هامش الصحيفة ما يشرح كلمة
المحنة اذ قال بأنها بلد على أميال من مكة وسوق من أسواق العرب فى
الجاهلية . مع أن عبارة ابن قتيبة تفيد بأن أحمد بن نصر قتل بالحنة أى
بمحنة خلق القرآن
- ٢٦ - رد الامام الدارمى عثمان بن سعيد على بشر المريسى العنيد ،
بتحقيق محمد حامد الفقى ، القاهرة سنة ١٣٥٨ هـ . والدارمى هذا
توفى سنة ٢٨٠ هـ أو ٢٨٢ هـ ، وبشر المريسى توفى سنة ٢١٨ هـ .
ويزودنا هذا الكتاب ببيان عن المجادلات الكلامية فى القرن الثالث الهجرى
- ٢٧ - الانتصار للخياط المعتزلى ، نشره المستشرق نيرج بالقاهرة
سنة ١٩٢٥ م
- ٢٨ - الابانة عن أصول الديانة للأشعرى المتوفى سنة ٣٢٤ هـ طبع
حيدر آباد سنة ١٣٢١ هـ

- ٢٩ - مقالات الاسلاميين للأشعري طبع استنبول في مجلدين سنة ١٩٢٩ هـ
- ٣٠ - التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ، للملطي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ، نشره المستشرق ديدرنج بليزج سنة ١٩٣٦ م ونشر بالقاهرة سنة ١٩٤٩ م
- ٣١ - التمهيد للباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣ هـ نشر الخضيرى وأبى ريدة ، القاهرة سنة ١٩٤٧ م
- ٣٢ - الفرق بين الفرق للبغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، نشر الكوثرى بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م
- ٣٣ - أصول الدين للبغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ ، استنبول سنة ١٩٢٨ م
- ٣٤ - التبصير فى الدين لأبى المظفر الاسفراينى المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، نشر الكوثرى بالقاهرة سنة ١٩٤٠ م
- ٣٥ - كتاب الارشاد الى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد لامام الحرمين الجوينى المتوفى سنة ٤٧٨ هـ ، بتحقيق الدكتور محمد يوسف موسى وعلى عبد المنعم ، القاهرة سنة ١٩٥٠ م
- ٣٦ - صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام لجلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ . ويليه مختصر كتاب ابن تيمية : نصيحة أهل الايمان فى الرد على منطق اليونان ، القاهرة سنة ١٩٤٧ م
- ٣٧ - تبين كذب المفترى فيما نسب للإمام أبى الحسن الأشعري طبع دمشق سنة ١٣٤٧ هـ
- ومن المؤلفات التاريخية :
- ٣٨ - تاريخ دمشق لابن عساكر ، اختصار عبد القادر بدران وتقع ترجمة أحمد فى ج ٢ ص ٢٨ : ٤٨

٣٩ — مناقب أحمد لأبى الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ طبع
القاهرة سنة ١٣٤٩ هـ

٤٠ — المنتظم لابن الجوزى ، طبع حيدر أباد من ج ٥ الى ج ١٠

٤١ — تاريخ المحنة لعبد الغنى الجماعلى مخطوط فى ٣ أجزاء بدار
الكتب بالقاهرة تحت رقم ٣٤٥ تاريخ

٤٢ — مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، مخطوط
مصور بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٥٥١ تاريخ

٤٣ — الكامل فى التاريخ لابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ ج ٧ ص ٢٨

٤٤ — تاريخ مختصر الدول لابن العبرى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ، يوضح
وجهة النظر المسيحية العربية فى المحنة فى ص ٢٤١ من طبعة صالحانى
بيروت سنة ١٨٩٠ م

٤٥ — مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

٤٦ — مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية

٤٧ — ترجمة أحمد بن حنبل ، استخرجها الشيخ أحمد محمد شاكر من
تاريخ الاسلام للذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ ونشرت فى الجزء الأول من
المسند ، القاهرة سنة ١٩٤٦ م

٤٨ — الآداب الشرعية لابن مفلح الحنبلى المتوفى سنة ٧٦٢ هـ طبعة
المنار فى القاهرة سنة ١٣٤٨ هـ فى ثلاثة مجلدات

٤٩ — البداية والنهاية لابن كثير المتوفى سنة ٧٧٤ هـ طبعة القاهرة
فى ج ١٠ ص ٣٢٥ : ٣٤٣

٥٠ — مقدمة ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ

٥١ — تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ

فى ج ١ ص ٧٢ : ٧٦

٥٢ — المنهج الأحمد فى تراجم أصحاب الامام أحمد ، لمجير الدين

العلیمی المتوفى سنة ٩٢٧ هـ . مخطوطة مصورة بدار الكتب بالقاهرة
تحت رقم ٨١١ تاريخ في أربعة مجلدات

٥٣ - الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي المتوفى سنة
٧٩٥ هـ ، حققه هنرى لاوست ، وسامى الدهان ، دمشق سنة ١٩٥١ م
٥٤ - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٨٩ هـ ،
في ج ٢ ص ٩٦ : ٩٨

٥٥ - معالم أصول الدين للفخر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ على
هامش كتابه محصل أفكار المتقدمين ، طبعة الحسينية بالقاهرة سنة
١٣٢٣ هـ وذلك في هوامش الصفحات من ٥٣ الى ٥٨
ومن المراجع العربية الحديثة :

٥٦ - الطبعة الأولى من رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، وتشتمل
على بيان عن فكرة خلق القرآن . حذفه رشيد رضا فى الطبقات التالية
من هذه الرسالة

٥٧ - كتاب قول الحق لنبذ من قال القرآن من الخلق لعلى بن أحمد
المؤيد ، القاهرة سنة ١٨٩٩ م

٥٨ - ضحى الاسلام لأحمد أمين ج ٣ الطبعة الأولى القاهرة سنة
١٩٣٦ هـ

٥٩ - المعتزلة بقلم زهدى حسن جار الله ، القاهرة سنة ١٩٤٧ م
٦٠ - المدخل لمذهب الامام أحمد ، لابن بدران الدمشقى ، القاهرة
سنة ١٣٤٥ هـ

ومن المراجع الأجنبية :

٦١ - نمو علم الكلام الاسلامى الخ بقلم دنكان مكدونالد
(بالانجليزية) لندن سنة ١٩٠٣ م

٦٢ - تاريخ العرب الأدبى بقلم نيكلسون ، الطبعة الثانية ، كمبردج
سنة ١٩٣٠ م (بالانجليزية)

٦٣ - الاسلام عقائده ونظمه للأب هنرى لامنس ، بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٤١ (بالفرنسية)

٦٤ - مقالة عن المجادلات الاعتقادية بقلم كارل هينريش بيكر ، في مجلة الأشوريات (بالألمانية) مجلد ٢٦ سنة ١٩١٢ م ، وتتضمن بياناً عن فكرة خلق القرآن

٦٥ - مواد جديدة في مصنفات الحديث عند المسلمين بقلم جولدتسيهر ، في مجلة المستشرقين الألمانية ، مجلد ٥٠ من ص ٤٦٥ الى ص ٥٠٦ (بالألمانية)

٦٦ - نقد كتاب باتون بقلم جولدتسيهر ، مجلة المستشرقين الألمانية مجلد ٥٢ ص ١٥٥ الى ص ١٦٠ (بالألمانية)

٦٧ - في تاريخ الحركة الحنبلية بقلم جولدتسيهر ، مجلة المستشرقين الألمانية ، مجلد ٦٢ من ص ١ الى ص ٢٨ (بالألمانية)

٦٨ - مادة أحمد بن حنبل بقلم جولدتسيهر ، في دائرة المعارف الاسلامية

٦٩ - مادة أحمد بن حنبل بقلم دنكان مكدونالد في دائرة المعارف البريطانية ، الطبعة ١١ سنة ١٩١٠ م

٧٠ - مواد أحمد بن حنبل والحنابلة والمعتزلة والمأمون ، وكلها بقلم كارلو ألفونسو نالينو في دائرة المعارف الايطالية

٧١ - مادة أحمد بن حنبل بقلم يونينبول في دائرة معارف الدين والأخلاق (بالانجليزية) ص ٦٩ ، ٧٠ مجلد ٧ ، ادبره سنة ١٩١٤ م

٧٢ - بغداد في عهد العباسيين بقلم جى لوسترانج ، أوكسفورد سنة ١٩٢٤ م

٧٣ - العقيدة الاسلامية بقلم فنسك ، لندن سنة ١٩٣٢ م

٧٤ - مادة معتزلة بقلم نيرج في دائرة المعارف الاسلامية ، وقد أتى

فيها بنظرية جديدة تؤكد صلة المعتزلة بالدعوة العباسية وأن الأصل في نشأة الاعتزال كان سياسيا ولم يكن دينيا

٧٥ - مادة محنة بقلم فنسنت في دائرة المعارف الاسلامية

٧٦ - تاريخ الأدب العربي بقلم بروكلمان ج ١ سنة ١٨٩٨ م ، والمجلد الأول من الذيل ص ٣٠٩ ، ٣١٠ سنة ١٩٣٧ م

٧٧ - مذاهب التفسير الاسلامي بقلم جولدسيهر (بالألمانية)
لندن سنة ١٩٢٠ م وترجمه الى العربية وعلق عليه الدكتور عبد الحليم النجار ، القاهرة سنة ١٩٥٥ م

٧٨ - أبحاث في تاريخ الحركة الكلامية في الاسلام بقلم مارتن شرينر ، في مجلة المستشرقين الألمانية مجلد ٥٢ ، ٥٣ ، ونشرت على حدة في ليزج سنة ١٨٩٩ (بالألمانية)

٧٩ - في « تاريخ الأشعرية » بقلم مارتن شرينر في أعمال المؤتمر الدولي الثامن للمستشرقين سنة ١٨٨٩ م ، ج ٢ ق ١ من ص ٧٧ الى ص ١١٧ ، لندن سنة ١٨٩٣ م . (بالألمانية)

٨٠ - في تاريخ أبى الحسن الأشعرى (بالألمانية) بقلم فيلهلم شبيتا ، ليزج سنة ١٨٧٦ م

٨١ - حرية الاختيار والجبر في الاسلام القديم (بالانجليزية) بقلم و . منتوجرى وات ، لندن سنة ١٩٤٨ م

ومن المراجع العربية أيضا :

٨٢ - ترجمة الامام أحمد في كتاب الأنساب للسمعاني ، صورة زنكوغرافية للمخطوط نشرها مرجوليوث في سنة ١٩١٢ م في مجموعة جيب التذكارية ، ورقة ١٧٨ ب ، ١٧٩ ا

٨٣ - دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة ممن يتنحل مذهب الامام أحمد ، بقلم أبى الفرج بن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ ، طبع القدس بدمشق سنة ١٣٤٥ هـ

٨٤ - دفع شبه من شبّه وتمرد ، ونسب ذلك الى السيد الجليل الامام أحمد بقلم تقى الدين أبى بكر الحصنى المتوفى سنة ٨٢٩ هـ ، طبع عيسى الحلبي بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ

٨٥ - مختصر الشطى لطبقات الحنابلة لأبى يعلى الفراء ، ترجمة أحمد فى ص ٣ الى ص ١١

٨٦ - كتاب الصلاة وما يلزم فيها للامام أحمد ، طبعة صبيح دون تاريخ للطبع

٨٧ - مرآة الجنان لليافعى ، طبعة حيدر آباد ، ترجمة أحمد فى ج ٢ ص ١٣٢ الى ص ١٣٤

٨٨ - الولاة والقضاة للكندى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ طبع روفون جست ، بيروت سنة ١٩٠٨ م . وتقع أخبار المحنة فى مصر فى ص ٤٤٥ الى ص ٤٦٢

٨٩ - مجمل الرغائب فيما للامام أحمد من المناقب ، بقلم زكى الدين عبد الله بن محمد الخزرجى ، مخطوط بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٥٨٧ تاريخ ، وهو مختصر من كتاب مناقب أحمد لأبى الفرج بن الجوزى ٩٠ - ترجمة أحمد فى ص ١٠ من كتاب خلاصة تذهيب الكمال فى أسماء الرجال كتبه صفى الدين أحمد بن عبد الله الخزرجى فى سنة ٩٢٣ هـ

٩١ - مهذب رحلة ابن بطوطة ، القاهرة طبعة وزارة التربية ج ١ ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، تحت عنوان ذكر قبور الخلفاء ببغداد وقبور بعض العلماء والصالحين . وقد أخطأ ابن بطوطة فى ذكر موقع قبر الامام أحمد ، لأن أهل بغداد خلطوا بينه وبين قبر ولده عبد الله

٩٢ - والسبب فى هذا الخلط وقوع فيضانات لنهر دجلة غيرت من معالم بغداد ، وذلك فى السنوات ٤٦٦ هـ ، ٥٥٤ هـ ، وتواريخ هذه السنوات وأحداثها موضحة فى كتاب المنتظم لأبى الفرج ابن الجوزى ، طبعة حيدر آباد من ج ٨ الى ج ١٠

٩٣ - ومن الروايات المسيحية العربية عن المحنة ، اشارة عنها في كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق بقلم ابن البطريق المتوفى سنة ٣٢٨ هـ طبعة شيخو ببيروت سنة ١٩٠٥ م ج ١ ص ٦١

٩٤ - ومن المصادر الفارسية في تاريخ المحنة ، كتاب تاريخ كزيدة تأليف حمدان بن أبى بكر القزوينى ، فى مجلدين طبع لندن ، مع ترجمة مختصرة الى اللغة الانجليزية ، دار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٨٤ تاريخ فارسى

٩٥ - مادة أحمد بن حنبل فى قاموس الاسلام (بالانجليزية) بقلم هيوز ، الطبعة الثانية لندن سنة ١٩٣٥ م ص ١٨٨ وما بعدها

٩٦ - ترجمة أحمد لولده صالح بن أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٦٥ هـ ، مخطوطة مصورة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١١١١٨ ح

٩٧ - الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ للسخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ ، طبع القدس بدمشق سنة ١٣٤٩ هـ ، ويتضمن اشارات مختلفة للامام أحمد ، وقد عد السخاوى كتاب المسند للامام أحمد من كتب التاريخ (ص ٨٧) ، ويؤيد ذلك ما ذكره جولدتسيهر فى مقاله : مواد جديدة فى مصنفات الحديث عند المسلمين ، من أن « عز الدين بن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ عندما صنف كتابه أسد الغابة ، استقى مادته من أمهات كتب الحديث وأخبار الصحابة ومنها كتب المسانيد مثل مسند الامام أحمد ومسند أبى داود الطيالسى ومثله لأبى يعنلى الموصلى ، ومعافى ابن عمران »

كما ورد فى كتاب الاعلان للسخاوى عناية الامام أحمد بالتواريخ الزمنية ، فقد أورد عنه فى ص ٤٧ أن الامام أحمد لشدة اعتناؤه بهذه التواريخ أنه لما ودع أبا الحسن بن الربيع ، قعد معه ، وأخرج ألواح ، وسأله أن يملأ عليه وفاة ابن المبارك ، ففعل ، وأنها فى سنة احدى وثمانين (ومائة) ، ولما سئل الامام أحمد عن مقصده قال : أريد أتعرف به

الكذابين ، أى من رواة الحديث

وحدث ابان حركة جمع الحديث الاسلامى فى القرن الثالث الهجرى ، أن ظن بعض الناس أن جرح الرواة نوع من الغيبة . وقد جاء فى كتاب الإعلان للسخاوى ص ٥٢ أن أبا تراب النخشبى عذل الامام أحمد عن الجرح بقوله : لا تَغْتَبِ الناس ، فقال الامام أحمد : ويحك ، هذه نصيحة وليست غيبة ، بل انها أفضل من الصوم والصلاة

وعندما تكلم السخاوى عن منهج الذهبى فى تأليف كتابه الضخم : تاريخ الاسلام قال : « وقد تتبعت تفصيل كثير مما أجمله ، وبينت التصانيف التى فيه على وجه الحصر ، لعدم التمكن من ذلك . على أن الكثير لا وجود لتاريخ فيه ، ولكن يمكن أخذه من التصانيف فى ذلك العلم أو الوصف أو نحو ذلك ، وفاته أخبار المتحنين » . والعبارة الأخيرة للسخاوى ، تشير الى أن الذهبى نسي أن يدرج فى تاريخه أخبار العلماء والفقهاء الذين امتحنوا . ولكن هذه العبارة غمضت على المستشرق الهولندى فرائز روزنتال ، عندما ترجم كتاب الإعلان بالتوييخ الى اللغة الانجليزية وذيّل بهذه الترجمة بحثه فى تطورالدراسات التاريخية عند المسلمين ، فترجمها بما معناه : « على الرغم من أن هذا لم يجد من الباحثين عناية خاصة » ووضع علامة استفهام للتدليل على أنه لم يتثبت من مراد المؤلف . (راجع ترجمة روزنتال لكتاب الإعلان بالتوييخ للسخاوى ، فى كتابه : تاريخ التأريخ الاسلامى ص ٣٢١ ، ليدن سنة ١٩٥٢ م)

٩٨ - كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، طبعة القاهرة سنة ١٣١٧ هـ

٩٩ - بيان عن الامام أحمد فى مختصر خليل ص ١٦

١٠٠ - صلة الامام أحمد بالشافعى فى ج ٤ ص ١٥٢ من كتاب منهاج السنة النبوية لابن تيمية

١٠١ - « بحث في الآراء الاجتماعية والسياسية للفقهاء الحنبليين ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ » ، دراسة مستفيضة باللغة الفرنسية تقع في ٧٥٥ صفحة ، بقلم المستشرق الفرنسي هنري لاوست ، طبع المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة سنة ١٩٣٩ م . وقد تناول لاوست فيه أثر الامام أحمد في ابن تيمية ص ٧٤ وما بعدها

ملاحظات ختامية

١ - ضبط اسم القاضي أحمد بن أبي دواد في تاج العروس ج ٢ ص ٣٥٠ وقد جاء فيه : والدواد كغراب لعله تشبيها بصغار الدود ، وهو اسم القاضي الايادي الجهمي

٢ - شرح مادة « محنة » في جهرة اللغة لابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، طبعة حيدر آباد ج ٢ ص ١٩٥ ، وفي أساس البلاغة للزمخشري ج ٢ ص ٣٧٠ ، وفي النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير ج ٤ ص ٨٢

٣ - مادة عَقَاب على وزن غَرَاب لم يرد معناها في القاموس المحيط للفيروز آبادي ، ولكن ذكرها الزبيدي في شرحه للقاموس ، فقال : العقابان اللذان ضرب عليهما أحمد ، خشبتان يوضع الرجل بينهما ليجلد ، وقد نقله الزبيدي عن لسان العرب ، راجع تاج العروس ج ١ ص ١١٢

٤ - جاء في كتاب الأب لامنس : الاسلام : عقائده ونظمه ، الطبعة الثانية بيروت سنة ١٩٤١ م ص ١٠٣ أن اجماع المسلمين على كتب الحديث الستة : البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود وابن ماجه والنسائي ، لم ينعقد قبل القرن السابع الهجري . وأنه على الرغم من تقدير المسلمين لمسند الامام أحمد ، فانه لم يدرج مع الكتب الستة ، بسبب ما يشتمل عليه من أحاديث التشبيه ، ولكن جولدتسيهر ذهب في مقاله : مواد جديدة في مصنفات الحديث عند المسلمين الى أن السبب في عدم رواج الاشتغال بالمسند بين المسلمين يرجع الى ضخامته . ويرى كاتب هذه

السطور أن من هذه العوائق ترتيب المسند على نظام المسايد وليس على نظام المصنفات ، ويلاحظ أن الكتب الستة كلها مرتبة على نظام المصنفات

٥ - في احصاء أحاديث المسند ، نرى أن جولدتسيهر قدرها في مقاله السابق الذكر بنحو ثلاثين ألفا من الأحاديث . ولكنه عاد فأقتص هذا التقدير في مادة أحمد التي كتبها في دائرة المعارف الاسلامية سنة ١٩١٣م اذ جعله يتراوح بين ثمانية وعشرين ألفا وتسعة وعشرين ألفا . وتابعه في ذلك المستشرق الايطالى كارلو ألفونسو نالينو ، في مادة أحمد في دائرة المعارف الايطالية ج ٢ ص ٢٩ . ومن تقديرات القدامى : ابن النديم الذى ذهب الى أن المسند يشتمل على نيف وأربعين ألفا (الفهرست طبعة التجارية ص ٣٢٠) وابن خلدون في مقدمته قدر أحاديث المسند بخمسين ألفا (المقدمة طبعة المهدى سنة ١٩٣٠ م ص ٣٧٢) . وهذه كلها تقديرات تقريبية . ولكن الأستاذ أحمد محمد شاكر يقوم بتقييم أحاديث المسند واحصائها في الطبعة الحديثة التى يخرجها للمسند

٦ - جاء في كتاب الأب لامنس : الاسلام عقائده ونظمه ص ١١٣ أنه لم يعترف بالحنابلة كمدرسة فقهية الا ابتداء من القرن السادس الهجرى ، وأنه قبل هذا التاريخ كان الحنابلة يعدون محدثين ، وعنده أن مؤسس المذهب الحنبلى لم يكن يرغب في غير الحديث والآثار ، وذكر أن المدرسة الفقهية الحنبلية ضيقة المنحى ، وأنها تتجه اتجاها قويا نحو النضال والكفاح . وقال في ص ١١٤ انها تمثل الناحية اليمينية المتطرفة للسنة ، اذ تتقيد الحنبلية بلفظ الكتاب والسنة على طريقة الظاهرية ، ولكنها تعد أقل تطرفا من الظاهرية ، وأنه ليس بين المذاهب السنية ما هو أشد من الحنبلية عداء للصوفية ، وعنده أن الحنبلية تضيق من نطاق الاجماع والقياس ، وتعارض المذهب الاعتقادى المتوسط بين المعتزلة وأهل السنة ، وهو مذهب الأشعرى . وأشار الى أن الحنبلية تنكر استخدام رأى الذى لا يستند الى أحاديث النبى عليه السلام ، أو

مرويات الصحابة. وذكر أنه كان للحنبلية أتباع عديدون في الشام والعراق، ولكن قيام الدولة السلجوقية قلل من عددهم ، اذ عملت هذه الدولة على نشر الفقه الحنفي . هذا وقد تجدد نشاط الحنبلية في القرن الثامن الهجري على يد ابن تيمية وتلاميذه نذكر منهم ابن قيم الجوزية. وذهب لامنس الى أن قيام الدولة العثمانية واستيلاءها على الشام والعراق في القرن العاشر الهجري ، أضعف الحنبلية اذ أتم العثمانيون ما بدأ به السلاجقة من نشر فقه الأحناف . ولكنه أشار الى أن الحنبلية عادت اليها قوتها في القرن الثاني عشر الهجري بقيام الحركة الوهابية في قلب الجزيرة العربية ، وأوضح أنها القوة التي تعارض كل بدعة مستحدثة في الاسلام هذا وقد شرح لاوست في كتابه عن ابن تيمية هذه الموضوعات تفصيلا

٧ - وجاء في كتاب تاريخ العرب الأدبي بقلم نيكلسون ، الطبعة الثانية ، كمبردج سنة ١٩٣٠ م ص ٣٦٩ أن شتينر يرى أن بدعة الاعتزال نشأت في صميم الفكر الاسلامي دون أن تتأثر بأى مؤثر من الفكر الأجنبي ، ولكن كيفما كان الأمر ، فان تطورها في المراحل التالية تأثر الى حد كبير بالفلسفة اليونانية . وقال نيكلسون بأنه لا حاجة به لأن يتابع أبحاث المعتزلة المستغلقة مثل تلك التي قام بها ابو الهذيل العلاف ، والنظام ، وبشر بن المعتز ، ومدرستا البصرة وبغداد الفلسفتين اللتين اندثرت فيهما الحركة الاعتزالية . وذهب الى أن المعتزلة حاولوا عبثا أن يغلبوا فكرة العدل الاغريقية على النظرية الاسلامية في المشيئة الالهية . ولكن لم نسفر محاولاتهم في تأويل الآيات التي قد يفهم منها التشبيه عن أثر في المؤمنين الذين كانوا يتوقون الى رؤية الباري في الآخرة . وكانت الثمرة التي انتهت اليها المعتزلة ضئيلة يسيرة . فان ما استخدموه من أسلحة المنطق والجدل، قد حاربهم بها خصومهم ، وتغلبوا بها عليهم ، وبذا أنشئت على أطلال الحركة العقلية ، العقائد الكلامية . وعنده أن مبادئ المعتزلة قد هيأت مع ذلك الفكر الاسلامي ، بطريقة غير مباشرة ، الى حركات أخرى من الفكر الحر ، مثل حركة اخوان

الصفة التي حاولت أن توفق بين النقل والعقل ، وأن تنشئ مذهباً
عاماً لفلسفة دينية

٨ - وجاء أيضاً في كتاب نيكلسون الآنف الذكر ص ٣٧٩ أن
المستشرق شبيتا يرى في انتصار الأشعرى ثورة الروح القومى العربى في
وجه الأفكار الأجنبية الدخيلة التي كانت تهدد بالتغلب على الاسلام ،
ويرى نيكلسون أن هذه النظرية لا تتلاءم مع تلك الحقيقة ، وهى أن
أغلب أعلام الأشعرية كانوا من الفرس ، وعنده أن قون كريم كان أقرب
الى الصواب حين قال : ان انتصار الأشعرى لا يعدو أن يكون
فوزاً دينياً فحسب ، ولكنه كان أيضاً كما قال المستشرق شرينر انتصاراً
للفكر والنظر على الايمان المبني على التسليم والتقليد . وعند نيكلسون
أن هذا النصر لم يتحقق في سرعة أو سهولة . فان كثيراً من أهل السنة
كانوا يعضون العقائد الكلامية الجديدة بغضا لا يقل عن بغضهم للمنهج
العقلى السابق الذى سار عليه المعتزلة . ولذا فانا لاندعش حين نقرأ
في تاريخ ابن الأثير في حوادث سنة ٤٥٦ هـ أن عميد الملك الكندوى
وزير السلطان ألب أرسلان السلجوقى أضاف الأشاعرة للروافض عندما
أجاز له مولاه سب الروافض على منابر خراسان ، مما حمل فقهاء
الأشاعرة من أمثال أبى القاسم القشيرى وأبى المعالى الجوينى على مغادرة
هذه البلاد ، وعنده أنه لم يكتب للأشعرية الظفر الا على يد الوزير
نظام الملك عندما أنشأ مدارس النظامية في مختلف البلاد الاسلامية
ومنها بغداد

٩ - وذكر جولدتسيهر في مقاله : مواد جديدة في مصنفات الحديث
عند المسلمين أن الامام أحمد أخرج في مسنده أحاديث يلاحظ أن في
اسنادها أسماء مبهمه ، وخاصة في الشق الأوسط منها ، وأنه يجرى
كثير منها هكذا : عن فلان (ج ٤ من المسند ص ١٦٨) وعن رجل
(ج ٣ ص ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤٢٤ ، ٤٤١) ، وعن رجل من أصحاب بدر
(ج ٣ ص ٤٧٤) ، وعن رجل من جهينة (ج ٣ ص ٤٧١) ، وعن

رجل من قومه (ج ٤ ص ٦٣) ، وعن رجل لم يسم (ج ٤ ص ٦٥ ، ج ٥ ص ٩٥) ، وعن بعض أصحاب النبي (ج ٤ ص ٣٦) ، وعن مولى لرسول الله (ج ٤ ص ٢٣٧) ، وعن ثلاثين من أصحاب النبي (ج ٤ ص ٣٧) وعن خادم النبي (ج ٣ ص ٥٠٠) وعن عريف من عرفاء قريش (ج ٣ ص ٤١٦) . ويرى جولدتسيهر أن الإبهام قد شمل النساء ، ففى بعض الأسانيد عن عجوز من الأنصار (ج ٤ ص ٥٥) ، وعن عجوز من بنى فهير (ج ٥ ص ٢٧٠) ، وعن امرأة (ج ٤ ص ٦٨ ، ص ٧٠) ، وأنه فى المجلد الخامس من ص ٤٠٩ الى ص ٤١٢ مجموعة كاملة من هذه المبهمات . ولقد ينصب الإبهام أحيانا على التالى فى سلسلة السند ، كأن يقال : حدثنا رجل عن رجل ، أو رجل عن عمه (ج ٤ ص ٦١ ، ٦٢) . ولم تخل الأسماء المبهمة من الترضية أو من التقدير على صورة ما ، فكثيرا ما نجد ذكر « صحابة » قد شرفهم الرسول بأخبارهم ، أو عن رجل رضى الله عنه

١٠ - ويمكن أن أضيف الى الأمثلة التى ساقها جولدتسيهر ما يلى :
عن رجل من أهل المدينة (ج ٣ ص ٤٢٤) ، وعن رجل من بكر بن وائل (ج ٣ ص ٤٧٤) ، وعن رجل رمق النبي (ج ٤ ص ٦٢) ، وعن رجل يتمجج لبنا بتمر (ج ٣ ص ٤٧٤) ، وعن رجل من بنى يربوع رضى الله عنه (ج ٤ ص ٦٤) ، وحديث رجال يتحدثون رضى الله تعالى عنهم (الموضع السابق) ، وحديث رجل مقنع رضى الله عنه (ج ٤ ص ٦٤) ، وألاحظ أن المجاهيل فى هذه الأسانيد لا يتعدون عصر الصحابة

١١ - مما يؤيد النص الذى ذكرته فى المقدمة تقلا عن محاضرات الراغب الأصبهاني ما ذكره امام الحرمين الجويني فى كتابه الارشاد الى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد فى ص ١٠٠ من أن « المعتزلة والخوارج والامامية ومن عداهم من أهل الأهواء ذهبوا الى أن كلام الباري ، تعالى الله عن قول الزائعين ، حادث مفتتح الوجود . وصار صائرون من هؤلاء

الى الامتناع عن تسميته مخلوقا مع القطع بحدثه ، لما فى لفظ المخلوق من ايهام الخلق ، اذ الكلام المخلوق هو الذى يديه المتكلم تخرصا من غير أصل »

١٢ - جاء فى سيرة مغلطاي المتوفى سنة ٧٦٢ هـ ، طبعة القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ ص ١٠٥ ما يؤيد سعة علم المأمون حيث قال : « كان المأمون اماما محدثا نحويا لغويا فلسفيا » . وقد نقل هذا الديار بكرى المتوفى بعيد سنة ٩٨٣ هـ فى كتابه الحميس فى أحوال أنفس نفيس ج ٢ ص ٣٣٤ طبعة القاهرة سنة ١٢٨٣ هـ . وجاء أيضا فى سيرة مغلطاي ما يؤكد احاطة المأمون بأسرار رعيته ودقائق أخبارهم ومكنون خواطهم ، اذ قال : « وجعل برسم جُلب أخبار بغداد اليه ألف عجوز وسبعمائة عجوز ، فما كان يَخْفى عليه شيء من أمر الناس ظاهرا وباطنا ، وكان لاينام حتى يقف على جميعها ، وكان أمره نافذا فى افريقية الى أقصى خراسان وما وراء النهر والسند »

وخير ما أختتم به هذه الملاحظات ما ذكره فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ فى كتابه : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ م ص ٦٦ من تنزيه الامام أحمد وأصحابه عن التشبيه ، اذ قال : « اعلم أن جماعة المعتزلة ينسبون التشبيه الى الامام أحمد بن حنبل ، واسحق بن راهويه ، ويحيى بن معين . وهذا خطأ . فانهم منزهون فى اعتقادهم عن التشبيه والتعطيل ، لكنهم كانوا لايتكلمون فى المتشابهات ، بل كانوا يقولون : آمنا وصدقنا ، مع أنهم كانوا يجزمون بأن الله تعالى ، لا شبيه له ، وليس كمثل شيء . ومعلوم أن هذا الاعتقاد بعيد جدا عن التشبيه »



وبعد ، فهذا ما جرى به القلم ، وسنح به خاطر ، وجاد به الزمن . وهو جهد يسير ، لست أزعم أنى أشرفت به على الغاية ، أو بلغت به درجة تمامه واكتماله

انما هي ساعات ، صحبت فيها الامام أحمد ، عكفت فيها على سيرته ،
رغبة في البحث ، وقصدا الى العلم ، ورجاء لفائدة القارىء
والله أسأل أن ينفع به ، كما نفع بهذا الامام من قبل . انه أكرم
مستول ، وخير مجيب

عبد العزيز عبد الحق

فهرس

صفحة

مقدمة المترجم	٥
ملاحظات تمهيدية (للمؤلف)	٣٣

الفصل الاول

نشأة احمد بن حنبل وطلبه للعلم

مولد احمد ونسبه	٤٨
تصدر احمد للحديث	٥٨
مؤلفات احمد بن حنبل وتصانيفه	٥٩
المسند	٥٩
تلامذة احمد	٦٨
علاقة احمد بالشافعي	٦٩
معاصرو احمد	٧٠
يزيد بن هرون	٧١
على بن المديني	٧٢
البخاري	٧٥
محمد بن أسلم	٧٨
الزهاد والمتصوفة : (الحارث المحاسبى . بشر الحافى)	٨٤
داود بن على	٨٧
ابراهيم بن اسماعيل المعتزلى	٨٨

الفصل الثانى

تاريخ المحنة

التطور التاريخى	٩١
نبوءة الشافعى	٩٢
المأمون	٩٤
احمد بن أبى دواد	٩٨
الكتاب الاول للمأمون الى عامله ببغداد	١٠٠
بداية المحنة فى جهات أخرى (مصر . دمشق . الكوفة)	١٠٤
الكتاب الثانى للمأمون	١٠٨
أثر الكتاب الثانى	١٠٩
الكتاب الثالث	١١٠
نص العلماء فى بغداد	١١٣

صفحة	
١١٨	الكتاب الرابع للمأمون
١٢٣	اجابة الفقهاء
١٢٤	اشخاص أحمد الى الخليفة بطرسوس
١٢٧	انكار المأمون دعوى التقية
١٢٧	أمر المأمون بأشخاص الفقهاء اليه
١٢٨	وفاة المأمون ونتائجها
١٢٨	اعادة أحمد الى بغداد
١٢٩	المتنوعون عن الإجابة
١٣١	أحمد بن حنبل في السجن
١٣٣	أشخاص أحمد بن حنبل مرة أخرى الى إسحاق بن إبراهيم
١٣٥	حمل أحمد بن حنبل الى المعتصم
١٣٧	محكمة أحمد بن حنبل أمام المعتصم
١٤٩	ضرب أحمد بن حنبل
١٥٦	ما وقع بعد ضرب الإمام أحمد
١٥٩	الحنة في مصر في عهد المعتصم
١٦٠	المعتصم والحنة
١٦١	الوائق وأحمد بن حنبل
١٦٢	الوائق يتابع الحنة
١٦٣	أحمد بن نصر الحزاعي
١٦٦	نعيم بن حماد
١٦٧	أبو يعقوب البويطى
١٦٨	فداء الأسرى المسلمين من البيزنطيين
١٦٩	رجوع الوائق عن القول بخلق القرآن : السبب المزعوم
١٧٢	التوكل يبطل الحنة
١٧٤	عرض عام للحنة

الفصل الثالث

أحمد بن حنبل والتوكل

١٨٤	التوكل وأحمد بن حنبل
١٨٥	الدعوة الاولى لزيارة التوكل
١٨٦	اتهام أحمد بالدسائس العلوية
١٩٢	امتناع أحمد عن البقاء فى العسكر وكفه عن التحديث
١٩٣	اهتمام التوكل بأحمد
١٩٤	مطالبة أحمد بتغيير موضع اقامته
١٩٧	صيام أحمد ومرضه
١٩٨	حمل أحمد مرة أخرى على ملازمة الخليفة
١٩٩	اعفاء أحمد
٢٠٢	مراسلة أحمد لأبنائه

صفحة

٢٠٣	وصية أحمد
٢٠٤	الاذن له بالعودة الى بغداد
٢٠٥	اعتراضه على الارزاق التي كانت تتناولها أسرته من السلطان
٢٠٨	اتهام أحمد مرة أخرى بالدسائس العلوية
٢١٠	استفسار الخليفة من أحمد عن رأيه في القرآن
٢١١	كتاب أحمد في رده على الاستفسار
٢١٧	دعوة لأحمد من محمد بن عبد الله بن طاهر
٢١٨	مرض أحمد وموته
٢٢٢	جنازة أحمد
٢٢٩	المرجعون لأحمد بن حنبل

الفصل الرابع

صفة أحمد بن حنبل

٢٣٢	أسرته
٢٣٤	الشواهد الدالة على مكانته
٢٣٦	أحمد كفقيه
٢٣٨	ماداته في معيشته
٢٣٩	صفاته وما تميز به
٢٤١	طابعه الديني
٢٤٣	مظهره الشخصي

الفصل الخامس

آراء أحمد بن حنبل

٢٤٦	آراؤه
٢٤٧	المصادر
٢٤٨	القرآن
٢٥١	وحدانية الله
٢٥٢	صفات التجسيم والتشبيه
٢٥٤	تأويل القرآن
٢٥٨	تأويل الأحاديث
٢٥٩	سبب انتهاج هذه الطريقة
٢٦٠	تقديس المخلقات
٢٦١	سبق القضاء بالحوادث
٢٦١	مذهب أحمد في الإيمان
٢٦١	موقفه من رعايا السلطان
٢٦٣	كراهيته للعقائد الكلامية
٢٦٥	تذيل للمترجم
٢٨٧	ملاحظات ختامية